تعلموا السياسة

ظهور وسقوط جمهورية ڤايمار

مأساة التخبط في اتخاذ المواقف

جمال البنا



جمال البنا

ظهور وسقوط جمهورية ڤايمار

مأساة التخبط في اتخاذ المواقف



مطبعة حسان
٢٤١ م شارع الجيش - ت ٨٣٣٥٤٠ القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

تتكون قصة جمهورية فايمار منذ ظهورها فى سنة ١٩١٨ حتى تحللها سنة ١٩٣٣ من ثلاثة فصول أساسية .

الفصل الاول : تحديد المسار وهذا الفصل على قصره — إذ قد بت فيه قبل نهاية العام الثانى للثورة ، وعلى ظلم البعض له وجهالة الآخرين به ، يستحق الأهمية العظمى إذ يتوقف عليه المستقبل ويمكن لانحراف قد لا يكون محسوسا فى البداية أن ينتهى به من أقصى الشمال إلى أقصى اليمين ، وعندما لا يكون واضحا ومحددا فقد يوقع البلاد فى دوامة ، أو متاهه ، أو حلقه مفرغه ، أو طريق مسدود . . .

وبالنسبة لجمهورية فايمار ، فإن هذا الفصل خضع لعدد كبير من المفارقات أوجدت تجاذبا حادا بين اليسار الثورى واليمين الاصلاحى ، وظهرت آثارها من البداية ، أى من اعلان الجمهورية فى نوفمبر سنة ١٩١٨ حتى اجتماع الجمعية الوطنية سنة ١٩١٩ واتخاذها النظام البرلمانى الكلاسيكى ، وليس نظام المندوبين أساسا للحكم .

الفصل الثانى : المسيرة المتعثرة وهذا الفصل يبدأ من النهاية الدرامية للفصل الأول وانسحاب آثاره مما جعل مسيرة الجمهورية الناشئة متعثرة حافلة

بالاخاديد والمعوقات والمضاعفات بحيث لم تكن لتخرج من مأزق إلا لتقع في مأزق آخر ...

الفصل الثالث : النهاية المحتومة التي لم يعد مناص عنها عندما تراكمت الأخطاء وظهر جليا عجز النظام وعقمه وتمزقه .. بحيث انفسح المجال لظهور قوة جديدة باطشه تبرأ تماما من آثار المفارقات التي تحكمت في حياة الجمهورية منذ ميلادها . . وكانت أشبه بلعنة أوصلتها إلى قبرها ولما تبلغ الخامسة عشر ربيعا .

* * *

وقصة فايمار هي في جوهرها مأساة التخبط في تحديد المواقف واتخاذ القرارات السليمة ، وهي تصور كما لو كانت ماساة رومانتيكية التعارض بين العواطف والوقائع ، تعقيد الأوضاع وتبسيط الأفراد ، فقد أخذت المانيا الثائرة بسحر الفكر الماركسي الذي تبدى لها في أبهى ما يمكن أن يتبدى فيه فكر محكم ، فتورطت معه كما تتورط الفتاه الغريرة في عشق بطل اسطوري ولم تكن هذه العلاقة من زاوية التكافؤ أو الدوام أمرا سليما . ولكنها حدثت بالفعل ورزقت مساعدة عوامل طارئة بحيث وصلت إلى غايتها عندما أعلنت الجمهورية وظهرت مجالس العمال والجنود ، وعندئذ فحسب ، تنبهت ألمانيا إلى خطئها التاريخي ، وتبينت أن علاقتها تلك كانت سفاحا مذهبياً ، وليست زواجا شرعياً . . فما أن أحست بثمرة هذه العلاقة تتقلب بين جنبيها ، وأن هذا الوليد المخوف يتكون في رحمها حتى أسرعت باجهاضه ، وتم ذلك بطرق عنيفة حتى سقط مضرجا بالدماء (مقتل روزا لوكسمبرج) ولكن آثار النزيف ، والانهاب وحمى النفاس كلها جملت حياة الأم جحيما . . خاصة وأن النظام البرلماني الذي أخذت به لم يساعد على التئام جراحها بل إنه فاقمها .. واضطرت

لأن تدفع ثمن لحظة الغرام المذهبي كما دفعت من قبل لحظة استعلاء حاكمها المتعجرف وكما دفعت بعد ذلك ثمن غرور ديكتاتورها المتهور . . . وكان ثمن هـذه الحلقات المتوالية هو : الحرب العالمية الأولى ، سقوط جمهورية فايمار ، الحرب العالمية الثانية ، فما أقسى الثمن الذى تدفعه الشعوب والجماهير ثمنا لأخطاء قادتها وحكامها المسيطرين أو دعاتها المتعجلين وجزاء لطاعتها لهم . . « إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا » .

* * *

وفى المسرحية السياسية « طبول فى الليل » قدم الكاتب المسرحى الألمانى « برتولد بريخت » الذى عاصر أحداث فايمار وشاهد ظهورها وسقوطها تصوراً يماثل تصورنا . وإن كان قد رجع عنه وكفر به فيما بعد . وقد كتب بريخت مسرحيته تلك عام ١٩٢٠ ومثلت عام ١٩٢٢ فى ميونيخ وكانت أساساً لشهرة بريخت الشاب ككاتب مسرحى وصور لنا فيها بريخت جنديا يدعى « كراجلر » ينخرط فى الحرب العالمية وتنقطع أخباره عن خطيبته آنا التى ترتبط بعلاقة جديدة مع صديق آخر يدعى بورك تتمخض عن جنين يدفع آنا لتكون خطيبة بورك . ويتم الاتفاق والاحتفال بذلك فى مساء اليوم الذى يعود فيه كراجلر ، فيشهد مراسم الاحتفال بالخطبة ، ويصدمه ذلك صدمه عنيفة . فيخرج هائماً على وجه لينضم إلى الثوار فى ذلك الأسبوع الأحمر الذى شاهد قومه « سبرتاكوس » . وبعد فترة تسأم آنا عشرة بورك وتأخذ فى البحث عن كراجلر حتى تهتدى إليه . وعندئذ يتغير موقف كراجلر تماماً ، إذ يقطع علاقته بالنشاط الثورى قائلا « الآن جاء دور السرير الناصع البياض » ويعيش مع آنا فى سلام حريصاً على حياته « البورجوازية » الرتيبة .

وبعد عشرين عاماً من إصدار بريخت لهذه المسرحية ، عندما أصبح

اشتراكيا موموقاً تنكر لهذه الخاتمة واعتذر عنها بأنه لم يكن قد توصل إلى عمق وأهمية الثورة البلوريتاريه . ودعا القراء والمشاهدين لأن يحولوا عطفهم على كراجلر إلى كراهية لتصرفه « الخسيس » ولكن الحقيقة تظل بعد هذا أن الانطباع الأول الذى دفع بريخت لتكييف المواقف والخاتمة ، كما جاءت فى « طبول فى الليل » هو الانطباع الطبيعى ، والسليم أيضاً . فلم يكن تصرف كراجلر خسيساً كما أدعى بريخت عندما غلب على الفنان فيه الداعيه السياسى . ولولا غلبة التأثير السياسى عليه لرأى أن تصرف كراجلر كان تصرفاً طبيعياً وسليما لأن اتجاهه الأول إلى الثورة لم يكن عن ايمان منه بها ، وإنما جاء رد فعل لانصراف حبيبته عنه — أى أن الاتجاه الثورى لم يكن أصيلا ، وإنما كان بديلا فعندما عاد الأصيل انتفى البديل. وقد قال الزمن نفسه قولته فإن بريخت نفسه فقد فى أيامه الأخيره حماسته للاشتراكية ، أو على الأقل بهتت هذه الحماسة ، وقد نجد فى هذا الكتاب إشارة إلى ذلك ...

* * *

وقد يضيق بعض القراء لأننا لم نلجأ إلى التبسيط المريح ، ولم نصدر حكما بادانه باته أو بتبرئه تامة لكل الذين قدمتهم جمهورية فايمار وأسهموا فى قيامها وسقوطها : الحزب الاشتراكى الديمقراطى . النقابات . النازى الخ . . . وربما كان الشيوعيون هم الاستثناء الوحيد ، ومع هذا فقد عرضنا الجوانب الانسانية والكريمه فى زعيمة الشيوعيين روزا لوكسمبرج . ولعل هؤلاء القراء كانوا يؤثرون أن نقدم لهم الصورة « بالأبيض والأسود » ولكن السياسة التى استهدف الكتاب تقديمها لا تصور بالأبيض والأسود . . وإنما بالألوان ، التى يتكون معظمها من امتزاج الألوان الأصلية بعضها ببعض . إن السياسة فن كما هى علم والجانب الفنى فيها يجعل أى تقديم لها فى شكل رياضى حاد الزوايا ، محدد الأطراف ظلماً لها وتحيفاً عليها . وقد حاولنا أن نقدم الصورة

كاملة بأعماقها وسطوحها . حسناتها وسوءاتها .. قوتها وضعفها لـيكون الانطباع عنها شاملا وأمينا وعادلا .

* * *

لـكى يمكن الخلاص من مثل مأزق فايمار ، الذى تتخبط فيه بعض مناطق الوطن العربى ، أو يتهدد مناطق أخرى كتبنا هذه الدراسة ، وقدمناها تحت شعار « تعلموا السياسة » لايماننا بأن نقص التثقيف السياسى بعد من اكبر وجوه النقص والضعف التى تتعرض لها الشعوب . وفى نظرنا أن نـكسه ١٩٦٧ المدوية لاتعود إلى أسباب عسكريه خارجية بقدر ما كانت نتيجة للجهالة السياسية التى أطبقت على المجتمع المصرى قادة وجمهوراً . ولا ريب أن المجتمع المصرى قد تعلم منها درساً قاسياً ودفع ثمناً فادحاً . ومع هذا فلا يزال ينقصنا تأصيل هذا الدرس وتعميقه بحيث نخرج منه بثقافة سياسيه راسخه ورصينة . والواقع أن نـكسه ١٩٦٧ كانت هى الدافع الأول للتفـكير فى إصدار هذه الدراسة . وكانت الصورة الأولى لها أن تصدر فى كتاب واحد تحت عنوان « **الأمم ساعات محنتها** » وأن يتضمن ثلاثة فصول عن فايمار ، وعن الاتحاد السوفيتى وعن تركيا غداة معاهده سيفر ، ولـكنى ما أن بدأت الـكتابة حتى استفاضت السطور ووجدت أن من الظلم للموضوع أن يصدر فى كتاب واحد وأن الأفضل ان يصدر كل فصل فى دراسة مستقلة تبرز جانباً معينا من الجوانب المأساوية فى تاريخ هذه الدول . وكانت الأولى هى فايمار والجانب المأساوى فيها هو « التخبط فى تحديد المواقف » ونرجو إن شاء الله أن يصدر كتابا الاتحاد السوفيتى وتركيا .

وأنا أهدى هذه الدراسة إلى القيادات الشابة فى التـكتلات الجماهيرية . فقد لمست بنفسى جريرة الجهالة السياسية على كتلتين من أعظم تـكتلات

المجتمع المصرى . فقد أراد الله أن أعايش معايشه وثيقه « الاخوان المسلمين» فى عهدها الأول . وكانت وقتئذ أصدق الهيئات المصرية تمثيلا للشعب . وبوجه خاص قاعدته العريضه — الريفيين . وكانت اكبر التكتلات الجماهيرية المصرية واكثرها شجاعة وايمانا وأطهرها ذمه ويداً ، ورزقت قيادة نابغة ، ولكن هذا كله لم يشفع لها تجاه ضحالة وعيها السياسى الذى جعلها تضيع الفرص التى سنحت لها . والتى لو أحسنت انتهازها لأفادت المجتمع المصرى والعربى ولوقته كثيراً من المزالق التى انزلق اليها ، ثم طويت هذه الصفحة لأعايش عن كثب كتله جماهيرية أخرى هى الحركة العمالية التى لم يتوفر لقياداتها ولا لجمهورها ثقافة سياسية فكانت النتيجة أن أصبحت لعبة الحكام . . وأن جاءت فى ذيل الهيئات . ولم تستطع أن تخدم جمهورها أو تخدم المجتمع المصرى . مع أنها هى الهيئة الوحيدة التى احتفظت بوجودها من أيام ما قبل الثورة . . وأنها هى التى تحرك عجلة المجتمع والإنتاج . ولاتنقصها الجماهير . . أو الإمكانيات .

مع هذا ، ورغم أننا نقدم بحثنا تحت شعار « تعلموا السياسة » فنحن لاتساورنا أية أوهام عن أثر عاجل لهذا الكتاب . فقد خبرنا من الضعف البشرى ، ومن فجور الأقوياء واستخذاء الضعفاء وغلبة السلبية والأمر الواقع ما فيه الكفاية . . ونحن نعلم حق العلم أن هذه الكلمات التى نكتبها فى وحدة ، ونطبعها على حسابنا الخاص قد تكون « صيحه فى واد » ولكن هذا لن يمنع من أنها — كما ارتأى ذلك الكواكبي فى طبائع الاستبداد —

. . . إن ذهبت اليوم مع الريح

فقد تذهب غداً بالاوتاد . . .

وقبل هذا حدثنا القرآن عن الذين يعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم

عذابا شديداً . وأن هذا لم ينههم « قالوا معذرة إلى ربكم ، ولعلهم يتقون » وهو ما يعطينا درسا . ان على الداعية أن يقوم بدعوته وإن بدا له أن الهلاك قد حُق على قومه . إن على الكاتب أن يكتب حتى لو لم يجد قارئين . وعلى الخطيب أن يخطب حتى وإن لم يجد مستمعين ، لأن هذا هو واجبه ، وأداؤه له يبرىء ساحته ، ولأن هذا الأداء لن يذهب هدراً كما يبدو ، إن الكلمة المكتوبة ستهتدى إلى قارئها المفقود . والكلمة المنطوقة ستجذب سامعها الغائب . . فلا يأس . . حتى وإن لم يكن هناك أمل فى حاضر ماثل أو مستقبل وشيك . .

بهذه الروح نقدم « ظهور وسقوط جمهورية فايمار » .

يناير ١٩٧٧

جمال البنا

الباب الأول

ألمانيا حتى الحرب العالمية الأولى

الفصل الاول : التطور السياسى .

الفصل الثانى : الحركات التحررية والشعبية حتى ثورة ١٨٤٨ .

الفصل الثالث : تطور الحركة الاشتراكية الألمانية حتى نهاية القرن التاسع عشر .

الفصل الرابع : صراع الأفكار والوقائع « تطور الاشتراكية الألمانية من بداية القرن العشرين حتى الحرب العالمية الأولى .

الفصل الأول

التطور السياسى

في بعض الحالات يكون الموقع الجغرافى لدولة ما شئوما عليها ولعنه تلاحق حاضرها ومستقبلها وتفرض عليها أعباء إضافية تجاه الدفاع عن كيانها أو تحقيق وحدتها . الأمر الذى تنجو منه دولة أخرى بفضل بحر أو نهر أو جبل أو حتى مجرى مائى ضيق كالمانش يفصل بينها وبين جيرانها الطامعين ويحقق لها الأمن والطمأنينة وتكوين وحدتها تكوينا ثابتا مستقراً .

وقد أراد الله لألمانيا أن تتوسط السهل الأوربى المفتوح الذى كان لا بد أن تعبره موجات الهجرة من الشرق الآسيوى القاحل إلى السهل الأوربى الخصيب ، وأن لا تحيط بها من الحدود الجغرافية المنيعة ما يصدها . وأصبح على شعبها وأهلها أن يكونوا فى رباط دائم لرد الغزاة وأن يتعرضوا لكل ما تلحقه الحروب من دمار وخراب واضطراب .

ومنذ أقدم العصور ، وقد بدت جريرة الموقع الجغرافى على ألمانيا فكانت أرضها معبراً للهجرات ، وكانت الغنيمة الكبرى للأمبراطورية الرومانية التى أزجت إليها الفيالق بعضها أثر بعض ، واصطلى الجرمان — الذين كانوا وقتئذ قبائل حرة ، محاربة ، تحيا حياة البداوة ، ولا تعتصم بالأسوار والجدران — بنار هذه الحرب . وأثبتوا أنهم أهل للرومان . . وهزموهم أكثر من مرة . . واستحقوا إعجابهم حينا ونقمتهم حينا آخر . فقال قيصر عنهم فى رسالته عن حرب الغول « لقد قيل إن لديهم مائة « كانتون » يقدم كل كانتون ألف

محارب مسلح للحرب خارج حدودهم بينما يظل الأخرون تحت السلاح ويشتغلون بالفلاحة ليمكن إرسالهم فى العام القادم إلى الميدان بينما يعود زملاؤهم وبهذه الطريقة لا تنقطع الحرب أو الفلاحة » .

وضرب سنيكا فى رسالته عن الغضب المثل بسيطرة الغضب على الألمان واستطرد « من ذا لديه روح حيوانية animal spirits أكثر من الجرمان . . من ذا يندفع بحماس إلى حملة أكثر منهم . . من ذا يحب السلاح الذى شبوا عليه وأصبح وحده محل عنايتهم دون أى شىء آخر . . من ذا أكثر تحملا لكل نوع من المشاق » وأوضح سينيكا أنه رغم هذه الصفات ، فإن سيطرة الغضب عليهم تفقدهم النصر .

ووصف تاسيتوس فى قرابة عشرين صفحة مظاهرهم وعاداتهم « عيون زرقاء مفترسة ، شعور شقراء . . أجسام فتية عريضة ويحملون أسلحتهم دوما فى الحرب والسلم وعندما لا يحاربون فإنهم يشتغلون بالصيد ويكلون العناية ببيوتهم وغذائهم إلى زوجاتهم . . وشغلهم الحقيقى هو القتال . . يقاتل الزعيم فى سبيل النصر . . ويقاتل الأتباع فى سبيل الزعيم . . ومن الصعب إقناعهم بحرث الأرض وبذر الحب وانتظار الحصاد بينما يستطيعون مباغتة العدو ونهب ثرواته . . ويبدو لهم أن من الغباء أن يعيش الإنسان بعرق جبينه عندما يستطيع أن يعيش بحد سيفه » .

وتحدث تاسيتوس عن صيحاتهم الحربية التى تصدع القلوب وكيف أنهم يدنون تروسهم من أفواههم ليكون صدى هذه الأصوات مدمراً .

وأجمع مؤرخو الرومان على أن الجرمان ليس لهم آلهة كآلهة الشرق القديمة . فقد أمنوا بأرواح تسيطر على الطبيعة وتتقمص الأنهار والبحار والنبات والعواصف ونسجوا من ذلك كله أساطير كانت نواة « الفولكلور » الجرمانى

الذى تغنى به ـ فيما بعد ـ الشعراء والـكتاب وأقام عليه الموسيقيون والمسرحيون روائعهم .

ولم ينتصر التنظيم العسكرى الرومانى على الشجاعة الألمانية إلا بعد كفاح مرير وعندئذ أصبحت ألمانيا ذخر الأمبراطورية الثمين ومعينها الذى يجدد شبابها ويحيى مواتها ويصلح ما أفسدته الشهوات ويزودها بالجيوش الفتية والدماء الأبية وزهرة الحرس البريتورى وانتهى الأمر بأن أصبحت أولى بالأمبراطورية من نفسها فورثت اسمها وحملت تقاليدها .

ومرت القرون . . .

وتصدعت الأمبراطورية الرومانية . . وقامت على أنقاضها مملـكة الفرنجة بزعامة كلوفيس (سنة ٤٨١) . الأمبراطور الأول الذى اعتنق المسيحية وأسس دولة الميرفنجيين — وبعد وفاته انقسمت دولته إلى ثلاثة أقسام هى استراسيا فى الشرق ونويستريا فى الغرب وبورجنديا على جانبي نهر الرور . وفى سنة ٦٢٢ استطاع بيبين الأول أن يوحد نويستريا واستراسيا وأن يورث هذه المملـكة إلى إبنه بيبين الثانى ثم إلى ابن هذا الأخير — شارل مارتل — وهو القائد الذى قدر له أن يحجب الحضارة العربية عن أوربا عندما هزم عبد الرحمن الغافقى فى بواتيه — ولولا هذه المعركة الحاسمة لما كان لأوربا حاجة لأن تقضى قرونها الوسطى فى ظلام .

وبوفاة بيبين ابن شارل مارتل طويت دولة كلوفيس التى يطلق عليها دولة الفرنجة أو الميروفنجيين ، وبدأت دولة الـكارولنجيين بداية باهرة على يد شارلمان الذى توجه البابا فى كنيسة القديس بطرس فى روما سنة ٨١٤ امبراطورا على الدولة الرومانية ، وحكم أوربا — تقريبا — بمزيج من الحزم والعدل ، و إن لم يقدر لهذه الدولة البقاء طويلا إذ انتهت بوفاة كونراد الأول

سنة ٩١٩ لتبدأ أولى الدولات الألمانية الخالصة عندما انتخب بعض النبلاء الألمان هنرى دوق سكسونيا ملكا عليهم • وكان من أبرز شخصيات تلك الأسرة السكسونية (٩١٩ — ١٠٢٤) أوتو الأول الذى استطاع أن يقضى على مقاومة الهنغاريين والسلاف • وبموت هنرى الثانى انقرضت الأسرة السكسونية وبدأت الأسرة الفرانكونية عندما انتخب النبلاء ورجال الدين كونراد الثانى دوق فرانكونيا ملكا على ألمانيا سنة ١٢٠٤ وضمت هذه الأسرة هنرى الرابع الذى قاوم البابا جريجورى السابع حتى أعلن هذا حرمانه وأجبره على أن يستسلم وأن يقف على باب البابا فى كانوسا ثلاثة أيام قبل أن يأذن له بالدخول .

وأوهن هذا الصراع الأسرة الفرانكونية وتفككت بوفاة هنرى الخامس لتبدأ أسرة هوهنشتاوفن التى كان أشهر أفرادها فردريك الأول (باربار وسا) وهو فى رأى فاجنر مؤسس الريخ الأول ، ولا ريب أنه من أبرز الشخصيات المأساوية التى حفل بها التاريخ الألمانى ومثلت على ممر العصور . وبنفس البطولة والإصرار ، ورغم الهزيمة الأخيرة تراجيديا « التحدى الألمانى » التى تجعل الحياة نوعا من البطولة القدرية والمأساوية رغم أنه لم يرزق النهاية المجيدة التى تليق بالفارس • • إذ غرق فى أحد أنهار آسيا الصغرى وهو يقود الحملة الصليبية الثالثة التى أراد بها استرجاع بيت المقدس من صلاح الدين .

وفردريك باربار وسا « واسم فردريك هو الاسم الأثير ، أو حتى المقرر ، لدى الأسرات الألمانية الحاكمة على اختلافها » هو جد فردريك الثانى الذى ترك ألمانيا وآثر عليها بالرمو وكان يعد نسيجاً وحده بين ملوك الألمان لأنه كان يجيد اللغة العربية إجادة تامة بالإضافة إلى اليونانية واللاتينية والعبرية ، وكان حامياً للفنون والآداب ولا سيما العربية وكاتباً ومؤلفا .

وأنتهت دولة الهوهنشتاوفن فى منتصف القرن الثالث عشر وتعرضت ألمانيا لفترة من التفكك هيمن فيها أمراء المدن والولايات وحددوا عدد من يحق لهم انتخاب الملك بسبعة أمراء : ثلاثة من أساقفة الكنيسة وأربعة من الأمراء وأطلق عليهم « الأمراء الناخبون » . وفى عام ١٢٧٣ أنتخب هؤلاء رودلف هابسبورج ملكا . وما أن مات حتى احكموا قبضتهم على ألمانيا وحالوا دون أنتخاب ملوك أقوياء . وفى سنة ١٣٥٦ أجتمعوا « اسقف ماينز ــ اسقف ترير ــ اسقف كولونيا ــ ملك بوهيميا ــ كونت الراين ــ دوق سكسونيا ــ دوق براندبورج » وعقدوا ماسمى بالاتفاق الذهبي وكان يوجب إنتخاب القيصر فى فرانكفورت ، وتتويجه فى آخن (التى دفن فيها شارلمان) وحول هؤلاء الامراء السبعة وجد بضعة مئات من الكونتات والنبلاء الأقل شأنا .

وكان لحركة الإصلاح الدينى التى بدأها لوثر عندما تحدى سلطة البابا سنة ١٥١٧ ــ والتى تعد عادة نهاية للقرون الوسطى وبداية العصر الحديث ــ آثار بعيدة المدى فقد أدت إلى تعزيز سلطة الامراء واحتدام النزاع المذهبي مابين البروتستنتين والكاثوليكيين . وأدى هذا كله إلى حرب الثلاثين عاماً التى اندلعت شرارتها فى بوهيميا سنة ١٦١٨ وظلت حتى سنة ١٦٤٨ عندما عقدت معاهدة وستفاليا .

وأنزلت هذه الحروب بألمانيا من الدمار والخراب ماهبط بسكانها إلى النصف . وما جعلها خلال الفترة التى اعقبت معاهدة وستفاليا حتى الثورة الفرنسية أكثر تفككا وضعفا مما كانت عليه قبلها .

وفى هذه الفترة من فترات الضعف والتفكك أخذ نجم بروسيا فى الظهور وبدأت فى القيام بدورها التاريخى لتوحيد ألمانيا وبلورة فلسفتها القومية .

وكانت بروسيا عام ١٦٤٠ عندما تولى حكمها الأمير فردريك وليم ــ أول

حكام الهوهنزلون — تضم امارة براندبرج فى الوسط وبروسيا فى الشرق وعدداً من الدوقيات الصغيرة على ضفاف الرين .

وكون فردريك جيشا مدربا قويا وعمل على توحيد بروسيا بحيث استطاع أبنه فردريك الثالث أن يجعل منها مملكة وأن يلى عرشها باسم فردريك الأول . ومع هذا فإن أبنه فردريك وليم الذى اعتلى العرش سنة ١٧١٣ هو الذى يعد المؤسس الحقيقى لبروسيا ، فقد صعد بالجيش من ثلاثين ألف أو أقل إلى ثمانين ألفا — أو أكثر — وخصص له ثلثى موارد مملكته — ووضع نظم الخدمة المدنية على أسس عسكرية صارمة تقوم على الطاعة والنظام والعمل والدأب وتقديس الواجب وأن خدمة الدولة هى الرسالة العظمى للفرد فى الحياة .

وواصل أبنه فردريك (الكبير) سياسة والده فى تعزيز الجيش وقاده فى سلسلة من المعارك الظافره حصل بها على سيليزيا وبروسيا الغربية التى كانت جزءاً من بولندا .

على أنه من الخطأ أن يظن أن الذين كونوا بروسيا ، وأرسوا أسس نظمها ومجتمعها كانوا من الملوك أو القواد ، فلو حدث ذلك لما رزقت تلك الصلابة التى اتسمت بها والتى مكنتها من مقارعة الخطوب . لقد أسهم فى تكوين بروسيا ، وربما بنسبة أكبر مما أسهم به الملوك والقواد ، مجموعة كبيرة من المفكرين والفلاسفة والفنانين آمنوا برسالة بروسيا وسكبوا روحهم وعبقريتهم فى هذا السبيل ووضعوا الأساس الفكرى والتنظير الفلسفى للنظم العملية التى أرساها الملوك والقواد . ولعل أبرز هؤلاء هو الفيلسوف العظيم ايما نويل كانت (١٧٢٤ — ١٨٠٤) الذى استطاع بموهبة فذه أن يبلور أفكاره عن المثالية والواجب والقانون فى اطار محكم جذاب . وقد استغلت هذه الأفكار — التى كانت تتلاقى مع بعض القيم التى قامت عليها النظم البروسية لتعزيز مكانة

وسلطة الدولة حتى وإن لم يكن « كانت » نفسه فى حديثه المجرد والموضوعى يرمى إلى تدعيم الدولة البروسية بالذات . ويجب أن يذكر أيضاً فيشته الذى بدأ حياته ليبراليا وتأثر حينا بكتاب كانت عن « السلام الدائم » بحيث كان من الممكن أن يكون أحد أنصار التعاون الدولى ولكن الفترة الحاسمة التى عاش فيها والتى جرعت بروسيا كأس المهانة وأذاقتها عار الهزيمة جعلته فى النهاية وطنيا متعصبا ، وبينما كانت سنابك فرسان نابليون تطأ التراب الألمانى اثر هزيمة جينا المدوية ، كان فيشته يوجه خطاباته الملتهبة إلى الأمة الألمانية التى استنهض فيها العزائم وأحيا الهمم واستطاع بموهبته الفلسفية أن يقيم بناءاً فلسفيا ووطنيا يدور حول روح الشعب وثقافته التى تحملها اللغة والآداب ، ويفسر تاريخ البشرية تفسيراً يجعل للشعب الجرمانى القدح المعلى فى إظهار الحضارة الأوربية ، ويطوع الاقتصاد لخدمة الدولة . وبعد موت فيشته بأربع سنوات شغل كرسيه فى جامعة برلين جورج فردريك هيجيل (١٧٧٠ — ١٨٣١) الذى جمع ما بين الموهبة التجريدية والتنظيرية التى كانت لكانت ، وما بين الاتجاه الوطنى والجرمانى الذى كان لفشته . وبهذا أوجد لنا أكمل صورة فلسفية للدولة المقدسة التى تجسم الارادة الآلهية والمثل الأعلى وروح الشعب ومن ثم يكون التفانى فيها نوعاً من العبادة وتحقيق الفرد لذاته وادائه لواجبه .

ولا يشق على الباحث أن يلحظ أن فلسفة هؤلاء جميعاً جعلت التاريخ والمثل والواجب والدين والاقتصاد تدور حول الدولة ، وتتبلور فى الدولة وأنهم جميعاً كانوا يرون أن الحضارة الإنسانية بدأت مع اليونان وانتقلت إلى الرومان ثم إلى الجرمان وأن ألمانيا أكثر من أى دولة أخرى مؤهلة لحمل لواء الحضارة الأوربية وأن هذه الفلسفات — من كانت إلى هيجل — كانت تسير خطوة خطوة من التعميم إلى التخصيص .

وصاحب هؤلاء الفلاسفة الذين ثقفوا العقل الألمانى ومرنوه مجموعة أخرى من الكتاب والمؤرخين والفنانين والادباء الهبوا حماسه مثل جوتفريد هردر (١٧٤٤ —١٨٠٣) الذى تغنى بألمانيا : غاباتها وسماواتها وأساطيرهاالرومانيكية القديمة ومثل فاجنر الذى بعث الأبطال الاسطوريين فى مسرحياته والحانه واحيا « سيجفريد » ومثله حيا فى بارباروسا . . وتنبأ بأنه سيبعث مرة أخرى ليعيد تكوين « الريخ » ومثل فردريك لودفيج جان الذى أثار شباب ألمانيا وأدخل الروح العسكرية الجامعات الألمانية بحيث أشبهت الثكنات ، وأصبحت المبارزات هى الرياضة ، والجروح والندوب هى الأوسمة ومثل المؤرخ هنريش فون تريتشكه (١٨٣٤ — ١٨٩٦) الذى أكد أن الشعب الألمانى يتميز بعمق الفكر والاحساس بالولاء والاخلاص والدقة فى العمل . ومجد الحرب بأعتبارها « العلاج الوحيد لكل شعب مريض » وأنها أكبر مناسبة يتجلى فيها الولاء وتفانى الفرد فى الجماعة. ومثل نيتشه الذى شن غارة شعواء على الأخلاق والمعونات المسيحية ومجد القسوة ورأى النبل فى أن يكون الإنسان وحشا آريا مفترسا وأن الأهداف المقدسة ليست هى التى تبرر الحرب ولكنها الحرب التى تضفى القداسة على الأهداف .

وكان لهؤلاء الفلاسفة والكتاب أثر عميق فى تكوين المجتمع البروسى وبلورة نظرية الدولة وإقامتها على أسس فلسفية ونظرية . وقد ظهر بجانبهم عدد آخر من عباقره الفكر الألمانى اتسموا بطابع إنسانى مثل جوته وهينه ولكن التيار الجارف أعلى صوت الأولين وأعطاهم الغلبة وجعلتهم يمثلون فلسفة الدولة والسياسة ، بينما لا يمثل جوته وهينه سوى الجانب الرومانتيكى .

وعندما ظهر نابليون وأوقع هزيمة جينا المنكرة بالجيش البروسى تراجعت بروسيا تحت وطأة الهزيمة . . واضطرت الملكة « لويزا » التى تمثلت بها أكثر مما تمثلت فى زوجها العزيمة على المقاومة أن تنحنى أمام الطاغية . ولكن فى

الوقت الذى كانت الجنود الفرنسية تطأ بأحذيتها الثقيله طرقات برلين . وكان نابليون يقف أمام قبر « فردريك الكبير » ويمسك سيفه كان فيشته يوجه خطاباته الملتهبة وكان شيلي يرمز للمقاومة ويتنبأ بالانتصار فى روايته «وليم تل» وتكونت هنا وهناك جمعيات سرية وهيئات تنفخ روح الوطنية فى الشعب وتضم الجنود وطلبة الجامعة وغيرهم بينما ظهر لفيف من رجال الإدارة عملوا لاستنقاذ بروسيا من وهدة المهانة والتأخر ونجحوا فى ذلك بفضل إيمانهم ودواهيهم .

وكان أبرز هؤلاء الرجال المصلح والإدارى القدير البارون فوق شتين (١٧٥٧ — ١٨٣١) الذى عهد إليه الملك فردريك وليم بإدارة شئون البلاد فى أعقاب معاهدة تلسيت ولم يبق شتين فى منصبه سوى قرابة عام واضطر مولاه إلى نفيه خضوعا لارادة نابليون ولكنه خلال المدة الوجيزة حقق من الاصلاحات ما وضع أساس نهضة بروسيا الإدارية وجعلها تتحرر شيئا ما من روح القرون الوسطى التى كانت تقيد جهازها الحكومى فأصدر فى سنة ١٨٠٧ مرسوم التحرير الذى حرم أسوأ صور الاستعباد والقنانه والنظام الطبقى وحرر المدن من التبعيه للوردات وأوكل إدارتها إلى مجالس منتخبه وأصّل الإدارة الحكومية وأدخل نظام الوزارة المسئولة ولو لم يبعد من منصبه بهذه السرعة لكلل هذا كله بوضع دستور برلمانى .

وادخرت مهمة احياء الدفاع القومى وتعزيز الجيش لشارنهورست وزميله جنسنو وكان يجب طبقا لمعاهدة ايرفورت التى املاها نابليون أن يقتصر الجيش البروسى على ٤٢ ألفاً ففتح هذا التقييد لشارنهورست وسيلة للتعميم لا للزيادة فحسب فجعل مدة الخدمة العسكرية قصيرة وأصبح على كل بروسى أن يقضيها ويعد جنديا فى الجيش الاحتياطى وبهذه الطريقة أصبح معظم البروسيين جنودا بينما يكون الأربعون ألفاً فى حكم الضباط .

بفضل هؤلاء الرجال وغيرهم من الاداريين الذين توفرت لهم القدرة والكفاية والايمان استعادت بروسيا ثقتها فى نفسها واستطاعت أن تحارب نابليون مرة أخرى وأن تحرر أرضها من إسار التبعية المذلة وإن لم يستطع مندوبها فى مؤتمر فينا (١٨١٤) هاردنبرج أن يستعيد الالزاس من فرنسا المهزومة .

وبرزت قضية الوحدة الألمانية مع الأنتصار على نابليون ولكن كان هناك اختلاف جسيم فى وزن هذه القضية ، كما كان هناك مصالح مكتسبة عميقة الجذور تعارض الوحدة .

كان هناك من يريدون الوحدة العظمى أى ألمانيا التى تضم كل الذين يتحدثون الألمانية بما فى ذلك بروسيا والنمسا ، وكان هناك من يرى إقامة دولتين ألمانيتين بزعامة بروسيا والنمسا على التعاقب ، تستقطب كل واحدة اقرب الولايات إليها (وقد كان شتين من هذا الرأى) وكان هناك من يريد وحدة محدودة تقوم على بروسيا وولاياتها ، وكان بعض هؤلاء يريدون الوحدة الكبرى ولكنهم لا يريدونها بحيث تذوب بروسيا فى ألمانيا ، ولكن أن تستقطب بروسيا ألمانيا ، لأن بروسيا فى نظر هؤلاء هى روح ألمانيا وملاذها ، وممثلة قيمها . ويجب دائماً الحفاظ على هذه الطبيعة فيها . وكان هذا هو رأى بسمارك وبمقتضاه رسم خطة لتكوين أمبراطورية ألمانيا مع الاحتفاظ بالطابع البروسى . أو بمعنى « برَوْسه ألمانيا » كما يقومون Prusianisation of Germany .

وتجاه هؤلاء الذين كانوا يريدون الوحدة ويجتهدون لها . . كانت المصالح المكتسبة تعمل لتعويق الوحدة . كان الدوقات والأمراء والنبلاء والكونتات يريدون إعادة الساعة إلى ما كانت عليه قبل الثورة الفرنسية . كان كل واحد منهم لا يعنيه إلا علمه وقصره ودرعه وحرسه . وياوره وشاعره . وأرضه التى يكدح له فيها فلاحون تتحكم فيهم تقاليد الخضوع والتبعية للسيد الأعلى . .

وكان كل واحد منهم يريد عالما يكون هو محوره حتى وإن لم يكن إلا ولاية صغيرة. وكان هناك النمسا التى كان وزيرها « مترنيخ » هو ممثل سياسة الحفاظ وحامى حماها فى أوربا بأسرها . وعندما حدثت بعض القلاقل سنة ١٨١٩ أمر مترنيخ مندوبى الولايات الألمانية بالاجتماع فى كارليسباد حيث أعلن « أننى لآمل بمعونة الله أن أوفق فى قمع الثورة الألمانية . كما وفقت فى هزيمة فاتح العالم » .

ومن حسن حظ الوحدة الألمانية أن هؤلاء جميعاً كانوا فى واد .. والتطور فى واد آخر . ففى الوقت الذى لم يعن فيه النبلاء والأمراء إلا بأوضاعهم الخاصة كانت الصناعة والتجارة تشق طريقها وتفرض نوعا من الوحدة الاقتصادية وتحطم الحواجز والجمارك التى أقامها النبلاء . وبهذه الطريقة حققت حركة الزولفرين نوعا من الوحدة الاقتصادية ومهدت للوحدة السياسة ولم يكن صوت الصناعة والتجارة بأقل من صوت الاحرار والكتاب . . .

ثم جاءت ثورة ١٨٤٨ فكانت كعاصفة ـ وإن لم تكن أعصارا ـ هزت عميقا كل الأوضاع السياسية . وقد بدأت الثورة فى فرنسا ولكنها انتقلت بسرعة إلى ألمانيا التى كانت فى حالة استهداف ، فأودت بمترنيخ العتيد فكأنما ازاحت بذلك رمز عهد بأسره ، وفر امبراطور النمسا ، وفى كل المدن الألمانية هبت الجماهير وسلحت نفسها وإقامت المتاريس واصطدمت مع الجنود ونجحت فى بعض الحالات إلى درجة أعلان الجمهورية وأعلن الملوك والأمراء الحريات فى بلادهم ، واحتلت الجماهير فى برلين القصر الملكى ، وفر ولى العهد ناجيا بجلده ووضعت الجماهير يدها على قصره ، واضطر الملك ثلاث مرات لأن يخضع لارادة الجماهير ، وأن يسير مع وزرائه فى جناز تشييع ضحايا الصدام عارى الرأس ، وأن يحمل شارة الثائرين ذات الألوان الحمراء والسوداء والذهبية وأن يعد الجماهير بأن يضع نفسه على رأس امبراطورية ألمانية تندمج فيها بروسيا .

وبدا كما لو أن « ثورة مارس » كما اطلق عليها قد حققت هدفها .

ولكن الحقيقة لم تكن كذلك . .

فمع أن ممثلي الولايات الألمانية اجتمعوا في فرانكفورت في صيف ١٨٤٨ بفكرة وضع دستور لألمانيا الموحدة ، إلا أن سير الأحداث والانحسار الذي اعقب المد الثوري والفتور الذي تملك الجماهير بمجرد اعلان عقد جمعية فرانكفورت وعدم وجود قيادة سياسية شعبية موحدة قادرة على فرض ارادتها . هذا كله أفسح للجمعية سبيل التراجع بحيث كانت ثمرة الاجتماع الذي استمر لقرابة عام دستور مهلهل ، تكونت بمقتضاه دولة اتحادية تحت الرآسة الوراثية لامبراطور هو ملك بروسيا ، وأن يكون هناك مجلسان نيابيان يكونان البرلمان أحدهما يمثل الولايات والثاني يمثل الشعوب . ويكون الوزراء مسئولين أمامه ، وفي ٢٨ مارس سنة ١٨٤٩ قدم التاج الامبراطوري إلى الملك فردريك وليم الرابع — ولكن هذا وقد سنحت له الفرصة لينتقم من المهانة التي أوقعها به الثائرون في العام الماضي رفضه بإباء وشمم قائلا « إن هذا الشيء لا يحمل سمة الصليب المقدس ، إنه ليس تاجا وإنما هو قلادة استعباد يصبح بها سليل أكثر من أربعة وعشرين أميراً وملكا رقيق الثورة وعبدها » وتحدث أحد ثقاته عن التاج الامبراطوري باعتباره « قبعة أحمق ، قذرة حمراء الاطار ، يقدمها ثوريون » وهكذا هزم رفض مارس ١٨٤٩ ثورة مارس ١٨٤٨ واستعادت القوى الرجعية سلطانها وإنصرفت بروسيا لتعزيز قواتها العسكرية وتدعيم سلطانها وتحقيق الوحدة بطريقة تختلف كل الاختلاف عما تصوره مؤتمر فرانكفورت . وكانت هذه هي المهمة المدخرة لبسمارك والتي أديت خلال العقد الحاسم من سنة ١٨٦١ حتى ١٨٧١ .

ففي سنة ١٨٦١ توفي الملك فردريك وليم الرابع وخلفه أخوه الذي ولي

العرش بأسم وليم الأول . وفى السنة التالية دعا الكونت أوتوفون بسمارك ووكل إليه إدارة شئون البلاد . . .

وكان بسمارك رجل دولة من الطراز الأول . كشف عن فكره فى جملة جاءت عرضا فى حديث له « إن القضايا العظيمة الراهنة لا يمكن أن تحل بالخطابات والأصوات البرلمانية ولكن بالدم والحديد » وأخذت عليه الكلمة وحاول هو تأويلها . ولكن الحقيقة أنها كانت سقطة لسان فرويدية الدلالة . ولم يكن له بعد أن يندم عليها . فقد جمع القرآن الكريم فى آية واحدة ما بين الحديد والأنبياء . وكان دم الشهداء أنبل ما يمكن أن يطرز به لواء أو تكلل به دعوة ، ولكن ما يمكن أن يؤخذ على بسمارك أنه لم يقم « الدم والحديد » على جماهير . . أو نظرية . كما هو الحال فى الإسلام أو الاشتراكية (فلا نكران فى أن لينين كان رجل دم وحديد أكثر من بسمارك) كانت الجماهير فى حالة بسمارك هى الجيش . . وكانت النظرية هى شخص بسمارك وما يراه ، وهذا هو الخطأ فى أسلوب بسمارك .

ووجد بسمارك فى فون رون وزير الحربية وفون مولتكه رئيس الأركان مساعدين قديرين ومع أنه لم يجد دائماً من يفهمه أو يساعده . وأنه تعرض لمكائد عديدة من البلاط والأمراء فإنه شق طريقه . ومهد له بسلسلة من المناورات السياسية الذكية التى فرق بها اعداءه ، وحقق هدفه مع كل واحد منهم على حدة ، وفى وقته . وبفضل إصراره وإرادته وتصميمه أستطاع أن ينتصر أخيراً . ففى حرب الأسابيع السبعة (١٨٦١) هزم النمسا فى سادوا وضم عددا كبيرا من الولايات إلى بروسيا وضمن ولاء ومحالفة الباقى بحيث امتدت بروسيا من الرين إلى البلطيق ثم أحكم خططه بحيث تعلن فرنسا بنفسها عليه الحرب التى يريدها ، وقد حدث ذلك وخلال ثلاثة أسابيع من إعلان فرنسا

الحرب فى ١٩ يوليو سنة ١٨٧٠ دفع فون رون بخمسمائة ألف جندى إلى فرنسا فتوالت هزائمها حتى وقعت كارثة سيدان (١ سبتمبر ١٨٧٠) التى اضطر فيها الإمبراطور نابليون الثالث إلى التسليم وتهاوت الإمبراطورية الثانية وبدأت الجمهورية الثالثة ورأستها حكومة للدفاع القومى ضمت الجنرال ترشو حاكم باريس وجول فيفر وغامبتا . وفرض الألمان الحصار على باريس وانتقلت الحكومة إلى تور ، ولكن تسليم بازان لقلعة ميتز فى ٢٨ أكتوبر كان ضربة لم يثبت لها سوى غامبتا الذى حاول بجهود مستيئسة انقاذ الموقف ، ولكنه بعد نجاح جزئى فشل واضطرت باريس إلى التسليم فى ٢٨ يناير ٧١ وأعلنت هدنة ليمكن انتخاب جمعية عمومية وانعقدت هذه فى بوردو وانتخبت تيير رئيسا للدولة . وفى ١٠ مايو وقعت معاهدة الصلح التى كانت تقضى على فرنسا بتسليم الالزاس كاملة (باستثناء بلفورت) والمنطقة الشرقية للورين وقلعتى متز وستراسبورج . وأن تدفع غرامة باهظة وأن تظل الجيوش الألمانية مرابطة لحين اتمام الدفع .

وكما هو معروف فإن هذه الحرب هى التى أدت إلى تفجر ثورة الكوميون المشهورة . فقد ثار الباريسيون واستولوا على معظم نواحى العاصمة . وهربت الحكومة إلى فرساى . وبينما كان علم الجيش الألمانى يخفق فوق ضاحية « سان دنيس » كان العلم المثلث يرتفع فوق ضاحية فرساى بينما يرتفع علم الثوار الأحمر فوق باريس نفسها . وفرضت قوات الحكومة على باريس حصارا كان أشد من حصار الألمان لها . وارتكبت فظائع من الجانبين . وبعد ستة أسابيع اقتحمت قوات الحكومة طريقها نحو المدينة التى أصبحت أطلالا وأعدم عشرات الألوف بلا رحمة بينما سجن أونفى الوف أخرى . وطويت صفحة هذه التجربة الأولى لحكومة شيوعية .

وعلى أطلال الكوميون ، وعلى أطلال الامبراطورية الفرانسية الثانية قامت الامبراطورية الألمانية ، وفى قاعة المرايا بقصر فرساى اجتمع نبـــلاء وأمراء المقاطعات الألمانية ليقدموا التاج الامبراطورى إلى ملك بروسيا الذى تقبله منهم ، بعد أن رفضه سلفه من ممثلى شعوب هذه الولايات . وكان بسمارك قد أجرى ترتيبات الوحدة من قبل وتغلب على كل الصعوبات التى قامت فى وجهه ، وأدمجت كل الولايات فى إمبراطورية فدرالية يرأسها امبراطور وراثى هو ملك بروسيا . ويدير الامبراطور بمساعدة المستشار السلطة التنفيذية بينما وكانت السلطة التشريعية إلى مجلسين هما البندستراات الذى يمثل النبـــلاء والريشستاج الذى يمثل الجماهير وينتخب مرة كل خمس سنوات .

وهكذا تحقق حلم الوحدة الألمانية وقامت الامبراطورية الألمانية .

ولكن . .

هل كان المستشار الحديدى يعرف أنه وهـــو ينسج المؤامرات ويزجى الجيوش ويحقق الانتصارات ويستولى على الألزاس واللورين ويفرض جزية ثقيلة على فرنسا أنه إنما كان يقدم سابقة ستنهجها فرنسا . . وتطبقها على ألمانيا نفسها . وأنه إنما كان يعطى الحجة لفرنسا لاملاء معاهدة فرساى بعد ذلك بخمسين عاما .

بالطبع لا . .

إن وهج المعركة . وبريق الانتصار والتركيز التام فى تحقيق الغاية دون نظر إلى عواقبها البعيده كان يعمى عينه . كان الواقعى هنا هو واقعى الحاضر وليس المستقبل فى حين أن حساسية الفنان واستشفافه لأبعاد المستقبل جعلت جورج صاند تتنبأ فى أشد ساعات فرنسا ظلمة وحلكة بكل ما سيحدث . .

« ألمانيا المسكينة . . إن قدح النقمة الأزلية قد حُق عليك كما حُق علينا

لقد أثملك الانتصار ، ولكن روح الحكمة تبكيك وتعد مرثاتك . إن الشيء المهلهل الذي يسمى فرنسا لا يزال يستمسك في يديه بقطعة من ثوب المستقبل المرصع بينما تلفين نفسك في علم ملطخ سيصبح كفنك »[1].

وكانت سياسة بسمارك التي تلت الانتصار تستهدف تأمين هذا الانتصار وحياطته بسلسلة من المعاهدات الدولية أمن بها جانب روسيا والنمسا واسترضى فرنسا وحاول أن ينسيها خسارة الالزاس واللورين بتوسيع مستعمراتها وأوضح لها أهمية تونس . والتقطت فرنسا الطعم واستولت على تونس سنة ١٨٨١ ولكن هذا جعلها تدخل في صراع مع إيطاليا التي كانت تمنى نفسها باحتلال تونس وانتهز بسمارك الفرصة فعقد اتفاقية مع إيطاليا .

وفي الوقت نفسه فقد استطاع بسمارك بسلسلة من المناورات وادعاءات حماية التجار والمستكشفين الألمان أن يفرض الحماية على أقليم جنوب غرب إفريقيا وتوجو والكاميرون وغنيا الجديدة وجزائر السلومون وجزائر مارشال . وتصور في وقت ما إمكان جعل ألمانيا قادرة على الاكتفاء الذاتي الاقتصادي بفضل مواردها وموارد مستعمراتها .

وكانت الرأسمالية الألمانية تسير بخطا سريعة وتضع الأسس للتوسع الكبير الذي سيؤدي ثماره في الفترة ما بين الحرب السبعينية والحرب العالمية الأولى، وكان أبرز مميزاته الجمع ما بين البحث العلمي والتطبيق العملي والاتجاه نحو التكتل والتركيز .

وحاول بسمارك أن يكسب ولاء الطبقة العاملة التي كانت قد أهملت حتى سنة ١٨٨٠ ، خاصة وأنه كان يضيق بالحزب الاشتراكي الديمقراطي ضيقا شديدا . ودخل في صراع مرير معه وتصور أنه يستطيع بذلك أن يحول العمال عن الحزب إن لم يكسب ولاءهم فأصدر عام ١٨٨٣ قانون التأمين الصحي وكان

(1) George Sand and Gustave Flubert Letters p. 200.

يحمل العمال ثلث تكاليف العلاج ويحمل أصحاب الأعمال بالثلثين الباقيين ، وأعقبه بقانون التأمين من الحوادث وعند الشيخوخه اللذين يجعلان للعمال الحق فى معاش ثابت عند إصابتهم أثناء العمل باصابات تعجزهم عن العمل أو عند الشيخوخه وكانت هذه القوانين تعد الأولى من نوعها فى العالم .

وكانت سنة **١٨٧١** هى القمة التى انتهى إليها القرن التاسع عشر ورسمت خريطة أوربا ولم يحدث بعدها حتى نهاية القرن أو حتى قيام الحرب العالمية الأولى تغيرات أو تطورات حاسمة .

وكانت هى أيضا قمة المسيرة الألمانية نحو الوحدة حتى وإن لم تحقق ضم النمسا . . .

ولكنها ككل قمة وبصفة خاصة لما شابها بالذات من ملابسات التقطت بسرعة داء القمم .

فقد اعتقد بسمارك أنه بعد أن حقق الإمبراطورية لن يقهر ، وأنه سيظل أبداً ربان الدولة وقبطانها الحكيم وأنه مهما وقع من شكاس بينه وبين الإمبراطور المسن أو غيره من الامراء . . فإنه فى النهاية المنتصر . .

ولكن نهايته جاءت على يد شاب مغرور متهور فقد مات ولهلم الأول فى ٩ مارس سنة ١٨٨٨ وولى الحكم بعده أبنه فردريك لمدة ٩٩ يوما توفى بعدها ليحكم أبنه ولهلم الثانى « غليوم » الثانى ، كما أطلقت عليه بعض الكتابات العربية .

كان ويلهلم الثانى حاكما مطلقا كبسمارك ، ولكن لم يكن لديه شجاعة الحسم ، ولكن ضعف المناورة ، فكان يحاول أن يدرأ الثورة وأن يستل المقاومة من الجماهير ، لا بخطط أو اصلاحات أو على أساس أفكار ، ولكن بالادعاءات أو التقريب الشخصى . وقد كان بسمارك فى أيامه الأولى قد حاول

أن يدرأ ثورة الجماهير بادخال عدد من الاصلاحات كنظم التأمين التى أشرنا إليها ، ورضخ لمنح الشعب حق التصويت فى مستهل حكمه ، ولكنه فى سنواته الأخيرة أصبح يميل لاستخدام القمع والكبت وكان فى هذا ، وفى غيره يختلف عن الإمبراطور . فقام خلاف بينه وبين الإمبراطور حول ما يتبع نحو الاشتراكية الصاعدة فبسمارك يريد الضرب بقوة ويقترح حل الرشستاج والامبراطور يؤثر المصانعة والتخدير ، كما كان بسمارك يريد تجديد الاتفاقيه المعقوده مع روسيا والقيصر يتردد ويحتدم النزاع . ويعمل القيصر وراء ظهر بسمارك وإثر مقابلة عاصفة أثار فيها بسمارك أحاسيس القيصر وأشعره الأهانه . . لم يعد هناك وفاق . وكان على بسمارك أن ينسحب .

وفى عزلته الخلوية وأيامه الأخيره رأى بسمارك ما كان وهج السلطة يخفيه عنه وتبين الأعماق التى كان العمل اليومى يحول دون أن يراها فتنبأ بالحرب القادمة وتنبأ بالجمهورية فى روسيا ، وبانتصار العمال حيث يحتدم نزاع بين العمال وأصحاب الأعمال .

« . . . إذا أحسنت سياسة البلاد أمكن الحكومة اجتناب الحرب القادمة. وإذا ما أسيئت سياستها دامت تلك الحرب سبع سنين على ما يحتمل. والمدفعية هى التى تقرر مصير الحرب القادمة وقد تعلن روسيا النظام الجمهورى فى وقت أقرب مما يظن . والعمل أكثر نيلا للانتصارات فى الكفاح بينه وبين رأس المال . ولا يلبث أن يحدث هذا فى كل مكان يكون للعمال فيه حق التصويت . وسيكون النصر النهائى الحاسم للعمال[1] » .

* * *

وفى السنوات التى أعقبت تخلى بسمارك انتهجت ألمانيا سياسة التوسع

---

(١) بسمارك لاميل لود فيج ص ٧٧٧ الترجمة العربية عادل زعيتر وص ٦٨٢ من الترجمة الانجليزية ترجمة Eden and Cedar Paul

التجارى والاستعمارى وكان هناك فرق بين توسعه، وتوسع الذين خلفوه . فقد توسع بسمارك إلى الدرجة التى أحس فيها بحاسته الذكية أن عليه أن يقف عندها . فوقف . وكان كل همه أن يعزز الوضع الذى انتهى إليه وأن يصونه ويحافظ عليه بسلسلة من المعاهدات والسياسات اللبقه التى تعزز موقف ألمانيا وتعزل أعداءها . ولم يكن بسمارك ليستسلم للسعار الرأسمالى والفهم التجارى الذى لا يشبع لأن جذوره كانت جذور النبيل الأقطاعى . ولم يكن لدى خلفاء بسمارك الشخصية القوية والبصيره النافذه التى كانت له فانساقوا وراء أطماع الرأسمالية الصاعدة والقيصر المغرور ، وليس أدل على هذا من أنهم عنوا — أول ما عنوا — بتقوية الأسطول الحربى والتجارى فأثاروا مخاوف بريطانيا ، وأعتقدوا أنهم وصلوا من القوة درجة لم يحتاجو معها إلى السور السياسى الذى أقامه بسمارك بحكمته ليحمى ألمانيا ، فلم يجددوا الاتفاق مع روسيا فثارت مخاوفها وأخذت تتقرب من فرنسا ، ورحبت فرنسا بهذا التقرب الذى يكشف ظهر عدوتها الصاعدة ويخرجها من عزلتها التى فرضها عليها بسمارك ، كما حدث تقارب آخر بين فرنسا وانجلترا نتيجة لا ستيحاش هذه من السياسة البحرية لألمانيا . . كل هذا والقيصر سادر فى غيه يستعرض عضلاته ويوقف الدبلوماسية الأوربية على شفا الهاوية .

وفى يوليو سنة ١٩١٤ وقعت حادثه لا قيمة لها فى حد ذاتها وكان يمكن تفادى عواقبها فى الظروف والملابسات العادية . ولكنها فى الجو المتوتر والتحفز والطمع والعداوة وتجاه سلسلة المعاهدات التى كانت تربط الدول بعضها ببعض .. كانت كافية لأن تلقى بالعالم فى أتون الحرب العالمية الأولى .

الفصل الثانى

الحركات التحررية والشعبية

حتى ثورة ١٨٤٨

كان يسير بجانب التيار الوطنى العسكرى الذى حقق الوحدة الألمانية وجعل من ألمانيا دولة عظمى والذى بدأه فردريك وليم سنة ١٧١٣ وتكلل بالنجاح على يدى بسمارك سنة ١٨٧٠ تيار آخر اجتماعى واقتصادى حملت لواءه الانتلجنسيا البورجوازية والطبقة العاملة التى كانت تكبر وتتضخم مع دخول الصناعة الحديثة وازدهار التجارة .

وكان التياران يتلاقيان فى بعض الحالات ويتعارضان فى حالات أخرى . فالانتلجنسيا والطبقة العاملة أرادا كالعسكريين والوطنين الوحدة القومية . وكان العامل الاقتصادى بالذات فعالا فى تحقيق هذه الوحدة على ما أشرنا ، ولكن تأخر الوحدة القومية ، وتخلف ألمانيا عن السباق الاستعمارى الذى برزت فيه الدول الأوروبية حتى الصغيرة منها كهولندا وبلجيكا ، دع عنك بطلا السباق انجلترا وفرنسا ،جعلا المثل الأعلى الوطنى والعسكرى يواصل السير ولا يقف عند تكوين الوحدة وأبعده عن أن يتأثر بالمثل الاشتراكية والشعبية . على نقيض ما حدث فى دولة أخرى كروسيا مثلا . التى تحقق لها الاستقلال والوحدة واستعمرت جيرانها الاسيويين ، فلم تكن المشكلة فيها استبداد الدول الأخرى بها ولكن استبداد الارستقراطية بالجماهير . ومن هنا أخذت المثل العليا فيها الطابع الجماهيرى والشعبي واقتربت من الاشتراكية قدر ما أغتربت عن الوطنية ولم ينظم طلبة الجامعات الروسية أنفسهم فى جمعيات

وطنية لحمل السيف والمبارزة — كما فعل طلبة الجامعات الألمانية — ولكن في جمعيات سرية للدعاية وإثارة الشعب وانصافه .

ولكن ليس معنى هذا أن التيار الاشتراكي ـ الشعبي لم يوجد ، لقد كان لا بد أن يوجد بوجود إنتلجنسيا شعبية وطبقة عاملة وكصدى الدعوات الاشتراكية إلى كانت تضطرم في جارة ألمانيا اللصيقة ـ فرنسا ـ كما أن عددا كبيرا من المفكرين الذين كانوا يطالبون بالوحـــدة كانوا يطالبون بالحرية الفكرية والسياسية كوسيلة لتحقيق الوحدة ، وعندما تحققت الوحدة فكثمرة لها . . .

ومن هنا فمع أن المثل الأعلى الوطني ـ العسكري ظل دائما بارزا ومسموعا ، وله الغلبة ، إلا أنه وجد بجانبه دعوات شعبية ديمقراطية تتعالى وتضطرم في الفترة المضطربة التي تسبق استقرار الاوضاع ، ويزيد فيها ضغط الحكام والملوك على الجماهير والشعوب ، وتضعف وتهن عندما تستقر هذه الأوضاع وتظفر الشعوب بحقوقها — أو بجزء منها — لتنصرف إلى مجالات أخرى .

وفي الفترة التي نتحدث عنها كانت ألمانيا تمر بفترة الانتقال السياسي التي مهدت للوحدة والتي اتسمت بالكفاح الأخير للأمراء للاحتفاظ بسلطاتهم الاستبدادية في مواجهة مد الوحدة . ومن هنا فقد اشترك فيها معظم المفكرين كل بطريقته الخـــاصة . فكان منهم شعراء مثـــل هينه وفرليجرات Heine and Freiligrath وموسيقيين مثل فاجنر ورجال اقتصاد مثل ليست وماركس وانجلز وكتاب دراما مثل بوخز واشترك بعض هؤلاء اشتراكا عمليا في الاصطدامات والمعارك وقادوا الجماهير وسقطوا صرعى . كما ظهرت بين الطلبة حركات مثل مؤتمر الطلبة Junges Deutachland ومثل ألمانيا

الفتاة Burscnenscliaftertag وكان الهدف الدائم والملح لهم جميعا (باستثناء ماركس وانجلز) الحريات : حرية الفكر والنشر والمعارضة السياسية .

ومن أبرز صور الاحتجاج والمقاومة ماقام به سبعة من أساتذة جامعة جوتنجن الصغيرة عندما حل ملك هانوفر الجديد أرنست أوجست فى نوفمبر ١٨٣٧ مجلس الديت والغى دستور ١٨٣٣ وأعاد دستور ١٨١٩ ، وأوقع ذلك أساتذة الجامعة فى مأزق لأنهم حلفوا بيمين ولاء لدستور ١٨٣٣ الذى الغى بدون موافقه البرلمان . وبعد أن ناقش بعض الأساتذة الأمر رفعوا لإدارة الجامعة مذكرة أعربوا فيها عن معارضتهم لإلغاء الدستور وختموها بأنهم كانوا دائما يحذرون طلبتهم من الشطط السياسى . . وأن عملهم كأساتذة يقوم على الاستقامة والأمانة ، وبدونها لا يمكن لدروسهم أن تكون مجدية « وأى قيمة لحلف يمين ولاء لصاحب الجلالة مليكنا إذا أخذ من رجال يخادعون أنفسهم » وكان الموقعون على هذه الوثيقة هم الأساتذة : فردريك داهلمان الذى كان كأحد المحامين البارزين سابقا من الذين أسهموا فى وضع الدستور الملغى . ولهلم البرخت أستاذ القانون الألمانى وجاكوب جريم وولهلم جريم أستاذى الميثاوجية والتاريخ الألمانى وجورج جوتفريد جرفينس Gervinus أستاذ الآداب وجورج أفالد Ewald العالم اللغوى ولهلم أدوار فيبر Weber أستاذ الطبيعيات .

وأثارت هذه المذكرة الاهتمام ، وانتشر نبؤها انتشار النار فى الهشيم لما عرف به هؤلاء الأساتذة من الاتزان وتشجعت بعض الهيئات الأخرى فقدمت احتجاجات مماثلة . وجن جنون الملك ، وخطر له أن يذهب إلى الجامعة ويسوى الأمر بنفسه هناك . ولكنه استبعد هذا الخاطر وذهب إلى أحد الحصون القريبة من الجامعة وطلب ايفاد عمداء الكليات وعندما وصلوا

استقبلهم ياور الملك وسألهم عما إذا كانوا قد أعدوا خطابا . فوضعوا من وحى اللحظة خطابا قصيرا ، ولكنه نبذ ، فأعدوا آخر أعربوا فيه عن ثقتهم فى نوايا الملك الطيبة التى يعتزون بها ولا يقبلون شيئا يمسها . وحاز الخطاب موافقة الياور وأدخلهم على الملك وخلال الحديث قال الملك متفضلا إنه لن يعاقب الجامعة . ولكن المذنبين فحسب !

وفى أوائل ديسمبر نشرت أحدى الصحف ذات الصفة الرسمية مقالين دون توقيع ، أنتقد الأول تصرف الأساتذة ووصفه بأن غير قانونى لانهم إذا كانوا يعارضون الغاء الدستور فقد كان عليهم الاستقالة . ويكشف المقال الثانى ما دار فى لقاء الملك بالوفد وأن الوفد تبرأ من تصرف الأساتذة السبعة. وأثار المقالان دويا شديدا ، وفى الوقت نفسه بدأت الإجراءات الرسمية ضد الأساتذة السبعه فدعوا فى ٤ ديسمبر للمثول أمام محكمة الجامعة و بعد التحقيق معهم بفترة أرسل الملك أحد ضباط الحرس بأوامر فصل كل أستاذ من الاساتذة السبعه على أساس أنهم رفضوا طاعة حاكمهم الشرعى وسيدهم . كما طلب إلى ثلاثة منهم مغادرة الولاية خلال ثلاثة أيام .

وبين عشية وضحاها أصبح الاساتذة السبعه أبطالا قوميين ونظمت المظاهرات لتوديع الثلاثة المطرودين . وأرسلت الجامعات الاخرى رسائل تشجيع وتأييد ومنحت بعضهم ألقاباً فخرية . وتكونت فى ليبزج هيئة لجمع الإعانات لاعالة الاساتذة لحين إعادة تعيينهم وعلا دوأرها نوفر ضيق وتجهم لم يستطع الملك إزاءه شيئا خوفا من الانفجار ولكنه بذل كل جهده للتضييق على الأساتذة والاحتجاج على الولايات التى رحبت بهم . وحال ذلك دون أن يشغل أى واحد منهم منصبا فى الجامعات الألمانية رغم ترحيب هذه الجامعات وفشلت المحاولة التى توسط فيها المشرع المشهور سافينى لتعيين أربعة منهم فى الجامعات البروسية . وكان الاستثناء الوحيد هو مبلك ورتمبرج الذى عين

البروفيسور افالد فى جامعة توبنجن وعندما قدر للملكين أن يجتمعا سأل أرنست أوجست زميله ملك ورتمبرج لماذا يعين أستاذاً فصله هو فأجاب « لهذا السبب نفسه » .

وأثارت هذه القضية جدلا شديداً فيما بعد فى الدايت الاتحادى وقسمته إلى قسمين ولم يستطع أرنست أوجست الدفاع عن موقفه إلا بصعوبة كبرى وخسرت جامعة جوتنجن مركزها ولم تستطع تعويض أساتذتها الذين استأنفوا بعد مدة نشاطهم الجامعى فى مختلف الولايات الألمانية أو سويسرا وأسهم بعضهم فى اكتشاف التلغراف المغناطيسى .

وكانت لقضية الأساتذة السبعة آثار بعيدة المدى فقد عززت العمل السياسى فى الجامعات الألمانية ، كما كانت سابقة للتدخل لاخضاع الجامعات الأمر الذى سيمارسه بسمارك بصفة شبه منهجية .

وكما يحق لنا أن نتوقع — فإن حركات الشباب والطلبة كانت أكثر عنفا واتجهت وجهة العمل الثورى والتآمرى وقد تصورها قضية ويدج Weidig وبوخنر Buschner .

وقد كان ممثلو طلبة الجامعات الألمانية على اختلافها قد اجتمعوا سنة ١٨٣٢ فيما سمى « المؤتمر » وانتهوا إلى أن الأغلبية الكبرى من الشعب على استعداد للثورة لو وجد التنظيم الذى يتولى القيادة . وارتأت مجموعة صغيرة من طلبة جامعات جيزن وهيدلبرج وويزبرج Wueszburg وارلانجن أن تقوم بالضربة الأولى بأمل أن تتبعها بقية الجامعات . ووضعت خطة كان يجب بمقتضاها أن يحتل ستون رجلا المراكز الهامة فى فرانكفورت بما فيها مقر الديت الاتحادى وبنك روتشيلد (ليمكن ضمان تمويل الحركة) .

وكان زعيم هؤلاء المتآمرين محاضراً جامعياً سابقا هو الدكتور أرنست

فون روشتبلات وقد استطاع أن يضم إليهم عددا من الحرفيين والمهنيين وغيرهم . وبوجه خاص الواعظ السابق وناظر المدرسة ويدج Weidig الذى كان يمت بأجداده إلى كبير ثوار الألمان « لوثر » . والذى سينمى أحفاده ثائراً آخر هو ليبكنشت .

ولكن أحد المتآمرين ، ويدعى كهل Kuhl عرض على السلطات إفشاء سر المؤامرة إذا قدمت إليه مبلغاً من المال وعفوا تاما عنه وماطلت السلطات فى هذا ولكنها قبلت أخيراً ، وقبل بدأ التنفيذ بيوم واحـــد فأرسلت التعليمات بسرعة إلى عمدة فرانكفورت بينما كان المتآمرون يتجمعون ويتجهون نحوها وقد خبأوا أسلحتهم تحت ثيابهم . وعند منتصف ليل ٣ أبريل سنة ١٨٣٣ هاجموا مركزين من مراكز البوليس واستولوا عليهما وأخذوا يقرعون الأجراس لإثارة المواطنين وحملهم على الانضمام إليهم . ولكن هذا الانتصار كان قصير المدى . فقد وصلت القوات التى أرسلت ولم تجد صعوبة تذكر فى الانتصار على المجموعة بعد صدام أصيب فيه بعض الطلبة والجنود . واستطاع زعماء المؤامرة الهرب إلى فرنسا وسويسرا وكان منهم كارل شابر وتيودور شوستر اللذين أسهما فى تكوين عصبة العدول Bund der Gerechten فى لندن فيما بعد . ولم يكشف أمر هؤلاء الزعماء أو غيرهم لأن كهل أراد أن يحتفظ لنفسه بالأسماء الكبيرة فى المؤامرة ليساوم عليها فيما بعد .

وبعد هذا الوقت ببضعة شهور كان أحد طلبة جوتنجن ويدعى بوخنر يلتقى بطالب آخر يدعى بكر . ويطلق عليه فى بعض الحالات بكر الأحمر Red Becker لحمرة شعره .

وأسر بكر إلى صديقه أنه عضو فى جمعية سرية يرأسها شخص مؤمن هو

الواعظ ويدج ، وجمع بينهما ، ومع أنهما كانا يختلفان فى الطبيعة ، إذ كان بوخنر يستهدف بالدرجة الأولى استنهاض الجماهير للقيام بثورة اجتماعية على حين كان ويدج يستهدف الإصـــلاح الدستورى والوحدة القومية ، فإن عداوتهما المشتركة الأوضاع القائمة وحدت بينهما . واقترح بوخنر تكوين جمعية سرية لإثارة الاضطراب والإعداد للثورة فى كل ناحية يوجد بها ثلاثة أفراد يؤمنون بفكرتها ، وإصدار منشور لإثارة الجماهير ، وبعد شىء من التردد قبل ويدج الفكرة .

وعاد بوخنر إلى جيزن ، واستطاع أن يجند عشرين طالباً وأن يكون منهم جمعية باسم « جمعية حقوق الإنسان » وهو اسم جمعية كانت موجودة بالفعل فى استراسبورج وتعرف بوخنر عليها . وبعد بضعة أسابيع كتب بوخنر المنشور المتفق عليه باسم « رسول هس The Hessian Messenger وحاول ويدج أن يلطف من حدة وقسوة لهجة المنشور ، وحذف بعض فقرات كان بوخنر يرى أنها أفضل ما فيه ، وأقحم بعض آيات الإنجيل . ومع هذا فقد ظل المنشور جمرة ملتهبة من إثارة الفلاحين على الملاك ، الفقراء على الأغنياء المحكومين على الحكام

وبعد طبع المنشور بدأت عملية توزيعه وأخذ بوخنر يوسع نطاق عضوية الجمعية بحيث ضمت ممثلين لعدد كبير من الجامعات .

ومن سوء حظ المؤتمرين ان كان كهل ، وهو الذى وشى بالحركة الأولى من بينهم — ولم تكن هذه الحقيقة معروفة . فوضع خطة متقنه لاستغلال السلطات لقاء الوشاية بهذه الحركة . فاتصل بالسلطات وأنهى إليهما أن بعض الطلبة سينقل عددا من المنشورات الثورية من المطبعة فى أوفنباخ إلى جيزن ـ وبذلك استطاعت السلطات أن تقبض عليهم ـ وعلم بوخنر بذلك فى الوقت

المناسب واستطاع باتصالات سريعه أن يخطر المؤتمرين الآخرين ، وأن ينقذ النسخ الباقية فى المطبعة .

وظلت تقصيات السلطات للمؤامرة تتخبط وتستطيل ، فإن كهل لم يشأ إفشاء الأسماء الكبيرة — وبذلك تمكن بوخنر من الفرار واقتنعت السلطات بأن ويدج هو محرر المنشور واعتقلته فى أبريل سنة ١٨٣٤ وعرضته لتعذيب أدى به لأن يموت أو ينتحر — بعد ثلاث سنوات .

وكان يمكن للسلطات أن تلاحق مثل هذه التحركات السرية والثورية المحدودة ، ولكنها لم تكن لتستطيع شيئا عندما هبت عاصفة الثورات عام ١٨٤٨ . وقد أشرنا إلى الأثر السياسى لهذه الثورة . وكيف تمكنت القوى الرجعية من أن تحتويه وتستحوذ عليه . أما الأثر الاجتماعى والدعائى والشعبي لها فإنه يفوق بمراحل حصيلتها السياسية .

وأهمية ثورة ١٨٤٨ من الزاوية الشعبية والدعائية أنها كانت نقطة الإنطلاق والبداية للاشتراكية وظهور الطبقة العاملة واشتراكها فى العمل الثورى . وأنها كانت الفرصة التى أتاحت لكارل ماركس أن يقوم بدور بارز فى الدعاية السياسية عمقت مفاهيمه وزادتها صلابة .

ومن هنا ، فمع أن الثورة بدأت أساساً فى فرنسا ، ونجحت فى إقتلاع النظام القائم وإحلال نظام آخر كان من بين رجاله داعية اشتراكى إلا أن مؤامرة لويس بونابرت أجهضتها . وكان الأثر الأعظم لها فى ألمانيا ، فمع أنها أخمدت عسكرياً ، وفشلت سياسياً ، فإن البذور المذهبية التى وضعتها لم تلبث أن نمت وازدهرت وأوجدت الاشتراكية الألمانية .

وحتى ثورة ١٨٤٨ كان الفكر الاشتراكى فى الأغلب فرنسياً يستلهم سان سيمون وفورييه وبرودون . ويدور فى تلك الحلقة التى أطلق عليها ماركس

ـ ظالما لها ـ الاشتراكية المثالية « اليوتوبية » وعندما ظهرت بدايات الفكر الاشتراكي الألماني تأثرت بالأفكار الفرنسية ، كما استلهم بعضها أفكار الثورة الفرنسية التي لم يكن قد طال عليها الأمد وقتئذ ، خاصة وقد بلغ عدد المهاجرين الألمـــان الهاربين من العسف البروسي إلى باريس وحدها قرابة ثمانين ألفاً .

وقبيل ثورة ١٨٤٨ ظهر أبرز داعية اشتراكي في ألمانيا وهو الحائك ويتلينج ـ كما ظهرت المجموعة التي كونت عصبة العدول في لندن ـ وكان أبرز دعاتها الموسيقي كارل شابر والاسكافي هنريش باور والساعاتي جوزيف مول والرسام فندر Pefender وايكاروس وولهلم ولف (الذي أهدى إليه ماركس فيما بعد كتابه رأس المال) .

وفي سنة ١٨٤٦ أوفدت العصبة جوزيف مول إلى بروكسل ليتصل باثنين من المثقفين ظهرا وقتئذ هما الدكتور كارل ماركس من ترير وفرديك انجلز من بارمن وليدعوهما للالتحاق بالجماعة وأبدى هذان السيدان شكهما ، ولكنهما سافرا إلى إنجلترا حيث أعادا تنظيم الجماعة .

ولا شيء مثل ظهور ماركس في هذه الساعة يوضح الأثر البالغ للفرد القدير ، فقبل ماركس كانت الهيئة تحمل اسم « عصبة العدول » فتغيرت إلى « عصبة الشيوعيين » وكان شعارها « كل الناس إخوة » فأصبح شعارها « يا عمال العالم اتحدوا » بل إن البيان الشيوعي نفسه كان يمكن أن يصدر في صورة أسئلة وأجوبة ـ كما ارتأى ذلك انجلز وهو شريك ماركس وصفيه ـ ولكن ماركس أصدره سبيكة ملتهبة ، وثيقة اتهام وحكم بالإعدام . . ومن الطبـــع النارى والمزاج الحاد والعدواني لماركس أخذت الحركة الاشتراكية الحديثة سمتها وطابعها .

وفى سنة ١٨٤٨ عاد ماركس إلى ألمانيا ووجه زملاءه والهاربين الألمان للعودة لاعلى رأس حملة عسكرية كما كانوا يرون بالفعل، ولكن للدعاية والتنظيم والإثارة فى المناطق العمالية. واختار ماركس نفسه «كولون» مقراً ليس فحسب لأنها إحدى المناطق الصناعية المتقدمة، ولكن أيضاً لأنها تطبق قانون نابليون الذى كان يقضى بأن ينظر المحلفون فى القضايا السياسية.

وأصدر ماركس مجلة الرين الجديدة من أول يونيو ١٨٤٨ حتى ١٩ مايو ١٨٤٩ عندما صدر العدد الأخير مطبوعاً بالأحمر، وعرضت للمرة الأولى ذلك الفكر الثورى الباتر كالسيف .. البارد كالصلب الذى ينضح بشنآن العداوة والبغضاء والتعصب.

« إننا لا نتسامح، ولا نسألكم تسامحاً، وعندما تكون الغلبة لنا فلن نعتذر عن الارهاب ».

« إن القضية هى الملك أو الشعب .. وقد قضى الأمر وسينتصر الشعب .. »

« إن دفع الضرائب خيانة عظمى، ورفض دفعها هو الواجب الأول للمواطن ».

« إننا لا نخفى قط منطلقنا، وليس هو بالمنطلق القانونى إنه بالمنطلق الثورى ».

هذه هى « الرين الجديدة » وتلك بعض مقاطعها .. كانت شيئاً جديداً يمثل الصلابة، ويبعد عن المساومة ويتسلح بالثقة المطلقة والتعصب المصمت.

لقد أعطى ماركس وصحيفته الرين الجديدة الحركة العمالية شيئاً ثميناً للغاية. شيئاً كانت فى أشد الحاجة إليه. أعطاها الصلابة. كانت الماركسية أشبه بمعدن صلب قاس اختلط بالدعوة العمالية الطرية المرنة التى كانت تخضع لأى تأثير وتقبل أى مساومة وترضى بأنصاف الحلول — فحول ماركس هذا الطين

الرخو الطرى إلى أسمنت مسلح . ومن المحتمل أن ماركس جاوز الدرجة المثلى في هذا ولكن من المشاهد أن الطبقة العاملة تغلب عليها المسكنة وتحكم تصرفاتها ضعة كمنت في خبيئة النفس وأعماقها عبر أجيال من الانقهار والخضوع حتى أصبحت وكأنها إحدى الصفات الوراثية الكامنة التى يظهرها اللقاء مع الطبقات المميزة فما تكاد الارستقراطية تبدى أقل تنازل أو تلطف حتى يبدو ذلك إغراء لا يمكن للجماهير مقاومته وتتلاشى إزاءه كل ذكريات الإهانة والاذلال القديم وتنسى الهدف وترضى بالفتات أو بأقل مما كانت الارستقراطية على استعداد لتقديمه؛ وفى كثير من الحالات يكون ذلك مفاجأة للارستقراطية التى تملكها الخوف إزاء قومة الجماهير . ولكنه يعزز فكرتها الطبقية عن دونية العامة ، وأنها لا تستطيع أن تتصدى لسادتها تصدى الأكفاء ، إزاء ذلك يكون من الضرورى أن تعطى الجماهير تلك الجرعة المضاعفة من الثقة والزهو والصلابة . وهذا القدر من الشنآن ، على أن يخف ذلك فيما بعد شيئاً ما حتى لا يتحول إلى صلف أو استعلاء .

وفى كل انحاء ألمانيا قامت المظاهرات وحدثت المصادمات وأسهم معظم دعاة الفكر الاشتراكى فى قيادة هذه المظاهرات والدعوة إلى تكوين جمهورية وقتل مول وولف ونجا ليبكنشت من القتل بأعجوبة وقبض على الباقين من دعاة الثورة وأقام أهل كولون المتاريس وأعلنت الأحكام العرفية وعطلت « الرين الجديدة » وعبر محرروها الحدود إلى بلجيكا وانحسرت موجه الثورة وفقدت مدها . وفى فبراير ١٨٤٩ حوكم ماركس . وخلال دفاعه عن نفسه أمسك بنسخه من قانون نابليون كانت على المائدة وعرضها على المحلفين قائلا « إن قانون نابليون هذا لم يوجد المجتمع البورجوازى . على العكس ، لقد رأى المجتمع البورجوازى فيه التعبير الشرعى له ، وفى اللحظه التى لا يتجاوب هذا القانون مع بنيان المجتمع لا يصبح شيئا

« وتسامح » المجتمع البورجوازى معه ، ولكن ماركس تأكد أن المد الثورى انتهى وفى الوقت نفسه طلبت السلطات إلى ماركس ـ الذى كان قد تخلى عن جنسيته البروسية ـ مغادرة البلاد .

وكان على ماركس أن يصفى ديون المجلة ، فمع أنها كانت قد أخذت تنجح ، ووصل عدد المشتركين إلى ستة الآف ، إلا أن مواردها لم تكن لتفى بديونها طوال فترة التأسيس ورهنت زوجه ماركس — التى كانت تمت بصلة نسب إلى دوقات أرجيل — كل « فضيات » الأسرة ، وبيع الآثاث وكل ما تمتلكه قبل أن يستطيع ماركس مغادرة ألمانيا إلى الأبد والذهاب إلى لندن . .

وبمغادرة ماركس لألمانيا انتهى عمله الشخصى والمباشر فى الحركة الاشتراكية الألمانية ومع أنه لم يقض فيها إلا قرابة عام إلا أنها كانت كافية لبذر بذور الماركسية .

الفصل الثالث

تطور الحركة الاشتراكية الالمانية

حتى نهاية القرن التاسع عشر

انتاب الحركة الاشتراكية والعمالية بعد انحسار ثورة ١٨٤٨ سبات طويل. وتقلدت القوى الرجعية مرة أخرى زمام الأمور وكان يجب أن تمضى عشرة أعوام قبل أن تبدأ بوادر اليقظه من جديد .

وفى هذا الفصل ، كما فى الفصل السابق، نجد أن ظهور الرجل القدير كان هو الذى يدق الناقوس ويبدأ المسيرة .

وعندما غادر ماركس وصحبه ألمانيا لم تجد الحركة الاشتراكيه من يقودها ولم تجد الحركة العمالية التى بدأت تكبر وتضخم مع كبر وتضخم الصناعة من يوحد شملها ويلم شعثها .

وكان هناك عدد من الهيئات والجمعيات العمالية ولكنها كانت محدودة . كما كان القائمون عليها من ذوى الافاق الضيقة ، وقد كان أكبر هذه الهيئات هى أخويه العمال Workers Brotherhood التى كونها « بورن » زميل ماركس فى كفاح ٤٨ ، وكانت سياستها بصفة عامة هى الخطوط التى وضعها البيان الشيوعى ، ووصل عدد أعضائها إلى عشرة آلاف ،وطالبت بجعل ساعات العمل عشرة وتحريم تشغيل الأطفال حتى سن الرابعة عشر ومنح العمال حق التصويت . وفرض الضرائب التصاعدية وتخفيف مدة الخدمة العسكرية .

كان هذا هو الموقف عندما ظهر لاسال على المسرح ظهور البطل فى

المسرحية فتزعم الحركة وسار بها فى أتجاه اشتراكى معين وأعطاها بعض السمات التى لازمتها طويلا . . .

ولد فرديناند لاسال من أسرة يهودية من الطبقة الوسطى فى أبريل عام ١٨٢٥ ودرس الفلسفة فى الجامعة وأمل أبواه أن يصبح أستاذاً جامعياً مرموقا ولكن فطرته وطبيعته كانت تؤهله ليكون داعية . ويبدا ذلك جليا من أيامه الأولى : فلم يكد يسمع ، وهو فى العشرين، عما تعرضت له إحدى النبيلات على يد زوجها من عسف واستغلال حتى تبنى قضيتها ونذر نفسه للدفاع عنها .

وكان زوج الكونتس هاتز فيلد قد أساء معاملتها واستحوز على مالها ولم تجد محاميا يطالب لها بحقها خوفا من زوجها الغنى والقوى ولعدد كبير آخر من الأسباب الفنية ولكن شيئا من هذا لم يكن يثنى لاسال الشاب كما لم يثنه أنه لم يكن يعرف شيئا عن القانون ، وسواء كان الباعث رومانتكيا كأجلى ما يمكن أن تقدم الرومانتيكية وتجعله الفارس المنقذ للسيدة المعذبة ، أو أنه كان حالة من حالات الظلم الاجتماعى وفساد الأوضاع يكون العمل لها « جهداً أميناً لضمان الاعتراف بحقوق الإنسان المنتهكة » على حد قول لاسال . فإن لاسال ترك كل شىء للدفاع عنها وسار بالقضية طوال ثمان سنوات وعرضها على ٣٦ محكمة وقدم ٣٥٨ شاهدا وتقبل السجن عندما اشترك فى سرقة بعض أوراق الكونت التى أمل أن يجد فيها أدلة خاصة بالقضية . حتى استطاع سنة ١٨٥٤ أن ينتصر على الكونت وأن يظفر للكونتس بأموالها — بضعة ملايين من التاليرات ، وأصرت الكونتس الوفيه على أن يكون للاسال معاش سنوى سخى منها . .

وهذا الفصل من حياة لاسال لا يمكن أن يغفل . لا لما له من دلالة قوية وبارزه على طبع لاسال الذى تحكم فيه وعجل بوفاته ، ولكن أيضا لما ترتب عليه من آثار وثيقة بالحركة العمالية كما سترى .

وعندما اشتعلت ثورة ١٨٤٨ أسهم لاسال فيها وتعرف على ماركس وقامت بينهما علاقة توثقها وحدة الهدف وتوهنها فرقة الطبع . كان لاسال جماهيريا عاطفيا ، خطيبا ، كما كان إلى ـ حدما ثريا ـ بينما كان ماركس سوداويا فقيرا منظرا ومنطويا على نفسه . وكان فى لاسال خيلاء وديماجوجيه . ولم تكن لديه من العبقرية الخلاقة مايجعله يساوى ماركس أو يستقل عنه وفى الوقت نفسه فلم يكن يسمح له ذكاؤه المتألق بأن يكون تابعا أليفاً لماركس . ومع أن ماركس عندما كتب إلى الكونتس معزيا إثر مقتل لاسال شبهه بأشيل الذى مات فى شرخ الشباب . فإنه شبهه ـ فيما بينه وبين اصفيائه ـ بفأر أحدث ضجيجا كبيرا[1] وكان يطلق عليه العبد اليهودى ، وقد أعترف لاسال دواما باستاذية ماركس . ولكن ماركس لم يغفر له إقبال الدنيا عليه وترحيب الجماهيريه فى الوقت الذى كان يعانى فيه مرارة الفاقه وكآبة الوحدة .

وانغمس لاسال فى العمل الجماهيرى فترة الثورة وسجن أكثر من ستة شهور واستغل محاكمته — وقتئذ فى الدعاية لسياسته والدفاع عن قضية الطبقة العاملة .

وعندما انقشع غبار المعركة وانحسر مدها آب لاسال إلى دراساته التى كانت قضية الكونتس وثورة الجماهير قد قطعتها فأخرج « فلسفة هيراقليطس » و « نظام الحقوق المكتسبة » وكتب مسرحية عن « فرانزفون سيكنجن » النبيل الاقطاعى الذى ثار على النبلاء عام ١٥٥٢ . وعندما اندلعت حرب التحرير الإيطالية عام ١٨٥٩ اصدر رسالة بعنوان « الحرب الإيطالية ورسالة بروسيا » خالف فيها الاتجاه العام الذى كان يدعو لشن الحرب على فرنسا

---

(١) وكان ماركس يطلق فى بعض مراسلاته الخاصة على الكونتس كلمة the old bitch وهى ما يمكن أن يترجم إلى البغى العجوز أو الكلبة أو الذئبة العجوز .

لاعتدائها على النمسا ، وتنبأ فيها بكثير من التوقعات والتطورات التى حدثت بالفعل مثل ضم فرنسا نيس وسافوى . واستقلال إيطاليا و إعلان بروسيا الحرب على الدنمرك وضم شلزويج وهو لشتين . وأرسل لاسال نسخا من هذه الرسالة إلى كل الوزراء البروسيين — بما فيهم بسمارك — كما اصدر أيضاً رسالة عن « لسنج » الذى كان يراه الشخصية الألمانية التى تأتى بعد لوثر مباشرة ، وكتابا عن الاحزاب وعلاقاتها بالبلوريتاريا .

وخلال هذا الكفاح الجماهيرى والعمل الفكرى ذاع أسم لاسال ووجدت فيه قيادات بعض الهيئات العمالية الرجل الأمثل الذى يقود الحركة العمالية وفى سنة ١٨٦٢ كتب إليه ثلاثة من هؤلاء هم فاهليتش Vahlteich وفريتزاش Fritzche ودامر Dammser رسالة قالوا فيها .

« إننا الثلاثة قد ناقشنا هذا الموضوع كأعضاء فى اللجنة ، ولا نعلم أحدا فى ألمانيا غيرك يمكن أن يقود حركة بهذه الأهمية ، أو يستطيع أن يتحمل هذه المهمة الثقيلة ويكون فى الوقت نفسه مستأهلا للثقة المطلقة . إنك الرجل لهذا العمل ، و كلنا يضعه يسرور أمامك » . . .

وفى خطاب تال كتب دامر :

« إن تأسيس اتحاد عمالى واحد فى أذهاننا جميعا و تستطيع أن تعتمد على أكثر من ثلاثين ألفا » .

وقبل لاسال الدعوة ، وفى مارس وضع برنامجه السياسى فى صورة خطاب مفتوح وجهه إلى العمال وتضمن إلى جانب المطالب الكلاسيكيه التى طالب بها العمال سنة ١٨٤٨ ، مثل حق التصويت المباشر للجميع ، مبادىء ذات أهمية خاصة منها أن الطبقة العاملة يجب أن تتحرر من نفوذ الحزب التقدمى الذى كان قد ظهر وقتئذ فى ألمانيا وضم البورجوازيه الصغيره والمهنيين وكان يعطف

على الطبقة العامله ، قدر ما كان يثبط قيامها كحزب مستقل . كما تضمن البرنامج مطلبا يبدو غريبا هو اعانة الدولة للجمعيات الإنتاجية العمالية .

وهذه النقطة الأخيرة التى بدت غير مفهومه وانتقدها ماركس بقوة تعود إلى فكرة لاسال عن الدولة وعن الاشتراكية وأختلافها عن فكرة ماركس عنهما . فلم يكن لاسال يرى فى الدولة اداة كبت أوقمع أو مجرد تعبير اقتصادى ولم تكن نظرته إليها طبقية ضيقة أو نظرية مجردة ، فقد رأى فيها بلورة لروح الشعب ونفسيته تربط المواطنين بها وشائج تكاد تكون عضوية . وتوجد إلتزامات متبادلة وتتأثر بعدد كبير من العوامل ، بما فيها العوامل الاقتصادية ورأى لاسال أن الطبقة العاملة عندما تمنح حق الانتخاب من ناحية وتعاون فى مشروعاتها التعاونية والإنتاجية من ناحية أخرى فإنها توجد فى كنف الدولة البورجوازية الدولة العمالية ، أو تساعد التطور على أنه يسير فى هذا الاتجاه .

كان ثمة خلاف جذرى بين ماركس ولاسال نشأ عن الاختلاف فى المزاج والوضع والملابسات :

كان ماركس وهو يستكشف نظريته يتحول شيئا ما من سيدها إلى عبدها من الجابل لها إلى المفتون بها . فبالإضافة إلى أن هذه النظرية كانت من الإحكام والجمال كتمثال بجماليون القديم — بحيث تسبيه وتسترقه . فإنها كانت فى حقيقة الحال فلسفة جبرية إلى حد كبير ، يسير فيها التطور تبعا لقوانين الماديه الجدلية التى لا يستطيع الناس (ولا حتى العمال) تغييرها كانت المعانى الذاتية والإنسانية[1] والقصدية مستبعدة تماماً استبعادا قد يصوره التأويل

---

(١) انظر مثلا « ان القول أن كل فرد له قيمة كما لو كان كائناً له سيادة a sovereign beineg إنما هو وهم وحلم وافتراض من المسيحية التى تؤكد أن لكل فرد روحاً » .

Narx-Engels, Historical Critical Edition vol, I. N. 590 Mosceow.

الماركسى للحرية بأنها العلم بالضرورة . كان ماركس كعالم الرياضية لا يستهدف أن يجعل ناتج الضرب والطرح شيئا يريده هو . . وإنما قصارى ما يطمع فيه هو أن يصل إلى الناتج الصحيح . وساعده على ذلك أنه كان يعمل فى منفاه القصى ، وفى صالة المتحف البريطانى ، وبين الكتب والمراجع فى معزل تام عن الاحداث . ولم يكن يتعامل مع الرجال والصراع والمواقف المعينة فى ظروف معينة فى مواقع معينه ، ولكن مع الفروض الرياضية الخالدة التى لا تتغير .

وفى مقابل هذا كان هناك عدد من المؤثرات الشخصية كاضطهاده وفاقته وأصله اليهودى وما ترسب خلال أجيال وأجيال فى أعماقه من بغض أو حقد وذكاؤه الخارق واعتداده بنفسه الخ .. وهى كلها عوامل ذاتية كانت تناقض المناخ الموضوعى للنظرية وجعلت ماركس يجمع بين النقيضين : سيد النظرية وعبدها ، الداعية المتعصب والعالم الموضوعى ، المندد باليهود والممثل للخلق اليهودى .

نتيجة لهذه العوامل كلها ، آمن ماركس إيماناً لا يتطرق إليه الشك أن المعيار الوحيد للحكم على الآخرين هو تقبل نظريته تقبلا تاماً دون أى ميل ، وفاته أنه عندما يلزم أتباعه تطبيق نظريته الجامدة المحكمة على الظروف المتغيرة ، فإنه سيلبس عليهم الأحكام ويجعلهم كدون كيشوت يحسبون طواحين الهواء فوارس الأعداء .

= وكذلك ما جاء فى الطبعة الأولى لرأس المال :

« إذا كنت أتحدث عن الأفراد ، فإنما يكون ذلك بقدر تجسيمهم للأنماط الاقتصادية وتمثيلهم لعلاقات ومصالح طبقية خاصة » .

وإذا استثنينا انجلز الذى رُزق عدداً من العوامل الخاصة والاستثنائية جعلت الود صافياً إلى النهاية بينه وبين ماركس ، فقد تعرض كل أصفياء ماركس بين حين وآخر لثورة غضبه لتصوره انحرافهم بما فى ذلك ليبكنشت وببل اللذين تتلمذا عليه وسلما له ، ولكنهما لم يستطيعا ، وإلى حد ما لم يستسيغا ، التطبيق الحرفى لما أراده ماركس للحزب الاشتراكى الديمقراطى الألمانى .

ولم يكن لاسال مثل ماركس ، فصحيح أنه أعجب بماركس وأفاد منه وتتلمذ عليه حينا من الدهر ، ولكنه كان زعيما مرموقا لأكبر كتلة عمالية فى ألمانيا وعليه أن يتعامل مع المجتمع الحى النامى والأحداث المتطورة المتغيرة ، ولم يكن ليستطيع أن يقبل التجريد الماركسى الذى جعل ماركس يتخلى عن جنسيته ويعتقد أن العمال لا وطن لهم . لقد كان يرى بملأ عينيه أن من العسير تجريد العمال من المؤثرات التى تحملها إليهم جنسيتهم وأن من الخطأ نظرياً وعمليا أن يتصور المرء إمكان جعل الإنسان الماركسى كالإنسان الاقتصادى . فرضا عقلانيا مجرداً أو كائنا فى حالة من انعدام الوزن والانبتات عن الأوضاع والجذور الموجودة بالفعل والتى تمسك به من كل ناحية باستثناء العامل الاقتصادى .

كان فهم لاسال للدولة بصفة عامة ، والدولة الألمانية بالذات ووضعه كزعيم لكتلة كبيرة فعالة وتحرره من التحديد النظرى والتعقيد السيكلوجى ، كل هذا يجعله لا يرفض التعامل مع المستشار الحديدى « بسمارك » الذى كان يمسك فى يديه بزمام السلطة ولم يكن ليرى فى هذا ضعفا أو خيانة أو انتهازية ، وإنما سبيلا لتحقيق أهداف دعوته ، وفى مقدمتها المطلبين الأساسيين : التصويت العام . وإعانة التعاونيات العمالية .

وقد شجب ماركس ـ انطلاقاً من فكرته عن الدولة كأداة كبت ـ فكرة

إعانة الدولة للتعاونيات العمالية وحاول تلويث علاقة لاسال ببسمارك وتصويرها بأنها نوع من الخيانة ولكن لاسال اعتقد أنه أكثر فهما لبسمارك من ماركس كما كان بينه وبين بسمارك عامل مشترك دق على ماركس الإلمام به ، ذلك هو عداوة الأحرار فقد أبدت الارستقراطية الزراعية فى ألمانيا - كما أبدت فى بريطانيا من قبل - نوعا من التعاطف مع الطبقة العاملة والتقارب معها . وكان العدو المشترك لهما — ولو لفترة معينة — هو الأحـرار ورجال الصناعة والتجارة . وقد تنبأ لاسال بأن بسمارك سيمثل دور روبرت بيل (زعيم المحافظين فى بريطانيا سنة ١٨٤٠) فيمنح حق التصويت العام المباشر ، ولم تكن هذه النبوءة بالكاذبة .

وقد تحدث « بيبل » عن هذه الاتصالات — كما تحدث عنها بسمارك فقال بيبل فى جلسة الرشستاج فى ١٦ سبتمبر سنة ١٨٧٨ .

« تعلقت هذه المحادثات والمفاوضات بأمرين : الأول الانتخاب العام المباشر والثانى إعانة الدولة لجمعيات التعاون الإنتاجى . وقد كسب لاسال البرنس بسمارك لمشروعه ولو أنه رفض إقرار الانتخاب العام قبل إنهاء الحرب الدانمركية ولكن لاسال كان يريد إقراره فوراً ودون أى تأخير ومن هنا قامت خلافات خطيرة بين لاسال وبسماك ولم يكن الأخير هو الذى أوقف المفاوضات ، ولكنه — وعلى أن أؤكد ذلك — لاسال » .

وقال بسمارك : « كان فى شخص لاسال شىء جذبنى بطريقة غير عادية وقد كان واحدا من أكثر من تعاملت معهم ذكاء وطموحا وأننى لآسف حقاً أن وضعه ووضعى السياسى لم يسمحا بمواصلة العلاقة الشخصية . وقد كان يسعدنى لو أن رجلا بمثل هذه المواهب والمقدرة الذهنية كان جارابى — وكان بابه إلى بابى » .

فحتى لو صرفنا — جدلا — النظر عما أكده بيبل من أن لاسال هو الذى قطع العلاقة عندما لم يستجب بسمارك استجابة فورية لإقرار الانتخاب العام المباشر ولو أخذنا بما ذهبت إليه مصادر أخرى من أن بسمارك هو الذى قطع المفاوضات فإننا لا نرى فى هذا كله انتهازية أو خيانة والقول بهذا ليس إلا قطعة من سياسة « تلويث المخالفين » التى انبثقت من طبع ماركس وأصبحت إرثاً للماركسية ، وجزءاً لا يتجزأ من التكتيكات الشيوعية .

وهذا كله لا ينفى أن يكون لاسال قد أخطأ لا فى مبدأ الاتصال ببسمارك — كما ذهب إلى ذلك ماركس — ولكن فى أسلوب هذا الاتصال ، إذ يجب دائماً على الزعيم الجماهيرى أن لا يتخذ مثل هذه الخطوة الهامة دون ارتكاز على قاعدته العريضة الصلبة ليمكن له أن يتحدث من مركز قوة ، فإذا كان من المصلحة .. لاعتبارات معينة . الاحتفاظ لها بقدر من السرية فلا بد من إخطار اللجنة التنفيذية والحصول على موافقتها . ومعرفة القاعدة أو اللجنة التنفيذية تعطيها الشرعية والتصديق والاعتراف وتبعد عنها طابع التآمرية والانتهازية الذى قد يظن بها قدر ما سيجعلها تنطلق من مركز القوة . ولو أن لاسال خاض مع العمال المعارك من البداية لسلك هذا المسلك ولكن لما كانت القيادة قد أتته منقاده « تجرر أذيالها » فإنه فيما يبدو أساء تقدير قوته الشخصية، وكان مسلكه الفردى هذا يتلاقى مع المسلك الفردى لبسمارك. وجلب لاسال على نفسه المتاعب والشبهات بهذا المسلك وأفقد محاولته بعض القوة التى كانت تتأتى لها لو حقق لها تصديق القاعدة .

* * *

بعد أن عرض زعماء العمال على لاسال قيادة الحركة وقبل هو ، وأوضح برنامجه السياسى فى خطاب مفتوح نشرت بعض الصحف إعلانا فى ٢٩ أبريل سنة ١٨٦٣ جاء فيه : .

« تقرر فى الاجتماعات العمالية التى عقدت فى ليبزج وهامبرج ودسلدورف وسلونجن وكولون تكوين هيئة عامة للعمال الألمان على أساس المبادىء التى عرضها لاسال فى خطابه المفتوح ونحن نضع فيما يلى لائحة النظام الأساسى لهذه الهيئة رجاء مناقشتها فى الاجتماعات العمالية ، وسندعو خلال الأسبوع القادم لعقد جمعية عمومية فى ليبزج لاقرار اللائحة وانتخاب اللجنة التنفيذية ».

ووقع على هذا الإعلان باسم اللجنة التنفيذية لاتحاد العمال ف. فاهلتش ا. واوتودامر .

وفى ٢٣ مايو سنة ١٨٦٣ وبعد سلسلة من الاجتماعات التى خطب لاسال فى بعضها لأكثر من أربع ساعات تكون الاتحـاد العام للعمال وانتخب لجنة تنفيذية لمدة خمس سنوات وكانت تضم لاسال رئيسا ودامر نائبا للرئيس وفاهلتش سكرتيرا .

ولكن هذه البداية المبشرة لم تحقق ما أنتظر منها ، فلم يضم الإتحاد أكثر من بضعة الوف ، واستمرت الخلافات ما بين اللجنة التنفيذية . واستقال فاهلتش من منصب السكرتير احتجاجا على دكتورية لاسال ، واستقال لاسال نفسه من منصب الرآسة فى ٢٧ أغسطس سنة ١٩٦٤ وسافر إلى سويسرا حيث كان ينتظره قدره ، ففى مبارزة بينه وبين أحد النبلاء البروسيين أصيب بجرح مميت توفى بسببه بعد ثلاثة أيام .

وكان لاسال عندما توفى فى التاسعة والثلاثين ، عندما لم يكن الكثيرون من القادة قد بدأوا المسيرة . . ومن الصعب على الإنسان أن يمنع نفسه من لوم لاسال لزجه بنفسه فى مثل هذه المأساة خاصة وأنه كان البادىء فيها ، إن الرجل العام ليس ملك نفسه إنه ملك دعوته ويجب أن يحتفظ بنفسه — كل نفسه — لها . وأن لا يسمح لأى أعتبار ـ بما فى ذلك دعاوى الكرامة الفردية ـ أن

تحول دون ذلك . أو تحرم دعوته منه . وهو ما ينطبق على الشاعر الموهوب الذى قد يكون بحكم موهبته أسير العاطفة .

ومع هذا فإذا كنا نلوم لاسال ، أو حتى بوشكين، فماذا نفعل فى رجل دولة وماليه مثل هاماتن ، يعرض نفسه للموت . ويموت فعلا . فى ريعان الشباب ؟

لم يتسع الوقت للاسال لكى يعمق بصماته على الحركة العمالية والإشتراكية الألمانية أو يعطيها شخصيتها الخاصة التى كان يمكن أن تحصنها من إغراء الماركسية ، ذلك لأنه لم يعمل فيها عملا مباشرا سوى قرابة عامين ، ومع هذا فليس من المبالغة القول أنه الأب الشرعى للحركه العمالية الألمانية وأنه أورثها بعض الخصائص التى لازمتها إلى النهاية ومثلت الخلاف الرئيسى ما بين الحركة العمالية وما بين الفكر الماركسى فإن الإشتراكية لدى لاسال وبالتالى لدى الحركة العمالية الألمانية كانت أداة الطبقة العاملة لنيل حقوقها ولكن الحركة العمالية فى الفكرة الماركسى هى أداة الثورة الإشتراكية ، ولو أتسع الوقت للاسال وأصل هذا الاتجاه ، وعمقه ، لكان من المحتمل أن تتجنب جمهورية فايمار مصيرها المؤلم .

وبعد وفاة لاسال تعرض إتحاد العمال لفترة عصيبة. فقد فقد رئيسه وسكرتيره وتوقف العون المالى الذى كان يقدمه لاسال ، ودخلت الكونتس هاتزفيلد الحلبة وأرادت أن تواصل الكفاح الذى بدأه حاميها ، وأصرت على أن تسير الهيئة على الخطوط نفسها التى وضعها لاسال وتلا ذلك موجة أخرى من الخلافات انتهت بأن أصبح الزعيم النقابى شفايتزر رئيسا لاتحاد العمال ولكن الخلافات تجددت خاصة وقد أضيف إلى تدخل الكونتس تدخل ماركس وانجلز ومحاولتهما توجيه الحركة من منفاها البعيد توجيها شيوعيا ،ورغم هذه الخلافات التى كانت قمينة بأن تمزق الاتحاد فإن المد العمالى حمل الاتحاد فزادت عضويته

وفى بعض المناطق مثل سكسونيا — حيث كان يحرم تكوين أحزاب عمالية سياسية ظهرت عدة هيئات عمالية ذات طابع ثقافى ، وبرز أوجست بيبل فى قيادة الحركة العمالية المزدهره هناك .

كانت التطورات السياسية تدفع الحركة العمالية والاشتراكية إلى الأمام فبينما كانت بسمارك يرسى أسس الريخ ويحقق الوحدة الألمانيا ، ويرضخ لمنح العمال حق التصويت « كما تنبأ لاسال » كانت القوى الاجتماعية والاقتصادية تتجمع وتتباور وتتضح قسماتها وكانت الطبقة العامله تتحفز وتتكتل وكانت مجموعات الرأسماليين والأحرار والملاك تكون أحزابا خاصة بها . .

وفى أول انتخابات عقدت بعد الحرب البروسية ــ النمسوية رشح ليبكنشت الذى كان وقتئذ مسجونا فى برلين وكونت الهيئات الثقافية العمالية حزب الشعب السكسونى على أسس قريبة من أسس إتحاد العمال وفى مؤتمر إتحاد العمال الذى عقد فى ايرفرت فى ديسمبر سنة ١٨٦٦ أعتمد — بشىء من الصعوبة — البرنامج الذى وضعته الكونتس هاتزفيلد ، والذى كان يتضمن تكوين جمعيات عمالية تعينها الدولة تطبيقا لمبادىء لاسال . ولكن عندما انتخب مرشح غير مرشح الكونتس للرآسة انشقت هذه وكونت حزبا يرأسه مرشحها .

وجابهت الطبقة العاملة انتخابات ١٨٦٧ وهى ممزقه ما بين ثلاثة أحزاب كل يحارب الآخر . ومع هذا فقد فازت فى كثير من الدوائر ونالت أصواتا ساحقه ففى إحدى الدوائر نال مرشحها ١٨٠٠٠ صوتا بينما لم ينل بسمارك فى فى دائرته سوى ٦٥٠٠ صوتا وفاز ليبكنشت ، وبيبل ، وشفايتزر بمقاعد فى الرشستاج الجديد . ويمثل هذا الثالوث إلى حد ما القوى الثلاث التى تجاذبت الحركة العمالية الألمانية أعنى بها النقابية والماركسية واللاسالية .

وكان قطبا الحركة الاشتراكية فى الستينات — حتى مطلع القرن هما —

دون منازع — ويلهلم ليبكنشت وأوجست ببيل ،وأول هذين ينتمى بإجداده إلى لوثر ، وويدج الذى تحدثنا عنه ، كما أنه أنجب كارل ليبكنشت ثائر الحركة السبرتاكوسية وشهيدها — كما سنرى — وكان ليبكنشت ثوريا هاجر فى العشرين من عمره إلى انجلترا ولكنه عاد منها سنة ١٨٤٨ وقام بدور بطولى فى الثورة وكاد أن يقتل رميا بالرصاص . أما أوجست ببيل فقد كان بحكم المهنة « خراطا » وانتخب سنة ١٨٦٥ رئيسا لأحدى النقابات الحرفية — وهاجر إلى لندن حيث تعلم على يدى ماركس وأصبح من أصفيائه ولما عاد أخذ يعلم العمال فى جمعيات الثقافة العمالية .

وكان ليبكنشت وببيل يوجهان الحركة العمالية الألمانية نحو الماركسية واقترحا أن يكون حزب الشعب السكسونى فرعاً للدولية الأولى ، وكان مركز ببيل بالذات قوياً فى سكسونيا التى اعتبرت من قلاع الحركة العمالية والاشتراكية وفى مؤتمر نورمبرج الذى عقده حزب الشعب فى سبتمبر عام ١٨٦٨ — وحضره مندوبون عن النمسا وسويسرا ومندوب عن الدولية « هو ايكاروس » انتخب ببيل رئيسا بأغلبية الثلثين ووضع برنامجه على خطوط ماركسية ، وأثار ذلك ثائرة بعض العناصر وانخذلت مجموعة منها .

وتضمن برنامج نورمبرج فقرات نقل بعضها من مقدمة الدولية أو استلهمت من روح كتابات ماركس مثل « إن تحرير الطبقات العاملة إنما هى مهمة الطبقات العاملة نفسها « إن الحرب السياسية شرط لازم للتحرير الاقتصادى للبلوريتاريا » إن القضية الاجتماعية جزء لا تتجزأ عن القضية السياسية » « إن تحرير العمال ليس بالمشكلة القومية أو المحلية . ولكنها مشكلة اجتماعية تعنى كل دولة » .

وكللت جهود ببيل وليبكنشت بالنجاح عندما عقد فى ايزناخ

(٧ أغسطس ١٨٦٩) مؤتمر ضم عدداً من التشكيلات العمالية والاشتراكية « التى أطلق عليها مجموعة ايزناخ » وتمخض عن تكوين « حزب العمال الاشتراكى » .

وعندما قامت الحرب الألمانية الفرنسية كان على الاشتراكيين أن يحددوا موقفهم من الحرب وأن يقرروا هل هى حرب دفاعية ومن هو المعتدى ومن هو المعتدى عليه . وكان القسم الفرنسى من الدولية قد أدان الحرب قبل إعلانها بأسبوع « إن حربا للسيادة أو حول الأسرة المالكة هى حماقة إجرامية » ورأى الزعيم النقابى شفايتزر ومن ناحيته أن الحرب دفاعية ، وأيد المجلس العام للدولية ذلك ببرقية أرسلها فى ٢٣ يوليو وأكد فيها ضرورة إبراز الطابع الدفاعى للحرب ، ومع هذا فقد أعلن عميدا الحركة الاشتراكية الألمانية ليبكنشت وبيبل أن مسئولية ألمانيا جسيمة ، كمسئولية فرنسا ، ورفضا فى البرلمان الموافقة على اعتمادات الحرب .

وبعد الانتصار قدمت الأحزاب القومية مذكرة إلى الملك طالبت بضم الالزاس واللورين واستدراك ما أغفله مؤتمر سنة ١٨١٥ وعارضت ذلك التشكيلات العمالية على اختلافها بما فى ذلك النقابات التى ظلت تحت زعامة شفايتزر المعروف بميوله القومية وتعصبه لبروسيا ووضعت مذكرة مضادة تنبأت فيها بأن ذلك سيضرم نار العداوة بين فرنسا وألمانيا ، وسيثير حربا جديدة .

وأثارت هذه المذكرة حربا على الاشتراكيين ، وأخذ بسمارك يعتقل زعماءها ــ وعلى رأسهم لبيكنشت وبيبل ــ ولكن هذا الاضطهاد أوجد أثراً مضاداً ، فقد انتشرت الكتابات الاشتراكية والثورية ، وزاد اقتراب النقابات من الفكر الاشتراكى وكان من الدلالات البارزة على ذلك سحب الثقة من شفايتزر الذى كان يحكم الحركة النقابية بيد من حديد ويبعدها عن الاتجاه

الاشتراكى وفى الانتخابات التى أجريت سنة ١٨٧٤ للرشستاج نال الاشتراكيون أكثر من ٣٥٠ ألفا من الأصوات تمثل ٦ ٪ من مجموع الأصوات ونجحوا فى انتخاب تسعة نواب كان منهم بيبل ولبيكنشت اللذان كانا فى السجن وظلا فى السجن حقبة أخرى لأن الرشستاج رفض إطلاق سراحهما ومن ثم فلم يدخل المجلس عمليا سوى سبعة .

وضاعف نجاح الحركة الاشتراكية من اضطهاد بسمارك لها . وضاعف هذا الاضطهاد فى نجاحها كما حدث أولا ودفعها للتحرك نحو الوحدة خاصة بعد إقالة شفايتزر . وفى أكتوبر سنة ١٨٧٤ دخل ليبكنشت فى مفاوضات مع تولكه Toelke ممثل اللاساليين وهاسونكلفر Hasonclaver الذى حل محل شفايتزر فى رآسه اتحاد العمال لتوحيد الحركة . وفى سنة ١٨٧٥ عقد مؤتمر جوتا ومثل الايزناخيين ٥٦ مندوبا ، بينما مثل اللاساليين ٧٣ مندوبا وانتخب رئيسان هما هاسونكلفر للاساليين وجيب geib للايزناخيين بسلطات متعادلة . ووقع على ليبكنشت المهمة التى لا يحسد عليها ، مهمة وضع برنامج يجمع ما بين فريقين متقاربين قوة ، ومتباعدين فكرة . وهكذا خرج برنامج جوتا نوعاً من التسوية واتسم بما تتسم به كل التسويات من ضحالة ووهن . وأنه فى محاولته التقريب بين هذا وذلك يوهن هذا وذاك . .

ونقد ماركس برنامج جوتا نقدا مرا ، وفنده مادة مادة بأسلوب حاد لاذع ، وقد دفعه إلى ذلك — كما ذكر أنجلز — أمران : الأول بروز المضامين اللاسالية بشكل قضى على المضامين الماركسية ، والثانى أن ماركس كان لا يزال مثخنا من جراح معركة مؤتمر هوج Hugue Congress للدولية الذى تعرض فيه المنازلة باكونين وبذل جهدا كبيرا لإبعاده ، وكان باكونين يتهم ماركس بأنه وراء كل مايحدث للحركة العمالية الألمانية ، وأرسل هذا النقد الذى يحتل مكاناً بارزاً بين كتابات

ماركس إلى بربك Bracke فى ٥ مايو سنة ١٨٧٥ لعرضه على بيبل وليبكنشت وجيب ، ولـكن هذا النقد القارص لم ينشر على الملأ أو يعلم به جمهور الأعضاء وحفظ سرا لأكثر من خمسة عشر عاما .

وتضمن برنامج جوتا نصوصا عن إلغاء نظام الأجور وعن قانون الأجور الحديدى وعن الدولة الحرة وعن التعاونيات العمالية الإنتاجية المعانة من الدولة وتحريم تشغيل الأطفال وتنظيم تشغيل النساء الخ . .

وحاول ليبكنشت إرضاء لماركس أن يعدل شيئاً ما ولـكنه لم يوفق تماما ، وإن كان قد نجح فى تغيير اسم الحزب فحذف كلمة « الديمقراطى » وأصبح الاسم الجديد للحزب هو حزب العمال الاشتراكى[1] . ولـكن هذا أيضا لم يقدر له البقاء .

ونجح البرنامج من الناحية العمليه وأثبت أن ما قد يراه المنظر انتحارا قد يكون من الناحية العملية انتصاراً . فى ظل الشعارات الحماسية والمرنة التى رفعها الحزب تقاطرت الألوف وتضخمت العضوية وأصبح للحزب ١٤٥ خطيبا عاما و ٢٤ مجلة يبلغ عدد المشتركين فيها مائة ألف . وفى انتخاب يناير ٧٧ ارتفع عدد النواب الاشتراكيين إلى ١٢ نائبا .

وأقض ذلك مضجع المستشار بسمارك ، فمع أنه فى فترات عديدة كان يدخل فى منازعات مع الأحزاب إلا أن الحزب الاشتراكى لم يكن من أحزاب « النظام » كما قيل وكان يحمل حملة شعواء على سياسة بسمارك التوسعية والامبريالية .

وفى ١١ مايو سنة ٧٨ أطلق عامل يدعى هودل Hodel النار على عربة

---

(١) الحزب الاشتراكى الديمقراطى تأليف عبد الرحمن المشهدانى ص ١٤ مؤسسة فردريك ايبرت .

الامبراطور وهى تعبر الانتردن لندن ، ولم يصب أحد وقبض على هودل . واستغل بسمارك هـذا الحادث لـكى يضرب الاشتراكيين ضربة قاضية ففى مايو عرض على الوشتتاج قانوناً لمـكافحة الاشتراكية ، وفى مواجهة هذا الاتجاه قدم ليبكنشت باسم الاشتراكيين بيانا جاء فيه :

« إن النية المبيتة على استغلال عمل رجل مجنون ، قبل أن تقول العدالة كلمتها للقيام بإجراءات كابحة وضعت من وقت بعيد ضد حزب يدين الجريمة فى كافة صورها هو أمر من الوضوح لـكل محايد بحيث يجعلنا نحن الاشتراكيين الديمقراطيين — نقدم الآتى :

« إننا نعتقد أنه مما لا يتفق مع كرامتنا أن نقوم بدور فى مناقشة قوانين الإقصاء exclusion الموضوعة أمام البرلمـان ولن نسمح بأى إثارة كائنة ما كان مصدرها — بأن تثيرنا . وسنشترك فى التصويت لأننا نرى من واجبنا أن نتأكد من أن هجوما مثل هذا لن يشن على إرادة الشعب وسنفعل كل شىء ممـكن للحيلولة دون مثل هذا الهجوم . وسنثبت أصواتنا .

« إن الوشستاج سيتفق على الإجراء الذى يفضله وسيواجه الاشتراكيون الديمقراطيون الألمان — وقد ألفوا الـكفاح والاتهام — أى كفاح واتهام جديد بالهدوء المطلوب لقضية عادلة ومنيعة » .

وقهر بسمارك فى هذه الجولة فقد أيده ٥٧ عضوا وعارضه ٢٥١ . ولـكن فرصة جديدة سنحت له لإعادة الـكرة ، ففى يونيو أطلق الدكتور كارك نوبيلنج من شقته المطلة على انتردن لندن طلقتين على الأمبراطور وأصابه بجرح بالغ ودخل الجانى إحدى الغرف وأغلق عليه الباب وأطلق على نفسه النار . . ولم يكن بسمارك بالطبع ليفلت هذه الفرصة فحل الرشستاج وأثارت الصحافة المشاعر على العمال والحزب الاشتراكى بحيث ألصقت الجريمتان

بالحزب ، وربطت الثانية بالأولى واستبعدت العناصر الموضوعية - كعلاقة الجانيين بالحزب أو البواعث على الجريمة - من التحقيق ، وأديرت الانتخابات التى أعقبت الحل بذكاء ، وفى مناخ يضطرم بالسخط على الاشتراكيين ، ففقد الاشتراكيون عدداً من مقاعدهم ، وكسب المحافظون ٣٨ مقعداً ، ورغم ذلك فقد احتفظ الاشتراكيون بتسعة مقاعد وعاد أبرز زعمائهم — ببل وليبكنشت لأن سكسونيا ثبتت مع الاشتراكيين ولم تخذلهم ساعة المحنة .

وقدم بسمارك قانونه الاستثنائى للمجلس ، وكانت الفكرة التى قام عليها إن الآراء المريضه « الباثوليجيه » للاشتراكية — عدوة المجتمع والدولة — لا يمكن أن تقمع بالقانون العادى ومن هنا كانت الحاجه إلى هذا القانون الاستثنائى » ووافقت كل المجموعات البرلمانية عليه بحماسة ، باستثناء الحزب الكاثوليكى الذى تردد شيئاً ما وعرض فكرة أن تشديد قانون العقوبات قد يكفى[١] ، بينما رأى المحافظون أن يحرم كل الناخبين الاشتراكيين من حق الانتخاب . وفى النهاية ظفر القانون بموافقة ٢٢١ صوتاً ضد ١٤٩ ووضع موضع التنفيذ بعد يومين ، فالغيت كل الصحف الاشتراكية وحل الحزب وكافة منظماته وكل التشكيلات العمالية بما فيها النقابية ، وصودرت الأموال ونفى أو سجن الألوف . ومن لم ينف أو يسجن فصل من عمله . وشبه أحد الاشتراكيين هذا الاضطهاد الجماعى بما وقع للمسيحيين أيام الاضطهاد الرومانى وقال « إنهم لا يدفنونا تحت الأرض ، وإنما يغرسون بذورنا » وتنبأ ليبكنشت بأن هذا الاضطهاد سيوحد صفوف الحزب ، ويحول دون انقسامه ، وأن بسمارك سيكون هو الخاسر فى النهاية .

---

(١) ولكى نفهم هذا الموقف يجب أن نعلم أن الحزب الكاثوليكى نفسه كان حزب أقلية مضطهدة ، وقد أعلن عليه بسمارك سنة ١٨٧٣ حرباً ضروساً هى التى حملت اسم « المعركة الثقافية Kultur kumpf » .

وتحققت هذه النبوءة . فرغم كل صور الكبت واستخدام الأحكام العرفية فإن الحركة الاشتراكية لم تتحلل ، على العكس . . لقد أزدادت قوة وغير بسمارك من سياسته فأراد أن يكسب العمال لصفة بإدخال بعض صور الاصلاحات والتأمينات الإجتماعية ، ولكن هذا . وأن أثر على بعض الاشتراكيين ، فإن الهدف منه لم يدق على ذكاء معظم الاشتراكيين ، خاصة وقد كانت تلك هى الفترة التى ظهر فيها جيل جديد من المفكرين الاشتراكيين كان أبرزهم « برنشتين » الذى عهد إليه بتحرير مجلة الحزب السرية « الاشتراكى الديمقراطى » بعد أن استقال فولمار من رآسة تحريرها . ومثل « كاوتسكى » وهو من أصل تشيكى . وكان أبنا لممثلة أشتهرت بتمثيلها قدر أشتهارها بكتاباتها الاشتراكية وأخذ يعرض أفكار ماركس وانجلز فى صحيفة أصدرها فى ستوتجارت . وفى ٢٩ مارس سنة ١٨٨٣ عقد الحزب مؤتمرا فى كوبنهاجن حضره ستون مندوبا من كل أنحاء ألمانيا ، ورفض المؤتمر تقبل أصلاحات بسمارك وقرر التمسك بكل الأفكار الاشتراكية وعندما عقدت الانتخابات فى أكتوبر سنة ١٨٨٤ حاز الحزب الاشتراكى المنحل ٢٤ مقعدا ، وأثار هذا المستشار الحديدى . وفى سنة ١٨٨٧ أراد بسمارك زيادة عدد الجيش ووضع ميزانية عسكرية لسبع سنوات ولكن المجلس رفض هذه المطالب ولم يستجب إلا لجزء منها فأستصدر بسمارك قراراً بحله ، وشن حملة دعائية شرسه وأدعى أن فرنسا ستعلن حربا على ألمانيا لا تكون مستعده لها . واستخدم أساليب الأرهاب بحيث فاز فى الانتخابات التى عقدت فى فبراير سنة ١٨٨٧ بأغلبية كبرى وحقق مطالبه .

ولكن حدث وقتئذ ما أنزل بسمارك من عليائه ، فقد مات الملك ولهلم الأول وتولى حفيده الملك وكان يريد أن يظهر بمظهر حامى العمال والشعب و نصير العدالة وأمبراطور الألمان جميعا . وعندما أضرب تسعون ألفا من فحامى

وستفاليا ومنطقة الرين أستقبل وفد المضربين ووعدهم خيراً ، وإن كان قد أعرب عن رضائه عن أن الاضراب ليس من فعل الحزب الاشتراكى الديمقراطى الذى يراه « عدوا للوطن والامبراطور » .

وفى سنة ١٨٩٠ إلغى الرشستاج قانون مكافحة الاشتراكية وعندما جاءت الانتخابات كسب الاشتراكيون ٣٥ مقعدا وخسر المحافظون والوطنيون ٨٥ مقعدا . وجن المستشار فبعد عشرين عاما من مقاومة الاشتراكية ، زاد عدد النواب الاشتراكيين عما كانوا عليه فى أى وقت مضى وأراد بسمارك حل المجلس ولكن الامبراطور رفض . . وكان ذلك من المسائل التى كانت محل خلاف بين المستشار والامبراطور . . وأدت فى النهاية إلى انسحاب المستشار . . .

وبقدر ما كانت هزيمة المستشار ممضة ، بقدر ما كان أنتصار الاشتراكيين مدويا . فزادت الصحف الاشتراكية إلى ستين وجاوز عدد المشتركين فيها ٢٥٠ ألفا وفاقت عضوية الحزب مليونا والتحقت للمرة الأولى إعداد كبيرة من النساء . وبدا جليا أن الحزب يستقبل فترة جديدة يكون عليه أن يستمد لها أستعداداً مذهبيا وتنظيميا .

وفى أواخر عام ١٨٩٠ دعا أوجست بيبل إلى عقد مؤتمر استثنائى للحزب فى مدينة هال . وفى هذا المؤتمر تقدم ليبكنشت ، الذى تولى وضع برنامج جوتا ، بإقتراح إعداد برنامج جديد للمؤتمر القادم للحزب وهو مؤتمر أيرفوت .

وفجر هذا المؤتمر كل النزعات المكبوته التى كانت سياسة الاضطهاد قد أبعدتها حفاظا على وحدة الحزب ، وأسرع انجلز فأعلن نقد ماركس لبرنامج جوتا الذى لم تعرفه جماهير الأعضاء حتى ذلك التاريخ لكى لا تتكرر الأخطاء وواصل الاتصال خاصة بكاوتسكى ـ النجم الصاعد فى سماء التنظير الماركسى ،

ومنفذ وصية انجلز فيما بعد — وكانت هناك مواقف حرجه وحساسة كان يجب على المؤتمر أن يفصل فيها كنظرة الحزب إلى القانون والدين والكنيسة . وموقفه من التجمعات الرجعيه والأحزاب الأخرى والفلاحين . . الخ . . .

وبرز فى مؤتمر أيرفورت ثلاثة فرسان هم ليبكنشت وكاوتسكى وبيبل ـ وكان أولهم ليبكنشت — يؤثر على أعترافه بنقص برنامج جوتا القصد وعدم التطرف فى رفع الشعارات النظرية . وكان يرى أن انجلز وأن كان حجه فى التنظير ، إلا أنه لا يلم بالتطورات والوقائع والاوضاع العملية فى ألمانيا ـ وأعتقد أن التمسك بالشعارات قد يؤدى إلى عدم الحصول على مكاسب ، أو فقد ما أمكن الوصول إليه منها فى حين أن تحقيق الانتصارات الجزئية سيشجع الجماهير على الاستمرار فى النضال

ولكن كاوتسكى — كأى « غربال » جديد مشدود — قاوم هذا الاتجاه ورأى أن الاخذ به سيمكن القوى الرجعيه من أن تنطلق ضد الطبقة العاملة وأن تنظير البرنامج والإلتزام به سيكون أكبر كنز إحتياطى يعود إليه الحزب لتعميق أفكاره ويحول دون افلاسه الفكرى .

وتوسط بيبل ـ وهو رئيس الحزب . . الاتجاهين وحرص على الاحتفاظ بوحدة الحزب ، ولما كان الفريقان السابقان متكافئآن تقريبا ، فقد قام بيبل بالصياغه وحقق لكاوتسكى أكثر ممـا حقق لليبكنشت ، وتقبل انجلز البرنامج دون رضا كامل . وإن كان قد هنأ كاوتسكى وشكره على جهده .

والواقع أن انجلز كان قد أرسل نقد ماركس لبرنامج جوتا لا بفكرة تجنب أخطاء جوتا فحسب . ولكن للأخذ بما اقترحه ماركس ، ولكن برنامج أيرفورت لم يحقق إلا الجانب السلبي من هذا الغرض . فالافكار اللاسالية التى أنتقدها ماركس بشدة — « التعاونيات المعانه — قانون الاجور

الحديدى — الدولة الحرة) أستبعدت ولكن البرنامج أغفل المبادىء الايجابية التى اقترحها ماركس ، كالثورية ، وديكتاتورية البلوريتاريا .

وكشف أيرفرت عن وجود خلاف مذهبي كان محصورا من قبل بين المنظرين ، أو حتى فى أذهانهم ، ولم يتسرب إلى الجماهير وكان هؤلاء المنظرون لاسباب عديدة لا يتسع لها المجال هنا وقد نشير إليها فى مناسبات لاحقه يقدر بعضهم بعضا وكان يمكن لكل واحد أن يقف موقفه ولكن السنوات التى تلت أيرفورت أدت إلى تطورات جديدة وأظهرت أيضاً فرسانا أكثر حدة وتصميا مثل روزا لوكسمبرج وبارفوس وفجرت قضايا أكثر اشتعالا حملت فى مجموعها اسم « التنقيحية » فبدأت الدوامة الكبرى للجدل المذهبي وكشفت المناقشات عما كان مستوراً من نقط الضعف وكان كل مضى فيها يعمقها ويوسع الهوة حتى قامت الحرب العالمية الأولى ووضعت الجميع أمام الأمر الواقع والاختيار الذى لا يحتمل المعاريض أو التسويف وكشف مرة واحدة وبكل قسوة المأساة .

ومع أن التنقيحية التى كانت أولى الأعراض — وفى الوقت نفسه الأسباب — فى الجدل العظيم لم ترزق شهرتها إلا مع أوائل القرن العشرين فإنها قدبدأت فى تسعينات القرن التاسع عشر ، ولم يكن الرجل الذى فجرها بعيداً عن الماركسية أو خارجا عليها ، لقد كان فى قلب الحزب وأحد رجالاته البارزين . ذلكم هو ادوار برنشتين الذى كان يشرف على جريدة الحزب وعند الاضطهاد البسماركى هاجر إلى لندن حيث تتلمذ على يدى انجلز وأصبح محل ثقته ، وعكف مثل ماركس على الدراسة النظريه ، وتأثر مثله بالأوضاع البريطانية ، ولكنه خرج من دراسته بوقائع ونتائج تختلف عما انتهى إليه ماركس . فقد كان ماركس يعيش فى أعقاب « الأربعينات الجائعة » بينما عاش

برنشتين فترة الازدهار الرأسمالى وشاهد بعينيه كيف أن الرأسمالية تمضى قدما وأنها أبعد ما تكون عن التحلل وأن الطبقة العاملة البريطانية تزيد حصتها من مكاسب الرأسمالية وترفع مستوى معيشتها بفضل العمل النقابى والتشريع البرلمانى . ولم يتنكر برنشتين للماركسية ولكنه لم ير فيها العقيدة الدينية المعصومة ، وقد أراد أن يفصل ما بين الناحية العلمية المجردة وبين التطبيق العملى لها فى ظروف خاصة وتبعاً لتطور النظام الرأسمالى ، فلما كانت الرأسمالية قد أثبتت قدرتها على التكيف فمن الخطأ أن يعلق الحزب أهمية كبرى أو أن يضع استراتيجيته على أساس الأزمات الفادحة التى تزلزل الرأسمالية . ولما كان التقطب الذى تصوره ماركس لم يحدث ، بل حدث العكس فاتسعت قاعدة الطبقة الوسطى كما تحسنت حال العمال ، فإن الصورة الثورية القائمة على التقطب تنتفى ويصبح الحديث عنها عنها ضاراً لأنه يثير مخاوف حلفاء محتملين .

وعندما نشر برنشتين هذه الآراء فى مجلة نيوزيت Neue Zeit لم تثر وقتئذ هجوما كاسحا . ولكنها ما أن رزقت قدرا من الذيوع حتى ظهر شعور بالعداء لها بين المنظرين الماركسيين ، وعلى رأسهم كاوتسكى ، وعندما علم برنشتين أن كاوتسكى سيثير هذا الموضوع فى مؤتمر الحزب فى ستوتجارت سنة ١٨٩٨ أرسل دفاعا قرءه ببيل وتلاه كاوتسكى فأعرب عن دهشته لأن برنشتين يناقش موضوعات لا خلاف عليها « فالاشتراكية الديمقراطية ستفعل ما بوسعها للقيام بالإصلاحات الديمقراطية والاقتصادية وتنظيم الطبقة العاملة » واستطرد « ان برنشتين يعتقد أن التطور الاجتماعى سيتم بسلام — لا دون كفاح ولكن دون كوارث كبيرة — فالبروليتاريا تكسب يوميا حقوقا أكثر فأكثر وتكسب قوة اقتصادية عن طريق الحركة النقابية وبفضل نفوذها فى الجمعيات والتعاونيات . . الخ . . وبهذا سيحل الانتاج الاشتراكى محل الإنتاج الرأسمالى حتى يتحقق المجتمع الاشتراكى . وقد أقام برنشتين

هذه الفروض على أساس دراسته للحركة النقابية البريطانية ، ولكن النقابات البريطانية لما تصبح بعد اشتراكية ولا تزال تحت نفوذ الليبرالية البورجوازية ولو أن الطبقة العاملة شجعت السياسة الاشتراكية المستقلة لانقلبت عليها البورجوازية ولوضعت نهاية لهذا التطور السلمى . وقد تخلت التحررية الألمانية منذ مدة عن تظاهرها بالديمقراطية . وليس هناك اليوم حديث عن توسيع دائرة الحقوق . ولكن عن الانقلاب وإلغاء الحقوق الانتخابية والسجون .

إن انتصار الديمقراطية فى ألمانيا لن يتحقق إلا عن طريق انتصار البروليتاريا ، والصراع فى سبيل الديمقراطية يجب أن لا يتم جنبا إلى جنب البورجوازية ولكن ضدها وما من واحد يستطيع أن يقول إن هذه المعركة ستنتهى بكارثة وإنما يكون على الاشتراكية الديمقراطية أن تقوم بهذا الكفاح ومادامت واثقة من نفسها، وعليها أن تقوم به لا على الأسس التى وضعها برنشتين ولكن تبعا للملابسات » . —

ولكن هذا دفاع كسيح ، وفى السنة التالية (١٨٩٩) أصدر برنشتين كتابه « مقدمات الاشتراكية ومهام الاشتراكية الديمقراطية » .

وخصص المؤتمر الثانى — مؤتمر هانوفر — لمناقشة هذه القضية وحدها وتحمل عبء الهجوم ببيل الذى تحدث لمدة خمس ساعات متواصلة استهلها بأن الحزب لا يؤمن بعقيدة جامدة (dogma) حيث أن برنامجنا تغير ثلاث مرات خلال ثلاثين عاما وقد نبذنا قانون الأجور الحديدى وأن العمل مصدر الثروة وأن البورجوازية كلها رجعية ، كما شفينا من وهم أن التعاونيات المعانة فيها خلاص الطبقة العاملة ولكن برنشتين ينبذ أساسيات الماركسية حيث أنه يهاجم فكرة مادية التاريخ ونظرية القيمة ، ونظرية البأساء المتفاقمة » .

وظلت المناقشات المذهبية محتدمة لأكثر من ثلاثة أيام وأخيراً أصدر المؤتمر القرار الآتى (بأغلبية ٢١٦ إلى ٢١) .

« إن تطور المجتمع البورجوازى يدفع الحزب لأن يحتفظ بأفكاره الأساسية .

إن الحزب اليوم — كما كان بالأمس ينشغل فى الصراع الطبقى وطبقا لقواعد هذا الصراع فإن تحرير الطبقات العاملة إنما يكون بالعمال أنفسهم وأن غزو السلطة السياسية بمساعدة العمال « وتشريك » وسائل الإنتاج والتبادل بهدف إيجاد أفضل حال يمكن الوصول إليه للجميع هى المهمة التاريخية للبلوريتاريا .

ولتحقيق هذه الغاية ، فإن على الحزب أن يستخدم وسيلة تتفق معها دون أن يقع فى أى وهم يتعلق بطبيعة الأحزاب البورجوازية . والحزب الاشتراكى لا يرفض التعاون المرضى معها ، وإن كان فى الوقت نفسه يتخذ كل الإجراءات لتعزيز نفسه ولتوسيع الحقوق السياسية وحريات الشعب وتحسين الوضع الاقتصادى للطبقات العاملة والكفاح فى سبيل التعليم العام ، ولكن الحزب يظل مستقلا ، ويرى فى كل نجاح يناله مجرد خطوة تقربه من الغاية المنشودة .

وبالنسبة لتكوين التعاونيات فإن الحزب يعلن حياده . وهو يرى أن تكوين مثل هذه التعاونيات من ناحية المبدأ وسيلة مناسبة لتحسين الحالة الاقتصادية لأعضائها وهو يرى أنها — كالمنظمات البروليتارية التى تؤسس لضمان مصالح الطبقات العاملة وتوسيعها — وسيلة لتعليم العمال وإعطائهم استقلالا فى شئونهم ، وعلى الرغم من ذلك فإن الحزب الاشتراكى لا يعلق أهمية حاسمة على التعاونيات فى موضوع تحرير الطبقات العاملة من عبودية نظام الأجور .

ويواصل الحزب سياسته فى مقاومة العسكرية ويؤيد سياسته الخارجية التى تتجه نحو مؤاخاة الشعوب وبوجه خاص بلوريتاريا الشعوب الأخرى .

وكما يمكن أن يرى — فليس هناك من سبب يجعل الحزب يغير مبادئه أو تكتيكاته أو إسمه ليصبح مجتمعاً ديمقراطياً اشتراكيا وإصلاحيا، ومن هنا فإن موقفه من الدولة والمجتمع والأحزاب البورجوازية لا يمكن أن يغير».

وجاء الرد الذى مزق التنقيحيه وهتك استارها من روزا لوكسمبرج التى كانت وقتئذ فى ميعه العمر وأوج التألق والنبوغ.

وعنيت روزا بتفنيد ما أورده برنشتين من وقائع على أساس أنها غير صحيحه أو كاملة أو أنه اساء فهمها وتأويلها. ولما كانت ذات مقدره فذه على الجدل وذكاء حاد ينفذ إلى الأعماق ويتبين بسرعه الوجه الآخر فى كل شيء فقد توصلت بسهولة إلى تفنيد بعض نتائج برنشتين وتشويه البعض الآخر بعرض الوجه المقابل لها وتعميقه، فالازمات مثلا لا تعوق الرأسمالية تماما، ولا تعد عرضا سيئا فى الرأسمالية وانما هى أداتها للتنفيس والتخلص من الفوائض ليمكن تسيير عجله الانتاج من جديد فإذا توقفت الازمات، كما لاحظ ذلك برنشتين فسيؤدى هذا إلى اختناق النظام، والائتمان المصرفى وما أوجده من مرونة يخضع لآلية النظام، ومن ثم فلا يمكن أن ينظر إليه باعتباره وسيلة للتسكين إذ هو جزء لا يتجزأ من النظام وهو يدفعه ولكنه يدمره فى النهاية لأنه يفاقم المتناقضات الداخلية للرأسمالية، بل إن مضى النظام الرأسمالى دون عوائق سيؤدى إلى التخفيض المتوالى فى نسبة الربح نتيجة لنمو إنتاجية العامل، وهذا يؤدى إلى استحالة ظهور المنشآت الصغيره والمتوسطه.

ولكن هذا الجانب لا يمثل إلا الجانب الأقل شأنا من رد روزا لأن الشيء الذى كان يهمها كمنظرة ماركسية هو كشف خطورة منطق برنشتين وكيف أنه يسلخ أصحابه من جوهر الماركسيه ويجعلهم يمرقون منها ولا يتمسكون منها إلا بالقشور، وأنه يحل نماذج الفكر البورجوازى محل التفكير البلوريتارى

ويجعل المؤمنين به يمتصون الأساليب البورجوازيه كالحكم على كل حالة طبقا لمزاياها وحسب الوقت الخاص بها ، الأمر الذى يؤدى إلى تحكم التجربة فى النظرية بدلا من الاستهداء بالنظرية عند التطبيق وبذلك تمزق الوحده بين النظرية والتطبيق ويضحى بالمبادىء فى سبيل التكتيك وأن المقدمات التى ساقها تستتبع الاقلاع عن الكفاح السياسى الثورى للسيطرة على السلطة ما دام العمل النقابى / البرلمانى سيحقق للاشتراكية ما تريده فأوضحت روزا أن العمل النقابى / البرلمانى انما يكون هاما للاشتراكية باعتباره وسيلة لتوعية العمال وتدعيم تنظيمهم . الأمر الذى يوجد العامل الذاتى subjective للتحول الاشتراكى أما برنشتين فإنه يرى أن العمل النقابى / البرلمانى يخفض شيئا فشيئا من الاستغلال الرأسمالى وبهذا يجرد النظام من طبيعته الرأسمالية وبالتالى يتحقق موضوعيا objectively التغيير الاشتراكى .

وأظهرت روزا النقطة التى فاتت برنشتين ، إلا وهى أنه مالم يكن وراء العمل النقابى / البرلمانى فكرة اشتراكية أصيله (بالمعنى الماركسى الحقيقى) أو إذا حدث انفصال بينهما . فإن العمل النقابى / البرلمانى سيكون غاية فى حد ذاته وبالتالى لن يكون اشتراكيا بل وقد يسير فى اتجاه عكس . .

ورد برنشتين أن النقابات ما أن تبدأ المكاسب حتى تمضى قدما لأن الشهية تتفتح مع الأكل « ولن يقنع العمال حتى يحققوا التحول الاشتراكى » ولكن روزا قالت إن هذا الكلام صحيح من الناحية النظرية فحسب ولكنه ليس كذلك من الناحية العملية إلا إذا كان من الممكن إقامة سلسلة متكاملة متصلة من الاصلاحات تؤدى فى النهاية إلى الاشتراكية وهو أمر خيالى ، والاكثر احتمالا أن تنقطع السلسلة فى نقطة قبل الاشتراكية بكثير أمام عدد من الطرق البديله والمتنوعة .

ومن ناحية النشاط الحزبى فإنه ما أن يجعل الحزب « النتائج العاجله » هى الغاية الرئيسية فإن فكرة الكفاح للاستحواز على السلطة ستتضاءل والنتيجة أن يصطنع الحزب خطة المتاجرة السياسية والتنازل عن نقطة لقاء كسب نقطة أخرى ، والتسوية الخ . . . وأهم من هذا أن اهتمام السلطات بالحزب ورضوخها لمطالبه وتسليمها بتحقيق اصلاحات إنما يعود فى حقيقه الحال إلى القوة الثورية للحزب وأن هذه الاصلاحات ليست إلا ترضيه للحزب وابعاد فكرة الثورة أو تسويفها فإذا جرد الحزب نفسه من هذه الفكرة ، فإنه سيجرد نفسه من رأسماله ومصدر قوته ، وعندئذ فأغلب الظن أن لا تأبه به السلطات ولا تحقق شيئا من الاصلاحات ، فالمنهج الاصلاحى يهزم نفسه بنفسه .

بمثل هذا المنطق تناولت روزا لوكسمبرج التنقيحية فى رسالتها « من الاصلاح الاجتماعى إلى الثورة » ومجموعة مقالاتها التى نشرت سنة ٩٨ ، ٩٩ ولا تعطى هذه الاشارات إلا صورة مقتضبة ، وقد تكون باهته ، لما اتسمت به من قوة ونفاذ .

مع هذا كله لم ينجح النقد النافذ ولا قرارات الحزب فى القضاء على التنقيحية أو ابعاد برنشتين لا من الحزب ولا من الرشستاج ، وظل برنشتين محل تقدير الأغلبية وقص ادولف ستورمال كيف أنه عندما توفى هرمان موللر سنة ١٩٣٠ واحضر برنشتين الذى كان قد شل نصفه الأسفل ليحيى للمرة الأخيرة زميله القديم « خلع كل المجودين قبعاتهم » .

ولو تساءلنا لماذا قاومت التنقيحية هذه الهجمات لكانت الإجابة عددا من الحقائق أبرزها أن الحزب الاشتراكى الديمقراطى وإن كان قد خاض معركة كفاحية أيام الاضطهاد وأنه ظل يحمل لواء الاشتراكية وأن أواصر عديده جمعت ما بينه وبين ماركس باعتباره المفكر الاشتراكى

الألماني الاشهر ، إلا أن الحزب لم يقل ابدا أنه ماركسى تماما ، حتى عندما نبذ الأفكار اللاسالية فى مؤتمر ايرفورت ، ورغم نقد ماركس لبرنامج جوتا ، وما قام به انجلز من جهود واتصالات ،فقدأغفل الحزب الجوانب الماركسية الايجابية والثورية . ولم يقف الحزب هذا الموقف لأنه يعادى الماركسية ، على العكس إن قائديه البارزين ليبكنشت وببل تتلمذا على ماركس وكانا يكنان له عاطفة عميقة ، وبالمثل فإن كاوتسكى وبرنشتين تتلمذا على يد انجلز وكانا يريان فيه استاذهما غير منازع . فلو أنساق قادته مع ميولهم الشخصية لمضوا قدما فى الماركسية ، ولكن الأوضاع حالت دون ذلك وكانت بعض هذه الأوضاع خاصة بالمانيا وبعضها الآخر خاص بالحزب، فبالنسبة لألمانيا فإن إزدهار الاقتصاد الألمانى وكثرة عدد الطبقة العاملة ونجاح الحركة النقابية وعناية الدولة بالنظم التأمينية والمؤثرات الشعبية والنفسية الألمانية التى تمتزج فيها الوطنية بالطاعة والولاء هذه كلها لم تكن تشجع الاتجاه الثورى وبالنسبة للحزب فإن نجاحه فى دخول البرلمان وصلته الوثيقة بالنقابات وتعدد فروعه وصحفه ومقاره وموظفيه كلها كانت تثقل به وتجعله أشبه « بالارمادا » الذى يعجز عن المناورة السريعة فنجاحه نفسه كان يجعله يعجز عن العمل الثورى قدر ما لا يجد داعيا له حتى لو استطاع . فقد كان هناك علاقة وثيقة ما بين حجمه وطبيعته . . والوسيلة التى ينهجها ، فحجمه الثقيل كان يجعله أداة ضغط ويكفل له النجاح قدر ما كان يحول دون أن يكون أداة مناورة وثورية ، بل قد يمكن المضى إلى ماهو أعمق، فنشأة الحزب الأولى كانت مطلبية أكثر منها نظرية وكان العرق اللاسالى ـ العمالى أكثر عمقا وتأثيرا من العرق الماركسى ـ الاشتراكى . ومعنى هذا أن الحزب لم يكن يطلب الثورة للثورة . ولكنه كان يريدها لتحقيق مطالب ، وبقدر ما تتحقق المطالب بقدر ما تقل الحاجة إلى الثورة .

ومن الناحية الموضوعية الخالصة ، فمن الواضح أن النتائج التي انتهى إليها برنشتين كانت واقعية إلى حد كبير ، حتى وإن كان الأساس النظرى الذى قدمه واهيا بعض الشيء وأن عرض روزا لمتناقضات الرأسمالية رغم أحكامه النظرى أو ربما لهذا السبب نفسه لم يكن واقعيا دائما ، وأن إصرار روزا على مهاجمة التنقيحية قدم لها دعاية لم يكن برنشتين نفسه ليستطيع تقديمها ، ولعل هذا كان من العوامل التى جعلت كاوتسكى وغيره من أقطاب الحزب يؤثرون أن تمر التنقيحية حتى لا تفجر مناقشتها ضجه تحول المتهم إلى شاهد وتثير أزمة عقائدية تؤدى بالبقية الباقية من الايمان فى الأغلبية المترددة، حتى وإن زادت الإقلية المؤمنة إيمانا .

الفصل الرابع

صراع الأفكار والوقائع

تطور الاشتراكية الألمانية من بداية القرن العشرين حتى الحرب العالمية الأولى

كانت ألمانيا تودع القرن التاسع عشر ، وتستهل القرن العشرين فى مناخ أبرز ما إتسم به هو الصراع بين الأفكار والوقائع .

من الناحية السياسية كانت ألمانيا قد حققت وحدتها ودعمتها ، وطوت تلك المشاعر القومية التى تملكت أحرار ألمانيا وكتابها العظام وارادوا بها استنهاض ألمانيا المفككة للثورة على الهيمنة الفرنسية ، وأفسحت المجال لمشاعر أخرى لا تقل عمقا عن الأولى : إن ألمانيا أشبهت « الضيف الثالث عشر على مائدة التاريخ » وأنها ظلمت حقها « المشروع » فى التوسع الاستعمارى وعمل أعداؤها على تفويت الفرصة عليها، وأنها، وهى التى يماثل سكانها سكان فرنسا وبلجيكا وهولندا معا ، لا تضع يدها على مثل ما تضع عليه أصغر هذه الدول . وأن « العدالة » الأوروبية تقضى بأن تتحمل ألمانيا نصيبها من عبأ الرجل الأبيض ، ولم يكن ما حصلت عليه بالفعل فى الصين أو أفريقيا الغربية ليقنعها ، على العكس إنه كان يفتح شهيتها . .

كانت هذه المشاعر عميقة فعلا، وتقمصت لبوسا وطنيا لأن المناخ الأوربى كله كان يسبح فى تيار استعمارى ، ولم يكن من الطبيعى أن يحرم على ألمانية

ما يحلل لبريطانيا وفرنسا ، أما أن الاستعمار بأسره جريمة بشعة ، ووصمة في التاريخ الأوروبي ، وأن عبأ الرجل الأبيض المزعوم ليس في حقيقة الحال إلا أخس صور النهب والسلب والقتل والوحشية ، فهذا ما لم يخطر «للوطنيين» الألمان ، بل ولا لغيرهم . إذ لم يكن أهل أفريقيا السود أو أهل آسيا الصفر ناسا كناس أوروبا . ولم يكن أكثر المفكرين الأوروبيين تحررا وإنسانية ليتصور تطبيق القيم والنظم التي تطبق في المجتمع الأوروبي من حرية أو عدالة أو احترام للحقوق على الشعوب والجماعات الأفريقية . . أو يخطر له تلك المثل الإنسانية العالمية التي نادى بها الإسلام وطبقها محمد وخلفاؤه الراشدون منذ أكثر من عشرة قرون ، فجريمة ألمانيا هنا هي كجريمة بريطانيا وفرانسا وهولندا وبلجيكا ، وإذا كانت الوحشية الألمانية قد فاقت في بعض الحالات وحشية بريطانيا أو فرانسا فلأنها كانت قد تعلمت على يد السابقين بحيث فاق التلميذ أستاذه .

ولم يتنبه الوطنيون الألمان ، وقد استغرقتهم هذه السيكلوجية الأوروبية التي ورثتها أوروبا عن الرومان أن هناك تفرقة حادة بين مشاعر الوطنية القديمة التي استهدفت تحقيق الوحدة والاستقلال لألمانيا وإنقاذها من السيطرة الفرنسية ، ومشاعر التوسع الاستعماري والعمل لاستعمار البقية الباقية من آسيا وأفريقيا ، فقد أعتبرت كلها مشاعر وطنية نبيلة تستهدف عزة ألمانيا وكرامتها وأن لا تقل منزلتها عن منزلة جاراتها الاوروبية بحيث أستمر ذلك التقليد الجامعي الذي جعل من الجامعات أيام التحرير مدارس للمبارزة واستخدام السيف . ولم توضع السيوف في أغمادها بعد تحقيق التحرير بوقت طويل ، لقد ظلت مجردة ، مشهرة لكي تنيل ألمانيا حقها المشروع في الاستعمار ومكانها تحت الشمس ، ومقعدها في المجتمع الدولي ، وظل الطلبة يستشعرون بعد الوحدة المرارة التي كانوا يحسونها قبل الوحدة .

وأضرم هذا كله أن كان على رأس ألمانيا قيصر بروسى يؤمن بالعسكرية كـكل أسلافه ، ولا يظهر إلا مرتديا زيه العسكرى بخوذته المعدنية اللامعة التى يعلوها نسر محلق ، ووسط الضباط والجنود ، وأن زين له هذا الاتجاه بطانته مد له فى غيه . . وقد كانت وصية هذا القيصر لجنوده الذاهبين لتأديب الصينيين أن يقسو ويقتلوا . . « حتى لايجرؤ صينى . . لألف عام أن يرفع عينيه فى وجه ألمانى » ! .

ووراء هذا القيصر وضباطه كانت القوة الحقيقية الصلبة للتوسع ألا وهى الرأسمالية الصناعية الألمانية التى كانت قد بلغت أعلى مراحلها واستطاعت أن تعوض تخلفها بالعلم والإدارة والتركيز بحيث أصبحت القوة الثالثة فى العالم بعد الولايات المتحدة ، وبريطانيا وكانت بريطانيا تتأخر شيئاً ما بقدر سبقها القديم ، وارتباطها بوسائل انتاج قديمة ، وابتعادها عن التنظيم الإدارى والتركيز التى كانت ألمانيا سباقه فيها ، ولولا ما كانت بريطانيا تستمده من مستعمراتها لتخلفت أقتصاديا فى كل شىء تقريبا وراء ألمانيا .

وقبل سنة ١٩٠٢ لم تصدر ألمانيا شيئا يذكر من رؤوس الأموال إلى الخارج ، ولكنها سنة ١٩٠٢ صدرت ١٢٫٥ بليون فرنك وفى سنة ١٩١٤ أرتفع الرقم إلى ٥٤ بليون .

وسارت عملية التركيز الصناعى بدرجة لم تسبق حتى فى الولايات المتحدة . ففى صناعة الكهرباء . مثلا كانت سبع أو ثمان مجموعات من الشركات تسيطر — فى مستهل القرن — على الصناعة . وفيما بين سنة ١٩٠٨ وسنة ١٩١٣ أندمجت هذه المجموعات فى شركتين عملاقتين هما جنرال الكترنك A.E.G. وشركة سيمنس. وسيطرت الأولى على ما بين ١٧٥ و ٢٠٠ شركة، وعلى رأس مال يقارب بليون و نصف بليون مارك بينما قدر رأس المال الذى تستثمره

صناعة الكهرباء الألمانية فى الخارج بمبلغ ٢٣٣ مليون مارك .

وفى ١٩١٠ أتفقت الشركتان العملاقتان ، شركة جنرال اليكتريك الأمريكية وشركة جنرال اليكتريك الألمانية على إقتسام أسواق العالم فصارت الولايات المتحدة وكندا من نصيب الشركة الأمريكية، وألمانيا والنمسا والروسيا وهولندا ودنمرك وسويسرا من نصيب الشركة الألمانية . .

وفى الملاحة أيضا أنتهى التركيز بشركتين هما همبورج ـ أمريكا ونوردتشر لويد ، ورأس مال كل منهما ٢٠٠ مليون مارك . وفى سنة ١٩٠٣ اتفقتا مع شركة مورجان الموحدة للملاحة التجارية التى يبلغ رأسمالها ١٢٠ مليون دولار على عدم المنافسة وتحديد الخطوط الملاحية والموانى لكل شركة . .

وفى صناعة الصلب أيضاً أقتسمت « نقابة » الصلب الألمانية مع الشركات الأخرى التجارة الدولية فخص بريطانيا ٥٣,٥ ٪ وألمانيا ٣٨,٥ ٪ وبلجيكا ١٧,٥ ٪ .

بالاختصار وصل التركيز درجة زودت لينين بمعظم إحصائيات كتابه عن « الاستعمار أعلى مراحل الرأسمالية » .

وكان النظام السياسى لألمانيا أيضا يؤهلها لمستقبل كبير . .

فقد كانت دولة تعاهدية تقوم على ٢٥ دويلة أو أماره أو مملكة تكون فى مجموعها الامبراطورية الألمانية .

وتتمثل السيادة فى مجلس « البندسترات » المكون من مندوبى الأمراء والرشستاج المكون من مندوبى الشعوب .

ورئيس الدولة هو القيصر ، وهو ملك بروسيا وله من الاختصاصات مايزيد عادة عن الاختصاصات التقليدية للملك الدستورى ، فقد كان من حقه حل

مجلس الرشستاج واتخاذ القرارات الحربية ، واعلان الحرب إذا هوجمت البلاد . دون أخذ موافقة البند سترات . .

والامبراطور هو الذى يعين المستشار ، وهو الرئيس التنفيذى للبلاد ، ويرأس مجلس البند سترات ويعاونه وزراء يعدون مساعدين له ومسئولين أمامه .

والبند سترات يمثل أمراء الدول الألمانية وحكوماتها وينص القانون على ضرورة موافقة البند سترات على القوانين حتى تكون نافذة وهو يتكون من ٦١ عضوا لبروسيا منهم قرابة ٢١ عضوا . والرشستاج ويمثل الشعوب وينتخب أعضاءه جميع الذكور البالغين فى أقتراع عام سرى ومباشر على أساس نائب لكل مائة ألف ناخب وله حق إقتراح القوانين وتوجيه الأسئلة إلى المستشار وهو يضم ٣٩٧ عضوا . .

ومن هذا يتضح أن الدستور الألمانى لم يكن ديمقراطيا تماما لأن مجلس الرشستاج أضعف من مجلس البند سترات ولا يستطيع أن يقيل المستشار . ولما كان لبروسيا الأغلبية فى مجلس البند سترات ، فقد كان يكفى لايقاف أى تعديل دستورى أن يعترض ١٤ من المندوبين البروسيين (وقد كان عددهم يقارب ٢١ كما ذكرنا) كما كان لبروسيا ٢٣٦ نائبا من نواب الرشستاج .

وكان هناك عدد من الأحزاب ابرزها حزب المحافظين وحزب الأحرار وحزب الوسط الذى يضم الكاثوليك وحزب العمال الاشتراكى الديمقراطى ، كما وجدت صحافة قوية تمثل هذه الأحزاب وغيرها . .

والخلاصة أن النظام السياسى وإن كان متخلفا عن نظم ديمقراطية أخرى إلا أنه كان يحقق قدرا من الديمقراطية والحرية ، ولم يكن هناك شك فى أنه مع التطور وزيادة ثقل الجماهير ، فإن كفة الشعوب ستكون هى الراجحة ،

والواقع أن الحرب أرغمت القيصر — كما سيلي — على التنازل عن كثير من سلطاته ، ودفعته ليعلن تعديلات دستوريه جذرية تحقق المسئولية الوزارية ، وكان بوسع الشعب أن يحتفظ بها حتى لو لم تقم الثورة .

وماذا كان الوضع بالنسبة للعمال . .

كانت الطبقة العاملة تزداد عددا وقوة . فبقدر ما كانت الرأسمالية تتقدم كانت الطبقة العاملة تتقدم ويرتفع المستوى المادى والاجتماعى للعمال ، وبقدر ما كان من الممكن إطراح سياسة العمل الرخيص ووسائل التشغيل المرهقة . وقد استطاع العمال رغم كل الصعوبات أن ينظموا نقابات قوية ، وأن تفوق العضوية فيها أى عضوية أخرى فى أى دولة أوروبية أخرى ، وكانت دلالة ذلك أن الطبقة العاملة الألمانية تستطيع بفضل نقاباتها أن تحمى حاضرها وتؤمن مستقبلها ، وأنه يمكن مع نجاح الرأسمالية فى الاستعمار أن ينالها نصيب من المائدة الحافلة ، وقد لا يكون سوى الفتات ولكنه يكفى وصور ذلك أحد الكتاب فقال « كانت كل الكتابات قبل ١٩١٤ تعلن مرة بعد أخرى أن الطريق الوحيد لا تفاق مصالح العمال وأصحاب الاعمال هو الإمبريالية الالمانية ، وبعبارة الاخرى ، الاتفاق على حساب مصالح الدول الاخرى ، فإذا اتفق العمال وأصحاب الاعمال فى هذا السبيل فان الغنيمة ستكفى لاشباعهما معـا[1] » .

وكان يمكن للعمال الالمان — ولو حتى فى الظاهر — أن يلطفوا من الطبيعة الانتهازيه والنفعية لمثل هـذه السياسة بفكرة بناء الدولة الالمانية ، وأنهم لايعملون لحساب أنفسهم فحسب . أو تحقيقا لإراده الرأسماليين وحدهم ، ولكنهم يستهدفون أيضا بناء دولتهم الناهضة وتدعيم أسسها .

---

(1) Annihilation of Mansy Leslie Paul p. 135.

كما كان يمكن أن يشفع النظام القائم لدى العمال وضعه لقوانين التأمينات الاجتماعية، ولم يكن من شأن العداوة الحادة ما بين القيصر والحزب الاشتراكى الديمقراطى أن يثنى الحكومة عن هذه السياسة . على العكس ، لقد دفعت الحكومة لان تمضى فيها إلى درجة جعلت القيصر الاتوقراطى يقول « دعونا نبنى الاشتراكية وعندئذ سيهجر العمال الاشتراكية / الديمقراطية » وخضع المستشار كابريفى الذى خلف بسمارك لهذه النزوة الإمبراطورية فعينت الحكومة عناية خاصة بالتشريعات الاجتماعية وتحدثت عن رغبتها فى إقامة اشتراكية دولة(1) a state Socialism أى تحويل ملكية بعض المنشآت من الملكية الخاصة إلى ملكية الدولة . ولم يسع الحزب الاشتراكى الديمقراطى تجاهل هذا الامر، وفى مؤتمر برلين سنة ١٨٩٢ أصدر بيانا قال فيه « ان الحزب لا يرفض أى أجراء قد يفيد الطبقة العاملة فى النظام الاقتصادى القائم . ولكنه لا يرى فى هذه الاجراءات سوى تقدم ضئيل لا يمكن أن يؤثر على محاولاته لبناء دولة اشتراكية ومجتمع اشتراكى . وبالنسبة للحزب الاشتراكى الديمقراطى ، وهو تشكيل ثورى ، فإن اشتراكية الدولة تعد محافظة ، ومن ثم فإن كلمتى اشتراكية دولة ، والاشتراكية الديمقراطية يضادان بعضها بعضا ، ولا يمكن أن يتفقا » .

وبالطبع ، فإن عمل النقابات من ناحية ، ومحاولات الدولة من ناحية أخرى لا يعنيان أن العمال الالمان قد تقبلوا الوضع تماما أو أنهم تحصنوا من نفوذ الاشتراكية والماركسية ، فالذى لا ريب فيه أن جزءا كبيرا من العمال — ولعله الاغلبية — قد آمن بأفكار اشتراكية تتفاوت فى كثافتها وتركيزها ، وكانت الاكثرية تؤمن بالمبادىء العامة للاشتراكية دون أن تصل بها

(1) A. Peopele's History of Geramany by Ramos Oliveira p. 59.

إلى النهاية التى تصورها ماركس . وكان لهم فى هذا مقنع يرضى ضميرهم القومى والطبقى على سواء . كانوا يجدون فى الاشتراكية ما يشبع زهوهم الطبقى ، وفى الرأسمالية ما يشبع بطونهم . فكانوا يصلون للاشتراكية ويأكلون على مائدة الرأسمالية .. ألسنتهم مع الاشتراكية .. وأيديهم مع الرأسمالية .. يتحدثون لغة إشتراكية ويمارسون أسلوبا رأسماليا .. ولا يجدون فى هذا تعارضا يثير النقد .

فإذا كان هذا هو حال العمال ، فلنا أن نتصور أن الطبقة الوسطى من تجار أو مهنيين كانت أكثر رضا وتقبلا للوضع القائم ، إذ كان يفسح لهم مكانا طيبا فى حاضره ويعدهم بالمزيد من الفرص والاحتمالات فى المستقبل . ولأن التقطب المزعوم الذى تنبأ به ماركس لم يحدث أو على الأقل لم يكن محسوسا ..

* * *

هذا التحليل للوقائع التى كانت تعيش فيها ألمانيا وهى تدخل القرن العشرين تؤكد لنا أن الوضع السياسى والاقتصادى والطبقى لم تكن يتطلب — بالضرورة — تغييراً ثورياً . فلم تكن ألمانيا بالدولة المفلسة أو المتخلفة أو المستبدة ، بل كانت مزدهرة ، متقدمة ، لها صحافتها ونوابها وأحزابها وتستشرف مستقبلا أكثر نجاحا وازدهارا وبالطبع كانت هناك مآخذ وأخطاء ووجوه نقص خاصة فى المجال السياسى ، ولكن التطور كان يسير فى اتجاه إصلاحها ، وقد أظهر سقوط بسمارك أن التطوير السياسى فى الاتجاه الديمقراطى لم يكن مستحيلا .

ولكن فى مواجهة هذا الواقع الذى لم يكن ليتطلب إلا فسحة من الوقت وحنكة فى معالجة المشكلات .. كان هناك عدد من التيارات الفكرية تتلاقى

فى أنها تستحث الخطا أو تنشد التغيير ، وأنها لا تستلهم فى طلبتها حاجة الواقع الألمانى وإنما تحقيق نظريات وأفكار ومبادىء آمنت بها إيمانا لا يتطرق إليه الشك .

كان هناك التيار الماركسى الذى فرض نفسه على السياق الطبيعى للأمور وعرقل مضيه المحتمل ، وجعله يدخل فى المتاهات الجدلية العقيمة . .

ذلك أن ماركس — بدأ فى وضع نظريته فى أربعينات القرن التاسع عشر عندما كانت الطبقة العاملة تسقى من حميم الاستغلال الرأسمالى وتعيش فى جحيمه وتخضع لسطوة سلطانه السياسيه ونظرياته الاقتصادية،وبوجه خاص فى بريطانيا. وكان الناظر فى الأفق المدلهم المثقل بسحب الجهالة والسخيمة والمرارة من ناحية العمال والجشع والطمع والوحشية من جانب الرأسماليين ينتهى إلى تلك المقدمة الدراماتيكية التى بدأ بها البيان الشيوعى ، وما يقوم عليها من صراع طبقى ما بين الرأسماليين والعمال ينتهى بالثورة الجائحة التى تأتى على الرأسمالية .

وعندما استقر ماركس بعد ذلك بعشرين عاما فى لندن ، وعكف على وضع كتابه الضخم « رأس المال » كانت بريطانيا — رغم بداية ضئيلة لا تكاد تلحظ للتقدم — لا تزال تعيش فى الظلال المقبضة للاربعينات الجائعة . وكان ماركس ككاتب وباحث يعكف فى المتحف البريطانى معظم وقته ، ويجد من المادة المطبوعة عن فترة الأربعينات وما تلاها أكثر مما يجد عن الفترة التى يعيش فيها ولما يكتب تاريخها . فجاء رأس المال تنظيراً محكما لوضع اقتصادى يتقطب فيه معسكر العمل ما بين طبقة عمالية جائعة عارية جاهلة ، فاقدة للنفوذ والسلطة ، وطبقة رأسمالية ثرية ، قوية تسيطر على أجهزة الدولة بأسرها . وكان هذا التنظير ، وما ينتهى إليه من نتائج سليما فى جملته ومن الناحية الموضوعية ، فإذا وجد هذا الوضع ، ولم تتدخل فيه عوامل أخرى ،

فليس إلا ما تنبأ به البيان الشيوعى ورأس المال : الثورة العارمة المدمرة . .

وكان يجب على ماركس كمفكر أن يخصص هامشا فى نظريته لاحتمالات العوامل الأخرى التى كانت قد بدأت بالفعل بداية غير محسوسة فى بريطانيا . ولكن البناء النظرى الذى أقامه ماركس بدا متماسكا متكاملا ، غنى بنفسه عن العوامل الأخرى ، ولأن هذه العوامل الأخرى عندما بدأت بدايتها المتواضعه كان هو قد انتهى بالفعل من بنائه الشامخ وعمله العظيم ، وكان استغراقه فى صبه وصياغته ينسيه كل أثر للعوامل الأخرى ، ولأن ماركس إذا كان بحكم العقلية عالما فإنه كان بحكم المزاج فنانا وصاحب دعوة ، ومنظراً ، وليس تعصبه المصمت وطبعه الحاد واستعلاؤه على الآخرين وابتعاده عن تواضع العلماء إلا انعكاسات لهذا المزاج الذى لم يسمح له لا بتقدير وجهات النظر الأخرى ، أو حساب العوامل المحتملة ، أو التعديل ، وأدى به إصراره على الوصول إلى التكامل النظرى البعد عن الواقع وحافت فكرة النظرية المحكمة الشاملة على حساب المرونه والتفاصيل فى الزمان والمكان .

وكانت النتيجة أنه ترك لنا تمثالا رائعا لا يقل فى ابداعه وصدقه الفنى عن « لا كئون » ويمثل تمثيلا دقيقا لحظة الألم المروعة للمجتمع البشرى عندما التف عليه أفعوان الاستغلال الرأسمالى .

ولم يكد هذا التمثال العظيم يتم ويوضع على قاعدته ويلهم كل الناظرين الحزن والأسى قدر مايضرم فيهم الحماسة والثورة ، حتى كانت العوامل الأخرى قد مضت بعيدا بحيث غيرت الصورة تماما . فالطبقة العاملة البريطانية استطاعت أن تتعلم ، وتكتسب من العلم قوة ، واستطاعت أن تتحد وتكون النقابات ، وتمكنت من أن تتسلل إلى « أفخم نادى فى أوربا » أى البرلمان البريطانى فدخلته بعد عناء قليل وشاهد ماركس نفسه فى سنواته الأخيرة

دخول الدفع الأولى من النواب العمال ، ونجحت النقابات فى أن تبدع أسلوباً تحتكر به عرض العمل وتخل بكل قوانين الاقتصاد الحر ، وتشل أو على الأقل توهن، الاستغلال الرأسمالى .

وأنتاب التغيير الرأسمالية البريطانية أيضا فقد فتح لها الاستعمار آفاقاً جديده ووجدت فى استعباد عمال المستعمرات مندوحة عن استعباد عمال بريطانيا ، ولم تضن بفتات المائدة على العمال ، كما تغيرت ذهنية الرأسمالى فالرأسمالى الكلاسيكى أيام ماركس : الأب الفظ الخشن الذى لاقى المشاق فى صباه حتى حقق التراكم الرأسمالى ولم يكن يتحرك قلبه للويلات التى يقاسيها العمال قدمات فى الأيام الأخيرة لماركس وخلفه الرأسمالى الابن الرقيق الحاشية المهذب ، الذى تعلم فى الجامعة ويأنف من إذلال عماله أو معاملتهم بوحشية أو فظاظة ويأخذ الاستغلال على يديه صورة مقنعة ومحدودة .

ونتيجة لهذا التغيير المزدوج استطاع المجتمع البريطانى أن يكيف نفسه بحيث لا ينساق إلى الطريق المسدود ويصبح لا مناص من الثورة . فكفلت النقابات أجوراً عالية ، وعلاوات متوالية ، وأكملت الدولة عن طريق الضرائب ما تعجز عنه النقابات بحيث تحققت صورة ما من صور العدالة ولم تعد اليد العليا للإستغلال الرأسمالى وأحكامه ، وإنما للضمير الإجتماعى للأمة والقوى العديدة فيها ، كما أن المجتمع الرأسمالى إستطاع أيضاً أن يجلى ميزته الأساسية : الحرية وما تسمح به من مباداة ومرونة وصمامات أمان .

وهكذا فقدت النظرية الماركسية عن الصراع الطبقى العنيف مضمونها العملى بالنسبة لبريطانيا بالذات ، ولم يكن مصادفة أن لم ترزق الماركسية فيها حزباوكان أقرب الأحزاب إليها وأكثرها حماسةلهاهو حزب العمال المستقل ، ولم يكن يؤمن بالاقتصاديات الماركسية قدر ما كان يؤمن بالعدالة الإجتماعية

وصيحة الانقاذ والتحرير التى أطلقها ماركس .

وعندما آمن مؤسسا الحزب الاشتراكى الديمقراطى الألمانى ولهلم ليبكنشت وأوجست بيبل بالماركسيه وتتلمذا على ماركس فى لندن ، كان واقع الحال فى بريطانيا وألمانيا يتلاءم إلى حد كبير مع النظرية الماركسية ، فلم تكن ألمانيا قد إجتازت بعد الثورة الصناعية وحرم بسمارك الحزب الناشىء فأضرم الروح الكفاحية ، وأوجد ما يتطلبه العمل السرى من تدقيق فى الاختيار ، ومقدرة على التنفيذ ، كما كان هذا التحريم نفسه دليلا لا يدحض على صحة تحليل ماركس للصراع بين الطبقات .

ولكن ألمانيا إستطاعت أن تجتاز الثورة الصناعية دون أن تتعرض طبقتها العاملة لما تعرضت له الطبقة العاملة فى بريطانيا وكان بسمارك فى الوقت الذى حرم الحزب الاشتراكى هو نفسه أول سياسى أوربى أدخل التأمينات الإجتماعية فى التشريع .

وكانت ظروف ألمانيا بعد أن حققت وحدتها أفضل من ظروف بريطانيا ، إذ بدأت هذه حيث انتهت تلك ، واستعانت بالعلم والمعرفة فى الوقت الذى كانت بريطانيا تختال بأقدميتها وتتمسك بعراقتها .

والنتيجة أن ظروف الطبقة العاملة الألمانية فى الثمانينيات تحسنت سواء كان ذلك بفضل الحركة النقابية الألمانية التى كانت تعد أكبر حركة نقابية فى أوربا ، أو بفضل تدخل الدولة التى كانت رائدة فى هذا المجال أو بفضل استفادة الصناعة الألمانية من التقدم التكنولوجى .. وبقدر ما كانت ظروف الطبقة العاملة تتحسن ، بقدر ما كانت تبتعد عن المضمون النظرى للماركسية — ولم تكن المماحكة ما بين ماركس وإنجلز فى إنجلترا من ناحية ورجال الحزب فى ألمانيا من ناحية أخرى حول برنامج الحزب إلا إنعكاسا لبعض الاختلافات

ما بين الواقع العملى لألمانيا والمبادىء النظرية للماركسية .

وبدأت هذه الحقيقة تضغط على كيان الحزب وكل أعضائه، واختلفت آثار هذا الضغط فالطبقة العاملة وجدت فى العمل النقابى ملاذا كافيا يمكنهم بالفعل من تحسين ظروف العمل وهو الهدف الأساسى للطبقة العاملة بحيث أصبح المضمون الثورى للصراع الطبقى بالنسبة لها حماسة عاطفية وذكرى من الكفاح القديم دون أن يكون هناك تفكير عملى فى استخدامه ما دام من الممكن تسوية المنازعات المهنية على مائدة المفاوضات وبطريقة الإتفاقيات الجماعية . وكان وجود الحزب كأداة ، والشعارات المخيفة كشعارات تكفى جداً ، أما السياسيون فقد وجدوا أن العمل البرلمانى يكفى وأن من الممكن بالتشريع تحقيق مالا يمكن للعمل النقابى تحقيقه — أعنى التعليم والصحة والتأمين إلخ ... فضلا عن كبح جماح السلطة العسكرية وتوجيه السياسة العامة وهذه كلها يستطيعها الحزب الاشتراكى الديمقراطى بنوابه الذين زاد عددهم قبيل الحرب العالمية الأولى على مائة نائب والأصوات التى اكتسبها وزادت على أربعة ملايين . .

وبلورت هذا الاتجاه وعبرت عنه تعبيرا دقيقا « التنقيحية » التى دعا إليها برنشتين وصحبه ولكن هذا لم يكن شأن جماعات عديدة من الاتباع منهم الذين أخذوا بسحر العمل الابداعى والفنى بصرف النظر عن المطابقة العملية وهم مجموعة كبيرة تحب للحب ، وتنظر إلى الفن للفن والجمال للجمال ولا تتلمس فى العقائد الزاوية النفعية أو العملية أو حتى العلمية (فما أقل الذين قرءوا رأس المال بمعادلاته الجبرية وهوامشه العديدة) ومنهم الذين يتأثرون بدعوات التحرير ونداءات العدالة ويثورون للقيم ويتصدون للاستغلال دون أن يعنوا بتحديد المسئولية أو تعيين المسئولين أو التثبت من وقوع الاستغلال بالفعل .

وجسامته . ومنهم الذين بدأوا من البداية وأصبح من العسير عليهم أن يتراجعوا حتى لو أرادوا لأن كل شبابهم الكفاحى وذكرياتهم العزيزة هى هناك ومثلهم كمثل المتنبي . .

يراد من القلب نسيانكم وتأبى الطباع على الناقل
ولو زلتم ثم لم أبككم بكيت على حبي الزائل

فضلا عن أن كل تركيبهم الذهنى قد كيف طبقا للنظرية فلا يستطيعون عنها حولا أو فكاكا ، ومنهم الذين نظروا نظرة دولية عامة ، ومنهم الذين يفضلون بحكم أمزجتهم الصراع على الوفاق والثورة على الإصلاح والحسم على التدريج ، بالإضافة إلى الكهنة الذين يوجدون فى كل معبد والسدنة الذين يحرسون كل هيكل وجباة العشور الذين يفيدون من النظرية التى أصبحت مذهباً ومن الإيمان عندما أصبح كنيسة .

كانت المفارقة أساساً جناية الفكر على الواقع ، النظرية على الحقيقة التجريد المطلق على الواقع العملى ، رؤيا البصيرة على رؤيا البصر . إن سطورا ملتهبة كتبها مفكر عميق مؤمن ، وأقامها على أساس نظرية محبوكة ، وصب فيها — كالرصاص المصهور — نقمته على الرأسمالية ، أفقدت المجموعة التى آمنت بها أى رغبة فى ، أو أى قدرة على التمييز بين الرأسمالية فى دولة معينة وظرف معين ، والرأسمالية فى دولة أخرى وظرف آخر لأن هذه السطور وصمت الرأسمالية إلى الأبد . وأضفت عليها نوعا من الوثنية جعلها لا تتجزأ ولا تختلف بحيث لا يمكن أن يقبل منها صرف أو عدل أو توبة أو إصلاح ، فلا شىء أقل من القضاء الكامل والاستئصال التام .

ويدلنا استقراء التاريخ على أن الحقيقة المادية قد لا تكون القوة الدافعة أو السبب المباشر للعمل الثورى ، وكما لاحظ الفقيه البريطانى « ديسى » إن

المواطنين الاستراليين فى أفضل حال — ومع هذا فقد انتشرت بينهم القوانين الاشتراكية كما أن ثورة « غوغاء » باريس الذين لم يعانوا من سوءات الامتيازات الطبقية كانت أشد من ثورة فلاحى القرى الذين تعرضوا لها » .

فالقوة الدافعة قد تأتى من الاستثارات الفكرية والمعنوية ، قدر ما تأتى من الوقائع المادية ، وتتفاوت هذه الاستثارات طبقا لدرجة سموها وإحكامها . فقد تصل إلى المستوى الذى لا يدرك ، ولا يسامى عندما تكون « قرآنا » معجزا يجمع — إلى الأبد — الناس من كل دولة ، ومن كل مستوى ، ويجعل الأكثرية الأعجمية تلوى ألسنتها به ، وقد تكون « توراة » تحمى الشعب المضطهد المفرق من الشتات والذوبان والتحلل وتوجد له كيانا . وقد تكون « البيان الشيوعى » الذى بدا لأنصاره حكما بالإعدام على عهد وشهادة ميلاد لعهد آخر . وقد تكون مجرد خطبة تدفع الناس وقتها إلى حالة أشبه بالجنون ، وتكفل الانتصار فى معركة انتخابية . فعند ما ألقى بريان خطبته المشهورة عن « صلب البشرية على صليب الذهب » أصبحت القاعة ـ على حد تصوير هواردفاست ـ « بيتا للمجانين فقد نهض الناس من مقاعدهم وأخذوا يصرخون ويصفقون ويقذفون بالقبعات . . الخ وكانت النتيجة العملية انتصار بريان على منافسة التجلد » .

ذلك أن للبيان ـ بتصوير النبي العظيم ـ سحرا على نفسية الجماهير لا تستطيع له صدا . وهو يسحرها ويكون لها نوعا من الواقع النفسى الذى يغنيها تماما عن الواقع العملى ، ويغير مقاييسه العادية . أو أنه يحدث ـ بلغة علم النفس ـ عملية إحلال ، وهذا هو ما حدث لتلك المجموعة التى آمنت بالماركسية فى الحزب الاشتراكى الديمقراطى ، ورفضت التنقيحية ، وأصرت على الماركسية بعجرها وبجرها .

وكأن لم يكن هذا التيار كافيا إذ انبثق تيار آخر يدين بظهوره إلى الأحداث الروسية التى بدأت بثورة ١٩٠٥ وتكللت بثورتى ١٩١٧ (مارس ـ وأكتوبر) وخضع هذا التيار فى النهاية لتأثير لنين وتكتيكاته الظافرة . وكان أصحابه أقل عدداً ولكن أكثر حماسة وتهورا . فلم يكن الأمر أمر نظرية محكمة ، ولكن أيضاً تجربة ناجحة . فنجاح ثورة أكتوبر جعل كل وسائلها نوعاً من الطقوس والشعائر التى لها قدامه النظرية نفسها ويجب أن تؤدى بعينها ، ومن هنا أراد أصحاب هذا التيار — الشيوعيون — تطبيق التكنيكات اللينينية وتحقيق دولة تكون نسخة طبق الأصل من الاتحاد السوفيتى وبهذه الطريقة شلوا عمل الحزب الاشتراكى الديمقراطى : أغلبيته التى كانت تنهج نهجاً اشتراكياً وليس ماركسيا ، وأقليته التى آمنت بالماركسية . . ولكن دون اللينينية .

والخطأ فى تطبيق اللينينية على المجتمع الألمانى هو بالضبط كالخطأ فى تطبيق الماركسية عليه . فكما أن ماركس وضع نظريته على أساس وضع الطبقة العاملة البريطانية فى الاربعينات ، وهو وضع لم يكن ينطبق على ألمانيا — كما لم يكن ينطبق على بريطانيا نفسها فى الثمانينات ، فإن لينين وضع نظريته على أساس روسيا القيصرية الجاهلة المتخلفة التى يستبد بها حكم أوتوقراطى لايعترف بمجلس نيابى أو أحزاب أو صحافة . ولم تقم بها رأسمالية أو صناعة متقدمة ، ومن هنا كان لابد من ثورة تستحث السياق الطبيعى وتستأصل الاخطاء المتراكمة والأوضاع السيئة والاتواقراطية المستحكمة ، فلينين كان عمليا وواقعيا ، ولم يسمح للماركسية بالتأثير عليه إلا بالقدر الذى يتفق مع إرادته . والحقيقة أن الماركسية بالنسبة له لم تكن أكثر من لواء ، أو نقطة بداية . وليس من المستحيل أن نجد فى كتابات ماركس وأنجلز ما يعارض كل أجراء قام به لينين .

وهذا لايعنى أن الثورة اللينينية بالذات هى ما كان يتطلبه الوضع الروسى بالذات. لقد كان الوضع الروسى يتطلب الثورة فعلا، ولكنها لم تكن بالضرورة الثورة اللينينية بالذات. فالصورة التى أخذتها اللينينية هى نتاج المزاج اللينينى والوضع الروسى.

ولو كان للشيوعيين الألمان شىء من استقلال الفكر لرأوا أن ما كانت روسيا تحتاجه يختلف عما كانت ألمانيا تحتاجه. وأن أسلوبا ينجح بحكم زعامة لينين يمكن أن يفشل بدون هذه الزعامة. ولكن الشيوعيين لم يكونوا ليروا شيئا كهذا. لأن وهج الثورة الشيوعية أعمى أعينهم وأغشاها.

* * *

فى مواجهة هذه التيارات الفكرية اليسارية بدرجات كثافتها المتفاوتة من الاشتراكية الوردية إلى اللينينية الدموية التى تملكت أذهان بعض المثقفين والجماهير من العمال فى ألمانيا، كانت هناك تيارات يمينية مضادة تتفاوت أيضاً فى درجة كثافتها من الولاء القومى إلى الهوس الاستعمارى الذى مكن من ظهور هتلر والنازية فيما بعد وكانت تتفق مع التيارات اليسارية فى أنها لم تكن تستلهم الاحتياجات والوقائع. ولكن النظريات والمذاهب.

ولعلنا لاحظنا أن أكبر ما اسهمت به ألمانيا فى الفكر الإنسانى هو الفلسفة فإذا كانت دول الشرق قد قدمت الاديان، وإذا كانت انجلترا قد قدمت الثورة الصناعية، فإن ألمانيا قد قدمت إلى العالم أكبر فلاسفته، كانت وهيجيل وشوبنهور، فالفلسفة فى ألمانيا نوع من الديانة، ولما كانت تدور بالدرجة الأولى حول فلسفة التاريخ، فقد أصبحت نوعا من الديانة القومية.

وكما لاحظ ايستمان « فما من دولة بلغت فيها فنون الميتافيزيقيا، وأصبحت فيها الفلسفة كنيسة أو مؤسسة قومية، كما بلغته فى ألمانيا » وقد هيمنت

شخصية هيجيل العملاقة على المفكرين الألمان — بما فيهم ماركس الذى لم يتخلص أبدا من الهيجيلية . وأظهرت فلسفته أكثر الصور الفلسفية بلورة التاريخ والضمير والله والدولة . وسبق هذا كله فى مضمون ينتهى لحساب الشعب الألمانى وتمجيده ، ويتلاقى مع كتابات المفكرين الذين أكتشفوا سحر اللغة الألمانية وغاصوا وراء أساطيرها واستشفوا فيها روح البطولة والكفاح ، وجعلوا من التاريخ مزيجا من الفن والشعر والرومانتيكية . .

وفى السنوات التى سبقت وعاصرت الحرب العالمية الأولى أضيفت قسمات جديدة مؤكدة ومكثفة لبعض هذه التيارات كدعوى امتياز الجنس الآرى الذى يمثله أصدق تمثيل الشعب الألمانى . وكان بعض المفكرين الألمان مثل فاجنر وجان « فردريك موديتج جان ١٧٧٨ — ١٨٥٢ » قد نادى بها ولكن عملية تأصيلها وإذاعتها جاءت على يدى هوستون تشمبرلن والكونت جوبينو . ولعل ذلك — أى صدورها من انجليزى وفرنسى — مما ضاعف من قيمتها لدى الألمان .

وظهر أيضاً دعاة الجغرافية السياسية « الجيوبولتيكا » Ceopolitick وكان ابرزهم الجغرافى الألمانى فردريك راتزل (١٨٤٤ — ١٩٠٥) الذى شغل كرسى الجغرافية بجامعة ليبزج وأجمل محصلة دراساته فى قوانين سبعة تنبثق بدورها من فكرة أساسية هى أن الدولة كائن حى ، وأنها لابد أن تنمو وتتوسع وهذا النمو والتوسع يأخذ شكل الامتداد الجغرافى وضم الأراضى المتاخمة ، وإذا لم تفعل هذا فإنها كأى كائن عضوى تنكمش وتتقلص . ومن هنا فان عمليه الامتداد تأخذ طبيعة حيويه : ومن ثم جاء التعبير الألمانى المشهور المجال الحيوى « Le bensraum » الذى نادى به الجنرال هاوسهوفر ، وكان راتزل صديقا حميماً لوالد هاوسهوفر .

ثم جاء رودلف كيلين (١٨٦٤ - ١٩٢٢) وأخذ يدلل على صحة آراء راتزل بالأوضاع الدولية السائدة ، وكان رودلف هـذا رجلا سويديا ذا نزعة المانية قوية عاصر الحرب العالمية الأولى ، وكان استاذاً للعلوم السياسية بجامعة جوتبرج ، وألف كتابين كان لهما أثرهما الواضح فى نمو وتطورا الجيوبولتيكا ظهر أولهما فى سنة ١٩١٦ وعنوانه « الدولة كمظهر من مظاهر الحياة » وثانيهما فى سنة ١٩٢٠ واسمه « الأسس اللازمة لقيام نظام سياسى » وفى رأيه أنه لما كانت الدولة كائناً حياً فالأرض التى تشغلها هى جسمها والعاصمة والمركز الإدارى هما قلبها ورئتاها ، أما الأنهر والطرق والسكك الحديدية فهى لها بمثابة الاوردة والشرايين والمناطق التى تحوى المعادن وتجود عليها بالمواد الأولية والغذاء اللازم لنموها هى أطراف لهذا الجسم . وقد امتد الخيال بكيلين إلى إمكان قيام دولة كبرى تسيطر على أوروبا كلها وتكون خاضعه للسيادة الألمانية . وهو أول جغرافى استخدم لفظه جيوبولتيك ، وفى رأيه أن أهم ما يجب أن تعنى به الدولة هى القوة وأن حياة أيه دولة من الدول إنما تعتمد على التربه والحكومة والسلطة والاقتصاد والثقافة[١] .

وتبنى هذه الأفكار الميجور جنرال كارل هوسهوفر الذى ولد سنة ١٨٦٩ والتحق خلال المدة من ١٩٠٨ - ١٩٠٩ بالجيش اليابانى مدربا لمدفعيته ثم عاد إلى المانيا واشترك فى الحرب العالمية الأولى ، وكان ياوره هو « رودلف هس » ولما انتهت الحرب صرف همه إلى دراسة أسباب الهزيمة . وفى سنة ١٩١٨ عين مدرسا للجغرافية والتاريخ الحربى بجامعة ميونيخ ووصـــل فيها إلى مرتبة الاستاذية ثم أسس بعد ذلك بقليل « معهدميونيخ للجيوبولتيكا » وأصدر مجلة

---

(١) الجيوبولينكا تأليف رسل . هـ . فيفيلد . وج . اتزل برسى ترجمة يوسف مجلى ولويس اسكندر . ج ١ ص ٢٧ — ٢٨

لنشر آرائه ، وفى سنة ١٩٢٣ التقى بهتلر إثر قومته الفاشلة بعد أن قدمه إليه باوره القديم « هس » وتأثر هتلر تأثراً عميقاً باراه هاسهوفر وأصبحت فيما بعد — أحد أركان الدعوة النازية .

والحقيقة أن هوسهوفر لم يقنع باراء راتزل وكيللين . ولكنه أضاف إليها أيضاً نظرية الجغرافى الانجليزى هالفورد ما كيندر عن البؤرة الجغرافيه للتاريخ واضفت تلك الفكرة عنصر السيادة العالمية بالإضافة إلى فكرة المجال الحيوى ، فكانه وضع النقط على الحروف ، كما يقولون .

وعززت هذه التيارات الفكرية وضع الجناح البروسى ، وجعلت الجامعات بطلبتها وأساتذتها يتجهون الاتجاه القومى ويرون فى العسكرية بما تستهدفه من فتح وتوسع وما تقوم عليه من طاعة من ناحية ومسئولية من ناحية أخرى ، وما تتسم به من تنظيم صارم وما تتطلبه من تضحية هى المثل الألمانى الأعلى الذى يتجاوب مع مشاعر الشباب ومثاليانه ، فأخذت تظهر جماعات عديدة تنتظم الطلبه ، والضباط والمهنيين ويغذيها رجال الصناعة . . والنبلاء والملاك بالمال والنفوذ . .

وثمة عامل سلبي عزز هذه الاتجاهات . ذلك هو أن التيارات المعارضة الأخرى ، وبالذات التيارات الاشتراكية، كانت ذات طابع غريب على البيئة الألمانية ، وكان الكثير من زعمائها من اليهود بالذات ، وكانت تؤيد الاتجاه الدولى والعالمى قدر ما تنقد الاتجاه القومى والوطنى ، ولا ترى فى الوطنية سوى « شوفونية » وفى القومية إلا « الأنانية بالجملة » وكانت تدعو إلى تمزيق المجتمع وهدم المؤسسات العريقة فيه ، بما فيها النظام البرلمانى نفسه ، وكان هذا العامل وحده يدعو لقيام هيئات مضادة تحول دون تغول هذه التيارات الاشتراكية واحتوائها العمال وابتلاعها المجتمع الألمانى حتى لو لم تكن مثل

هذه الهيئات موجودة بالفعل . وأعطى هذا العامل برهانه ودليله عندما انتصر البولشفيك فى روسيا . إذ قدم مثالا للوحشية والتدمير والطغيان الذى يطالب به الشيوعيون الألمان . .

* * *

بهذه الصورة من التقطب دخلت ألمانيا القرن العشرين . . .

لم يكن هناك داع لثورة ، أو حتى انقلاب ، وكان يمكن بأجراءات جذرية وسليمة اصلاح معظم وجوه النقص . .

لم يكن هناك داع لدعوات ماركسية . . .

ولم يكن هناك داع أيضا لدعوات استعمارية وتوسعية عسكرية، ليس فحسب حذرا من عواقب الصراع واحتمال الهزيمة ، ولكن لأن ألمانيا كان يمكن أن تشبع سكانها بفضل ما أوتى هؤلاء السكان من علم ودأب وحذق ومهارة أو بدعوات سلمية تستهدف ضم النمسا وتحقيق « الانشلوس » . . .

لم يكن هناك داع لكل هذه الدعوات . . أو لمعظمها . . .

ولكنها وجدت بالفعل . .

وكان لابد أن توجد ما دام الفكر ارث للجميع . . وما دامت الشعوب تضم الصالحين والطالحين . . .

والمأساة ليست هى أن توجد . . ولكن المأساه أن لاتوجد القيادات القوية التى تقاوم السرف والشطط وتكفل غلبه الحق على الباطل وتحول دون التخبط فى اتخاذ المواقف .

ولم يقدر لألمانيا هذه القيادات . . .

ومن ثم أخذت المفارقة طابعها المأساوى . .

الباب الثانى

تحديد المسار

الفصل الخامس

ودارت رحى الحرب

لقد قيل إن أحدا لم يكن يصدق قيام الحرب العالمية الأولى عندما قامت بالفعل . فإذا كان هذا الكلام حقا ، فمن الحق أيضا أن السنوات التى سبقت الحرب كانت أبعد شىء عن السلام . وكان كل شىء فيها ينذر بالحرب ، ويوقف العالم على شفير الهاوية ، أفلم يكن طبيعيا أن يؤدى الوقوف على الحافة إلى الوقوع فى الهاوية واللعب بالنار إلى الحريق فى النهاية . .

بلى ، ولكن البشرية لم تكن لتستطيع أن تتصور الموقف تماما ببصيرتها ، كان لا بد لكى تصدق أن تراه بعينيها . كانت البشرية كالنبي الذى سأل الله أن يريه كيف يحيى الموتى . .

وفى حالتنا هذه ، لم تتصور البشرية كيف يموت الأحياء حتى قامت الحرب . وأشهدتها على أفظع معجزة قامت حتى ذلك الوقت . .

ويصدق وعدها . . والصدق شر إذا القاك فى الكرب العظام . .

* * *

قد يكون مما يخرج عن نطاق هذا الكتاب أن نبحث عن مسئولية الحرب العالمية الأولى ، لأن هذا يتطلب تمحيصا فى مجلدات ، ونحن لا نتعرض للحرب العالمية إلا بقدر ضرورة موضوعنا ، ومن زاوية آثارها على ألمانيا . .

والمهم أن حكومات الدول كانت ، وراء ظهر شعوبها ، ودون إشعارها تتملكها الأطماع .. كانت روسيا تريد من تركيا البوسفور والقسطنطينية،

وكانت فرنسا تريد من ألمانيا الالزاس واللورين ، وكانت ألمانيا تريد مجالا حيويا من روسيا ومستعمرات فى آسيا وأفريقيا ، وكانت النمسا تريد الصرب والهيمنة على البلقان ، وكانت بريطانيا تريد أن تحافظ على غنائمها السابقة . وكانت ثمة سلسلة من المعاهدات العلنية والسرية تورطت فيها هذه الدول تباعا وتلزم فريقا بالوقوف فى صف فريق ضد الفريق الآخر . ومن هنا نفهم كيف أن حادثة فردية كاغتيال الأرشيدوق فرانز فرديناند فى سيراجيفو أدت إلى الحرب . فقد رفضت الصرب الانذار المهين الذى قدمته النمسا . فداهمت الجيوش النمساوية أرضها ، فأعلن قيصر روسيا ـ الذى كان يعتبر نفسه حاميا للصرب التعبئة العامة (٣٠ يوليو) وطلب إمبراطور ألمانيا إيقاف ذلك وأصدر هو نفسه أمر التعبئة (أول أغسطس) . وعندما رفضت روسيا الإستجابة لطلبه ، ورفضت فرنسا وبلجيكا التعهد بالبقاء على الحيـــاد أعلن عليهما الحرب (٣ أغسطس) فاضطرت بريطانيا لإعلانها أيضاً فى (٤ أغسطس) — وبدأت حرب الشعوب .

وأى واحد يتابع هذه التحركات والقرارات التى أودت بزهرة شباب أوروبا وأغرقت العالم فى بحر من الدماء وجلبت من التعاسة الشقاء والدمار ما لم تجلبه حرب أخرى على البشرية وأقامت أوضاعا سقيمة كانت السبب فى نشوب حرب أخرى أفظع وأشنع منها . . لا بد وأن يتملكه العجب والأسى من أن هذه الاحداث الجسام المهولة كانت تتخذ ببساطة ويبت فيها خلال جلسة أو جلسات وينفرد بتقريرها حفنه من السياسيين وتكون النتيجة أن يساق الملايين إلى المذبحة سوق الانعام وأن تطأ الحوافر والدبابات الزرع والضرع وأن تهدم القنابل البيوت الآمنة والمصانع المشيدة . .

كانت الهيئات الوحيدة التى تستطيع شيئا أمام هذا الجنون الذى أطبق

على الملوك والقادة والديبلوماسيين وأعدى الجماهير هى الاحزاب الاشتراكية، والنقابات ، والدولية . وقد كانت الدولية ـ قبل الحرب العالمية بوقت طويل ـ قد ناقشت فى مؤتمر ١٨٦٨ القيام باضراب عام يشل الحروب . وأوجب مؤتمر زيورخ (١٨٩٣) على كل الاشتراكيين مكافحة « شوفونية » الطبقات الحاكمة والعمل بكل قوة لتوثيق أواصر التضامن بين عمال العالم . وفى مؤتمر ستوجارت (١٩٠٧) وكوبنهاجن (١٩١٠) وبازل (١٩١٢) نوقش موقف الاحزاب الاشتراكية والنقابات وعرض موضوع الاضراب العام وكان القرار الذى اتخذته الدولية فى مؤتمر بازل هو :

« فى مواجهة خطر نشوب حرب ، تلتزم الطبقات العاملة وممثلوها فى برلمانات الدول المتنازعة أن يفعلوا كل ما بوسعهم وأن يستخدموا كل الوسائل التى يرونها مناسبة للحيلولة دون نشوب الحرب ، فإذا أعلنت الحرب رغم ذلك فيجب الكفاح لانهائها بسرعة ، واستخدام الازمات الاقتصادية لاستثارة الشعب للاسراع بانهاء حكم الطبقة الرأسمالية » .

وفى مؤتمرات الحزب الاشتراكى الديمقراطى الألمانى من مؤتمر درسدن سنة ١٩٠٣ حتى مؤتمر ماجدبرج سنة ١٩١٢ كان الموضوع الهام الذى يستأثر بالنقاش هو موضوع الاضراب العام لشل الحرب . وتحدث فى هذه المؤتمرات ممثلو كل التيارات الاشتراكية على إختلافها : روزا لوكسمبرج ، وبارفوس ، وليبكنشت ، وببيل وكاوتسكى فضلا من النقابيين . وكان القرار الذى اتخذه الحزب فى مؤتمر مانهيم (١٩٠٦) ينص على أنه :

« إذا رأت اللجنة التنفيذية أن الحالة تتطلب الاضراب العام الثورى فستقوم بالاتصال باللجنة العامة للنقابات لاتخاذ الاجراءات اللازمة لتحقيق الانتصار المنشود »

ولكن كان وراء هذا القرار العلنى الذى يوحى الموافقة على المبدأ اتفاق سرى مع النقابات يقضى بأن لا يورط الحزب النقابات فى إضراب عام ، وأن لا يشجع القيام بالاضراب ولكن لو حدث ، فعلى الحزب أن يخطر النقابات قبله بوقت كاف وأن يتبنى القرار ويموله .

وبقدر ما كانت نذر الحرب تتكشف ، بقدر ما كان الحزب الاشتراكى يشعر بالخناق يضيق عليه ، وأنه يوضع فى مأزق لا يكون أمامه إلا الانتحار العقيم أو التسليم المهين . ففى سنة ١٨٧٠ عندما جوبه بالحرب مع فرنسا ، كان الموقف يختلف إختلافا كبيرا . كان الحزب كفاحيا ، ولم يكن وراءه ما يجعله يتردد أو يثقل خطوه من مبان ومنشآت وجهاز وظيفى ضخم وكانت الحرب بعد بفضل سياسة بسمارك الحاذقة تبدو للحزب دفاعية وحصل على ما يمكن أن يعد تصديقا على ذلك من الدولية ـ ومع هذا كله فقد شجبها وجعل تأييده لها رهنا بالصفه الدفاعية لها .

ولكن فى سنة ١٩١٤ كان الحزب جهازا ضخما يصل رأسماله إلى ٢١٫٥١٤٫٥٦٤ مارك . وكان يتبعه تسعون صحيفه يومية يصل تعداد توزيعها إلى ١٫٣٥٣٫٢١٢ ويعمل بها ٢٦٧ محرراً . وكان عدد العاملين فى صحف وأجهزة الحزب الأخرى ٧٥٨٩ موظفا عاديا و ٧٦٥ إدارياً و ٢٦٤٠ فنيا . وكانت مقاومة الحرب تعنى المغامرة بكل هذا إزاء ما ستقوم به الحكومة غداة المقاومة من مصادرة لكل هذه الأموال والمنشآت وتعطيل للصحف ، واعتقال وسجن وتشريد لهؤلاء الموظفين جميعا .

ولا يقل عن هذا أهمية غموض الموقف الحربى ، وتوالى الأحداث فقد كانت الخطوة الحاسمة فى الحرب هى إعلان روسيا التعبئة العامة فى منتصف ليلة ٣٠ يوليو التى تبعها إعلان النمسا التعبئة العامة بعد ذلك بساعة ، وفى ٣١

يوليو أعلنت فرنسا التعبئة العامة ، وعندما رفضت روسيا إنذار ألمانيا لها بفض إجراءات التعبئة أعلنت ألمانيا عليها الحرب فى أول أغسطس .

إن المعالم الرئيسية فى الأسباب المباشرة هى (أ) نية النمسا المبيتة على توهين الصرب ـ الأمر الذى كشفه وزير داخلية النمسا الاشتراكى فى أعقاب الحرب فيكتور أدلر عندما نشر نصوص إجتماع مجلس البلاط النمسوى فى ٧ يوليو سنة ١٩١٤ (ب) التعبئة العامة لروسيا :

وقد ضخم دور ألمانيا . ، ولا ريب أن المستشار بثمان هويفج قدم تأكيدات بمساعدة ألمانيا للنمسا ، ولكن القيصر حاول أن يتراجع عندما تأزمت الأمور ، بيد أن السياق لم يسمح بذلك ، ووقع هو نفسه فى أحبولة أقواله ودعاياته . .

النقطة الهامة التى تجعل موقف الاشتراكيين الألمان سنة ١٩١٤ يختلف أيديولوجيا ، عن موقفهم سنة ١٨٧٠ ـ هى التعبئة الروسية التى كانت السبب المباشر فى دخول ألمانيا الحرب . فروسيا كانت رمز الرجعية والاتوقراطية والعدو رقم « ١ » لكل الأفكار الشعبية والاشتراكية وقد أيد ماركس وانجلز ، فى مناسبات معينة الحرب ضد روسيا . وكانت المناسبة المباشرة لتكوين الدولية الأولى هى الاجتماعات التى نظمت تأييدا لبولندا ضد الطغيان الروسى ، وفى مؤتمر أيرفورت قال بيبل « إذا هاجمت روسيا — عدوة الحضارة الإنسانية ، وحامية الوحشية والبربرية ، فإننا سنقاوم هذا العدوان بفاعلية أكثر من زعماء البلاد » .

فلو أن هذا العامل لم يكن موجودا ، لأمكن للحزب الاشتراكى الديمقراطى ـ ولو من ناحية المبدأ ـ أن يقاوم . . ولكن ماذا يفعل والمستشار الالمانى نفسه يذكرهم بأن ماركس وبيبل أيدا الحرب على روسيا . .

مع هذا . . فلا ريب أن الحرب هى الحرب ، وأن الحزب الاشتراكى الديمقراطى لم يكن يرغب أبداً الدخول فى هذه التجربه ، وكان يريد مخلصا مقاومتها بكل الطرق باستثناء الحرب نفسها ، وكان يعلم أنه إذا قاوم الحرب الخارجية إلى النهاية فسيؤدى هذا إلى حرب أهلية قد تكون عواقبها والحرب الخارجية معلنه ، اسوأ من الحرب الخارجية — فيكون والأمر كذلك كمن استخدم دواء هو اسوأ من الداء نفسه ، وقد نظم عددا من المظاهرات ضد الحرب فى الشوارع حتى حرمتها الحكومة فعقد الاجتماعات داخل المبانى والمقار الحزبية .

وكانت الأيام تمضى سراعا ، والأحداث تتلاحق والحزب لا يستطيع أن يحسم ، وفى الساعات الأخيرة أوفد الحزب هرمان مولر إلى باريس للتباحث مع الاشتراكيين الفرنسيين فوجد أن يد الاغتيال قد امتدت إلى «جوريس» وتوالت الأحداث فأعلنت المانيا الحرب على روسيا وهو هناك ، وانقطعت الاتصالات . فلم يستطع أن يفعل شيئا ، وعاد فى اللحظة الأخيرة قبيل أن تعلن المانيا الحرب على فرنسا وتغلق الحدود .

وقبل أن توقف الحكومة الحزب الاشتراكى الديمقراطى فى المأزق الذى سيحدد مصيره ، ويكون عليه أن يقول لا أو نعم ، اجتمعت الهيئة البرلمانية للحزب ، وكانت قد فقدت زعيميها التليدين ليبكنشت وببل وحل فى رآسة الهيئة هو جوهاسه . وأيدت الأغلبية الساحقة سياسة الحكومة — واستبعدت فكرة الإضراب لأنه قد يؤدى إلى حرب أهلية . واقترح كاوتسكى الامتناع عن التصويت ولكنه لم يجد تأييداً ، وأعلن أربعة عشر نائباً منهم هاسى ، ولدبور ولبيكنشت « الابن » معارضتهم الأمر الذى يوضح أن الحزب لم يفقد المعارضين الشجعان . ولكنهم كانوا أقلية . أما الأكثرية فقد جرفها التيار .

وطبقاً لمبادىء الالتزام الحزبى ، فقد كان على الأقلية أن تخضع للأكثرية ووقع على « هاسه » بالذات ، تطبيق هذا المبدأ .

وهكذا فعندما تقدم المستشار بتمان هولفيج إلى الرشستاج يوم ٤ أغسطس سنة ١٩١٤ طالبا اعتماد خمسة ملايين مارك للحرب قام هوجوهاسه وقرأ البيان التالى : ..

« إننا نجابه بالحقيقة الصلبة للحرب ، ونهدد بأهوال الغزو العدوانى . ونحن لا نتخذ اليوم قراراً يناصر أو يعارض الحرب . إن علينا فحسب أن نقرر الوسائل الضرورية للدفاع عن البلاد . إن الكثير ، إن لم يكن كل شىء ، بالنسبة لشعبنا ولحرياته هو الآن فى مهب الريح لاحتمال غزو الاستبداد الروسى الذى لوث نفسه بدماء النخبة من شعبه .

وإنه لعلينا أن ندرأ هذا الخطر ، وأن نؤمن الحضارة والاستقلال لدولتنا وبهذا نفى بما إلتزمنا به دائما . إننا فى ساعة الخطر لن نتخلى عن بلاد آبائنا ونحن نرى أننا على وفاق مع « الدولية » التى اعترفت دائما بحق كل شعب فى الاستقلال القومى والدفاع عن نفسه ، ونحن كذلك ندين — وفاقا مع الدولية أيضاً — أى حرب للغزو ، ونطلب أنه حالما يتحقق هدف الأمن ، وأن يكون خصومنا على استعداد للسلام فيجب إنهاء هذه الحرب بسلم يجعل من الممكن أن نعيش فى صداقة مع الدول المجاورة .

وفى ضوء هذه المبادىء ، فإننا نصوت تأييدا للاعتمادات » .

ولم يكن هناك صوت واحد معارض . صحيح أن ليبكنشت أراد أن يعارض ولكنه طلب أن يتكلم أولا . الأمر الذى لم يسمح له به ..

ونزلت هذه الموافقة كالصاعقة على كل الاشتراكيين فى كل البلاد .

ذلك أنه لم يساور هؤلاء الاشتراكيين شك فى أن الحزب الاشتراكى الديمقراطى العظيم، حامى حمى الاشتراكية، وحافظ تراث ماركس وانجلز بنوابه الـ ١١٠ سيقف موقف المعارضة، وأن هذه المعارضة هى التى ستفجر الثورة العالمية. كانت الأحزاب الاشتراكية تسمع الشعارات الثورية للحزب دون أن ترى التحول الإصلاحى البطىء الذى زحف عليه .. وعندما تكشف لها موقف الحزب الحقيقى كانت الصدمة التى أصابتها تشبه الصدفة التى يصاب بها المشاهدون لرجل الفوارؤيتة باستمرار فى ملابس « التشريفة » والنياشين والسيف .. وقد خلع كل هذه .. وبدا عاريا، كما ولدته أمه .. ، وقد يصور هذه الصدمة أنه عندما أخطر لينين بهذا النبأ رفض أن يصدقه وعندما عرض عليه منشورا فى صحيفة « فوروارد » التى تنطق باسم الحزب ظن أنها مزورة، وأن روزا لوكسمبرج فقدت الوعى وكتبت بعد ذلك إن هذا العمل هدم أربعين سنة من العمل الاشتراكى، بل لعل الكثير من الأعضاء العاديين صدموا، كما عبر عن ذلك « جوليوس برونثال » عندما قرأ النبأ فى جريدة « أربيتر زيوتنج ».

ولكن إلى جانب هؤلاء الذين استغرقتهم الاشتراكية أو النزعة العالمية فلا ريب أن أغلبية الأعضاء كانوا يؤثرون المضى مع حكوماتهم إلى قدرها وأن التعقيد والسرعة والخوف من الهزيمة أمام الروس وتيقظ المشاعر الوطنية بتأثير هذه الأحداث .. كل هذا لم يدع لقادة الحزب الاشتراكى الديمقراطى خيارا إلا تأييد حكوماتهم ..

وقد يلقى ضوءا على موقف الحزب الاشتراكى الخطاب الذى ألقاه الزعيم الاشتراكى الديمقراطى النمساوى فيكتورادلر فى بداية الحرب، وكما هو معروف، فإذا كان هناك حزب اشتراكى يفترض أن يقاوم حكومته، فهذا

الحزب هو الحزب الاشتراكى الديمقراطى النمسوى لأن الحرب كانت — من الناحية المباشرة — جريمة النمسا أولا وقبل كل شىء — ومع ذلك فعندما تحدث عن تصويت الألمان تأييداً لاعتمادات الحرب قال « إن رأيى هو أن يصوت المرء للاعتمادات ولكنى لا أعلم كيف أضع هذه الكلمات على شفتى . إنه لقرار مريع ، وإنه لصراع مريع ، لأن عمال الدول الأخرى يتعرضون للتجربة نفسها . إن هناك شيئا واحدا أسوأ من الحرب . ذلك هو الهزيمة » .

واعترف صراحة بأنه لا يعنى كثيرا بالنمسا كدولة ، ولكنه يشعر بالمسئولية تجاه الناس الذين يعيشون فى هذه الدولة ومضى فقال « إن مصالح عمال النمسا وعمال ألمانيا واحدة ، ونحن ندين الحرب ونلعن الذين بدأوها ، ولكن ما دامت الحرب قد أصبحت حقيقة واحدة فسنخوضها مع شعبنا » .

ورفض إدلر أن يناقش آثار الحرب على الحركة الاشتراكية الثورية العالمية « إننا اليوم لا نجابه بموضوع الثورة الروسية ولكن بموضوع ما إذا كانت الجيوش الروسية ستطأ برن Brunn وبودابست وفينا . وفى مثل هذه الحالة فإنى لا أستطيع أن أستقصى ما إذا كان الانتصار الروسى سيكون مواتيا لحزب تحرير العمال الروسى . إننى إذا أحسست بالسكين فوق عنقى ، فعلى أولا وقبل كل شىء أن أزيحها بعيدا » .

ويمثل هذه العبارات والتشبيهات نفسها ، برر جول جيسيد — أكثر الاشتراكيين ماركسية — انضواء العمال الفرنسيين تحت لواء « الوحدة المقدسة » عندما تشتعل النار فى البيت فليس هناك وقت للمجادلة ، والشىء الوحيد هو مد الأيدى إلى الدلاء » . وأعلن نقابى فرنسى أنه لو أن الاشتراكيين الفرنسيين قاوموا التعبئة لأطلق عمال باريس عليهم النار فورا ودون انتظار للبوليس . وقال فردريتش ستامفر Stampfer محرر جريدة

« فورورارت » « لو أن قادة الحزب قاوموا الحرب لا كتسحتهم الجماهير ، ولما فهم أو سامح مئات الألوف من الاشتراكيين الديمقراطيين نواب الرشتاج لو صوتوا ضد اعتمادات الحرب » .

ولا ريب أن هذه الأصوات كلها مما لا يمكن أن يطعن فى سلامتها ، ولا يجوز أن يرمى أصحابها بالخيانة أو الجبن ، وهى أولى بالاستماع من صيحات لينين الطريد أو روزا لوكسمبرج ، المفكرة الدولية .. ، كما أن علينا أن لا ننسى أن كارل ليجين زعيم الحركة النقابية الألمانية العتيد كان قد أعلن فى أول أغسطس تأييده للجبهة الوطنية التى طالب بها القيصر ، ولا تقتصر دلالة هذه الواقعة على أنها تمثل وجهة نظر القيادة النقابية وجمهورها الضخم المنظم ، وإنما هى تمثل أيضا ضغطا كبيرا على الحزب للوقوف موقف التأييد ، لأن الحزب كان يستمد جزءا كبيرا من عضويته من النقابات ويعتمد عليها فى العمل العمالى المنظم .

إزاء هذا كله لا يمكن للمؤرخ المنصف أن يدين قرار الحزب فى ٤ أغسطس حتى لو كان من الناحية الموضوعية والمجردة خاطئا ، لأنه لا يمكن الحكم على مثل هذا القرار عن كثب ، أو من الناحية المجردة . وعلى من يحكم عليه أن يضع نفسه فى وقت ومكان الذين اتخذوه . والحق أنه الموقف الذى يجد القادة أمامه ، وازاء ضغط الملابسات أن ليس لهم إلا النزول على رأى الجماعة ، والذى عبر عنه الحكيم العربى :

فلما عصونى كنت منهم وقد أرى غوايتهم أو أننى غير مرشدى
وهل أنا إلا من غزية إن غوت غويت ، وأن ترشد غزيه أرشد

وقد يقال إن مهمة القيادة هى توجيه الجموع وليس إتباعها والانسياق وراءها وهذا حق ، ولكن يحدث أن تأتى لحظات لا يمكن فيها مقاومة اندفاع

الجماهير ، ويكون من الضرورى انتظار مناسبة يفتر فيها المد الكاسح . ويفقد قوته الدافعه .

هو إذن قرار تطلبته الضرورة حسناً أو سيئا ، خطأ أو صوابا . وليس مصادفة أن يكون أ كبر من ندد به « لينين » فلم يكن لينين ألمانيا أو فرنسياً . ولم يكن فى وطنه . ولم يكن لديه شىء يخسره أو يجعله مسئولا ، وكان يستطيع فى منفاه القصى أن يصدر من الأحكام ما يمليه عليه المنطق المجرد ، أو العقيدة المصمته . أو المزاج الشخصى قدر ما كان وضعه — كطريد سياسى — يجعله يندد بالحرب . . ويثور . . .

وهناك أيضاً روزا لوكسمبرج . ولكن روزا مفكرة دولية موضوعية وعندما تحتدم المشاعر الوطنية أو تستعر المعارك ، فلا يكون لها مكان ...

وأخيراً فهناك كارل ليبكنشت . النائب الوحيد الذى كاد أن يعلن المعارضة . ولكن كارل ليبكنشت لم يكن يمثل رأيا قدر ما كان يمثل حالة عاطفية قد تصيب ، وقد تخطأ . . . وسنرى جريرة هذه الحالة على مصير « سبارتاكوس » .

ولو افترضنا ، جدلا ، أن رفض النواب الاشتراكيون اعتمادات الحرب . . فماذا كان يحدث ؟

كانت الاعتمادات ستظفر بتأييد الأغلبية ، وفى الوقت نفسه فسيوصم الحزب بالخيانه والعماله . . وستبطش به الحكومة . فإذا كان لديه قوة للدخول مع الحكومة فى معركة فستكون الحرب الأهلية التى سيهزم فيها ، فضلا عن أنه ليس من المنطق فى شىء أن يحارب الإنسان الحرب بالحرب نفسها — وبالذات بحرب أهليه . وحتى لو سارت المعركة فى مصلحة الحزب فلن يكون ذلك أفضل كثيراً للحزب . أو للحكومة . لأن الأعداء لن يعترفوا بالحزب ،

أو يغيروا خططهم تقديرا له .. وفى مقابل هذا، فإن وجودهم فى المجال السياسى كان يضمن خيرا للحزب، أو على الأقل — يعد أخف الضررين فلو انتصرت ألمانيا فسيواصل البقاء، ولن تستطيع الحكومة البطش به أو تلويث صفحته. ولو انهزمت فسيتقدم ليمسك بزمام الأمور، وهو ما حدث بالفعل.

وقد كان بوسع لينين، لو لم يندفع وراء الفكرة التقليدية للاشتراكية عن الحروب وشعار « وحدة الطبقة العاملة الدولية » أن يتبين أن حربا من هذا النوع، وبالذات ما بين ألمانيا وروسيا كانت ضرورية لتوهين، بل لتحطيم، أكبر قوتين تمثلان الرجعية والعسكرية والاتوقراطية فى أوروبا، وأن هذا التحطيم وحده هو الذى سيفسح الطريق إن لم يكن للاشتراكية، فعلى الأقل لنظم أكثر ديمقراطية. وهذا ما تنبه إليه بعد مدة عندما دعا إلى جعل الحرب ضد الملوك والأباطرة والرأسمالية، وهو ما كان سينتهى إليه المآل فى جميع الظروف، وبالنسبة للمهزوم والمنتصر، فالحرب ليست تمثيلية. إنها دوامة تذهب بالنظم وتقتلعها من الجذور.

* * *

ودارت رحى الحرب ...

وكانت الخطة التى وضعها الجنرال فون شليفن رئيس الأركان الألمانية سنة ١٩٠٥ تقضى باكتساح الالزاس واللورين واقتحام ميتز ومنها إلى باريس ونجح « مولتكه » رئيس أركان ألمانيا وقتئذ (وهو ابن أخ فون مولتكه قائد الحرب السبعينية) فى تطبيق هذه الخطة إلى حد كبير، فقد هاجم الجيش الألمانى بلجيكا واستولى على بروكسل ثم سار إلى شمال فرنسا عابرا نهر المارن ودافعا أمامه القوات الفرنسية والانجليزية، وفى ٢ سبتمبر كانت الجيوش الألمانية تقترب من باريس نفسها وكانت الحكومة تتركها وتنتقل إلى بوردو.

ولكن حدث وقتئذ أن استطاع القائد الفرنسى « جوفر » أن يعوق مضى الجيوش الألمانية بمناورة بارعه. وأن يتمكن من إحداث ثغره فى الجبهة الألمانية بطول خمسين كيلو ، فاضطر الألمان إلى التراجع حتى نهر الرين . وكانت تلك هى « معجزة المارن » التى غيرت مسار الحرب ، واوقفت مضيها ، وأطالتها لأكثر من سنتين تاليتين بدلا من القضاء على فرنسا فى ستة أسابيع ، كما قدرت القيادة الألمانية ، وحلت حرب الخنادق محل المعارك .

وفى الداخل ، كان الحزب الاشتراكى الديمقراطى يفوق من أثر الصدمة الأولى ، وكانت الجماهير تعود إلى صوابها الذى فقدته فى بهرة الحماسة ، وتبدأ تتبين المعنى الحقيقى والواقعى للحرب ، وعندما تقدمت الحكومة للرشستاج فى ديسمبر سنة ١٩١٤ طالبة اعتمادات أعطى ليبكنشت صوته معارضا ومخالفا بذلك سياسة حزبه ومن هذه اللحظة حتى اعتقاله بسبب قيادته المظاهرات أول مايو سنة ١٩١٦ وقد كان صوت المعارضة فى الرشستاج . ولم يدع وسيله ليعبر بها عن رأيه إلا اتخذها وتعرض فى هذا السبيل لمختلف صور المضايقات التى وصلت إلى حد الضرب أو الحيلولة المادية دون أن يتحرك من مقعده وإن لم يعلم العالم الخارجى بشىء من ذلك وقتئذ لأن الرقابة كانت تحول دون نشر شىء عنه .

والحقيقة أن ليبكنشت لم يقنع بالعمل البرلمانى . لقد بدأ من سبتمبر ١٩١٤ ينظم حركة احتجاج فى ستوجارت ، كما كانت روزا لوكسمبرج وجوليان كارسكى وكلارا زتكين وفرانز ميهرنج الذى كان فى السبعين من عمره ينظمون الدعاية ضد الحرب. وفى إبريل سنة ١٩١٥ نشروا العدد الأول من الانترناسيونال وكان هو العدد الأخير فقد حوكم الطابعون والناشرون والكاتبون بتهمة الخيانة.

وفى مايو ١٩١٥ حازت النشرة التى أصدرها ليبكنشت عن الحرب بعنوان

« العدو فى البيت » ذيوعا كبيرا ، وبعد ذلك بشهر نشر « نداء الألف » وهو نداء وقع عليه ألف عضو من أعضاء الحزب بعضهم من الشخصيات البارزه ووجه إلى قيادة الحزب الاشتراكى الديمقراطى وجاء فيه أن الحرب قد كشفت عن طبيعتها الامبريالية وأن على الحزب أن يسعى للسلام .

وأهم من « نداء الألف » ما نشرته جريدة الحزب فى ليبزج تحت عنوان « الحاجة الملحة هذه الساعه » ودارت حول فكره نداء الألف ووقع عليه ثلاثة من ابرز قيادات الحزب هم كارل كاوتسكى وادوار برنشتين وهوجو هاسه . والأول كما هو معروف منظر الحزب ، والأخير رئيس الهيئة البرلمانية للحزب .

وعندما أعلنت الحكومة أنها ستتقدم فى ديسمبر سنة ١٥ إلى الرشيستاج لطلب اعتمادات جديدة اجتمعت الهيئة البرلمانية للحزب . وأظهر التصويت أن ٦٦ ٪ من الأعضاء يؤيدون الحكومة وأن ٣٤ ٪ يعارضونها وكانت النواة الصلبة للمعارضة فى الحزب — باستثناء ليبكنشب وروزا — هى المجموعة التى تزعمها هاس وحملت أولا أسم التجمع العمالى الاشتراكى Sozialistische Arbeitagem . einschaft ولما قدمت الحكومة بالفعل طلبها عارضه عشرون نائبا اشتراكيا وامتنع أثنان وعشرون رغم أن قرار الحزب كان هو الالتزام برأى الأغلبية . وطالب كارل ليجين رئيس النقابات بفصل الأعضاء الذين انتهكوا نظام الحزب ، ولم يتخذ وقتئذ شىء ، ولكن الحزب فصل بعد ذلك ليبكنشت وأصدر قرارات يقضى بأن معارضه رأى الحزب تفقد المعارض عضويته فى الهيئة البرلمانية . وكان هذا القرار هو الذى أدى إلى تصدع وحدة الحزب فى ربيع عام ١٧ — عندما عقدت مجموعة هاسه وكاوتسكى مؤتمرا فى جوتا وأعلنت استقلالها عن الحزب الاشتراكى

الديمقراطى وحملت اسم « الحزب الاشتراكى الديمقراطى المستقل » وطالبت هذه المجموعة الحكومة بأن تعلن فورا أهدافها الحقيقيةمن الحرب وأن تدخل فى مفاوضات لسلام لا يكون فيه غالب أو مغلوب ولا مطالبة بتعويضات أو الحاق لأراض وأن ترفع الأحكام العرفية والرقابة على الصحف التى فرضت مع إعلان الحرب .

وبقدر ما كانت هذه الآراء تقدميه بالنسبة للحزب الإشتراكى الديمقراطى الذى أصبح يوصف بكلمة « الأغلبية » بقدر ما كانت تعد محافظة بالنسبة لجموعة الدولية التى أخذت تتشكل شيئاً فشيئاً ويقودها عمليا ليبكنشت ، ومذهبيا روزا لوكسمبرج .

وبدأ ليبكنشت وروزا يجمعان الإتباع ، وكان الأول قد تحرر من عضوية الحزب عندما فصل فى ١٢ يناير سنة ١٩١٦ ، كما كانت الثانية قد تحررت من سجنها فى ٢٢ يناير ١٦ الذى أودعت فيه منذ قيام الحرب وفى ٢٧ يناير سنة ١٩١٦ بينما كانت ألمانيا تحتفل بعيد ميلاد القيصر ظهرت فى الأسواق رسالة فى صورة خطاب مفتوح يندد بالمناسبة ويحمل توقيع «سبارتا كوس » .

وشيئاً فشيئاً توالت رسائل سبارتا كوس وكلها تحض على الثورة وتدعو الجنود لأن يحولوا حرابهم نحو الطبقة المستغلة ، وفى إبريل سنة ١٩١٦ ظهرت رسالة « أزمة الإشتراكية الديمقراطية أو رسالة جانوس » وهو الأسم الذى إنتحلته روزا وكانت قد كتبت قبل عام من نشرها واعتبرت للتو ، وعلى إيجازها ، إحدى الكتابات الإشتراكية الكلاسيكية .

وكانت هذه الكتيبات محدودة العدد ، فحتى سبتمبر إقتصر توزيعها على خمسمائة نسخة ، ولكن ليبكنشت إستطاع أن يجد أنصاراً يطبعونها بالمطبعة من خمسة آلاف نسخة .

وقبل أول مايو سنة ١٩١٦ أعلن ليبكنشت عن إجتماع عام يعقد مساء هذا اليوم ، وشهد الإجتماع قرابة عشرة آلاف وعندما بدأ ليبكنشت يهتف بسقوط الحرب والحكومة ،هاجم البوليس الإجتماع واقتلعه من مكانه واقتاده إلى السجن حيث حوكم وحكم عليه بالسجن عامين (رغم حصانته البرلمانية) وفقد مقعده فى الرشستاج — وعندما نظرت القضية أمام محاكم الاستئناف ألقى خطابا عنيفا رفع العقوبة إلى أربع سنوات ، وأدت المظاهرات التى قامت إلى سجن كثير من أنصاره ، كما قبض على روزا لوكسمبرج وأعيدت إلى السجن .

الفصل السادس

الثورة وإعلان الجمهورية

فى صيف ١٩١٦ أخذت موجه الانتصارات التى بدأت بها ألمانيا الحرب تنحسر وتتجمد، فحطمت الجيوش الروسية الجبهة النمساوية فى جاليسيا، ودخلت رومانيا الحرب ضد ألمانيا، وتجمد الهجوم فى الجبهة الغربية، وأحست الدوائر العسكرية أن من الضرورى إجراء تجديد يخلص الجيش من هذا الوضع ويعطيه دفعة إلى الامام، وكان المارشال هندنبرج ومساعده الجنرال لودندورف قد إكتسبا شهرة أسطورية منذ أن هزما الجيوش الروسية فى معركتى « تاننبرج » والبحيرات المازوريه » وأصبحا رمزاً للعسكرية الألمانية المنتصرة. وفى ٢٩ أغسطس إستدعاهما القيصر وعين الأول قائداً عاماً والثانى رئيساً للأركان.

وكان هندنبرج بخلقه وخلقه الرمز الذى يمثل العسكرية البروسية بينما كان لودندورف هو القائد الفعلى، وواضع الإستراتيجيات. بل والحاكم بأمره فى ألمانيا بأسرها. وقد إستطاع عن طريق الضرورات العسكرية أن يفرض نفسه على الشئون الداخليه والسياسية للبلاد، وكل كبيرة وصغيرة فيها.

وكان لودندورف مزيجا من العبقرية والشذوذ، الفن العسكرى والفكر السياسى وقد كان هو الذى قذف بلينين إلى روسيا فى القطار المغلق المشهور

كما كان هو الذى ساند هتلر فى قومته المجهضة فى بافاريا سنة ١٩٢٣ . وقد إعتقد أن القدر قد إختاره لينقذ ألمانيا فى هذه المرحلة الحرجة وليعيد تنظيم كل شىء فيها ولينفث فيها روحا جديدة من الدقة والطاعة والإخلاص وجعله ذلك يتدخل فى الشئون السياسية إلى درجة جعلت من القيصر ويلهلم نفسه « صفرا متوجا » على حد قول البعض .

على أن المهمة المعينة التى جاء من أجلها والتى تفوق أى مهمة كانت بالطبع المهمة العسكرية ، وفى البداية حققت سياسة لودندورف بعض الانتصارات فدخول لينين روسيا أدى إلى تسليمها وتوقيعها معاهدة برست ليتوفسك التى كانت انتصاراً ألمانيا خالصا ، وفى الجبهة الغربية حافظت الجيوش الألمانية على خطوطها واستنزفت قوى الفرنسيين والبريطانيين ، بينما كانت الغواصات الألمانية تغرق السفن والقوافل البريطانية ، ولكن هذه كلها لم تكن إلا فصولا من القصة القديمة : مطاولة القدر ، والقدر غالب ، ومكابرة الوقائع ، والوقائع فارضة نفسها ، والاستدانة على حساب المستقبل والمستقبل آت لا ريب فيه . فإدخال لينين إلى روسيا حقق المطلوب منه : تسليم روسيا . ولكنه كذلك أوجد شيئاً غير مطلوب بالمرة : تغلغل الدعاية الشيوعية فى عقر العسكرية الألمانية . وحرب الغواصات أدت إلى دخول أمريكا الحرب ضد الألمان دون أن تدفع بريطانيا للتسليم ، واستراتيجية الدفاع فى الجبهة الغربية استنزفت قوى الجيوش البريطانية والفرنسية ، ولكن هذه الجيوش عوضت خسائرها بالإمدادات الأمريكية فى حين لم تستطع الخطوط الألمانية تعويض خسائرها حتى وإن كانت أقل بكثير من خسائر الفرنسيين والبريطانيين .

وفى الداخل كانت البأساء تشتد ، وكان المدنيون يدفعون الثمن مع الجنود . وأمضى الشعب شتاء ١٦/١٧ على البنجر الذى كان يخصص للحيوانات ولكنه

فى الشتاء الثانى لم يجد حتى هذا البنجر وزادت وفيات الأطفال ، واندلعت مع بدية عام ١٩١٨ اضرابات عمال الذخائر التى اشترك فيها ربعمائة ألف من عمال برلين وطالبوا بالإضافة إلى الطعام تحقيق « سـلم عاجل دون تعويضات أو إلحاقات طبقا للمبادىء التى وضعها قوميسيرو الشعب الروسى فى برست ليتوفسك » وكان هذا الإضراب مفاجأة للجميع ، حتى للحزب الاشتراكى الديمقراطى «الأغلبية» واعتبره البعض احتجاجا على معاهدة برست ليتوفسك بينما اعتبره البعض الآخر « بروفة الثورة » .

وحقيقة الحال أن النقابات لم تـكن حتى هذه الفترة قد اشتركت فى معارضة الحرب بل لعـل زعماءها أيدوها عندما أعلنت ، ولـكن تطورات الحرب أذابت جمودها وأظهرت فيها نواة معارضة حملت اسم المندوبين الثوريين Revolutiorare obleute وتركزت أولا فى وسط عمـال معادن برلين . ومثلوا أبرز العمال المهرة وأنشط النقابيين وقد انضموا فيما بعد إلى الحزب الاشتراكى الديمقراطى المستقل وإن احتفظوا فيه بنوع من الاستقلال وكان مجال عملهم فى المصانع والنقابات التى كانت حتى ذلك الوقت تتقبل الحرب وتقاوم الإضرابات ، واستهدف المندوبون الثوريون تحويل النقابات من هيئات اقتصادية إلى قواعد للعمل السياسى الثورى .

واعتبر قيام المندوبين الثوريين ونجاحهم فى تنظيم إضراب عمال الذخائر دليلا على خطأ النظرية الماركسية التى كانت ترمى العمال المهرة — ارستقراطية العمال — بالعمالة للرأسمالية وخيانة قضية الطبقة العاملة ..

وحاولت الحـكومة إبعاد زعماء هذه الحركة .. ولـكن الـكثير منهم كان من أمهر العمال .. ولم يكن من السهل الاستغناء عنهم . وكانت مهارتهم تـكسبهم نوعا من الحصانة لم يتمتع بهـا غيرهم من المعارضين الثوريين

كالاسبرتا كونسيين .. ولكن كان هناك نقصان رئيسيان فى المندوبين الثوريين الأول أن نفوذهم كان يتركز فى العاصمة ولم يمتد كثيراً إلى الأقاليم والثانى أنه لم يكن لهم نظرية سياسية أو برنامج عمل للثورة التى كان الجو يتلبد بها وينذر بالانفجار .

ولم يكن أمام لودندورف إلا أن يمضى فى الشوط الذى بدأه إلى النهاية ، فقرر الهجوم قبل وصول مزيد من الجنود الأمريكيين . وفى مارس ١٩١٨ تحركت فيالق الجبهة الغربية بعد أن زودت بمئات الألوف من الجنود الذين نقلوا من الشرق بفضل معاهدة برست ليتوفسك[١] وسار الهجوم حتى وصل إلى نقطة من نهر المارن لا تبعد سوى ٥٦ ميلا عن باريس وبدأت عملية شطر قوات الحلفاء ، ولكن فى يوليو بدأ « فوش » قائد الحلفاء هجومه المضاد ، وأخذ الحلفاء يدفعون الألمان فى بطء ولكن فى استماتة . وفى ٨ أغسطس نجحت الفرق الاسترالية فى إحداث فجوة واسعة فى الخطوط الألمانية بينما كانت القوات الأمريكية تتدفق . ففى مارس كان هناك ٣٠٠,٠٠٠ وفى يوليو وصل العدد إلى ١,٢٠٠,٠٠٠ وكان من المحتمل أن يزيد إلى مليونين فى نوفمبر .

وبدأت نذر الانهيار ، ولكن لودندورف كان يكابر وعندما سأله وزير الخارجية فى يوليو — أى بعد فشل هجوم مارس المأمول — عما إذا كان متأكدا من دحر الأعداء . رد بإيجاب مؤكد .

وفى ٢٦ سبتمبر شن الفرنسيون هجوماً واسعاً غرب ارجون بينما كان

---

(١) وقد لاحظ بعض المؤرخين أن استحواز ألمانيا على مساحات واسعة (حوالى ثلث روسيا) بمقتضى هذه المعاهدة تطلب إبقاء قوات ألمانية كبيرة للاحتفاظ بها .. ولو أن هذه القوات توفرت للهجوم لكان من المحتمل أن لا يقف حيث وقف . فكأن ألمانيا قد عوقبت على شراهتها شر عقاب .

الأمريكيون يتقدمون ما بين آرجون والموز وتحرك البريطانيون والبلجيكيون وفى ٢٩ سبتمبر طلبت بلغاريا ــ حليفة ألمانيا ــ الصلح كاشفة الجناح الجنوبى الألمانى . وكانت هذه الهجمات المتلاحقة أقوى، مما يستطيع لودندورف احتماله . فاعترف بالحقيقة المرة وصارح القيصر بأنه فقد كل أمل فى الانتصار وأن من الضرورى بدأ المفاوضات قريبا .

وقبل أن تؤدى الهزيمة العسكرية إلى الاندحار كانت التطورات السياسية ــ داخل ألمانيا وخارجها ــ تجبر القيصر على أن يعدل فى الأوضاع السياسية الداخلية تعديلا جذريا .

ففى ١٧ مارس سنة ١٧ وصلت الأنباء الأولى عن ثورة مارس فى روسيا ، فدفعت إلى السطح بالمخاوف التى كانت كامنة فى الأعماق ، وتبينت السلطات الحاكمة لأول مرة أن من الممكن أن تقوم ثورة ، والحرب دائرة .. خاصة إذا بدت بوادر الهزيمة .

وشجعت ثورة مارس فى روسيا بعض أعضاء الحزب الاشتراكى الديمقراطى لأن يتقدموا مطالبين بإصلاح النظم الانتخابية وأيدتهم فى ذلك الأحزاب جميعها باستثناء المحافظين .

والواقع أن الأمبراطور أعلن فى أبريل ومايو عن عدد من الإصلاحات فى النظام الانتخابى ودخل ــ للمرة الأولى ــ فى اتصالات مع الرشستاج قبل أن يعين المستشار هرتلنج . وفى سبتمبر ١٩١٨ وجه خطاباً إلى المستشار كان فى حقيقته رسالة إلى الشعب والرشستاج جاء معها « .. أريد أن يتم التعاون بين الشعب والحكومة بطريقة أكثر فعالية لتحقيق خير الوطن وتقرير مصيره ، وتقضى إرادتى أن يشترك الرجال الذين يتمتعون بثقة الشعب مع الحكومة فى كل ما لها من الحقوق والواجبات » ولم تكن هذه فى حقيقة الحال ارادة الإمبراطور . . ولكنها كانت ضرورة التطورات الحربية التى

كانت تتطلب تغييرا جذريا . واستقال هرتلمنج وعمد الإمبراطور إلى إختيار مستشار لم يكن من النكرات السياسة أو الحاشية التى يصدر إليها الأوامر هو البرنس ماكس أوف بادن الذى كان صهر الدوق مكبرلاند الانجليزى وعرف بميوله الديمقراطية .

وفى ٥ أكتوبر سنة ١٩١٨ أعلن المستشار الجديد أمام الريشستاج « إن كتفى رجل واحد لاتقويان على حمل العبء الذى تنوء بحمله الحكومة الآن . واعتقد أن الطريقة التى تدار بها شئون الإمبراطورية اليوم يجب أن تتغير . ولن تستطيع أية حكومة أن تتكون فى المستقبل مالم تحرز ثقة الرشستاج ويكون جل أعضائها منه » وعقب ذلك صدر قانونان يوم ٢٨ أكتوبر سنة ١٩١٨ حققا المطالب الاتية :

(ا) النص على ضرورة أن يحوز المستشار ثقة الريشستاج وأنه المسئول عن كل الأعمال التى يأتيها الإمبراطور ، وأن المستشار والوزراء مسئولون إمام الريشستاج والبند سترات .

(ب) أضيف إلى اختصاصات المجلسين التشريعيين اختصاصات كان ينفرد بها القيصر مثل إعلان الحرب ، وعقد الصلح ، وتوقيع المعاهدات ، وأصبح قيام القيصر بذلك رهنا بموافقة الرشستاج والبند سترات .

(ج) أصبحت الإدارة الحربية المطلقه التى كان يتمتع بها الإمبراطور خاضعة للرقابه الماليه .

وأعلن المستشار « إن نظاما جديدا يبدأ اليوم تنتقل بوساطته الحقوق الاساسية التى كانت لشخص الإمبراطور إلى الشعب الألمانى » وسمى علماء القانون فى ألمانيا هذا الخطاب وثيقة النزول السياسى [1] .

---

(١) نظرات تاريخيه دستورية للاستاذ حسن صادق ص ١٧ — ٢١

وكانت مهمة البرنس ماكس صعبة . فقد كانت القيادة العسكرية تلح بعد أن برح الخفاء ـ الحاحا مستمرا فى التفاوض فورا ، وتأمل فى صلح تقليدى يتيح لها فرصة لالتقاط الانفاس ، ويحتفظ لها ببعض المكاسب ، بينما لم يكن الحلفاء ـ بما فيهم الرئيس ولسن ـ على استعداد لشىء من هذا القبيل ، كما لم يكن لديهم ما يحملهم على العجلة ، والواقع أن المفاوضات استمرت أسابيع طويلة مؤلمة .

وكانت الخطوة الأولى للبرنس ماكس هى تشكيل وزارة تمثل الأحزاب الكبرى فى الرشستاج . وكان هذا فى حد ذاته يعد تغييرا كبيرا فى النظام الدستورى وخطوة نحو تعديله وجعله أكثر ديمقراطية . ولما كان الحزب الاشتراكى الديمقراطى أحد الأحزاب الكبرى فى الرشستاج، فضلا عن أهميته الخاصة فقد عرض عليه البرنس ماكس الاشتراك فى الوزارة .

ونوقش هذا العرض فى اللجنه القومية للحزب والهيئة البرلمانية ، وفى اجتماع مشترك ضم الهيئتين اتفق على الاشتراك فى الوزارة بشروط كان أهمها السلام العاجل والإعلان الصريح بأن ألمانيا ستكون على استعداد للانضمام إلى أى مجتمع دولى يؤسس لحل منازعات السلام على أساس نزع السلاح والتعهد بإعادة بناء بلجيكا والصرب والجبل الأسود والوصول إلى حل حول تعويضات الحرب ووضع إدارات مدنيه فى المواقع المحتله واعطاء الالزاس واللورين الحكم الذاتى وأن يكون حق الانتخاب سريا ومباشرا لجميع الألمان الخ . . وهى مبادىء قلل من أهميتها أنها وضعت وألمانيا على شفا الهزيمة وعندما كان المنتصر يستطيع أن يجبرها على هذا كله ، وما هو أكبر ..

وأوضح أخذ الأصوات أن هناك أقلية تناصر الدخول دون قيد أو شرط وذكر ايبرت المجتمعين « إذا لم يتدخل الاشتراكيون الديمقراطيون فلن

يكون هناك سلام سريع – ولا دمقرة للدولة ولتحقيق هذين المطلبين للشعب الألماني فإن علينا أن نشترك في الحكومة » وعبر اوتو فيلز عن مخاوفه من أنه عندما تتهاوى الامبراطورية ، فإنها ستأخذ الاشتراكيين الديمقراطيين معها ، ورفض شيدمان أى تعاون وزارى ، ولكن ايبرت أقنعهم بأنه « إذا كنا نريد جعل جذور الحكومة في البرلمان فكيف يسعنا أن نقف بعيداً ، وهل يكون هناك أى فرصة لحكومة برلمانية دون الاشتراكية الديمقراطية » وانتهى الأمر بقبول العرض ودخول اثنين من الأعضاء البارزين هي باور وشيدمان الوزارة .

وكان هذا القرار حدثاً يمثل في دقته وخطورته قرار ٤ أغسطس سنة ١٩١٤ . فدخول الاشتراكيين الديمقراطيين الوزارة كان يشركهم في مسئولية الهزيمة ويلطخهم بها ويعرضهم لتنديدات العسكريين واليساريين وهي إعتبارات كانت كفيلة بأن تصرفهم عنها – لولا ما تصوروه من أن الوجب الوطني يملى عليهم في هذه الظروف الحرجه — كما أملى عليهم في ٤ أغسطس — الموافقة . .

ويتفق الجميع على أن دخول الاشتراكيين كان من باب التضحيه وبدافع من الوطنية وليس من باب الطمع أو الطموح ولكن الخلاف يدور حول صواب أو خطأ القرار ، والمعيار الذى يفصل في ذلك هو هـــل الحزب الاشتراكى الديمقراطى يستهدف تحقيق غاياته عن طريق التشريع البرلماني أو أنه حزب ماركسى ثورى يرتبط بنظرية معينة وأسلوب معين . فإذا كان الحزب الاشتراكى هو الحزب الماركسى فلا خلاف في أن القرار من ناحية المبدأ خاطىء فكل دعاوى البرلمانية لا محل لها ولا تساوى قلامه ظفر في الماركسية . ولكن إذا كان الحزب الاشتراكى الديمقراطى هو في حقيقة الحال ومنذ نشأته ، ومهما حمل من شعارات حزب ديمقراطى برلماني ساحة معاركه هي الانتخابات

والأصوات فلم يكن هناك مناص من الاشتراك فى الحكم لا لتحقيق الديمقراطية والإصلاح البرلمانى فحسب .. ولكن أيضاً لدرأ عواقب عدم الاشتراك، وهذه العواقب هى إما هيمنة عسكريين ورجعيين وإما فوضى تنتهى بسيطرة دكتاتورية أو بلشفيه . . وهى كلها إختيارات بغيضه إلى الاشتراكيين الديمقراطيين . . وعندما تنبأت روزا لوكسمبرج « إن الشيدمانيين والباوريين الذين بدأوا بتقبيل يد الملك الألمانى سينتهون بأن يطلقوا النار على العمال الألمان عندما يضربون ويتظاهرون ، إن هذه الاشتراكية العجيبة قد سدت — باشتراكها فى الوزارة كنصيرة للرأسمالية — الطريق أمام ثورة العمال الماثلة » فإنها فى حقيقة الحال كانت تقول بلغتها الحادة إن اشتراك الحزب الاشتراكى الديمقراطى حال دون نشوب الثورة الماركسية . وهذا هو ما حدث بالفعل وما كان يريده بالفعل الحزب الاشتراكى الديمقراطى وما كان ينقمه عليه الماركسيون . .

إذن لم يكن هناك مبرر موضوعى لتجريح القرار ما لم يكن المروء ماركسيا . وقد اثبتت الأحداث التى جاءت سلامته ، إذ مكن الحزب من السيطرة على الحكومة بسهولة .

وبدأ البرنس ماكس اتصالاته بالرئيس ولسن الذى أختاره من بين الحلفاء لأسباب لاتخفى فى الأيام الأولى لشهر اكتوبر ، وفى منتصف الشهر وجه الرئيس ولسن نظر ماكس إلى ما أرتبطت به الحكومة الأمريكية من تحطيم كل القوى المطلقه وأن القوى التى حكمت ألمانيا هى الآن من هذا النوع ، فسار خطوة أخرى وأعلن فى الأسبوع الأخير من اكتوبر عن الإصلاحات الدستورية التى أشرنا إليها والتى حققت جوهر الديمقراطية البرلمانية . ولكن لم يكن لهذه الاصلاحات الصدى المطلوب لدى الرئيس ولسن إذ رد بأنه يرفض

مناقشة المدنه إذا كان على الحلفاء أن يتعاملوا مع القادة العسكريين والاتوقراطيين الملكيين ، وساور ماكس الشك أن ويلسن يريد خلع القيصر أو حتى القضاء على الملكية .

وأثار هذا الموقف ثائرة العسكريين وطالبوا بمواصلة الحرب واصدر لودندورف بيانا إلى الجيش حذر فيه من أن الحلفاء يطلبون تسليما غير مشروط « وهو أمر لا يمكن ـ نحن العسكريين ـ أن نفعله » وتجاهل لودندورف المستشار وذهب لمقابلة القيصر وثار البرنس ماكس وأصر على إقالة لودندورف وادعى لودندورف أمام القيصر أن طلباته السابقة لبدء المفاوضات إنما كانت وسيلة لكى يعرف الشعب الألمانى موقف الحلفاء وتصلبهم ، وأنه الان وقد عرف ذلك على استعداد للحرب بروح جديدة . ولكن دولة العسكريين كانت قد دالت وأرسل المستشار نائبه فون باير ليحاسب لودندورف . وعندما هاجم لودندورف المستشار وحمله مسئولية الصلح المشين ـ وأنه لو ترك الأمور تسير هكذا « فستجد البلشفيه خلال بضعه أسابيع هنا » رد نائب المستشار فى برود « لست أخشى هذا ، وبالإضافه فعليك أن تدع هذه الأمور لى . فأنا أفهمها أفضل منك » .

وانتهت المقابلة باستقالة لودندورف وانتهاء دكتاتوريته العسكرية التى بدأت من صيف ١٩١٦ وكانت ـ رغم كل ما حاوله ـ عقيمة كأى دكتاتوريه عسكرية وكان عليه خلال أسابيع معدوده أن يفر الى السويد متخفيا، وإن احتفظ بالقيادة العليا لهندنبرج ، لأن هندنبرج كان ـ كما ذكرنا ـ رمز العسكرية أكثر مما كان اداتها المنفذه .

ومن المهم هنا أن نوضح أن المستشار ماكس لم يكن ليمضى فى مفاوضاته لو لم يتأكد تماما من عجز الجيش عن المقاومة . ولكنه لم يكن يستطيع

أن يعلن ذلك حرصا على البقية الباقية من القوى المعنوية وللاحتفاظ بمركز تساومى قوى مع الحلفاء . وقد زاد اقتناعا بعجز الجيش عن المقاومة بعد لقاءاته مع الجنرال جرونر الذى عين محل لودندورف وكان ضابطا حصيفا وعلى علاقات حسنة بزعماء الحزب الاشتراكى الديمقراطى « الأغلبية » وتصور جرونر أولا أن من الممكن مواصلة المعارك ولكنه لم يلبث بعد دراسة الموقف بدقة أن اقتنع بضرورة الدخول فى مفاوضات بأسرع ما يمكن .

وأول عدم وصول رد من الرئيس ولسن على آخر رسالة من رسائل المستشار ماكس إليه ، وكانت بتاريخ ٢٦ أكتوبر ، بأن الرئيس يطلب تنازل القيصر ونوقشت الفكرة وكان الجميع يقبلونها كمخرج من المأزق وضروورة ، مهما كانت قسوتها « فإن نهاية رهيبة خير من رهبـــة بلا نهاية » على حد تصوير شيدمان . ووافق جرونر نفسه بشرط أن لايجبر القيصر على ذلك .

وكانت هناك قوى أخرى تعمل فى الميدان وتسرع بسير الأحداث .

فنى ٢٣ أكتوبر أفرج عن ليبكنشت بناء على اقتراح شيدمان الذى تصور أن وجوده خارج السجن أقل خطرا من بقائه داخله ، ولكن ليبكنشت استقبل استقبال الأبطال وسط احتفالات شعبية لم تخطر ببال الاشتراكيين الديمقراطيين ، وأجلس فى عربة مليئة بالورود وجرها عمال برلين واخترقوا بها الشوارع ، وفى روسيا توقفت المواصلات وأغلقت المصانع عندما وصلها النبأ وأرسلت الحكومة برقية تهنئة بتوقيع لينين وسيفردلوف وستالين .

ومن ناحية أخرى ، فإن اذعان الاتحاد السوفيتى للشروط التى أملتها المانيا عليه بمقتضى معاهدة برست ليتوفسك أسفر آليا عن اعتراف المانيا بالاتحاد السوفيتى وبأن يكون له سفارة فى برلين ، واختار لينين ادولف جوف ـ الذى كان أحد أعضاء الوفد الروسى فى مفاوضات برست ليتوفسك ـ سفيرا للاتحاد

السوفيتى فى ألمانيا . وأحضر هذا علما أحمر كبيرا نقش عليه « ياعمال العالم اتحدوا » ونصبه فوق السفارة الروسية فى أكبر ميادين برلين « انتردنلندن » كما اصطحب وفدا من ثلثمائه فرد بعضهم من أقدر المنظمين والمهيجين . وكانت شحنات المطبوعات الثورية تصل بانتظام إلى السفارة متمتعة بالحصانة الديبلوماسية، وأصبحت السفارة هى مقر القيادة الشيوعية . وكان جوف يجتمع كل مساء تقريبا باتباع ليبكنشت وغيرهم من اليساريين، ولم يقتصر الأمر على المطبوعات، فقد وزعت النقود والأموال ووضعت الخطط ، ومضى هذا قدما ولفترة طويلة. وكانت له آثاره الخطيرة فى إضرام الاتجاهات الشيوعية والثورية .

ووصل المدى الثورى إلى مايقارب الذروة عندما ثار البحارة فى كيل . .

ولم تكن تمردات البحارة بالشىء المجهول من قبل . ولكنها كانت نادرة وفردية وتقمع فوراً وبشدة . ولكن اضطراب الأحداث والعوامل الخاصة التى سيرد عنها الحديث أعطت هذه التمردات طابعا آخر .

وخلال يوليو سنة ١٩١٧ تمرد بعض بحارة البارجة برنذرجنت لتبولد Prinzregent Luitpold لسوء الجراية ، ونظموا مسيرة احتجاج فى ميناء ويلهمشافن . وعندما عادوا إلى السفينة قبض على زعمائهم وحكم على بعضهم بالسجن ، كما رحل اثنان إلى « كولون » حيث نفذ فيهما حكم الاعدام . وفى الوقت نفسه فقد أمرت الاميريالية بتكوين « لجان طعام » ينتخبها البحارة أنفسهم وتتولى الاشراف على توزيع الجراية . وهذه اللجان التى أريد بها القضاء على الشكوى أصبحت نواة للخلايا الاشتراكية ومجالس البحارة فيما بعد .

ولكن لم يكن لمثل هذه الاضطرابات أن تصل إلى شىء كبير لو لم تتردد تلك القصة التى أثارت البحارة ، فقد قيل إن الاميرالية قررت القيام بمغامرة

انتحارية يتصدى فيها الأسطول الألمانى للأسطول البريطانى ، فإذا استطاع أن يهزمه فسيؤدى ذلك إلى تعزيز موقف المانيا فى مفاوضات الصلح ، وإذا انهزم فلن يخسر شيئا لأنه كان فى حكم المقرر أن يضع الحلفاء أيديهم على الأسطول ، وفضلا عن ذلك فسيكسب الشرف وحرمان الحلفاء من الأسطول .

وعززت هذه الشائعات أن أصدرت الاميراليه فى الأيام الأخيرة من أكتوبر الأوامر بأن تقلع البوارج إلى عرض البحر بعد أن ظلت فى مرابضها قرابة سنتين .

وتعددت الشائعات فقيل إن الأسطول البريطانى قد تحدى الأسطول الألمانى فى مبارزة حتى النهاية .. وأن الاميرالى العجوز .. فون تريبتز سيخرج من معتكفه ليشهد المعركة .. وأن القيصر نفسه سيقود الأسطول على ظهر البارجة « بادن » .

وفى مساء ٢٩ أكتوبر عندما أمرت القوة الرئيسية من الأسطول بالاقلاع تمرد بحارة الأسطول الأول، وأبرق القباطنة المذعورون إلى الاميرال فون هيبر، فأمر بتأجيل الاقلاع يوما حتى يتحكم الضباط فى الموقف ، ولكن التمرد استمر فى اليوم التالى فألغى الاميرال إقلاع السفن .

وكان ذلك انتصارا للبحارة . ولكن الاميرالية لم تكن لتسمح بأن يمضى هذا دون عقاب . وفى اليوم التالى ـ ٣١ أكتوبر . أرسلت احدى الغواصات فتصدت للبارجة ثورجن ووجهت نحوها أنابيب توربيدها ، كما أحاطت ثلاث مدمرات بالبارجة وبهذه الطريقة حوصر البحارة ، وعندما أرادت البارجة هوليجلاند أن تحول دون ذلك ، وقعت هى نفسها فى مأزق ، وأنزل بحارتها وبحارة البارجة ثورجن وهم قرابة ثلثمائة وخمسين بحارا .

ولكن الأمر لم يمض بمثل هذه السهولة فى بقية السفن ، وعندما أقتيد ١٨٠

بحارا من بحارة البارجة مار كجراف إلى السجن البحرى فى قاعة كييل ثار بحارة الأسطول الثالث واعتزموا تحرير زملائهم واجتمعوا بتوجيه من بعض البحارة الاشتراكيين ، فاستمعوا إلى خطابات من بعض زعمائهم ، ومن « أرتربوب » رئيس الاشتراكيين الديمقراطيين المستقلين ، وتكرر هذا الاجتماع فى المساء الثانى – والثالث من نوفمبر – ولكنه لم يمر بسلام . فقد أطلقت احدى دوريات البوليس النار على البحارة . فاكتسح البحارة فى الصباح التالى مدينة كييل وهاجموا مخازن السلاح وكون الوقاد ألتلمت Aitelt سوفيت بحارة كيل – السوفيت الأول فى المانيا واتخذ من مدرسة التوربيدو مقرا .

ورأى قائد القاعدة الاميرال سوشون Souchon أنه لا يستطيع مقابلة البحارة بالقوة – فدعا زعيمهم ألتلت لمقابلته وعرض مطالبه – وتضمنت هذه المطالب إطلاق سراح المسجونين ، وتحسين الطعام والشراب وأن يعفى البحاره من تحية الضباط المتقاعدين كما تضمنت ضرورة موافقة البحارة على خطط الأسطول للخروج إلى عرض البحر . .

وتلقى سوشون هذه المطالب بهدوء ، وأبدى استعداده لتنفيذ ما يستطيعه منها وإرسال ما لا يستطيعه إلى برلين للموافقة عليه . وفى الوقت نفسه ابرق إلى الحكومة فى برلين طالبا أرسال مندوب عنها ليؤكد للبحارة أن ليس هناك إتجاه لإقلاع السفن ، وذكر أن من الخير أن يكون هذا المندوب من من الحزب الاشتراكى الديمقراطى . .

وخلال هذه المدة سيطر البحارة على مدينة كيل تماما وقبضوا على كل الضباط وجردوهم من سيوفهم ونياشينهم وزجوا بهم إلى السجن ، ورفعت كل السفن الرايات الحمراء ، وفى أكبر ميادين المدينه ، كان بحار سمين يدير حركة المرور ويضع فى حزامه ثمانية مسدسات ، وحول عنقه – نيشان الجدارة – أعلا

الينياشين البحرية - انتزعه من عنق أحد قادة الغواصات ، بينما كان زملاء البحارة يذهبون إلى بقية الموانى لحث بحارتها على المشاركة فى الثورة . وأعلنت جريدة « فولكش زيتونج » التى تصدر فى شلسونج هولشتين إن الثورة تسير . . وأن ما حدث فى كيل سيحدث فى الأماكن الأخرى خلال الأيام القليلة القادمة . . . وستؤدى إلى حركة تطوق كل ألمانيا .

* * *

كانت كل هذه العوامل تضغط ثقيلا وحثيثا على البرنس ماكس فى برلين . بالإضافة إلى التهاوى السريع فى الجبهة الذى كان يجعل لكل يوم ، بل لكل ساعة ، أهميتها وخطورتها ، وتخلى حلفاء ألمانيا عنها ، ففى ٣١ أكتوبر وقعت تركيا على اتفاقية هدنة . بينما كان رسول نمساوى يسلك طريقه عبر الخطوط الإيطالية للتفاوض فى الهدنة . وكان البرنس ماكس يتململ فى انتظار رد مذكرته إلى ويلسن بينما كان اختلاف وجهات نظر الحلفاء يحول دون وصول الرد السريع ، ففى الولايات المتحدة كان هناك من يرى أن ليس فى ألمانيا حكومة يمكن التفاوض معها ، وكان من رأى الجنرال « برشنج » مواصلة الهجوم حتى التسليم دون قيد أو شرط . ولكن فوش إعتقد أنه قد يخسر مائة ألف جندى قبل الوصول إلى شروط أفضل . وأنه ما دامت الشروط التى ستملى تماثل التسليم فليس من حق أى واحد أن يسفك نقطة دم أخرى .

وفى ألمانيا فهم تأخير الرد أنه إصرار من الحلفاء على خلع القيصر ، وتمسك شيدمان بضرورة اتخاذ إجراء ما لحمل القيصر على اتخاذ هذه الخطوة من تلقاء نفسه ، ولكن القيصر الذى لم يكن ليعتزم ذلك فاجأ مستشاره بالسفر فى مساء ٢٩ أكتوبر إلى مقر القيادة العليا فى سبا « بلجيكا » وعبثا حاول ماكس أن يقنعه فى الدقائق الأخيرة وبالتليفون قبل سفره بالإقلاع عن هذه الفكرة محذرا « إنه فرار آخر إلى فارن » وهو تحذير كان جديرا بأن ينفذ إلى أعماق

القيصر . . ولكن عبثا . . فقد كان القيصر يسير إلى قدره .

وخلال هذه الفترة كانت أحداث كييل تمتد لتشمل كل الموانى وتنتقل من الموانى إلى المدن . . وإلى جبهات القتال . وكانت آثار ذلك تضغط على الاشتراكيين الديمقراطيين « الأغلبية » وتشعرهم بأنهم قد تأخروا طويلا وأن الزمام يفلت من أيديهم بسرعه وأنهم ما لم يتخذوا خطوة حاسمة فلن يستعيدوا منزلتهم أبدا . وبدا لهم أن الشيء الوحيد الذى يجعلهم يستدركون تخلفهم ويستعيدون المبادأة هو خلع القيصر فتمسكوا بذلك ، حتى « ايبرت » الذى كان أكثرهم تحملا للاوضاع . وسأل المستشار ايبرت بصراحه « هل إذا توصلت إلى إقناع القيصر بالتنازل فهل ستقف بجانبي فى الصراع حول الثورة الاشتراكية Social revolution » فأجاب ايبرت بلا تردد « إذا لم يتنازل القيصر فليس هناك مفر من الثورة الاشتراكية ولست أريدها . وفى الواقع فإنى أكرهها كالخطيئة » .

أمام هذا التأكيد عين المستشار لجنة للتفاوض مع الحلفاء على شروط الهدنه ، ولم تكن اللجنه من العسكريين ولكنها كانت من المدنيين ولم يكن الضابط الوحيد فيها من أركان الحرب ،واعد قطارخاص بعد ظهر يوم ٦ نوفمبر، وبعد سفره بدقائق وصل رد الحلفاء الذى طال انتظاره وهو يعرب عن استعداد الحلفاء لتلقى وفد المفاوضه .

وكان على المستشار أن يصفى حسابه مع « جوف » سفير الاتحاد السوفيتى الذى جعل من السفارة مقراً للاعداد للثورة،وكان شيدمان قد اقترح أن يوعز لأحد الحمالين باسقاط أحــد الصناديق المرسلة للسفارة والمتمتعه بالحصانه الدبيلوماسيه حتى ينكشف ما تحتويه من مطبوعات تحض الألمان على الثورة ، وحدث هذا وطرد جوف .

واتهمته الحكومة الألمانية فى إذاعة موجهة إلى الشعب الروسى بأنه ، بالإضافة إلى ماقام به من تحريض فإنه انفق ١٠٥٠٠٠٠ مارك على شراء أسلحة وذخائر للثوار . . ورد جوف بكل بجاحه أن نشاطه فى الاثاره والتحريض إنما تم بمساعدة الحزب الاشتراكى الديمقراطى المستقل ، وأن المبلغ الذى زعمت الحكومة أنه أنفقه على شراء أسلحة وذخائر يقل فى الحقيقة عما انفق بالفعل ، وما يصل إلى بضعه مئات من الالوف ، وأنه يفخر أنه عمل بكل ما يستطيع لدفع الثوره الألمانية[١] .

وقرر المستشار أن ينهى مسألة اعتزال القيصر ، فأخذ يعد العدة للسفر إلى سبا عندما قيل له إن ايبرت وشيدمان يطلبان مقابلته فوراً ليسمع منهما بعض المطالب التى قررتها هيئة الحزب، وعندما ظهر أمامهما، كان الرجلان مأخوذين. وقدما إليه انذاراً من خمس نقط . منها إيقاف حظر الاجتماعات العامة ، وزيادة عدد الاشتراكيين الديمقراطيين فى الوزارة، وأهم من هذا كله أن يعلن القيصر تنازله عن العرش ظهر اليوم التالى (٨ نوفمبر) وأن يعلن ولى العهد تنازله عن حقه الوراثى ، فإذا لم تنفذ هــــذه المطالب حتى ظهر اليوم التالى فإن الحزب سينسحب من الوزارة .

وكان البرنس ماكس يعلم أن حزب الأغلبية قد غلب على أمره ولم يعد له خيار وأنه عندما طالب بتنازل القيصر ، فانما لأن ذلك هو أقل ما يمكن أن تتقبله الجماهير التى انطلقت من عقالها ، والحقيقة أنه بينما كانت مسئوليات الحكم ومشكلة التفاوض مع الحلفاء والتعامل مع القيصر ومتابعة سير المعارك وما إلى هذا كله يشغل وقت المستشار ووزرائه ، كان الشيوعيون والمستقلون يعملون وقد خلا أمامهم الجو تقريبا . وفى الأيام الأولى من نوفمبر اكتسحوا

---

(1) A Cenitury of Conflict by Stefan. T. Possony p. 96.

معظم المدن . فكل الموانى خضعت بدرجات متفاوته لسيطرة « سوفييتات البحارة » وتهاوى الضبط والربط بين الجنود ، سواء منهم جنود الجبهة أوجنود المؤخرة، وكانت كل فرقه تستقدم لحفظ النظام تصيبها العدوى فيرفض جنودها اطلاق النار على العمال والمتظاهرين وينضمون إليهم،وظهرت الصحف المعارضه من كل نوع دون أن تأبه للرقابة وكانت كلها تطالب بعزل القيصر وإقامة جمهورية سوفيتية . وظهر التعارض والتخبط ما بين أوامر وزير الحربية وأوامر الحاكم العسكرى لبرلين فى حالات عديدة ، وتعطلت المواصلات بل إن الحكومة نفسها أمرت بانتزاع قضبان السكك الحديدية التى تصل بعض المناطق الثائرة ببرلين حتى لا ترسل هذه المناطق ثوارها وظهر أن المجموعات الثورية على اختلافها قدأعدت العدة بفضل الأموال والخطط التى دبرها« جوف» للقيام بالثورة يوم ٤ نوفمبر ولكنها أجلت لبضعة أيام واقترح ليبكنشت القيام بها يوم ٨ أو ٩ نوفمبر ، ولكن المندوبين الثوريين أوضحوا أن هذه الأيام أيام صرف مرتبات ، ومن العسير إبعاد العمال عن المصانع ، وعندما ألقى البوليس القبض على أرنست دميج Ernest Daumig زعيم المندوبين الثوريين وجد معه خطة مفصله للثورة يوم ١١ نوفمبر . .

ولم تكن هذه مجرد شائعات . إذ أن الاشتراكيين المستقلين واتحاد سبرتاكوس دعوا إلى الاضراب العام من الساعة التاسعه من صباح يوم ٩ نوفمبر للمطالبة بخلع القيصر والقضاء على الملكية وفى الصباح الباكر ليوم ٩ نوفمبر اتصل شيدمان تليفونيا بالمستشار سائلا « هل تنازل القيصر » وعندما قيل له « ليس بعد » قال « لم يذهب هو وإذن فسأذهب أنا » وفى الساعة التاسعة كرر سؤاله وعندما علم أن القيصر لم يتنازل بعد أعلن استقالة الاشتراكيين « الأغلبية » من الوزارة .

وبدأ الأضراب . . وتجمعت مئات الألوف من العمال وظهرت لافتات ضخمة تحمل بخط كبير عبارة « أيها الأخوه لا تطلقوا النار » ليواجه بها العمال الجنود . ولكن لم تكن إليها حاجه . فقد ذاب الجنود وسط الجموع ، أو تفرقوا . . ولما لم يجدهم ضباطهم تفرقوا هم أيضاً . وفي هانوفر عندما حاولت السلطات دفع الجنود لضرب العمال . . انضم الجنود إلى العمال . وفي كولون رفع الجنود علما أحمر على ثكنتهم وتكرر هذا في كاسل وفرانكفورت وغيرها . .

وفي دار المستشارية ـ المكان الأخير للوزارة ـ كان الاضطراب سائدا . والمستشار يحاول الاتصال بالقيصر دون جدوى . . وكل دقيقة تمر تدفع بمزيد من المتظاهرين إلى الميدان الفسيح المحيط بدار المستشارية . وفي منتصف الثانية عشر ، ودون تشاور مع أحد كتبه البرنس ماكس إعلان تنازل القيصر عن العرش ، واعطاه لأحد معاونيه ليرسله إلى وكالة « ولف » للأنباء . وخلال دقائق علمت الجماهير بنص الوثيقة التي كان فحواها .

« قرر الامبراطور والملك أن يتنازل عن العرش ، وسيظل المستشار الامبراطوري في منصبه حتى يمكن تسوية موضوع الوراثة » .

ولم يكن هذا الإعلان مبنيا على حقيقة . فحتى هذه اللحظة كان القيصر في مقر القيادة يتصور أن حضوره سيؤثر عليها ويتشبث ببقايا ضئيلة من الأمل . ولكن كان من الضروري إذاعة هذا البيان لكي يصبح الأضراب نهاية لمرحلة من الفوضى والقلق ، وليس بداية لمرحلة من الثورة والحرب الأهلية .

وعند الظهر اخترق خمسه من زعماء الاشتراكيين الديمقراطيين يتقدمهم فردريك ايبرت طريقهم نحو دار المستشارية . واستقبلهم المستشار وقادهم نحو حجرة المكتبة وظل الجمع وقوفا ، فلم يكن المجال يسمح بتريث أو مجامله . .

وطلب ايبرت « حرصا على السلام والنظام » تسليم السلطة للحزب مضيفا إنه قد يدعو بعض أعضاء الحزب الاشتراكى الديمقراطى (المستقل) وإن لم يكن هذا مؤكدا . وسأل المستشار هل يضمن الحزب حفظ النظام فرد ايبرت بالايجاب ومرة أخرى سأل « هل سيعقد جمعية تأسيسيه لتحدد مستقبل ألمانيا » فرد بالإيجاب أيضاً . وبعد سوآل أو سوآلين انسحب المستشار ومعاونيه لمنهة ، ولكنهم عادوا بسرعه ، وسأل المستشار ايبرت هل سيتولى المنصب فى إطار Within الدستور الملكى فقال .

— أمس كنت أرد بالإيجاب . أماليوم فعلى أن اتشاور مع زملائى .

— وماذا عن الوصايه .

— لقد فات الوقت . .

وبدون رسميات أو تعهدات سلم المستشار المنصب إلى ايبرت . . وهرع شيدمان إلى الرشستاج لينقل النبأ . ودخل إلى مطعم الرشستاج ليتناول طبقا من حساء البطاطس ولكنه لم يكد يتذوقها حتى قيل له إن جموعا كثيفة تحيط بالرشستاج ، فوضع شيدمان ملعقته وجرى صاعدا إلى أعلا . . وفتح شباكا يطل على الجموع — وأعلن أن ايبرت قد تقلد المستشاريه ثم صرخ « فلتحى الجمهورية الألمانية الكبيرة » وعاد إلى حسائه . .

وهكذا ولدت جمهورية فايمار بين ملعقتين من الحساء !

وعندما قدم ايبرت إلى الرشستاج . وعلم بإعلان شيدمان الجمهورية عنفه قائلا « ليس من حقك أن تعلن الجمهورية . إن هذا متروك للجمعية الدستوريه » وهى لفتة توضح خلق ايبرت وحرصه — حتى فى مثل هذا المأزق الدقيق — على الشرعية، وحقيقة الحال أن شيدمان إنما أعلن الجمهورية بنفسه لكى يفوت

على ليبكنشت هذا الإعلان ويحوز للحزب كل ما يعنيه هذا الإعلان . فهى من هذه الناحية « ضربة معلم » .

وألقى ايبرت خطابا جاء فيه :

« أيها المواطنون : لقد سلم إلى البرنس ماكس فون بادن الذى ظل حتى الآن مستشار الإمبراطورية ، بموافقة زملائه ، المستشاريه .. وأعتزم أن أكون وزارة بالاتفاق مع الأحزاب . وستكون حكومة الشعب ، ويكون برنامجها تحقيق السلام للشعب الألمانى بأسرع ما يمكن . ومنحهم الحرية التى اكتسبوها .

أيها المواطنون ..

إنى أدعوكم لمساعدتنا فى مهمتنا الصعبة فأنتم جميعا تعلمون إلى أى مدى تتعرض للخطر موارد أقوات الشعب . وأنه للواجب الأول على كل مواطن أن يظل فى الحقل وأن لا يضع العوائق فى طريق إنتاج الطعام ونقله . إن نقص الطعام يعنى الشقاء للجميع فالفقراء سيعانون منه بقسوه ، كما سيتعرض العمال الصناعيون اشاق لاحد لها .

أيها المواطنون ..

أرجوكم أن تخلو الشوارع لتكون المدينة مدينة القانون والنظام » .

وفى الساعة الرابعة بعد الظهر اقتحم ليبكنشت السراى الملكية ، وكان معظم الحرس قد هجروها بينما بقى عـــدد ينظر فى سأم إلى الجموع . ودخل ليبكنشت دون أن يمنعه أحد ووقف فى الشرفه التى ألف القيصر أن يلقى خطاباته منها وقال « لقد أشرق فجر الحريه ، ولن يدخل أحد من الهوهنزلرن مرة أخرى هذا المكان وأنا أعلن الجمهورية الاشتراكيه الألمانية التى ستضم

كل الألمان .. إننا نمد أيدينا إليهم وندعوهم لكي يتموا الثورة العالمية . والذين يريدون منكم هذا فليرفعوا أيديهم وليقسموا » .. فارتفع الهتاف إلى عنان السماء ..

وبينما كان ذلك يمضى أحتل مجلس الجنود الثكنات العسكرية بينما أوى أميل ايشورن ـ وهو أحد الاشتراكيين المستقلين المتطرفين وكان من قبل من الموظفين بسفارة الاتحاد السوفيتى ـ إلى رآسه البوليس فى ميدان الكساندر وأعلن نفسه رئيسا للبوليس وأطلق سراح ٦٥٠ من المسجونين ووضع يده على كل الأسلحة الموجودة، كما احتل أنصار ليبكنشت مقر أحد الصحف المحافظة . وبدأ اتحاد سبرتاكوس يصدر منها صحيفة « العلم الأحمر » وجاءت روزا لوكسمبرج التى أفرج عنها للتو من سجن برسلو لتشرف على تحريرها .

وفى المساء شهدت دار المستشارية اللقاء الأخير .. مابين آخر مستشار امبراطورى .. وأول رئيس جمهورى ، وفى هذا الوداع قال « البرنس » الذى ينتسب إلى أعرق العائلات المالكة .. للنقابى الذى بدأ حياته صبي سروجى .

— هر ايبرت .. إننى أعهد بالإمبراطورية الألمانية إلى حفظك ليرد هذا « لقد فقدت اثنين من ابنائى فى سبيلها » .

وأخذ ايبرت يذرع مكتبه الفسيح الخالى بالدور الثانى من المستشارية عندما دق جرس أحد التليفونات ـ وكان يحمل رقم ٩٨٨ وهو الخط المباشر ما بين القيادة العليا والمستشار .. ورفع ايبرت السماعه ليسمع صوت « جرونر » رئيس أركان حرب المارشال هندنبرج .. وعلم ايبرت أن القيصر فى قطاره الخاص وأنه يعتزم الالتجاء إلى هولندا بعد أن يترك الماريشال مسئولية قيادة

الجيش وأن المارشال يعتزم إعادة الجيش إلى قواعده بمجرد اتمام الهدنه ..
وفهم ايبرت أن الجيش لا يعارض حكومته . وبعد فترة من الصمت سأل
ايبرت «وماذا تنتظرون منا» فرد جرونر بان الفيلد مارشال ينتظر من الحكومة
أن تؤيده فى تعزيز الضبط والربط فى الجيش وأن تصان الامدادات
والاتصالات .

— وماذا أيضاً ..

— إن الضباط ينتظرون أن تقاوم الحكومة الإمبراطورية البلشفيه . وهم
يضعون أنفسهم تحت تصرفها لهذا الغرض .

واطمأن ايبرت .. وطلب من جرونر أن يبلغ شكره للمارشال ..
وهكذا عقدت الصفقة ..

الفصل السابع

المعسكرات تتقطب

كانت الفوضى والعماية التى سادت الأيام الأولى من نوفمبر تنقشع شيئا فشيئا لتفسح المجال لنوع من التقطب تتلاقى فيه الأشباه بالأشباه والنظائر بالنظائر وتنتظم أشتات القوى المفتته لتكون معسكرات يتميز كل منها بمنهج معين حتى وإن اقتصر على الخطوط الأساسية العريضة دون التفاصيل الدقيقة .

١ — الجيش « الضباط ومجالس الجنود »

كان هناك الجيش الذى كان رغم الهزيمة والتحلل يمثل قوة كبيرة ليس فحسب لثقله المادى ولكن أيضا لأن الجيش كان يمثل القيم العريقة لالمانيا . وكان هو الذى حقق الوحدة الالمانية بحد السلاح ورأى فيه الشعب حامى الامبراطورية الأمين كما آمن هو بأن هذه الحماية هى رسالته المقدسة .

ولم تلوث الهزيمة الجيش . إذ لم تلصق به شائبة جبن أو فرار أو تفريط ، وكان حتى الهدنة منتصرا يقف فى الأرض التى غزاها واحتلها ، كانت هزيمته فى حقيقتها نوعا من التوقف اضطر إليه نتيجة لتكالب الأعداء ، ولأن الكثرة تغلب الشجاعة .

وكان ضباط الجيش منذ أن بدأ التنظيم الحديث للجيش الالمانى يختارون اختيارا خاصا من طبقة النبلاء والملاك . وعندما أريد زيادة الجيش سنة ١٩١٣

وظهر أن هذه الطبقة تعجز عن أن تزود الجيش بالعدد المطلوب من الضباط رفض وزير الحربية أن يفتح الباب أمام عامة الشعب . وكان هناك تقليد برفض أى فرد له ميول اشتراكية من الانتظام فى سلك الضباط ، فقد قيل إن الاشتراكيين تنقصهم المؤهلات اللازمة للضباط .

وكان هذا صحيحا من وجهة نظر القيادة البروسية التى كانت تستلهم تقاليد البيئة الاقطاعية وتجعل أولى واجبات الضباط الولاء والتفانى فى خدمة الدولة . وأولى واجبات الجنود الطاعة العمياء التى توجدها نظم صارمة من الضبط والربط . وكانت هذه التقاليد تحقق التكامل المطلوب للجيش : الولاء من الضباط والطاعة من الجنود ، هذا التكامل الذى وصفه تاسيتوس من أيام الامبراطورية الرومانية وصفا دقيقا وموجزا عندما قال « يقاتل الزعيم فى سبيل النصر ويقاتل الأتباع فى سبيل الزعيم » وبهذا التكامل استطاع الجيش الألمانى أن يتحمل ضغط الحرب وتضحياتها طوال أربع سنوات .

وحتى النهاية استطاع الضباط أن يحتفظوا بالضبط والربط فى الجيوش الميدانية رغم الهزيمة . بحيث تم الانسحاب بطريقة أثارت الاعجاب . فكانت الفرق تسير بنظام تحت إمرة قوادها فى الجانب الأيسر من طريق الانسحاب الطويل بينما خصص الجانب الأيمن للمدنيين . ولم تقف مسيرة الانسحاب حتى بالليل . وحددت الأوقات والأماكن ومواعيد الراحة ... الخ بكل دقة . وكانت طلائع الحلفاء لا تكاد تلحق بهم لتأخذ الأسلحة التى اتفق على تسليمها وكان الالمان يتركونها فى أكوام على جانب الطريق .

وعندما يقارن هذا بما حدث فى روسيا يتضح الفرق الكبير فى الوضع بين الدولتين ، فقد كان الجنود الروس يفرون من الميدان والحرب قائمة فى حالة من الفوضى والذعر والتمزق والتدهور نتيجة للهزيمة ولسوء الإدارة ورداءة الاسلحة والأطعمة وما أن اندلعت شرارة الثورة حتى فتكوا بضباطهم . . بينما كان

الالمان يسيرون بعد الهدنة كأنهم فى استعراض بخطوات الاوزه . وتحت الاعلام وعلى دقات الطبول يتقدمهم ضباطهم .

إن مثل هذا الانسحاب الذى تم عن قيادة خالديه[١] جعل الالمان يستقبلون الجنود ككرارين وليسوا كفراريين ورفعوا لهم أقواس النصر التى كتبت عليها عبارات « الى قواتنا التى لاتقهر » « إلى الجنود المظفرين » .

وكانت صفوة الضباط الالمان . هم الضباط البروسيون الذين كانوا يمتون إلى أعرق العائلات الارستقراطية ، ويتوارث أبناؤها الخدمة العسكرية جيلا بعد جيل ، وهناك أسرات عديدة كان أبناؤها يحملون السيف لأربعة أو خمسة أجيال متوالية ودون انقطاع . وقد تحدث مؤلف « قطار برلين الأخير » عن آخر جيل من أجيال « الجونكر » ووصف بعض خلائقهم فقال .

« إن الجنرالات البروسيين رجال يروق النظر إليهم ، فهم من الناحية الجسدية يبلغون الغاية من الوسامة . إن فون بوك وفون ليب لهما اليوم القوام الذى كان لهما عندما كانا فى السادسة عشر رغم أنهما قاربا نهاية السن المادى لحياة الفرد ، وهما يتمتعان بحيوية الشباب، إنهما لا يشيخان لأن هذا يجعل الحياة غير نظامية ، وهو أمر لايتمشى مع الشرعة البروسية . إنهم يبدأون الحياة بالميلاد ، ويواصلون ذلك ببساطة دون أى تغيير حتى يفجأهم الموت ، وقبل أن يفجأ الموت المارشال فون ريشنو بعامين كان يسبح عاريا فى الفستولا « وتذكر الاشاعة أنه كان يحمل مسدسه بين أسنانه » فى مقدمة فرقته . وقبل أن يموت بعام كان يمارس فى الصباح تمريناته بجانب ماكس شيملنج فى التيرجاردن وفى الأمسيات كان يشترك فى سباق ضد فريق أولمبى فى العشرين من عمره .

وبعامن شىء يمكن أن يثير جأشهم ، فوجوههم جامدة ، وهذا الجمود لايتغير

(١) نسبة إلى خالد بن الوليد والسحابه بالمسلمين فى مؤتة وتلقيب النبى لهم بالكرارين .

إلا فى حالتين : حالة الاصرار المستميت ، وحالة البسمة العابرة . الأولى عند أداء الواجبات والثانية فى الحياة الاجتماعية عند تناول الشاى أو المآدب . وقد يصور ذلك « لودندورف » الذى كان يسير بالملابس العسكرية الكاملة لجنرال عبر المانيا الثائرة ، عندما كانت الجموع الهائجة تمزق شارات الملازمين ، ساكناً هادئاً ، كما لو كان ذاهباً إلى حفلة شاى . وفى إحدى المرات عندما كانت معركة فرنسا فى أيامها الأخيرة ، اجتزت ميدان المعركة رفقة ضابط بروسى شاب ، فعلا الوحل حذائى ، ومزقت الأسلاك الشائكة سروالى ، وفقدت قبعتى . وعندما وصلنا إلى ستراسبورج فى المساء لم تكن شائبة واحدة لوعثاء الرحلة تعلق بدليلى ، فحذاؤه يلمع ، وكل شعـــرة فى مفرقه فى مكانها المحدد بالضبط !

وعن شرابهم حدث ولاحرج ! إنهم يعبون الخمر عباً . وخلال رحلة سبعة أيام عبر خط ماجينو مع الكابتن سومرفيلد الملحق العسكرى بوزارة الدعاية وأحد الضباط البروسيين — كان يشرب بلا انقطاع ليلا ونهاراً . وكان يشرب كل شىء ، وفى كل وقت . وقد حاولت أن أسايره ونجحت خلال الثلاث عشرة ساعة الأولى . ولكنى بعدها لم أستطع ، وقنعت بأن آخذ مكانى على المائدة واشاهده وهو يجرع عدداً من زجاجات الخمر المتنوعة . وفيما بعد أخبرنى أن الضباط البروسيين يمرنون على الشراب كجزء من تدريبهم العسكرى ، وأنه عندما كان فى السابعة عشر كان يطلب منه أن يجلس منتصبا إلى جانب رؤسائه ويشرب معهم كوباً بعد آخر . وفى النهاية كان يؤمر بالوقوف فى وضع « الانتباه » وأن يجيب على أسئلة ، فإذا أخطأ أو تلعثم عوقب . ويعد هذا التدريب شيئاً هاماً ، لأن رؤية ضابط يترنح سكراً يسوء إلى الضبط والربط وكرامة الضباط . والاحتفاظ بالكرامة تحت كل الظروف ، وفى كل الأوقات جزء لا يتجزء من الشرعه البروسية .

وإنه يبدو أنهم ليسوا كائنات انسانية ، وأن المشاعر والنوازع الإنسانية محرمة عليهم بحكم مهنتهم البروسية . إنهم آلات تتحرك بالانعكاسات ، ولا تدرى ما التفكير باستثناء ما يتعلق بالمعارك وكميات العتاد والأسلحة والذخائر ، وهذا مايؤدونه بكفاية ، أما التفكير فيما وراء ذلك فهو محرم عليهم، والتاريخ بالنسبة لهم ثابت ومضمونه محدد ، وهو يعنى الوطن والحكومة التى تختارها وتعينها طبقتهم ، فإذا أنتخبت الجماهير الحكومة ، فإنها لا تصبح حكومة الوطن والحسن لديهم هو ما يتفق مع الجرمانى ، والسيء هو الغريب والشعبي . وهم يتسامحون فى الخطيئات « الرجالية . » كالفسق ، والاحتفاظ بعشيقة ، والشراب ، والقمار ولكنهم يبتعدون عن أى اتصال بمن هم دونهم ، وهناك فكرتان يؤمنان بهما إيمان العقيدة المنزلة هما الشجاعة والواجب . فهم لا يتساءلون أبداً عن السبب ولكنهم ينفذون الأوامر ، أو يموتون دونها فى شجاعة . وهم فى وقت واحد روما نتيكيون كفرسان القرون الوسطى ، وممقوتون كقطاع الطرق ، وهم بحكم مهنتهم مدمرون ، يضيقون بالسلام واعداء مطبوعون لكل ما أحرزه العصر من بناء للديمقراطيه » .

وتنبأ مؤلف « قطار برلين الأخير » بأنهم فصيلة مقضى عليها، فهم فى الحقيقة « حفرية » اجتماعية لا مستقبل لها ، سواء انهزم هتلر أو انتصر فلو انهزم فسيهزمون معه ، ولو انتصر فسيظلون لفترة . ولكن النصر الأخير سيكون لرجال (الجستابو) وهو حكم صائب . ولكن كان لابد من هزيمة الحرب العالمية الثانية ، ومعارك الجبهة الشرقية الضروس لكى يمكن طى صفحة العسكرية البروسية ، أما فى الفترة التى أعقبت الحرب العالمية الأولى ، فلم يكن الوهن قد تطرق إليها بعد .

وكان الضباط يكنون البغض والكراهة لكل الأتجاهات الاشترا كية وقد

يحملوا ايبرت وزملاءه على مضض ، وباعتبارهم أهون الشرين وأنهم الحاجز دون الطوفان. ولم تكن أسباب هذه العداوة مقصورة على الاختلاف — أو قل التضاد — فى فهم الحياة والأسس التى يقوم عليها المجتمع ، إذ أضيف إلى هذا العامل الموضوعى عامل ذاتى هو التهديد بالقضاء على المنزلة المميزة لهم كضباط، وملاك ، أو حتى حرمانهم من لقمة العيش وإنزالهم إلى درك الاستجداء المهين . ولم يكن فى هذا التصور مبالغة . فإن أحداث الثورة البلشفية وما أوقعته بالنبلاء والضباط القيصريين من قتل أو تشريد جعل الناجين منهم يصبحون خدما أو سقاة فى فنادق ومقاهى باريس وغيرها . كانت حية ومائلة فى الأذهان وتمثل نوعا من الكابوس المزعج يجعل الضباط الألمان يبدأون الاشتراكية بالعداوة تطبيقا لأول درس يتعلمه العسكريون فى كل العالم : أن الهجوم أفضل وسيلة للدفاع .

* * *

وأظهرت الثورة قوة جديدة فى الجيش هى (مجالس الجنود) التى أخذت تنظم الجنود وتبعدهم عن سيطرة الضباط . وكان الاتحاد السوفيتى قد استطاع أن يوصل دعايته إلى الخطوط الألمانية والثكنات بطرق عديدة كانت أبرزها (المؤاخاة) التى أصر عليها لينين قبيل (برست ليتوفيسك) وسلم الألمان بها فى حدود تصوروا أنها لن توهن الضبط والربط ولكنها جاوزت ما تصوروه بكثير . وقد تأثر جنود معظم الفرق التى سحبت من الجبهة الشرقية عند شن هجوم المارن بالدعايات البلشفية بدرجات متفاوتة ، فضلا عن الدعاة المحترفين والمنظمين الذين دربهم «جوف» بمساعدة المجموعات اليسارية والمعونات المالية التى مكنتهم من العمل . ونتيجة لهذه العوامل كلها تكونت فى معظم المدن (مجالس جنود) مارست قدرا من السلطة والهيمنة على الشئون العامة . وفى لحظات الحماس والمد الثورى كان الجنود يهاجمون الضباط ويجردونهم من

علامائهم وأوسمتهم ، ولـكن قلما جاوز الأمر ذلك .

ولـكن مجالس الجنود على أهميتها وخطورتها الـكبرى خضعت لعدد كبير من وجوه النقص قللت من فعاليتها واودت بها بعد مضى أقل من عامين . وكان من أبرز وجوه النقص عدم توفر الوعى السياسى الثورى لدى أعضائها ، كانت الثورة بالنسبة لهم العودة إلى الحياة المدنية واستئنافها بأسرع ما يمكن من الوقت وبأقل ما يمكن من التضحيات ، ومن هنا فقد تجاوبوا مع فـكرة الدولة فى عقد الجمعية الوطنية ـ ولم تـكد تعقد حتى سلموا لها المسئولية الثقيلة التى لم يكونوا لها أكفاء ولم يقدروها قدرها : مسئولية السلطة .

وكان يمكن أن يعوض هذا النقص لو رزقت المجالس قيادة ثورية قديرة ونابغة ، ففى الفترات القليلة التى خضعت فيها مجالس الجنود لقيادات عمالية أو اشتراكية واعية ، تخلوا عن سلبيتهم ، ولـكن هذا لم يحدث إلا لماما . ولو رزقت مجالس الجنود زعيما قديرا مثل تروتسكى لاختلف الأمر حتى وإن كانت النتيجة الأخيرة بالنسبة للمجالس نفسها واحدة . ففى المانيا سلمت المجالس السلطة مختارة ومتطوعة إلى الحزب . وفى روسيا سلب الحزب السلطة من المجالس نتيجة لأن رجلها القدير تروتسكى كان فى الوقت نفسه هو رجل الحزب .

وقد يصور موقف مجالس الجنود من قيادتها العسكرية ماحدث عندما تكون بالقيادة العليا فى «سبا» مجالس جنود ، ففى ١٠ نوفمبر سنة ١٨ تقدم إلى القيادة سبعة جنود باعتبارهم اللجنة التنفيذية لقيادة مجالس الجنود طالبين الاشتراك فى إدارة عملية الانسحاب والتثبت من أن القيادة لا توجه الجيش ضد الثورة . واستقبل هذا الوفد ضابط أعد لذلك فتحدث عن روح الزمالة التى تجمع مابين الجنود والضباط وذكر اسم هندنبرج وأنه وضع نفسه فى خدمة الحكومة . ثم اقتادهم إلى حجرة الخرائط حيث كانت توجد خريطة بطول الحائط موضح عليها الطرق والـكبارى ، وخطوط السكك الحديدية ومحطاتها

وتتقابل فيها الخطوط الزرقاء والحمراء والخضراء فى اختناقات ضيقة . وتحدث الضابط عن هذه كلها بيسر وسهولة أدهشت الجنود . وسأل الوفد عما إذا كان على استعداد لإدارة عملية الانسحاب؟ إن الأوامر يجب أن تصدر وأن يصدق عليها بسرعة لأن أى تأخير يعد انتهاكا للاتفاق ويضعهم تحت رحمة الحلفاء ، ورد الجنود مبهوتين بأن هذا يمكن أن يترك للضباط وأن المجلس يؤيد الضباط واستطاع الضابط أن يحمل الوفد على إصدار بيان يدعو إلى تأييد قيادة الجيش .

وأغرى هذا النجاح وما اتسمت به عملية الانسحاب من كفاية ودقة القيادة العليا بأن تعالج قضية « مجالس الجنود » معالجة جذرية . فقرر جرونر عقد مؤتمر مجالس الجنود فى الجيش الميدانى فى أول ديسمبر فى امس Ems بنية اتخاذ قرار كان قد أعده لكبت سلطات هذه المجالس وحل كل التشكيلات العسكرية وتدعيم سلطة الضباط معتمدا على اسم هندنبرج وتأثيره على الجنود ومعتقدا أن الثورة نزوة عارضة .

وعندما انعقد المجلس مضى كل شىء فيه طبقا للخطة التى رسمها جرونر ، فألقيت خطب تندد بتهور مجالس العمال والجنود فى برلين وقدم القرار الذى وضعته القيادة العامة وكاد أن يجاز عندما قدم اميل بارت رئيس المندوبين الثوريين وألقى خطابا ملتهبا ندد فيه بسذاجة الجنود التى مكنت الضباط من تخديرهم .

وانكشفت مناورة القيادة وأفلت الزمام من يدها وقرر المجلس حق الجنود فى رفع العلم الأحمر ، وأن مجالس الجنود هى الممثلة القائمة دون منازع لإرادة الشعب ، وأنها أداة السلطة السياسية .

ولكن هذا الفشل لم يثن القيادة العليا ، فوضعت خطة أخرى، للقضاء على العناصر الثورية بأسرها فى برلين، سواء منها الجنود أو العمال ، فعندما سرحت

الفرق ، وجهت القيادة العليا تسع فرق من فرق المشاه الموثوق بهم ليعسكروا فى ارباض برلين ، جنوبا وشرقا وغربا . كما دربت وحدات خاصة على قتال الشوارع . ووضعت القيادة العليا خطتها على أساس أن يلى دخول القوات مباشرة عمل حاسم لتجريد السكان من الأسلحة والقبض على العناصر المشاغبة والثورية وإعادة السلطة والنظام فى الجيش .

بيد أن المستشار ايبرت رفض هذه الخطة رفضا باتا . وكان قد حذر جرونر قبل أن يعقد مؤتمر مجالس الجنود ، وأوضح له مخاطر ذلك وكان يستطيع أن يتسامح فى عقد المؤتمر ولكنه لم يكن ليقبل أن تطلق تسع فرق من المشاه على سكان برلين فضلا عن أنه كان يعرف مدى تعقد الموقف فسلطانه محدودة .. وزملاؤه لايثقون فى القيادة العليا . ومجالس العمال والجنود لن تستسلم بسهولة . ولهذا طلب ايبرت للمرة الأولى أن يذعن الجيش لأوامر الحكومة . فلايعود إلى برلين إلا الجنود الذين جندوا منها .. ولهم أن يحملوا الأسلحة ولكن دون ذخائر .. وحاولت القيادة العليا التملص ودفعت بهندنبرج لأن يرسل لايبرت خطابا يناشده الموافقة على الغاء مجالس الجنود للضباط حتى يستقر الضبط والربط .

ولكن ايبرت لم يكن ليستطيع الموافقة على هذا حتى لو أراد ، وأخيرا أمكن الوصول إلى تسوية بحيث تتولى السلطات المدنية الاشراف على تجريد المدنيين من الأسلحة ويسمح للفرق التسعة بالدخول إلى برلين محتفظة بالذخائر على أن لاتحضر معها دبابات أو مدافع رشاشة ، وابتهجت القيادة العليا بذلك وأوكلت قيادة الفرق إلى جنرال صارم هو فون ليكيس Von Lequis وزودته بتعليمات سرية للعمل بما يراه لازما — حتى لو تعارض ذلك مع أوامر الحكومة أو وزارة الحربية .

ودخلت القوات بنظام تام وفى مقدمتها الجنرال ليكيس وأركان حربه على

ظهور الجياد واضعين كل نياشينهم ومثبتين فى خوذاتهم طاقات من أوراق السنديان ترمز للاخلاص والشجاعة ، ولكن الاستقبال كان فاترا ووقفت مجموعات من فرقة « بحارة الشعب » التى تمثل أكثر العناصر ثورية تحدق فى شك وامتياء . خاصة وقد لاحظت المدافع الرشاشة مخبأة فى العربات تحت أكداس من أوراق السنديان .

ولم تكد تمضى ثلاثة أيام حتى « تبخر » الجيش على حد تعبير أحد المؤرخين[1] فكل الجنود عادوا إلى أهليهم دون إذن ، وظلوا هناك . وهجرت الثكنات ونبذت كل القواعد العسكرية . وبدلا من أن يجرد الجيش المدنيين من السلاح فقد جرد المدنيون الجيش من السلاح .

وهكذا فشلت فشلاذريعا هذه المحاولة أيضا ودل ذلك ـ بما لا يدع شكا ـ على أن موجة الثورة يمكن أن تبتلع الجيش وتذيب كل نظم الضبط والربط بحيث يعسر استخدامه كقوة منظمة فى ضرب الثورة وأنه إذا أريد هذا فلابد من قوات محدودة العدد تعزل عن البيئة العامة للثورة وتغذى بفلسفة ودعاية مضادة تصل من القوة والموضوعية إلى مثل دعاية الثورة .

فإذا كانت نظم الضبط والربط قد تهاوت بين الجنود فإن النواة القوية الصلبة للضباط لم تتأثر .. على العكس لقد زادتها الأحداث الأخيرة قوة وأشعرتها الخطر الذى يهددها فى الصميم ودفعها ذلك لأن تعمل بوسائل جديدة .

وتمثل لنا هيئة الضباط ومجالس الجنود قادة دون جيش وجيشاً دون قادة . وقد استطاع القادة أن يكونوا جيشا ولم يستطع الجيش أن يبرز قادة .. وانتصر القادة فى النهاية .

---

(1) The Kings Depart p. 235.

٢ ــ البرجوازية

عندما قامت الحرب كانت البورجوازية من رجال صناعة ومهن وأساتذة جامعات .. الخ هى نواة مجتمع الامبراطورية وقاعدة تقدمه .. فكان رجال الصناعة الصاعدة يمثلون القوة الاقتصادية للبلاد والأمل فى أن تجاوز المانيا مابلغته عدوتها اللدود بريطانيا .. وكانت صناعة الحديد والآلات والأصباغ والكيماويات تفوق بالفعل مثيلاتها فى بريطانيا . وعندما قامت الحرب عززت الصناعة . فلما حدثت الهزيمة توقفت وفقدت بعض كيانها الرسمى .

وكان المأزق الذى وقع فيه الاشتراكيون الديمقراطيون (الأغلبية) أنهم لم يكونوا متحمسين لفكرة تأميم الصناعة التى اقترنت بالبلشفيه والفوضى أكثر مما اقترنت بتلك الصورة السمحة للاشتراكية التى تعمل فيها النقابات معززه بالحزب والتشريع لتحقيق مكاسب للعمال شيئا فشيئاً ، وكانت هذه الصورة الأخيرة هى مايتفق مع الطابع السلمى والتدريجى والنظامى للاشتراكيه الالمانيه . كما أن جزءا كبيراً من هذا الفهم يعود إلى ماتصوره الاشتراكيون الديمقراطيون من أن بلوغ الصناعة والإنتاج درجة عاليه من التنظيم والتركيز إنما يمثل بتعبير رودلف هلفردج فى مؤتمر الحزب سنة ١٩٢٧ « احلال المبدأ الاجتماعى الإنتاج المخطط محل المنافسة الحرة وأن مهمة هذا الجيل هى أن تترجم هذا الاقتصاد الذى نظمه وأداره الرأسماليون إلى اقتصاد تديره الدوله الديمقراطية » ولم تكن صورة هذه « الترجمة » واضحة حتى ١٩٢٧ ومن هنا فقد وقفت جمهورية فايمار موقفا « ديمقراطيا » من الرأسمالية عندما كانت السلطة فى يدها ، وتستطيع القضاء عليها وتصورت أن دورها ليس القضاء عليها ولكن تحويلها من إدارة رأسمالية إلى إدارة ديمقراطية .. وكان هذا الوهم يشبه وهم الشيوعيين عن أنه لابد من وصول هتلر إلى السلطة . حتى يأتى الدور التاريخى للشيوعية .

وبهذه الطريقة أعطيت الرأسمالية « فترة السماح » التى مكنتها من أن تستعيد مراكزها وأصبح كل حديث عن التأميم مستبعدا ، وشيئا فشيئا أصبح الحديث عن العدالة ثقيلا ، ومع مضى الوقت استعادت الرأسمالية قوتها وتنكرت للجمهورية ونكلت بالنقابات .

وكان للقضاة أهمية كبيرة فى المجتمع الألمانى وقاموا بدور بارز فى مقاومة الجمهورية واستغلوا صفاتهم وسلطاتهم والثغرات التى لا يخلو منها قانون فى ذلك ، ودأب قضاة المحاكم الجنائية على تبرئة العسكريين والرجعيين وإدانة الشيوعيين والاشتراكيين .

وكان مما يفاقم من أثر ذلك الطبيعة التعاقدية للجمهورية التى تطلبت الالتجاء إلى القضاء عند الاختلاف وفكرة زعماء الجمهورية عن القانون والنظام التى جعلتهم يحكمون القضاء فى عدد كبير من المناسبات كاهانة علم الجمهورية أو إهانة رئيس الجمهورية « ايبرت » وفى معظم هذه الحالات خذلهم القضاء ، وجعل من المحاكم منابر لدعاية خصومهم .

وروى و.س ويتنسكى W. S. Woytinsky أن بعض الفلاحين وصف ألوان العلم الجمهورى بأنها روث أسود وأحمر وأصفر ورفعت الحكومة قضايا على من كانوا يستخدمون هذه الألفاظ فى الخطب العامة وعرض محامو الدفاع علم الجمهورية فى قاعة المحكمة وأوضحوا أن الشريط الذى يدعى رسميا « ذهبيا » لم يكن من لون ذهبى ولكنه بدلا من ذلك كان أصفر مثل روث البهائم ، وفى بعض الحالات انحازت المحكمة إلى جانب الدفاع مستغلة القضية لاذلال الجمهورية وحدث هذا بالنسبة لايبرت نفسه . . وهو رئيس الجمهورية ورمزها .

ولم يتعاطف المثقفون سواء كانوا أساتذة جامعات أو طلبة مع الجمهوريه الناشئة أو الفكر الاشتراكى ، فالنشأة التاريخية لألمانيا جعلت — كما أشرنا —

الفكر الألمانى يتجه اتجاها وطنياً وليس اشتراكياً ولم يظهر فى ألمانيا مفكرون شعبيون كالكتاب الروس العظام بلنسكى وشير نشفسكى وتولستوى وتورجنيف وديستوفيسكى وجوجول وجوركى الخ .. من الذين أبرزوا قضية الشعب المستعبد المحروم وعرضوا صورة لمشاعر العمال والفلاحين وعالجوا قضية العدالة الاجتماعيه بحيث مهدوا الجو للدعوات الاشتراكية والشعبية وألهبوا مخيلة شباب الجامعات وأبناء النبلاء .. على العكس لقد كان عمالقة الفكر الألمانى هم كانت ونيتشه وفيشته وهيجيل وتلك السلسلة من المؤرخين الذين مجدوا الجنس الألمانى وحضارته وخصائصه . وقد كان من جوته عملاقا من عمالقة الفكر الإنسانى وكان جديرا بين الكتاب الألمان بمنصب الصدارة والرآسه ولكنه لم يثر مخيلة المثقفين ، وفى سنة ١٩٣٢ عندما احتفل بذكرى مرور مائة عام على وفاته لم يكن الاحتفال بالدرجة الأولى باعتباره شاعرا أو نبيا ولكن باعتباره أفيونا ولم تجد الدعوة لإقامة تمثال لهنريش هينه وهو الذى يلى جوته كشاعر إنسانى من يستجيب لها على امتداد ٧٥ عاما .

وقد يقال إن ماركس كان ألمانيا أيضاً . وأنه الابن البكر لهيجل ولكن ماركس كان يهوديا بالأصل . وكان ابنا عاقا لهيجل لأنه استخدم أسلوبه ليقلب فكرته ، وقد نبذ جنسيته البروسية وعاش فى بريطانيا .. ومن هنا فمن العسير أن نعتبره «ألمانيا» وقد اعتبره المفكر الألمانى «أوزفلد شبنجلر» «اشتراكيا انجليزيا» ودعا إلى انقاذ الحزب الاشتراكى الديمقراطى الألمانى من نفوذه لأن «حزب بيبل يتضمن قيما بروسية أصيلة مضادة للماركسية كالضبط والالتزام والاستعداد للتضحية حتى الموت فى سبيل فكرة سامية» ورأى شبنجلر أن الاشتراكية والبروسية مما يجب أن يقف ضد الماركسية التى تمثل بريطانيا بنزعتها المادية[1].

(1) Weimer Culture by Peter Gay p. 90.

ولم تحدث الجمهورية تغييرا كبيرا فى نفسية أو ذهنية المفكرين أو نظم الجامعات وظل المؤرخون الألمان القدامى هم الذين يلهمون جيل فايمار وقد تحدث الكاتب فرانز نيومان Franz Neumenn عن بيئة بعض الجامعات الألمانيه فترة الحرب .

« عندما جئت فى ربيع ١٩١٨ إلى جامعة برسلو ، نبذ أبرز اقتصادى فيها فى محاضرته الأولى قرار الصلح لسنة ١٧ (الصلح دون ضم أو تعويض) وطالب بضم لونجى وبرى Longwy and Brie وتحويل بلجيكا إلى محميه ألمانيه وأن تستعمر ألمانيا مناطق واسعة من أوربا الشرقية وماوراء البحار ، وتنبأ أستاذ الآداب بالانتصار الألمانى من واقع تصوره لفلسفة كانت ومثله . وعندما ذهبت إلى ليبزج فى أواخر عام ١٩١٨ . رأى أستاذ الاقتصاد أن من الضرورى تأييد شروط اتحاد الجامعـــة الألمانيه Pan Germau Union وأركان الحرب، بينما استخلص أستاذ التاريخ أن الديمقراطية فى جوهرها صورة غير ألمانيه للتنظيم وأنها إنما تناسب الانجلو ساكسون الماديين ولـكنها تضاد قيم الجنس الألمانى ، وعندما انتقلت إلى روستوك فى صيف ١٩١٩ كان على أن أنظم الطلبة لمقاومة الدعوة ضد السامية التى كان يقوم بها علانية الأساتذة، وأخيرا عندما حللت فى فرانـكفورت كانت المهمة الأولى التى جابهتنى هى المساعدة فى حماية أستاذ جامعى اشترا كى ـ عين حديثاً ـ من الهجوم السياسى والبدنى الذى كان يقوم به طلبة يؤيدهم سرا عدد كبير من الأساتذة »[1] .

وفى ١٥ نوفمبر سنة ١٩٢٢ حضر الـكونت كسلر احتفالا بالذكرى الستين لميلاد جرهارت هوبتمان فى جامعة برلين فوصف فى مذكراته كيف أن أستاذاً للآداب يدعى بترمن حاول أن يثنى المسئولين فى الجامعة عن دعوة ايبرت

(1) Ibid p. 46

«حيث أنه من غير المستساغ للجامعة أن يقف أمامها الرئيس الجمهورى للدولة»
وعندما رفض المسؤلون طلب بترسن أن لا يدعى «لوب» على الأقل حيث أنه
« من الكثير جدا أن يدعى اثنان من الاشتراكيين الديمقراطيين»[1].

٣ — اليسار

كانت التطورات التى سبقت الحرب وعاصرتها تنعكس على معسكر اليسار وتجرى تغييرات جسيمة فى مواقع مجموعاته ، فالحزب الاشتراكى الديمقراطى الذى تعرض لمحنة التنقيحية أولا ، ثم تأييد الحرب بعد ذلك أصبح يمثل يمين اليسار ، وفى الوقت الذى لم تكن البرجوازيه والعسكريه لتبرئة من « وصمة » الاشتراكية فقد كانت بعض المجموعات الاشتراكية تلصق به وصمة العمالة للعسكريين والبورجوازيه .

والحقيقة أن تأييد الحزب الاشتراكى الديمقراطى للحرب صدم بعض الاشتراكيين الماركسيين صدمة لم يفوقوا منها ، ووضعهم على طريق اللاعودة بالنسبة للحزب بينما كان أثره أخف بالنسبه لآخرين . ولكن حتى بالنسبة لهذا الفريق ، فقد كان من القوة بحيث يجعلها تنشق عن الحزب .. وإن قدر لها أن تعود ، ومثلت الفريق الأول روزا لوكسمبرج وكارل ليبكنشت واتباعهما ، ومثله كذلك المندبون الثوريون » بينما مثل الفريق الثانى تلك المجموعة التى عارضت التأييد ولكنها خضعت لإرادة الأغلبيه تمسكا منها بقواعد الالتزام الحزبى . . وكان على رأسها رئيس الهيئة البرلمانيه للحزب « جو هازه » الذى كان عليه بحكم صفته أن يقرأ البيان المشهور يوم ٤ أغسطس . حتى وإن لم يكن مؤمنا به .

---

(1) Ibia p. 46

وعندما اتضحت الطبيعة العدوانية للحرب، وتكرر طلب الحكومة لاعتمادات مالية دون أن يستطيع الحزب الاشتراكي الديمقراطي الرجوع عن موقفه لم يعد مناص من أن تنشق هذه الجماعة في الفترة ما بين مارس ويونيو ١٩١٧ وأن تكون الحزب الاشتراكي الديمقراطي U S P D بزعامة كاوتسكي وهازه وبيرنشتين وعدد آخر من أبرز أعضاء الحزب الاشتراكي الديمقراطي.

وكانت الميزة التي اتسم بها الحزب الإشتراكي الديمقراطي المستقل هي أنه في الوقت الذي لم يتجهم لألمانيته ولم يتجاهل الضرورات التي كانت تفرض نفسها، فقد كان لديه من الشجاعة ما يجعله يحاول الملاءمة ما بين التطبيق والتنظير. دون أن يسلم قياده لواحد منها على حساب الآخر.. وكان هذا دوراً شاقاً ولدرجة جعلت مدة قيام الحزب به محدوده وتمزق بعدها أشلاء.

وعندما تكون الحزب الإشتراكي الديمقراطي المستقل جذب الأنظار وأسرعت المجموعات التي عارضت الحرب بالإنضمام إليه حتى وإن كانت مواقفها أكثر يسارية وتشدداً من موقف الحزب وكانت أبرز هذه المجموعات مجموعة المندوبين الثوريين ومجموعة سبارتاكوس.

وكانت مجموعة «المندوبين الثوريين» تتكون من نواة صلبة من مهرة عمال المعادن ببرلين. وقد قاوموا الحرب. وكانوا هم الذين نظموا الإضراب السياسي المدوي في يناير سنة ١٨ وثاروا على القيادات النقابية العليا واستهدفوا تحويل النقابات من هيئات مهنية خاصة إلى تشكيلات سياسية وثورية وقد تحدث عنهم رئيسهم «ريتشارد مولر» فقال: «خلال الحرب لم تأت القوة الدافعه لحركة الجماهير من المستويات الدنيا للطبقه العامله، التي كانت تعاني أكثر من غيرها آثار الحروب، ولكنها جاءت من المستويات العليا والعمال الفنيين. وذلك القسم الذي يطلق عليه إرستقراطيه الطبقه العامله، والذي

إتهم ظلما بأنه شل الثورة الألمانيه »[1] .

وكان من الممكن لهؤلاء المندوبين الثوريين أن يكونوا هم السوفيت الألمانى الذى يصبح العمود الفقرى للثورة ، والواقع انهم وضعوا الخطط للثورة فعلا وناقشوا فى عدد من الاجتماعات النقط التفصيليه وحددوا بعد مناقشات حاميه يوم ١٢ نوفمبر للقيام بالثورة . ولكن تمرد بحاره كيل يوم ٣ نوفمبر غير الخطط ، وبدلا من أن تبدأ الثورة فى برلين وتنتقل منها إلى بقية المدن ، والموانى الألمانية . فقد قامت فى كيل وامتدت منها الى بقية المدن والموانى وقامت فى برلين يوم ٩ نوفمبر متأخره أسبوعا عن كيل ، وسابقه بيومين للميعاد والذى حدده المندوبون الثوريون .

وكان النقص الأساسى فى المندبين الثوريين هو — كما ذكرنا — إقتصارهم على برلين وعدم إمتدادهم إلى غيرها ، وأنهم كانوا يفتقدون النظرية التى يقيمون عليها حركتهم أو يقتبسون منها برنامجهم . كانوا جمهوراً دون نظرية بينما كانت مجموعة سبرتا كوس نظرية دون جمهور ، وكان يجب أن يتلاحم هذان ليستكملا هذا النقص وبذلت بالفعل المحاولات لتحقيق ذلك وكان يجب لنجاح مثل هذا المسعى وصهر المجموعتين أن يوجد الزعيم القوى الذى يضع الخطط ويتوائم مع الأحداث ، وكانت المجموعتان تفتقد إن هذا الزعيم . حقيقة أن روزا لوكسمبرج كانت عبقرية فى التنظير ووضع البرامج والخطط ولكنها لم تكن لتستطيع دائما دفع الجماهير لتحقيقها وتملك قيادها وكبح جماحها . . وكانت الإضافه التى قدمتها للثورة وللفكر الإشتراكى هى وضع برنامج تلك المجموعه التى إختارت لها اسم سبرتا كوس . .

ولم تكن روزا هى الأولى التى بعثت اسم سبارتا كوس من ذكرى الصراع الرومانى القديم فقد سبقها إلى ذلك الكاتب الألمانى « لسنج »

(1) Hammar or Anvil p, 38

ولكن لسنج جعل من سبارتا كوس بطلا لرواية أما روزا فقد بعثته من جديد كما كان : عاملا على هيئة قائمة بالفعل قد تكون أقل عدداً من جيش سبارتا كوس ولكنها تزيد عنه علما وثقافة وتقوم بدور درامى وديناميكى تسيل فيه الدماء .

وقد أشرنا فى فصل سابق إلى إصدار روزا لوكسمبرج للرسائل التى حملت إسم سبارتا كوس « ومجلة الأنترناسيونال » الأمر الذى أدى إلى مصادرتها واعتقال روزا لوكسمبرج . . وقد آن الأوان للحديث عن هذه المفكرة النابغة بما يسمح به المجال .

ولدت روزا سنة ١٨٧٠ فى ولندا الروسية من عائلة يهودية مثقفة واعتنقت الأفكار الثورية عندما كانت تلميذة فى المدرسة العالية فى وارسو حيث كونت مجموعة صغيرة لمقاومة الطغيان الروسى . ولكى تتفادى السجن هاجرت وهى فى الثامنة عشر إلى سويسرا . . وأتمت هناك دراستها بتفوق جذب الانتباه ،وعندما نالت درجة الدكتوراه فى الفلسفة فى الثالثه والعشرين نذرت نفسها للعمل فى سبيل الطبقة العاملة وبرزت لأول مرة فى مؤتمر زيورخ ١٨٩٣ للدولية الثانية ، ثم ذهبت إلى ألمانيا كداعية ومدرسة ومؤلفة . وأضفى عليها زواج شكلى الجنسية الألمانيه بحيث أمنت إخراجها من ألمانيا ، وعملت مدة كرئيسة تحرير إحدى الصحف الألمانية . .

وعند إعلان الحرب سجنت لمدة ثلاث سنوات وأربعة شهور فى مختلف السجون الألمانية ، ولكنها كانت دائمة الكتابة من سجنها ، سواء كانت هذه الكتابات سياسية أو خاصة كخطاباتها إلى صديقتيها لويز زوجة كاوتسكى وسونجا زوجة ليبكنشت التى لم تلبث أن أصبحت زميلتها فى السجن ، ونشرت بعض هذه الرسائل بعد نهايتها المفجعة فأثارت بأسلوبها الطلى

وعواطفها الرقيقة إعجاب الجميع . وقال أحد المؤرخين « لقد كانت دائماً أقرب إلى غاندى منها إلى لينين » وهذا المزيج من الثقافة العلمية والنظرية والنزعة الإنسانية والأدبية أعطاها مسحة من سعة الأفق والأمانة ، وعصمها من هوس الاستحواذ على السلطة أو لغة الارهاب والوحشية وكان الخطأ فيها هو الخطأ فى الماركسية نفسها التى لم تستطع على مارزقته من ذكاء التحرر من إسارها .

وقد خاضت روزا معركتين مريرتين كانت فيهما هى الفارس المجلى الأولى هى التنقيحية وقد أشرنا إليها والثانية هى جمهورية فايمار التى بدأت بمقاومة الاستسلام للحرب . .

وعندما بدأت المجموعات الماركسية المعارضة للحرب، تتجمع فى زيمروالد أولا وكينثال ثانياً « سنتى ١٥ و ١٦ » قدمت مجموعة الانترناسيونال مذكرة تضمنت عددا من المقدمات والنتائج أو الواجبات التى يفترض القيام بها لكى يمكن للدولة أداء دورها التاريخى .

واستهلت مقدمات المذكرة بأن الحرب العالمية قد قضت على عمل أربعين عاما من الاشتراكية الأوربية ودمرت ثورية الطبقه العاملة وتضامنها الدولى وربطت ما بين آمال الجماهير وانتصار حكوماتهم الرأسمالية وأن زعماء الحركة الاشتراكية فى ألمانيا وفرنسا وبريطانيا (باستثناء حزب العمال المستقل) بتأييدهم لحكوماتهم دعموا الإمبريالية ومنحوها مهلة وأطالوا فى أمد المجزرة وجعلوا محاولة الأحزاب الاشتراكية فى روسيا والصرب وإيطاليا لأداء واجبها أمراً عقيماً . وأن الحرب العالمية لن تفيد الجماهير والشعوب شيئاً وأنها ليست إلا منافسة وحشيه للاحتكارات . إذ لم تعد الحروب القومية ممكنة فى عهد الاحتكارات الطليقة ولا تستخدم المصالح القوميه إلا كوسيلة للخداع

وإخضاع الطبقات العامله لعدوتها اللدود الإمبريالية وقد أصبحت الشعوب الصغيرة التى ناصر حكامها الامبرياليه دمى أو رهائن فى المعركة الامبرياليه للدول العظمى . وفى ظل هذه الظروف فإن الحرب تعنى كائنة ما كانت نتيجتها هزيمة الديمقراطيه الاشترا كيه ما لم تتدخل البروليتاريا الدوليه تدخلا ثورياً ، لأنها ستؤدى إلى تقوية العسكرية والاستغلال وجعل البرلمانات أداة فى يدها وبذلك ستمهد الحرب القائمه لحروب جديدة وأن التوصل إلى السلام لا يمكن أن يكون بوسائل يوتوبيه أو رجعيه مثل المحاكم الدوليه أو الدبلوماسيه الرأسماليه أو المعاهدات على اختلافها — كمعاهدات نزع السلاح أو حرية البحار أو التحالف الأوربى أو الدول العازلة . . الخ والوسيله الحاسمة الوحيدة هى قدرة البلوريتاريا الدوليه على النشاط السياسى وعزيمتها الثورية كما أن الامبرياليه باعتبارها المرحله الأخيرة للحكم السياسى للرأسماليه هى أسوأ عدو للبروليتاريا فى كل الدول وإن كانت تتفق مع الصور السابقه عليها فى أنها تقوى أعدى أعدائها للدرجه التى تكشف فيها عن نفسها ، فالامبريالية تستحث تركيز رأس المال وتحلل الطبقات الوسطى وزيادة البروليتاريا وتستثير المعارضه المتزايدة من الجماهير . ومن هنا فإن كفاح البروليتاريا يجب أن يتقطب حول مقاومه الامبرياليه لأنه سيكون فى الوقت نفسه كفاحا فى سبيل السلطه السياسيه للدولة والمجابهه الحاسمه ما بين الاشترا كيه والرأسماليه . ولا يمكن إدراك الهدف الاشترا كى إلا عندما تتوحد البروليتاريا الدوليه فى جبهه واحد ضد الامبرياليه وتجعل شعارها « الحرب على الحرب » وبذل أقصى الجهود والتضحيات ومن هنا فإن مشكلة البروليتاريا اليوم هى جمع البروليتاريا من كل الدول فى قوة ثورية فعالة لتكون عاملا حاسما فى الحياة السياسيه عبر تنظيم دولى قوى وفهم متفق عليه لأهدافها ووسائلها ، وتكتيك ثورى للعمل السياسى فى الحرب والسلم . وقد حطمت الدوليه الثانيه ذلك وثبت فشلها بعجزها خلال

الحرب عن أن تقيم سدا ضد التحلل القومى وخيانه الممثلين الرسميين للأحزاب الاشتراكيه فى الدول الكبرى وانحرافها فيجب إقامه دوليه عماليه جديدة تتحمل مسئوليه قيادة وتوحيد الكفاح الثورى للطبقة العامله ضد الامبريالية .

ولكى تقوم الدولية الجديدة بهذا الدور التاريخى — فعليها أن تضع لنفسها المبادىء الآتيه :

١ — إن الكفاح الطبقى داخل الدول البورجوازيه ضد الطبقات الحاكمة والتضامن البلوريتارى الدولى فى كل الدول أمران لا يتجزءان وقاعدتان حيويتان للطبقات العامله فى كفاحها العالمى للتحرر ، والاشتراكى البلوريتارى لا يستطيع أن يطرح الصراع الطبقى أو التضامن الطبقى خلال الحرب أو السلم دون أن يقع فى الانتحار .

٢ — إن العمل الطبقى للبلوريتاريا فى كل الدول يجب أن يجعل هدفه الرئيسى فى السلم كما هو فى الحرب الانتصار على الامبرياليه ومنع كل الحروب ويجب أن يكون العمل النقابى والبرلمانى تابعا لهدف هو وضع بلوريتاريا كل دولة فى معارضة حادة للبورجوازية القومية[1] وإبراز كل مناسبة للاختلاف ما بين الاثنين وتقديم التضامن الطبقى الدولى على كل شىء آخر والدفع به إلى الصدارة .

٣ — أن تكون الدولية هى بؤرة التنظيم للطبقة العاملة العالميه وتتولى الدولية فى السلام وضع التكتيكات للأقسام القومية لها عن موضوعات السياسة الاستعمارية والتجارية والعسكرية واحتفالات مايو وما إلى ذلك كما تحدد الخطوط العامة للتكتيك الذى يتبع وقت الحرب .

(١) إن كلمة قومية هنا ، وفى بقية الفصل ترجمة لكلمة national التى تترجمها بعض الكتابات العربية « قطرية » .

٤ — يعطى تطبيق قرارات الدولية الأولوية على تطبيق أى قرارات أخرى وبقدر ماتخالف الأقسام القومية ذلك بقدر ماتنأى بنفسها عن الدولية .

٥ — فى الكفاح ضد الامبريالية والحرب ، لايمكن قيام سلطة محددة إلا بتضامن جماهير البلوريتاريا فى كل الدول . ويجب أن تضع الأقسام القومية نصب عينيها أهمية تعليم الجماهير العريضة النشاط السياسى والقيام بالمبادرة وبناء النقابات والتنظيمات السياسية ليمكن فى أى وقت بفضل اكتساب تعاونها النشط والسريع فى كل الأقسام القومية تحقيق إرادة الدولية وتحويلها إلى أعمال

٦ — إن المهمة التالية للاشتراكية هى التحرير الروحى للبلوريتاريا من وصاية البورجوازية التى ينم عنها نفوذ الايديلوجية القومية . ويجب أن تنبذ الأقسام القومية فى أثارتها فى البرلمانات وفى الصحافة الأسلوب التقليدى للقومية باعتباره أداة البورجوازية للسلطة . إن الصراع الطبقى الثورى ضد الامبرياليه هو اليوم الحماية الوحيدة للحرية القومية الحقة . والدولية الاشتراكية وطن كل البلوريتاريا ، ويجب أن يؤخر كل شىء فى سبيل الدفاع عنها .

وتوضح هذه الوثيقة رأى روزا لوكسمبرج فى التضامن الدولى وأنه يجب أن يمنح الأولوية والصدارة على كل صور العمل القومية ويقدم لنا تصورها للدولية كهيئة تهيمن على كل قسم من الأقسام القومية التى تكونها ولكنها تستمد قوتها من كل هذه الأقسام وإيمان هذه الأقسام بها .

وقدمت هـــذه الوثيقة إلى مجموعة الانترناسيونال فى أول يناير ١٩١٦ واعتمدتها ونشرت المرة الأولى فى إحدى مطبوعاتها .

وعندما تحولت مجموعة الانترناسيونال إلى هيئة باسم اتحاد سبارتاكوس Spartacus Bund وضعت روزا وثيقة هامة باسم « الاسبرتاكيون الالمان » وضحت فيها أهدافهم وأغراضهم ونشرت فى مجلة « دى روث فاهن » فى

ديسمبر سنة ١٨ واعتمدت أيضا فى المؤتمر التأسيسى الذى حول اتحاد سبارتاكوس إلى « الحزب الشيوعى الالمانى (K. P. D.) فى ٣٠ ديسمبر سنة ١٨ والوثيقة بمثابة برنامج لجمهورية سوفيتيه تقوم على مجالس ، وقد افتتحتها بالإشارة إلى أن ثورة ٩ نوفمبر وضعت حدا لمذبحة الحرب وأعوامها الأربعه بفضل قومة العمال ، ولكن الحكم السياسى ليس إلا انعكاسا للامبراليه الرأسماليه التى كانت السبب الحقيقى للحرب وأن الحرب قد وضعت المجتمع أمام الخيار مابين استمرار الرأسمالية أو استبعادها ، وقد فقدت الرأسماليه مع نهاية الحرب حقها فى البقاء ولم تعد قادرة على إنقاذ المجتمع مما أوقعته حربها من بطالة أو تدمير لوسائل الإنتاج أو مجاعة أو أوبئه أو إفلاس . والاشتراكية وحدها هى القادرة على الانقاذ ، وليس هناك طريق آخر .

ومهمة تحقيق الاشتراكية هى أعظم مهمة قدر للطبقه العاملة أن تقوم بها فى التاريخ الإنسانى. وهذه المهمه تتضمن إعادة بناء الدولة والأساس الاقتصادى لها إعادة تامه وكاملة. الأمر الذى لا يمكن أن يتم بمرسوم يصدره برلمان أو لجنه أو بعض الموظفين ، وإنما يتم عن طريق الجماهير . ففى كل الثورات السابقه كانت الأقليه هى التى تقود الكفاح الثورى وتستغل الجماهير . والثورة الاشتراكيه هى الأولى التى حققت الجماهير نفسها النصر ، ولا تقتصر مهمة الجماهير على أن تحدد عن وعى وبوضوح هدف ووجهة الثورة ، ولكن أيضا أن تبنى الاشتراكيه خطوة بخطوة بنشاطها الخاص . ولما كانت الميزة الرئيسيه للمجتمع الاشتراكى هى أن تكون الجماهير حاكمه وليست محكومه، فيجب أن يُحِلّ العمال أجهزتهم الخاصه ـ مجالس العمال والجنود ـ محل الأجهزة الموروثه للحكم الرأسمالى . وأن يتم ذلك من أعلى مستوى فى الدولة حتى أقل مستوى. ويجب أن تملأ الجماهير البروليتاريه كل المناصب الحكومية وتراقب كل المهام وتختبر كل مقتضيات الدولة على محك الأهداف الاشتراكيه ومصالح

الطبقه العاملة وبالمثل فإن إعادة البناء الاقتصادى لا يمكن أن يمضى إلا عن طريق العمل الجماهيرى للطبقة العاملة . فمراسم « التشريك » التى تصدرها السلطات الثوريه العليا لن تكون سوى كلمات فارغة والطبقة العامله وحدها ، بجهودها الخاصه تستطيع أن تحول هذه الكلمات إلى وقائع ولن تستطيع الطبقة العامله أن تكفل الرقابة والإدارة الفعليه للإنتاج إلا عن طريق الكفاح الصامد ضد رأس المال ، وجها لوجه فى كل مشروع وضغطها المباشر وبوسائل الاضراب وإيجاد الأجهزة التمثيلية الدائمه لها .

وعلى العمال أن يتعلموا أن يحولوا أنفسهم من مجرد آلات يستخدمها الرأسمالى فى عملية الإنتاج إلى قادة قادرين ومفكرين فى هذه العمليه ويجب أن يوفروا لأنفسهم حاسة المسئوليه تجاه المجتمع الذى يملك وحده الثروة الاجتماعيه . وأن ينموا فى أنفسهم الحماسة للعمل دون سوط الرأسمالى . والانضباط دون النير والالتزام دون السيطرة . إن الإحساس المعنوى للمجتمع الاشتراكى إنما هو التصور الأعظم لمصلحة الشعب والانضباط الذاتى الصارم والروح المدنيه الصادقه لدى الجماهير كما أن الأساس المعنوى للمجتمع الرأسمالى هو الاثره والأنانيه والغباء والفساد .

ويمكن للعمال اكتساب هذه الفضائل المدنيه الاشتراكيه وكذلك المعرفه والمقدرة على إدارة الصناعه الاشتراكيه بالنشاط الخاص والتجربه الشخصية .

إن « تشريك » المجتمع إنما يمكن أن يتم إلى الدرجة القصوى بالكفاح بلاهوادة وبصورة متصله للعمال فى كل المواقع التى يتلاقى فيها وجها لوجه العمل ورأس المال ، الجمهور والبورجوازيه الحاكمه .

أن تحرير الطبقات العامله يجب أن يكون عمل الطبقات العامله نفسها .

وفى الثورات البورجوازيه كان سفك الدماء ، والارهاب والاغتيال

السياسى أسلحة لامناص عنها الطبقات الصاعدة ، ولكن الثورة البلوريتاريه لاتتطلب الارهاب لتحقيق أهدافها وهى تنظر إليها فى كره ومقت ، وليس لديها حاجة لمثل هذه الوسائل لأن كفاحها لايوجه ضد أفراد ، وإنما ضد نظم. إن الثورة البلوريتارية ليست محاولة أقليه يائسة للتغيير الجبرى للعالم طبقا لرأيها الخاص . على العكس إنها عمل الجماهير العريضه وملايين الناس الذين يدعون لحمل رسالتهم التاريخية ولأن يجعلوا حقيقة ما أصبح ضرورة تاريخية .

ولكن الثورة البلوريتاريه تعنى فى الوقت نفسه النهايه لكل صور الاستعباد والتحكم وهذا هو السبب فى أن الرأسماليين والجونكر والبورجوازيه الصغيرة والطبقة الحاكمه ستقوم قومة رجل واحد حتى الموت ضد الثورة البلوريتاريه.

ومن الجنون أن نتصور أن الرأسماليين سيسلمون طواعيه لقرار اشتراكى يصدره برلمان أو جمعيه وطنيه وأنهم سيتنازلون مختارين عن أملاكهم وأرباحهم وامتيازاتهم ، إن كل الطبقات الحاكمه قد حاربت بتصميم إلى النهاية فى سبيل امتيازاتهم . إن الأعيان الرومان وبارونات القرون الوسطى وملاك العبيد فى أمريكا والملاك فى ولاشيا Wallachia وأصحاب مصانع الحرير فى ليون جميعا قد سفكوا أنهارا من الدماء وساروا على الجثث وارتكبوا القتل والاغتيال والحريق واضرموا الحرب الأهلية للدفاع عن امتيازاتهم وسلطاتهم .

وقد فاقت الطبقة الامبرياليه والرأسماليه ، وهى السلالة الأخيرة لطبقة المستغلين ، كل أسلافها فى الوحشية والنذالة وستدافع عن قدس أقداسها — أرباحها من الاستغلال — بقضها وقضيضها وبذلك الدم البارد الوحشى الذى أظهرته خلال سياستها الاستعمارية والحرب العالمية الأخيرة ، وستقيم الأرض وتقعدها وستعبأ الفلاحين ضد العمال الصناعيين وتضع أكثر العناصر تخلفا من العمال فى مواجهة الطليعه المتقدمه وسترسل ضباطها لارتكاب المذابح وستحاول

بمائة طريقة وطريقه من المقاومه السلبيه أن تلغى عمل الثورة .

وهذه المقاومة يجب أن تضرب بيد من حديد ، وبأقصى فعاليه إن الثورة البورجوازية المضادة يجب أن تقابل بقوة ثورة الطبقة العاملة . ويجب أن تجابه مؤامرات وخطط ومشروعات الطبقه الرأسماليه باليقظه الدائمه ووضوح الرؤيه واستعداد الطبقه العاملة للعمل فى أى وقت .

ولتمكين البروليتاريا من ذلك فإن اتحاد سبرتاكوس يطلب :

أولا : كوسائل عاجلة لتأمين الثورة :

١ — تجريد كل قوة البوليس والضباط ـ وكذلك الجنود غير البروليتاريين من السلاح .

٢ — استيلاء مجالس العمال والجنود على كل مصادر الأسلحه والذخائر والصناعات الحربيه .

٣ — تسليح كل العمال البالغين باعتبارهم الشعب العامل . وتكوين حرس أحمر للعمال من العناصر النشطة فى الميليشيا لحماية الثورة ضد المؤامرات على الثورة .

٤ — القضاء على سلطة الأمر للضباط وإحلال الالتزام الإرادى للجنود محل النظام العسكرى الوحشى وانتخاب العمال لكل الرؤساء مع حق سحب الثقة فى أى وقت وإلغاء المحاكم العسكريه .

٥ — ابعاد كل الضباط من مجالس الجنود .

٦ — إحلال الممثلين المفوضين لمجالس العمال والجنود محل كل الأجهزة والسلطات السياسيه للعهد القديم .

٧ — تكوين محكمة ثوريه لمحاكمة المسئولين عن الحرب وإطالتها أى

آل الهوهنزلزن ـ ولودندرف ـ وهندنبرج وتربتيز وشركاؤهم وكذلك المتآمرين لإقامة الثورة المضادة .

٨ — الاستيلاء العاجل على كل مصادر الطعام لتأمين غذاء الشعب .

ثانيا : فى المجال السياسى والاجتماعى :

١ — إلغاء كل الدويلات ذات الاستقلال الذاتى وإيجاد جمهورية ألمانية اشتراكية موحدة .

٢ — إلغاء كل البرلمانات والمجالس المحلية وإحلال مجالس العمال والجنود ولجانها وأجهزتها محلها .

٣ — انتخاب مجالس العمال فى ألمانيا بأسرها عن طريق السكان البالغين من الشعب العامل رجالا ونساءا ـ تبعاً للصناعات وانتخاب مجالس جنود عن طريق الجنود باستثناء الضباط والضباط السابقين ـ ويكون للعمال والجنود حق سحب الثقة من ممثليهم فى أى وقت .

٤ — انتخاب مندوبين عن كل مجالس العمال ومجالس الجنود للمجلس المركزى للعمال والجنود وينتخب المجلس المركزى اللجنة التنفيذية باعتبارها السلطة العليا تشريعيا وتنفيذيا وبالنسبة للمحاضر ـ يجتمع المجلس المركزى مرة كل ثلاثة شهور على الأقل ويعاد انتخاب المندوبين كل مرة ويكون للمجالس المحلية حق استدعاء مندوبيها فى المجلس المركزى إذا خالف إرادة ناخبيه .

٥ — إلغاء كل العلامات المميزة للطبقات كالألقاب والنياشين والمساواة التامة قانونية واجتماعية بين الجنسين .

٦ — إصدار تشريعات اشتراكية جذرية لتخفيض ساعات العمل والهبوط بالبطالة وتحديد ساعات العمل بست ساعات .

٧ — كفالة الإسكان والصحة والتعليم للطبقات العاملة عن طريق اجراء تغييرات جذرية فى سياسة هذه المجالات .

ثالثا : مطالب اقتصادية أخرى :

١ — مصادرة كل أملاك التاج لمصلحة الشعب .

٢ — إلغاء دين الدولة وكل الديون العامة الأخرى وكذلك قروض الحرب باستثناء ما اشترك فيها بمبالغ محدودة يعينها المجلس المركزى للعمال والجنود .

٣ — مصادرة كل الأراضى الزراعية الكبيرة والمتوسطة وتكوين تعاونيات زراعية لها نظامها تحت إدارة مركزية موحدة وتظل الممتلكات الصغيرة فى أيدى ملاكها من الفلاحين حتى يقرروا طواعية الالتحاق بالتعاونيات الزراعية .

٤ — تأميم البنوك والمناجم والصناعات الكبرى والمنشآت التجارية .

٥ — مصادرة كل الممتلكات التى تجاوز حدا معيناً يقرره المجلس المركزى للعمال والجنود .

٦ — الاستيلاء على كل وسائل النقل العامة والاتصالات .

٧ — انتخاب كل المجالس الإدارية فى المنشآت لتنظيم الشئون الداخلية بالاتفاق مع مجالس العمال والجنود .

٨ — تكوين لجنة اضراب مركزية تعمل بالتعاون الوثيق مع المجالس الصناعية وتكفل لحركة الاضراب فى البلاد بأسرها الإدارة الموحدة والتوجيه الاشتراكى وتكتسب له التأييد السياسى من مجالس العمال والجنود .

رابعاً : مشاكل دولية :

تنشأ علاقات عاجلة مع الأحزاب الشقيقة فى الدول الأخرى لوضع الثورة

الاشتراكية على أساس دولى لكفالة السلام والأخوة الدولية والانبعاث الثورى للطبقة العاملة الدولية .

* * *

هذا هو مايعمل له اتحاد سبارتكوس . .

ولأن هذا هو ماريده . . فإن صيحات الرأسماليين تتعالى « اصلبوه »

وهذا الاجماع على مكافحة اتحاد سبرتاكوس من كل معسكرات الثورة المضادة هو مايدل على أن قلب الثورة إنما يدق فى هذا الاتحاد وأن المستقبل سيكون له .

إن اتحاد سبرتاكوس ليس حزبا يريد أن يتسلق السلطة على أكتاف جماهير العمال ، إنه ليس إلا الفريق الواعى من البلوريتاريا وفى كل منعطف فإنه يوجه جمهرة العمال إلى واجباتها التاريخية . .

إن اتحاد سبرتاكوس يرفض المشاركة فى الحكومة مع خدم الطبقة الرأسمالية من جماعة شيدمان وايبرت لأنه يرى فى مثل هذا التعاون عملا من أعمال الخيانة للمبادىء الأساسية للاشتراكية .

وسيرفض اتحاد سبرتاكوس أيضا أن يأخذ السلطة لمجرد أن جماعة شيدمان وايبرت قد كشفت عن نفسها وأن الاشتراكيين الديمقراطيين المستقلين قد وصلوا بحكم تعاونهم معهم إلى طريق مسدود .

إن اتحاد سبرتاكوس لن يتقلد السلطة أبداً إلا عندما يتضح تماما أن ذلك هو الإرادة الحرة للأغلبية الساحقة من جماهير البلوريتاريا فى المانيا ، ولن يتقلد أزمة السلطة إلا بالموافقة الواعية من العمال على أهداف ومبادىء وغايات سبرتاكوس .

ان الثورة البلوريتارية لن تبلغ الوضوح والنضج الكامل إلا عبر الكفاح

التدريجى خطوة بخطوة على طريق جولجوتا[١] ـ وعبر التجارب المرة للعمال من هزائم وانتصارات .

إن انتصار اتحاد سبرتاكوس ليس بداية الثورة ولكنه النهاية وليس هو شيئا آخر غير انتصار الجماهير العريضة للطبقة الكادحة .

تيقظى أيتها البلوريتاريا . . وانهضى إلى المعركة . . إن علينا أن نكافح عالما . . وأن نكسب عالما .

ويمثل هذا البرنامج أفضل مايمكن أن يجود به فكر اشتراكى ، وكان وجود روزا على رأس التنظيم الجديد يعد ضماناً له من الانزلاق والانحراف ولكن هذا الضمان لم يكن فعالا لدخول عناصر أقل عمقاً وإنسانية وأكثر سطحية وانسياقا مع استثارات العاطفية أو اغراءات السلطة وقد كانت لحظة الميلاد لاتحاد سبرتاكوس هى إلى حدما لحظة الوفاة . إذ ارتؤى اعتبار التنظيم الجديد هو الحزب الشيوعى ولم يكن هذا إحلالا للفظ محل لفظ ، إذ استتبع تغييرات عميقة خاصة عندما أنهت يد الاغتيال الأثيمة حياة روزا بعد أسبوعين تقريبا من تأسيس الحزب .

* * *

وهكذا يتضح أن معسكرات اليمين بدأت فى وقت مبكر للغاية تتكتل وتستعيد مواقعها بعد الأيام الأولى للثورة فى حين انقسم اليسار إلى فريقين معتدل يمثله الحزب الاشتراكى الديمقراطى المستقل وماركسى يمثله الحزب الشيوعى . . وإذا كان هناك مايجمع بين هذه المعسكرات المتضادة . . فهو أنها جميعا باستثناء الحزب الاشتراكى الديمقراطى كانت تضيق بالجمهورية الناشئة وتتمنى لها الزوال السريع .

---

(١) الطريق الذى يزعمون أن السيد المسيح قطعه إلى مكان الصلب .

الفصل الثامن

الحزب الاشتراكى الديمقراطى

فى ظلل الغمام

لم نتعرض ـ عندما تحدثنا فى الفصل السابق عن تقطب المعسكرات للحديث عن الحزب الاشتراكى الديمقراطى (الأغلبية) الذى كان يتوسط هـــذه المعسكرات ويتقلد السلطة . .

وقد أوضحنا فى الفصل الأول كيف أن التطور الاقتصادي والسياسى جعل من هذا الحزب حزبا اصلاحيا ديمقراطيا أكثر منه ماركسيا وثوريا ، وكانت الأحداث التى وقعت فى ٤ أغسطس ١٩١٤ ، وبعده ، تكشف عن هذه الحقيقة ، وتدفع به أكثر فأكثر نحو اليمين . فقيام ثورة أكتوبر فى الاتحاد السوفييتى أكدت له الطابع الدموى والعنيف بل والوحشى الذى تصطحب به الثورة الشيوعية ، وانفصال المستقلين عن الحزب أفسح المجال للعناصر المحافظة لتكون أكثر حفاظا ، كما جعلتهم ديماجوجية ليبكنشت يعزفون عن النظريات ، والشخصية الوحيدة الجديرة بالاحترام ، وهى روزا لوكسمبرج . كانت تهيم فى آفاق العالمية . .

ويجب أن لاننسى أن الحزب ، مع العقد الأول للقرن فقد قادته المؤسسين . فقد مات ليبكنشت سنة ١٩٠٠ ومات بيل سنـــة ١٩١٣ ومات سينجر سنة ١٩١١ ، وكان هؤلاء ، على أسنانهم المتقدمة يضفون على الحزب ذكرى

الكفاح القديم ، ويربطونه بالصحبة المباشرة لماركس وانجلز ويصعب عليهم أن يتزحزحوا عن اليمين الذى اضطرتهم إليه الملابسات والأحداث الخاصة بالمانيا إلا بمدى محدود لا يسمح بأكثر منه ماضيهم الكفاحى الطويل ، ففى لعبة التقدمية دفعتهم الأحداث من اليسار حتى الوسط ، ومن الوسط حتى اليمين ، ولكن بينهم كان يمكن أن يعد يسارا بالنسبة لمن جاء بعدهم مثل ايبرت وشيدمان اللذين تمرسا فى المدرسة النقابية أو برنشتين رائد حركة التنقيح أو لودفيج فرانك أو ادوار دافيد اللذين كانا يناصران التحالف مع المعسكرات الأخرى وعندما أعلنت الحرب أصر أولهما على التطوع وقتل قبل نهاية العام .

وعند موت بيبل اختير فردريك ايبرت رئيسا للحزب وقد نشأ ايبرت من أسرة عاملة ، وعمل وهو صبى كسروجى لفترة حتى اجتذبه العمل النقابى ثم العمل السياسى . وكانت النقابية هى المدرسة التى تمرس فيها ـ شأن كثير من القادة الاشتراكيين ـ بالعمل العام والادارى . وفى سنة ١٩٠٦ ، أختير سكرتيرا تنفيذيا لمركز الحزب فى برلين فأسس ـ من العدم تقريبا ـ النظام المكتبى والإدارى للحزب بحيث أصبح العمل فيه يدور بمثل دقة الساعة ـ ونقل النظام الذى وضعه لمركز الحزب الرئيسى فى برلين إلى بقية المراكز والفروع فلا عجب إذا اشتهر ايبرت بالمقدرة الإدارية والأمانة والتفانى ، وكان بحكم هذه المحوطات معزولا عن عالم النظريات والجماهير والاجتماعات . كان إداريا وليس قياديا تتجلى فيه الصفات العملية من دربة ومرانة وصبر ودأب وفهم لطبائع الأشياء ، ولكنه لم يكن بالمزاج أو النشأة أو العمل ثوريا أو نظريا ولم يرزق سعة الخيال ، أو ديناميكية رجل الجماهير أو جاذبية رجل الدعوات .

وكان الرجل الثانى بعد ايبرت ، ويقترن به كما يقترن تروتسكى بلينين هو فيليب شيدمان ، الذى قدر له أن يكون أول رئيس وزارة فى جمهورية فايمار ، وقد مال إلى اليسار حينا ، خاصة عندما فقد منصبه كنائب رئيس الرشستاج لرفضه

القيام بزيارة ولاء للإمبراطور وإستقال من رآسة الوزارة إحتجاجا على معاهدة فرساى قائلا قولته المشهورة « أى يد لا تجف يمكن أن تقيد نفسها وتقيدنا بهذه الشروط » وإعتزل السياسة بعد ذلك وقدر له أن يعيش طويلا ، بعد هذه الأحداث العاصفة . ومات سنه ١٩٣٩ .

ومن الواضح بالطبع أنه لا يمكن أن يقارن ايبرت بلينين أو شيدمان بتروتسكى . فقد كانا رجلين يحكمهما الواقع ،ولم يرزقا الخيال والإرادة والنبوغ والملكات التى رزقها لينين وتروتسكى وجعلتهما يعملان لتغيير الواقع الماثل وتحقيق عهد جديد .

وإلى جانب هذا النقص فى القيادة فإن التميع فى المواقف الذى جاء بدوره نتيجة لعجز الحزب عن التوصل إلى الصيغة النظرية التى تحكم هذه المواقف وتخلصه من التخبط فيها ، وتبرؤه من طابع الإنتهازية الذى يمكن أن يلصق به — كان من أكبر أسباب فشل الحزب الإشتراكى الديمقراطى فى السيطرة على الأمور ، ذلك أنه إذا كان الإغراق فى التنظير والإستعباد له مما يسىء إلى التنظيم ، فإن فقد التنظير بالكلية — أو سطحيته . يفقد الحزب المعيار الموضوعى الذى يقيس به الأمور ، والبوصلة التى ترشده إلى الاتجاه السليم . . وتدور عليه العلاقه بين الجماهير والقيادات . .

وهذا لا يعنى أبداً أن الحزب الاشتراكى الديمقراطى أخطأ عندما لم يصطنع النظرية الماركسيه ، أو يحذو حذو لينين ، فقد أظهرنا تخلف التصور الماركسى عما وصل إليه المجتمع الألمانى قبيل فايمار . كما لم يكن هناك مبرر لكى يسلك كما سلك لينين ، فضلا عن أن مسلك لينين لم يكن المسلك الأمثل أو المعيارى . إن الخطأ الرئيسى فى الحزب الاشتراكى الديمقراطى أنه عالج حالة ثورية بأسلوب سلبى كأضعف ما تكون الأساليب ومن هنا ضاق به الجميع ، وحملوه الأوزار . .

وفى الأيام الأولى التى أعقبت إعلان جمهورية ، كانت برلين أشبه بدار للمجانين على حد تشبيه أحد الكتاب، كانت كل المعسكرات التى أشرنا إليها تتحفز وتسعى لكى تضم صفوفها وتثبت وجودها فى اللحظة الحاسمة التى سقط فيها النظام القديم ولما يقم بعد النظام الجديد ، وأخذ كل معسكر من هذه المعسكرات يحاول السيطرة على برلين ، فمجالس الجنود تدعى الحكم ، وأنها هى السلطة العليا ، ولكنها لم تكن منظمة ، ولم يكن الجنود يظهرون إلا أوقات الشغب والوجبات وصرف المرتبات ، والوجود العسكرى الوحيد الذى رزق شيئاً من الدوام كان هو « فرقة بحارة الشعب » التى كانت تضم فلولا من بحارة الموانى الثائرة واصلت سيرها حتى برلين فاعتصمت بالقصر الملكى والاسطبلات الملحقة بها وفعلت بهم الفوضى والفراغ وإفتقاد لزعامة فعلها بحيث أشبهوا « التراصنة » و « الفتوات » الذين يعيشون على ما يفرضون من إتاوات .

وكانت القيادة العسكرية العليا تستقر فى « كاسل » وتتابع الموقف بعد أن تهاوى الجيش وتحطم الضبط والربط ، وأصبحت لا تقود إلا نفسها : ولكنها كانت تتماسك وتتجلد وتتحصن وراء المارشال السمين الصامت كتمثال أبى الهول بينما يدير مساعده اللبق الذكى « جرونر » الأمور .

وفى الأيام الأولى التى أعقبت الثورة مباشرة وشاهدت قومات البحارة وإضرابات العمال وإنبعاثات « سبرتاكوس » إنتاب الطبقات المميزة ذعر ، وآوت إلى جحورها ، وأصبح أقصى ما تطمع فيه هو أن تنسى ، وينسى وجودها حتى يمر العاصفة وهى على ظهر الأرض وليست فى بطنها . . وانفسح مجال الشوارع والميادين للمظاهرات .

ولعل ليبكنشت كان أسعد الناس بهذه الحالة الأمور ، وأكثرهم إنغماسا فيها

فقد وجد الجماهير التى يتطلبها ، ووجدت الجماهير فيه الزعيم الذى يلهبها ويشجعها على الانطلاق من عقالها والتحرر من روابط المجتمع القديم ، ولكن هذا النشاط الثورى المحموم كان إهداراً للجهود وتبذيراً للطاقات أكثر مما كان استثمارا لها أو توجيهها التوجيه المنظم الذى يحقق الهدف المرسوم ، ثم كان هناك إحتمال أن يجرفه هو نفسه تيار الحماسة التى كان يثير بها الجماهير بحيث تسوقه معها دون أن يستطيع التحكم فيها ، وهو الاحتمال الذى كان يقلق روزا ويجعلها تضيق بهذه الاستشارات وتخشى عواقبها .

وكان المستشار ايبرت هو الذى تقلد الحكم من يد المستشار الامبراطورى يوم ٩ فبراير أكثر الجميع شعورا بعدم شرعية هذا الوضع وإستقراره . لقد كان رجلا أمينا حريصا على الشرعية والدستورية ، وكان رجلا نظاميا يعمل وينتج فى الجو النظامى الثابت المستقر . أما هذا المناخ العاصف ، المنقلب ، الذى لا يثمر عملا . ولكن مظاهرات وهتافات .. فكان يضيق به . ويريد من قرارة نفسه أن يضع نهاية له وكانت الوسيلة المفضلة فى نظره هى عقد جمعية دستورية وطنية تتولى مسئولية وضع النظام الجديد طبقا لإرادة الشعب الألمانى . ولكن التطور السريع للأحداث . ووجود جبهة معارضة قوية . ومجالس للعمال والجنود تهيمن على الموقف .. لم يكن ليسمح بذلك . ورأى أن خير ما يؤدى فى اللحظة الراهنة أن يشرك معه فى مسئولية الحكم الاشتراكيين الديمقراطيين المستقلين ، الذين كانوا على انشقاقهم من الحزب وتأثرهم بالمد الثورى آونة والتنظير الفكرى آونة أخرى يخضعون لقيادات ناضجة نشأت وعاشت فى كنف الحزب ، بل ورأسته ، وتتسم بقدر كبير من الاتزان وتقدير المسئولية . وعرض ايبرت تصوره لما يكون عليه الحكم واضحا فى ترتيبه التيارات التى كانت تؤثر على

الحزب الاشتراكي الديمقراطي والقضايا التي أثيرت في ست نقط كالآتي :

— جمهورية اشتراكية ؟ نعم هذا هو هدف سياستنا وهو هدف سيصوت عليه الشعب الألماني في الجمعية الدستورية .

— السلطة الكاملة لمجالس العمال والجنود ؟ لا . . إننا نرفض فكرة ديكتاتورية طبقة واحدة ما لم تكن وراءها أغلبية الشعب . إن مثل هذه الديكتاتورية تناقض المبادىء الديمقراطية .

— فصل الأعضاء البورجوازيين من الحكومة ؟ لا . . إن مثل هذا العمل سيضع عقبات يصعب التغلب عليها في طريق إمدادات الطعام . ويعرض للخطر مصالح المواطنين .

— مشاركة المستقلين لمدة ثلاثة أيام فحسب لكى يمكن لوزارة مختصة توقيع الهدنة . ؟إننا نرى أن مشاركة كل الزعماء الاشتراكيين ضروريه ، على الأقل لحين انعقاد الجمعية الدستورية .

— أن يكون وكلاء الوزارة البورجوازيون والمديرون مجرد خبراء استشاريون ؟ حسنا جدا .

— الحقوق المتساوية لزعيمى الحزبين بالوزارة ؟ أجل ، ولكل أعضاء الوزارة . وسبتت الجمعية الدستورية في هذه النقطة في الوقت المناسب .

ويوضح هذا التصور أن ايبرت جامل المستقلين في بعض النقط ولكنه تمسك بمبادئه ورفض نقطاً أخرى كأن تكون السلطة كاملة في يد مجالس العمال والجنود ، وفصل العناصر البورجوازية من الحكومة كما يبدو جليا بروز فكرة « الجمعيه الدستورية » في ذهن وترتيب ايبرت

وأرسل ايبرت « شيدمان » إلى الاشتراكيين الديمقراطيين المستقلين.

للدخول معهم فى مفاوضات للاشتراك فى الوزارة وأمضى هذا سهرة طويلة قبل أن يتوصل إلى تسوية تقضى بأن يحل محل الوزارة مجلس يدعى « مجلس قوميسرى الشعب Volks Beauftragten » يضم ستة من القوميسيرين ثلاثة من الحزب الاشتراكى الديمقراطى (الأغلبية) هم ايبرت ولاندسبرج وشيدمان وثلاثة من الحزب الاشتراكى الديمقراطى المستقل هم هازه وديتمان وبارت . وأن يشرف المجلس على عمل الوزراء الذين يجب أن يكونوا اشتراكيين باستثناء بعض الوزارات التى تتطلب مواصفات معينة كوزارة الحربيه والبحرية على أن تخضع أوامرهم لتصديق قوميسيرين اثنين أحدهما من الأغلبية والثانى من المستقلين . وتكون سلطة القوميسيرين متعادلة . ويستمد المجلس سلطته من مجالس العمال والجنود ، أما نقطة الجمعية الدستورية فقد ارتؤى تأجيلها على أساس « إن فكرة الجمعيه الدستورية لن تكون موضوعا للبت إلا عندما تستقر الظروف التى أوجدتها الثورة » .

ومع أن هذه التسوية كانت تمثل تنازلا من الأغلبية عن خطها السياسى وصفتها العدديه ، فإنها لم تتم إلا بعد عناء كبير ، ومن وراء ظهر ليبكنشت الذى كان فى حكم المنضم إلى الحزب الاشتراكى الديمقراطى المستقل ، والمهيمن عليه بحكم الجموع والجماهير التى كان هو زعيمها ، ووصفت بعض المراجع الموقف بالآتى :

« . . . وبينما كان المجتمعون يناقشون هذه الشروط (أى شروط انضمام الحزب المستقل للوزارة) دخل عليهم فجأة ليبكنشت ومعه مجموعة من مؤيديه ووقف خلف سكرتير الجلسة وطلب منه (على) صيغة أمر تدوين مايلى « الشروط هى تسليم كافة السلطات التشريعية والتنفيذية والقانونية إلى العمال والجنود » وساد الاجتماع سكون مطبق ولم يناقشه أحد على هذا القول

ولا على تدخله فى الاجتماع تحاشيا لاحتمال حدوث صدام مباشر مع مجموعته . وفى هذه الأثناء كان ايبرت ومجموعته بانتظار شروط الحزب المستقل ، وحينما طال الانتظار أرسل ايبرت النائب شيدمان لمعرفة الأسباب ، وعندما دخل شيدمان قاعة الاجتماع سلمه ليبكنشت الورقة المكتوب عليها شروطه السالفة الذكر . وبعد قراءتها قال شيدمان « يا رفاق كيف تتصورون تنفيذ ذلك » .

وبعد مناقشة قصيرة عاد شيدمان إلى جماعته ومعه الورقة المذكورة التى رفض ايبرت قبولها على الفور ، وناشد المستقلين إعادة النظر فى الموضوع بسبب (حراجة) الموقف وضيق الوقت . وبعد خروج ليبكنشت من مقر البرلمان باتجاه المتظاهرين من جماعته فى إحدى ساحات برلين عقد نواب الحزب المستقل اجتماعا ثانياً لمناقشة الأمر وفى هذا الاجتماع اتفق الرأى على التخلى عن الشرط الذى أملاه عليهم ليبكنشت ولقاء ذلك تقوم الحكومة بعد تأليفها بطرح الثقة بنفسها على المجلس الشعبي المؤلف من العمال والجنود وذلك ترضية للمتطرفين الذين يتمتعون بأغلبية لا بأس بها فى هذا المجلس»[١] .

وتوضح هذه الفقرات أن الحزب الاشتراكى الديمقراطى رفض مبدأ استمداد السلطة من مجالس العمال والجنود بصورة دقيقة وأن الحزب الاشتراكى الديمقراطى المستقل لم يصر تماما على ذلك . وكان الذى يتمسك بذلك هو ليبكنشت . ولم يكن لتمسكه قيمة عملية حاسمة لأنه ـ فى كل شىء ـ لم يكن يسير إلى النهاية المنطقية ، وإنما كان يسير دائما إلى منتصف الطريق ثم تتوزعه وتتناشه اهتمامات أخرى . كان ليبكنشت « كالعيار » الذى

---

(١) الحزب الاشتراكى الديمقراطى تأليف عبد الرحمن مشهدانى ص ٧٤ نشر مؤسسة فروريدش ايبرت . ألمانيا ـ والألفاظ التى بين القوسين نقلت حرفيا على ركاكتها .

لا يصيب ولكنه « يدوش » على حد المثل ، وقد أحدث ضجيجا مزعجا للحكومة وأحرجها فى كثير من المناسبات دون أن يصيبها فى مقتل .

وأخيراً شكلت الوزارة كالآتى : ايبرت الداخلية والجيش ، شيدمان المالية . لاندسبرج الصحافة والإعلام ، هاس الخارجية والمستعمرات . ديتمان التسريح والصحة . بارت السياسة الاجتماعية .

وفى الوقت نفسه كان قرابة ثلاثة آلاف من مندوبى العمال والجنود فى برلين يجتمعون فى دار السيرك Circus Busch للنظر فى الوضع ، وأيدت الأغلبية فكرة تحالف الحزب الديمقراطى وانتخبوا لجنة تنفيذية مكونة من ٢٤ عضوا ستة منهم من الاشتراكيين الديمقراطيين وستة من الاشتراكيين المستقلين والباقى من الجنود .

وبهذه الطريقـــة أصبح هناك هيئتان تمارسان السيادة والحكم مجلس قوميسرى الشعب . واللجنة التنفيذية لمجالس العمال والجنود فى برلين: واعتبر كل البلاغات والقرارات حتى اضطرب الأمر وتطلب تحديد السلطات . وفى ٢٢ نوفمبر اتفقا على أن تكون السيادة للجنة التنفيذية ويقوم مجلس القوميسيرين بالسلطة التنفيذية تحت رقابتها . كما أصبح لها حق تعين أعضاء مجلس القوميسرين ولكن هذا الاتفاق الذى كان يرجح كفة اللجنة التنفيذية ، أثار استياء الدوائر الحكومية التى تذمرت من رقابة مجالس العمال والجنود ، كما نفرت مجالس العمال والجنود فى بقية الولايات الالمانية من استئثار اللجنة التنفيذية التى كانت تمثل برلين وحدها . فقررت اللجنة التنفيذية أن تضم أعضاء من مجالس العمال والجنود فى مختلف الولايات الألمانيه على أن لا يكون لهم الحق فى مناقشة الموضوعات التى تتعلق ببروسيا .

ولم يحسم هذا الحل النزاع . ولكن الظرف لم يكن يسمح بتحدى مجالس

العمال والفلاحين ، وبدلا من ذلك استطاع ايبرت أن يعقد فى ٢٥ نوفمبر اجتماعا باسم « مؤتمر الولايات الألمانيه المتعاهدة » ضم ممثلى حكومات الولايات الألمانيه وفى هذا الاجتماع قال ايبرت « إن الطريقة التى يجب أن تتبع فى تنظيم العلاقات مابين حكومة الريخ وحكومة الولايات الألمانيه أن يوكل أمرها إلى جمعية وطنية ، وقد عزمت الحكومة عزما أكيدا على عقد هذه الجمعية فى أقرب وقت مستطاع » وأصدر المؤتمر قرارين ينص أولهما على أنه يجب أن يوكل إلى جمعية وطنية وضع دستور جديد للريخ والثانى أن مجالس العمال والجنود هى التى تمثل إرادة الأمة إلى حين اجتماع الجمعية الوطنية .

وكان هذا ـ رغم تضمنه لطمم مجالس العمال والجنود ـ فى حقيقة الحال انتصارا لايبرت ، الذى استغله بسرعة فأذاع منشورا خاصا باجتماع الجمعية العمومية .

ازاء ذلك ارتأت اللجنة التنفيذية لمجالس العمال والجنود أن تعقد مؤتمرا قوميا من ممثلى مجالس العمال والجنود فى ألمانيا بأسرها للنظر فى الوضع السياسى لألمانيا ، وما يكون عليه شكل حكوماتها . . أو بعبارة أخرى . . هل تكون جمهورية سوفيتيه تقوم على مجالس للعمال والجنود . كما كان يريد الشيوعيون واتحاد سبارتاكوس والمندوبون الثوريون . . الذى أعلن زعيمهم رتشارد مولر ـ وهو فى الوقت نفسه رئيس مجلس عمال وجنود برلين « إن الطريق إلى الجمعية الوطنية سيكون فوق جثتى » . . أو أن تكون جمهورية ديمقراطية برلمانية ، كما كان يؤثر الاشتراكيون الديمقراطيون .

كان لكل طرف مبررات وجيهة يدعم بها رأيه . فالبرلمانية كانت قد وصلت فى ذلك الوقت إلى أعلا ذروة بلغتها . وكانت الدول المنتصرة كلها انجلترا ـ فرنسا ـ الولايات المتحدة ـ برلمانية ، صحيح إن قيام الثورة البلشفية وأخذ الاتحاد السوفيتى بنظام غير النظام البرلمانى كان يمكن أن يعد بدأ نزول

البرلمانية من القمة التى بلغتها ، ولكن هذا النزول اصطحب بقلاقل وتطلب تضحيات زهدت فيه ، وأثارت الشك حوله ، بل لعله أبرز جدوى النظام البرلمانى وأفضليته . وكانت التقاليد البرلمانية لدى الحزب الاشتراكى الديمقراطى عريقة،وعن طريق العمل البرلمانى اكتسب الحزب منزلته الكبيرة. وكان برنامجه يقر البرلمانية ، وكانت الديمقراطية البرلمانية هى المطلب الأول فى برنامج ايرفورت للحزب سنة ١٨٩١ . ولم يقل أنجلز فى نقده لبرنامج الحزب إن هذا خطأ ولكنه قال إنه لم يمض إلى الدرجة الكافية .

وكان يمكن لأنصار البرلمانيه أن يقولوا إن البرلمان لا يعجز عن إصدار القرارارت الثورية ـ لو أراد ـ كالتأميم أو المصادرة أو غير ذلك . وأن نظم الانتخاب لا تحول دون انتخاب نواب عمال بدليل نواب الحزب. وأن اصلاح نظم الانتخاب ممكنة ، ومطلوبة داخل الاطار البرلمانى .

وفى مقابل هذه المزايا ، فإن أنصار البرلمانية كانوا يربطون دائما ما بين مجالس العمال والجنود . . والسوفيتات الروسيه ويرون أنها ليست فحسب غريبة على البيئة الألمانية ، بل إنها ستؤدى إلى الديكتاتورية والأرهاب .

ومن الناحية الأخرى ، فمن الواضح أن العمال والجنود هم الذين قاموا بالثورة ، وليست الأحزاب ، أو حتى النقابات ، فعمال الذخائر الذين بدأوا الاضراب بتأثير قادتهم المباشرين ومندوبو العنابر ثم الجنود والبحاره هم الذين بدأوا الأنتفاضة والتظاهر والتمرد . . فهؤلاء وأولئك هم أصحاب الثورة . وهم لا يفقهون شيئا فى « البرلمانية » التى أصطحبت دائما بالأحزاب والتنظيمات الرأسيه والمركزية . وهم لا يرون من المنطق فى شىء أن تترك التشكيلات القائمة بالفعل ، والتى تكتسب تكتلها بحكم طبيعتها أى المصانع والثكنات وأن تجرى الانتخابات على أساس دوائر سكنية لا يربطها رباط أو تنظيم . . أو أن

يسمح « لصناعة الانتخابات » أن تتدخل وتضلل وتخدع وتزيف . وتجعل اليد العليا لأصحاب المال والنفوذ .

وهم يضيفون أنه وإن كان البرلمان يستطيع — نظريا — أن يصدر ما يشاء من القرارات الجذرية عن مصادرات أو تأميمات . . الخ . فأنه عمليا لا يفعل هذا ، ولا يحفظ التاريخ سوابق لهذا على كثرة البرلمانات . ذلك لأن طريقة إنتخابات الدوائر تبعد العناصر الصالحة أو الفقيرة . بينما تظهر وتعلى العناصر الغنية أو المنافقة التي تستطيع أن تحكم صناعة الانتخابات . وهذه المحاذير كلها لا توجد عندما تجرى الانتخابات على مستوى المنشآت .

أما الربط ما بين المجالس والديكتاتورية فهو أمر غير صحيح من الناحية الموضوعية ، بمعنى أن المجالس لا تقتضى – ضرورة – نوعا من الديكتاتورية . وواقعيا، فأن هذا الربط كان نوعا من تداعى المعانى جاءت به التجربة الروسية . وحتى فى التجربة الروسية فلم تكن السوفيتات هى السبب فى الديكتاتورية . على العكس . لقد كانت السوفيتات هى أول ضحية الديكتاتورية التى جاء بها الحزب الذى أبدعه لينين وكان يضم كل السلطات فى يديه ويخضع لتوجيه أقلية مصممة . وكان من حق السوفيتات الألمانية أن تتبرأ من مثل هذا الحزب ، لأن أحدى إضافات روزا لوكسمبرج البارزة فى الفكر الاشتراكى أنها نددت بديكتاتورية الحزب البلشفيكى ولم يكن تصديها له بأقل من تصديها للتنقيحية ، وكتبت فى رسالتها عن الثورة الروسية

« إن الحرية عندما تكون لانصار الحكومة فحسب ، لأعضاء الحزب فحسب ، مهما كان عددهم كبيرا ، فإنها لا تكون حرية ، إن الحرية هى دائما حرية الذين يفكرون تفكيرا مختلفا .

ومع كبت الحياه السياسية للدولة ككل ، فإن السوفيتات أيضاً ستختنق ،

فبدون الانتخابات العامة ، وبدون الحرية غير المقيدة للصحافة والهيئات والنقابات ودون الصراع الحر للاراء والمعتقدات لاتلبث الحياة فى كل الهيئات العامة أن تذبل ، وتصبح الحياة جوفاء تكون فيها البيروقراطية هى العنصر الفعال ، وما من أحد يستطيع أن يتحرر من هذا القانون ، وشيئا فشيئا تركن الحياة إلى سبات ثقيل على حين يدير ويحكم بضعة من زعماء الحزب بهمة لا تكل ومثالية لاحد لها . إنها ليست ديكتاتورية البلوريتاريا ، ولكنها ديكتاتورية حفنة من السياسيين » .

والحقيقة أن نظام المجالس أكثر ديمقراطية من البرلمانية ، لأنه يعطى الناخبين سلطة سحب الثقة من المندوب ، وبذلك يقضى على كل إحتمال للخروج عن إرادة القاعدة .

وهذه البراهين قوية ، وصائبة دون ريب ، ولكن أنصار البرلمانية كانوا يعلمون أن روزا لوكسمبرج فى نقدها للبلشفية نسيج وحدها . وأنها بين العمال صوت فى البرية . . وأن هوى العمال الحقيقى فى تلك المرحلة قبل أن تثبت التجربة صدق نبوءات روزا وتظهره للعيان هو مع التجربة البلشفية وانهم ما أن يجدوا أنفسهم فى مقاعد السلطة والحكم حتى يحذو حذوها . .

وكان يمكن لأنصار المجالس أن يقولوا إن تكوين هذه المجالس لم يكن تماما مجرد تقليد أو اقتداء بالتجربة الروسية . ولكنه كان اجراء تلقائيا ، وطبيعيا للغاية ، ظهر فى الأيام الأولى للثورة الألمانية لأنه كان الأسلوب العملى الوحيد والترجمة النيابية الممكنة لثورة يقوم بها العمال والجنود ، ولم يكن هناك بديل لها من وحى الساعة ، فحينما تتجمع الجماهير فى مصانع أوثكنات . . فإن الانتخابات التى تجرى لابد وأن تأخذ شكل المجالس .

* * *

وفى الأيام الأولى للثورة أكتسب العمال بفضل التحلل والهزيمة من ناحية والمد الثورى والمبادأه من ناحية أخرى اليد العليا وناصرهم فى ذلك المستقلون وأصبحت مجالس العمال إلى حد ما، مصدر السلطة، وقبل ايبرت هذا الوضع على مضض، وبأمل أن الأيام المقبلة ستؤدى إلى إنحسار المد وتقلص المجالس خاصة وقد إتضح أن مجالس العمال والجنود فى بقية الولايات الألمانية أقل تعصبا وحماسة من مجلس برلين، وأن الكثير منها ـ خاصة بالنسبة للجنود ـ يتفق مع ما يذهب إليه الحزب الاشتراكى الديمقراطى، من تسليم السلطة إلى الجمعية الوطنية وليس التمسك بها . .

ولم يكن هذا الأمر يرضى ليبكنشت وجماعته الذين استحوزت عليهم الثورة البلشفية . وكان تأييد لينين لهم يشد فى أزرهم ويمدهم فى غيهم، ومن المحتمل أنه هو نفسه [لينين] كان مخدوعا فى حقيقة الوضع فباستثناء مجموعة ليبكنشت وبعض المتعاطفين معها، فلم يكن هناك تقارب بين المجموعات الأخرى والاتحاد السوفيتى، بما فى ذلك مجالس العمال والجنود نفسها، وعندما تقرر عقد المؤتمر القومى لهذه المجالس، أرسل الاتحاد السوفيتى ـ دون أن يدعى ـ وفدا يضم اساطينه : بخارين ورا كوفسكى واجناتوف Ignatov ورادك . فأرسل مجلس عمال وجنود برلين إلى الاتحاد السوفيتى يطلب إرجاء إرسال الوفد بالنسبة للحالة الحاضرة، ولم يأبه الاتحاد السوفيتى بهذا الطلب، وسار الوفد حتى أوقفه الجنود على الحدود ووجهوا نحوه مدفعا رشاشا واجبروه على العودة . ولم يقبل رادك هذه الهزيمة فتخفى فى زى جندى ألمانى جريح ودخل الحدود، وأصبح أداة للاستثارة والتحريض وتنفيذ مخططات الاتحاد السوفيتى . .

واستهدف ليبكنشت وطائفته الحيلوله دون إجراء انتخابات يكتسب

فيها ايبرت الأغلبية ، فأخذ يغرى الجنود الساخطين والعمال العاطلين ، كما أخذت فرقة بحارة الشعب تخرج من مكمنها بين آونة وأخرى وتغتصب إغتصابا أقواتها وتموينها وفى يوم ٢١ نوفمبر حدث احتكاك بين عدد من البحارة وعدد من رجال البوليس قتل فيه بعضهم ، ومكن ذلك ليبكنشت من إقامة جناز سياسى أتهم فيه الحكومة بخيانة الثورة .

وفى مناسبة أخرى أقتاد ليبكنشت بضعة مئات من الأطفال والتلاميذ إلى مجلس عمال وجنود برلين وهم يحملون الرايات الحمراء وتقدم فتى فى السابعة عشرة من عمره وقدم مطالب التلاميذ التى كانت تتضمن ابعاد ايبرت وشيدمان ومنح حق التصويت لكل من يبلغ الثامنة عشرة من العمر .

واستغل ليبكنشت حركة قامت بها بعض العناصر البورجوازية فى مساء ٦ ديسمبر بدعوى تأييد ايبرت وهاجمت فيها مجالس العمال والجنود ودار صحيفة السبارتاكوسيين فأعلن عن مظاهرة كبرى اليوم التالى (٧ ديسمبر) ضمت مئات الألوف . وأشرف ليبكنشت على المسيرة تحيط به العربات التى كانت كل منها ترفع مدفعا رشاشا حتى أحاطت بدار المستشارية وحاصرتها ـ وأطفأ القوميسيرون النور ، وأخذوا يتابعون فى الصمت والظلام تطور الأحداث . وشاهدوا ليبكنشت وهو يندد بهم ويقول بأعلى صوته « لقد اريناهم أن لدينا القوة على أقتلاعهم ، ولكنى لن أطلب الليلة سوى أن تهتفوا « لتحيا الثورة الاشتراكية . لتحيا الثورة العالمية » وأرسل القوميسيرون أميل بارت الذى كان يعد أشدهم يسارية وقربا إلى ليبكنشت ، ولكن الجماهير أستقبلته بالصفير ولم تستمع إليه . .

على أن هذه الاستثارات والمضايقات كلها لم تحل دون أن يعقد المؤتمر القومى لمجالس العمال والجنود خلال الفترة من ١٦ ديسمبر إلى ٢٠ ديسمبر

سنة ١٩١٨ ، وكانت النقابات وإدارة الحزب الاشتراكى الديمقراطى قد استطاعت أن تقنع معظم المندوبين بسلامة وأمن الاتجاه البرلمانى ، وهوس وخطر الاتجاه الشيوعى ولذلك فعندما قدم « دوميج » الشيوعى يوم ١٩ ديسمبر أقتراحه بجعل مجالس العمال والجنود أساسا للنظام السياسى وأن توضع فى يدها كافة السلطات رفض هذا الاقتراح بأغلبية ٣٣٤ صوتا مقابل ٩٨ ، وأيدت قرابة ثلثمائة اجراء « انتخابات الجمعية الوطنية يوم ١٩ يناير سنة ١٩١٩ ، وانتداب مجلس القوميسيرين للقيام بمهام السلطة التنفيذية والتشريعية لحين انعقاد الجمعية الوطنية » وانتخب المؤتمر لجنة مركزية Sentralrat من سبعة وعشرين عضوا لها حق الرقابة البرلمانية .. وبذلك فقدت اللجنة التنفيذية لمجالس العمال والجنود فى برلين ، التى كانت قوام الثورة ، شأنها ..

وبالطبع ، فإن هذه القرارات كلها أثارت ثائرة ليبكنشت والجناح الشيوعى بأسره ، ورفض الاشتراك فى اللجنة المركزية ، التى أصبحت بذلك تتكون من الأغلبية وأعلنت مجلة العلم الأحمر .

« أننا لانعترف بأتفاقات الحكومة . إن رجال المؤتمر قد خانوا الذين أنتخبوهم وجاوزوا سلطاتهم . إن مجالس العمال والجنود لا يمكن أن تحل . لأن الذى أوجدها يوم ٩ نوفمبر كان العمل الثورى للجماهير . إن السلطة الكاملة الآن هى فى أيدى أنصار شيدمان ، وليس هذا هو كل شىء . إن هازه لم يعد فى مجلس القوميسرين . أجل هازه ، وكذلك ديتمان وبارت ، إن الجناح اليسارى من المستقلين يرفض الدخول فى المجلس التنفيذى ليستعيد شرفه .. بينما يظل اليمين لكى يحمى البغاء السياسى » .

وليس معنى هذا أن الجناح الشيوعى خرج صفر اليدين من المؤتمر ، فقد استطاع أن يثير حماسة المؤتمر إلى حد كبير . وعندما أكتشفوا أن بين

المندوبين ثمانية عشر ضابطا أخذوا يهتفون « ليسقط الضباط » بينما أقتحم بعض أفراد فرقة بحارة الشعب القاعة مطالبين بتكوين حرس أحمر . وفي النهاية أستطاع الشيوعيون أن يحملوا المؤتمر على ان يؤيد ما سمى بنقط همبرج . لأن الذى تقدم بها كان « لامبل » مندوب همبرج . وكان يتضمن سبع نقط أبرزها . .

١ — رفع كل علامات الرتب العسكرية كرمز لتحطيم العسكرية والقضاء على مبدأ الطاعة العمياء وعدم حمل الجنود لأسلحة عندما لا يكونون فى الخدمة .

٢ — تكون مجالس الجنود هى المسئولة عن الفرق وصيانة الضبط والربط .

٣ — ينتخب الجنود رؤساءهم ، ويمكن انتخاب الضباط السابقين الذين حازوا ثقة الجنود .

٤ — اتخاذ الاجراءات السريعة للقضاء على الجيش الدائم وتكوين المليشيا الشعبية .

ووضع هذا القرار ايبرت فى مأزق — وبين خيارين حاسمين ، كان يمكن أن يرى فى هذا القرار تفويضا من الشعب لضرب العسكرية الألمانية التى طالما ندد بها الحزب الاشتراكى أيام القيصرية ، ورأى فيها حامية لكل الأوضاع الرجعية والطبقية ولم يكن ليجد فى هذا صعوبة كبرى لأن العمال والجنود فى صفه — ولأنه هو رئيس الحكومة الشرعية .

ولكن هذا الاختيار ، وان كان ينجيه من العسكرية — إلا أنه فيما تصوره كان يوقعه فى يد الشيوعية الألمانيه ، وكانت كراهته لها ، وماتحمله من وحشية وديكتاتورية وفوضى تفوق كراهيته للجيش والعسكرية خاصة وأنه تصور أن ولاء الجيش سيكون له باعتباره رئيس الدولة فى حين أن مجالس الجنود لاتدين

بالولاء لغير نفسها ، ومانتصوره من مبادىء.وكان هناك عوامل أخرى خارجية لاتقل وزنا عن العوامل الداخلية ، فهناك الحلفاء الذين كانوا يقفون لألمانيا بالمرصاد،وكانوا يرفضون أن يقوم فى ألمانيا نظام شيوعى يستلهم ثورة أكتوبر السوفيتية ويرتبط بها بوشائج الولاء .

ولم يكن هناك شك فى موقف القيادة العليا ، وأنها ستعارض هذا القرار بشدة والواقع أن جرونر ذهب إلى ايبرت يوم ٢٠ ديسمبر مصطحباً الخبير السياسى للقيادةالعليا الميجور كورت فون شلسر فى ملابسهما العسكرية ونياشينهما وأعلنا بصراحة وبطريقة باتة أن القيادة لاتقبل هذا الهراء .

وخرج ايبرت من هذا المأزق بأن استثنى من تطبيق هذا القرار الجيوش الميدانية وأرضى هذا القيادة ، ولـكنه أغضب زملاءه فى الوزارة من الحزب المستقل الذين رأوا فى هذا قضاء على القرار ، لأن القيادة تستطيع أن تدعى أن كل وحدة إنما هى جزء من جيش ميدانى .

وفى هذا الوقت حدث تطور فى موقف فرقة بحارة الشعب فقد حاولت الحكومة أن تجلى الفرقة عن القصر وأن تهبط بعددها من ٣٠٠٠ إلى ٦٠٠ . وفى ١٣ ديسمبر قدمت الحكومه ١٢٥ ألف مارك ووعد قادة الفرقة بتنفيذ المطلبين ولـكنهم عادوا يوم ٢٠ ديسمبر فطلبوا من الحكومة ٨٠ ألف مارك كمنحة عيد الميلاد ورضخت الحكومة بشرط عدم دفع المبلغ إلا بعد اخلاء القصر وتسليم مفاتيحه إلى أوتوفيلز حاكم برلين . وفى صباح ٢٣ ديسمبر ذهب وفد من البحارة حاملا مفاتيح القصر فى حقيبة جلدية إلى دار المستشارية وقابل هوجو هازه القوميسير المستقل قائلا إنه لايريد التعامل مع فيلز ــ ولما كان هازه على وشك الخروج من دار المستشاريه . فقد أشار عليهم بمقابلة برت . وكان برت فى اجتماع فأشار باقتياد الوفد إلى ايبرت. ولـكن ايبرت لم يكن موجودا

وفى هذه اللحظة نفسها كان بعض البحارة يطالب فيلز بدفع المبلغ على أساس أن زملاءهم قدموا المفاتيح ولما اتصل فيلز بيرت قال هذا إنه لم ير المفاتيح. ولكنه متأكد أنها موجودة بدار المستشارية ولم يقتنع فيلز بهذا الإيضاح فثار البحارة وحطموا المكتب واختطفوا فيلز واثنين من مساعديه . وعادوا بهم إلى القصر الذى لم يكن قد أخلوه كما زعموا بينما حاصرت فصيلة من البحارة دار المستشارية وأغلقت أبوابها وقطعت الأسلاك التليفونية .

وعندما عاد ايبرت إلى مكتبه اتصل بالبحارة وطلب اخلاء سبيل فيلز ـ ولكن هؤلاء طلبوا دفع المبلغ وإلا فسيضرب فيلز بالرصاص فاستمهلهم ايبرت . واتصل عن طريق الخط التليفونى السرى الذى يربط مابينه وبين القيادة وأخبر شليسر الذى رد على التليفون أن الحكومة سجينة دار المستشارية وطلب نجدة الجيش ورد هذا بأنه سيصدر الأمر فورا بإرسال قوات الجنرال فون ليكس ـ وهى إحدى القوات القليلة الباقية تحت تصرف القيادة وكانت تعسكر فى ثكنات بوتسدام .

وفى منتصف الليل لان البحارة ففكوا الحصار حول دار المستشارية وعادوا إلى القصر، بينما كانت فرقة الفرسان المعسكرة فى بوتسدام على بعد خمسة عشر ميلا من برلين تزحف على المدينة .

وعندما أحس البحارة بقدوم الجنود ثاروا وطلبوا من ايبرت سحبهم . واتصل ايبرت فى محاولة أخيرة لحقن الدماء بالقيادة العليا طالبا سحب القوات لأن الأزمة انتهت ولكن القيادة لم تشأ أن تفلت من يدها فرصة القضاء على الفرقة الكريهة فرفضت وتقدمت فرقة الفرسان حتى أصبحت على مرمى المدافع من الاسطبلات وشاهد البحارة مبهوتين الجنود وهم ينصبون المدافع كما يشاهد المحكوم عليه بالاعدام جلاديه وهم ينصبون المشنقة فلم يكن لديهم مدافع .

وفى الساعة السادسه والنصف من صباح ٢٤ ديسمبر طالب أحد الضباط البحارة بالتسليم خلال عشر دقائق ولم يرد البحارة . فقد استنجدوا تليفونيا بعوانى البلطيق ووعدوا بالنجدة العاجلة . . وفى الساعة السابعه بدأ الجنود يقصفون مبنى القصر ثم هاجموه فلم يجدوا فيه أحدا . فقد أخلاه البحارة وهربوا إلى الاسطبلات عن طريق ممر خفى فصوبت المدافع نحو الاسطبلات .

وفى منتصف التاسعة ارتفع علم أبيض على الاسطبلات وظهر وفد من البحارة يطلبون إيقاف النار لمدة عشرين دقيقه لوضع ترتيبات التسليم ولكن هذه العشرين دقيقة أنقذت البحارة فما أن توقف اطلاق النار حتى تدفقت الجماهير التى كانت تراقب المعركة عاجزة عن الحركة ماظل اطلاق النار مستمرا . وتخللت الجماهير صفوف الجنود وأخذت تناشدهم الرحمه وكان بينهم نساء وأطفال وبهذه الطريقة تخلل الجنود وسط الجماهير وهرب الضباط وفشلت « معركة عيد الميلاد » وكتب للبحارة عمر جديد من حيث لم يحتسبوا .

وأدت هـــذه الأحداث إلى سلسلة من المظاهرات هاجمت فيها الجماهير الحانقة مبنى جريدة « فوروارتس » لسان حال الحزب الاشتراكى الديمقراطى (الأغلبية) واحتلوه وفى ٢٩ ديسمبر انسحب القوميسيرون المستقلون من الوزارة فعين محلهم ثلاثة من الاشتراكيين الديمقراطيين (الأغلبية) هم نوسكه، وفيسيل ، ولوب ـ ولـكن هذا الأخير لم يقبل المنصب وعقد اتحاد سبارتـكوس مؤتمرا حضره كارل رادك وانتهى هذا المؤتمر بتأثيره إلى تـكوين « الحزب الشيوعى الألمانى » وأعلن عن تـكوين الحزب فى اليوم الأول من عام ١٩١٩ ووضعت روزا لوكسمبرج خطط سياسة الحزب وهى خطط اعتمدها الحزب وأخذ بها وإن كان قد خالفها فى بعض النقاط مثل الاشتراك فى الانتخابات البرلمانيه التى حدد لها ١٩/١/١٩١٩ فقد كان من رأى روزا الاشتراك ولـكن معظم الأعضاء رأوا غير ذلك .

كان الحزب الاشتراكى يتخبط وسط المتناقضات التى تحيط به وتملك اليأس ايبرت وذكر لجرونر عبر التليفون أن الوسيلة الوحيدة أمامه لدرأ صدام دموى مع الشيوعيين هو أن يهجر دار المستشاريه ويختفى فإذا حضر ليبكنشت لم يجد بها أحدا بينما يشكل هو الوزارة فى مكان بعيد . ولكن جرونر أشار عليه برأى آخر . ذلك أن يستدعى نوسكه من كييل ويعهد إليه بمعالجة الموقف .

وكان نوسكه قد أوفد فى الأيام الأولى فى نوفمبر إلى كيل لمعالجة ثورة البحارة واستطاع أن يحتوى هذا التمرد ويحصره فى أضيق نطاق . ونجح فى هذا نجاحا لفت نظر ضباط القيادة العليا ، واستجاب ايبرت لفكرة جرونر واستدعى نوسكه .

ودخل نوسكه غرفة ايبرت فى لحظة تاريخية حاسمة كان النقاش فيها يحتدم حول اختيار وزير الدفاع وكانوا قد انتهوا إلى تعيين ضابط هو الكولونيل والتر رينهارد، ولكن رينهارد طلب أولا موافقة القيادة العليا . وغضب نوسكه وطلب البت فى الأمر . وعندئذ سأله أحدهم هل يقبل هو فأجاب « بالطبع إن أحدا يجب أن يكون كلب الصيد . . ولن أتخلى عن المسئولية » فأمسك رينهارد بخطاب التعيين وشطب بيده على اسمه وكتب فوقه « جوستاف نوسكه » .

وكان تعيين نوسكه فى هذا المنصب إيذانا بتقلص الفرصة أمام الشيوعيين . وأن الصراع دخل مرحلة جديدة هى نهاية البداية الثورية وفترة القلق إزاء تحديد المسار .

الفصل التاسع

سبارتا كوس يصلب من جديد

لم تكن روزا لوكسمبرج ترجم بالغيب عندما قالت إنه ما أن يظهر اتحاد سبارتا كوس حتى تتعالى صيحات العسكريين والبورجوازيين « اصلبوه » .

إنها بنت النتائج على المقدمات ، وقاست التاريخ الحديث على التاريخ القديم وتمثلت طبائع النفوس ونواميس المجتمعات . ولم تسمح للأوهام أن تخدعها عن طبيعة الاستقبال الذى ينتظر سبارتا كوس الجديد .

ولكنها مع هذا تصورت أن سبارتا كوس الجرمان سيكون أصلب عودا من سبارتا كوس الرومان . . وفى هذه النقطة نحسب أخطأها التقدير . . لأن الذى تصدر المسيره لم يكن القائد ولكن الديماجوج .

* * *

فى ٤ يناير والجوع التى ألبها ليبكنشت تكتسح برلين ، دعا جنرال اسمه فون ميركر Von M ercker ايبرت ونوسكه للذهاب إلى ضاحية زوسن Zosson التى تبعد ٣٥ ميلا من برلين ليطلعهما على سره الرهيب .. ففى الوقت الذى تحلل الجيش وتهاوى الضبط والربط فى كل وحدة استطاع ميركر بالعمل فى هدؤ وصمت أن يجتذب أربعة آلاف متطوع وأن يدربهم تدريبا مستمرا بحيث يصبحون مقاتلين أشداء ويكونون الفرقة الأولى من تلك الفرق التى سيشيع ظهورها وتأخذ شكلا وبائيا وتحمل إسم « الفرق الحرة » .

وليس من العجيب أن يستطيع جنرال تجنيد وتدريب مثل هذا العدد مع حالة الفوضى التى سادت البلاد إذا وضعنا فى حسباننا التقاليد العسكرية الألمانية ومدى عراقتها وأنها عبأت مايونين من الجنود ، وكذلك حرص الضباط على الاحتفاظ ببعض الفرق التى تكون نواة الجيش عندما تتحسن الأحوال ، كما أن تحلل الجيش الرسمى دفع بعض المدنيين المتحمسين لدخول الميدان ومحاولة سد النقص، ففى يوم عيد الميلاد عام ١٩١٨ كون فرانز سيلدت Franz Seldte وهو تاجر خمور فى ماجدبورج فرقة الخوذة الفولاذية واستهدفت القضاء على الثورة واستعادة القوة العسكرية الألمانية واعتبر المارشال هند نبرج رئيسا فخريا لها ، كما عمل فى خدمتها بعد تقاعده الجنرال المشهور « فون سيكت » رئيس الأركان والذى سيؤدى دورا بارزا فى سير الأحداث فترة الجمهورية .

ومن ناحية أخرى ، فإن نوسكه ١ان ولى وزارة الدفاع حتى دعم مناصبها الرسمية بنخبة من أذكى الضباط الذين اختارتهم بعناية القيادة العليا . وكان أركان حربه الميجور ايريش فون جيلسا سليل أسرة من النبلاء شغل أفرادها المناصب العسكرية لأجيال متتالية ، كما عين فون لوتفتز Von Iutwitz حاكما عسكريا لمدينة برلين، واختار للقيادة فى مناطق معينة من برلين ضباطاً أكفاء وطموحين مثل فون ستيفانى وفون بنتوكهوزن وفون هامرشين .

وكأنما كانت هذه الترتيبات على ميعاد . فبعد يومين من استعراض ايبرت ونوسكه للفرقة الحرة فى زوسن — أى يوم ٦ يناير اندلعت الشرارة التى أضرمت الثورة الشيوعية التى طال انتظارها .

وكان السبب المباشر هو اقالة اميل ايشورن الذى كان من غلاة الحزب الاشتراكى الديمقراطى المستقل ، وكان منذ قيام الثورة قد احتل مقر البوليس

وأعلن نفسه رئيسا له ومارس هذه السلطة بطريقة اعتبرت تسترا على المتمردين على الحكومة أكثر مما هى حفاظا على الأمن ، وعندما وقع صدام « عيد الميلاد الدامى » ودار القتال أمام الاسطبلات أعلن أن البوليس « محايد » ولم يحاول نصرة الحكومة كما لم يكن يخفى معارضته لانتخابات الجمعية الوطنية ، وهى سياسة يمكن تفهمها عندما نعلم أن ايشورن عمل حينا من الدهر فى خدمة سفارة الاتحاد السوفييتى تحت إمـــرة جوف ، وكان ايبرت يتحمل صفاقة ايشورن لأنه كان جزءا من صفقته مع المستقلين ، فلما انسحبوا فى ٤ يناير أمر باقالته .

ولكن ايشورن رفض تنفيذ القرار ، وهرع إلى مقر الحزب الاشتراكى الديمقراطى المستقل واجتمع قادته بالمندوبين الثوريين والحزب الشيوعى وأصدروا بياناً مشتركا طالبوا فيه بابقاء ايشورن وناشدوا الجماهير القيام بالمظاهرات لتأييد ذلك . ولبت الجماهير هذا النداء وامتلأت الميادين والشوارع المحيطة بمقر البوليس بميدان « الكساندربلاس » والمتفرعة منه ، وكانت الجماهير من الكثرة والكثافة بحيث أدهشت المنظمين للمظاهرة أنفسهم ومن شرفة مقر البوليس ألقى زعماء المظاهرة الخطابات الحماسية .

وداخل المبنى عقد اجتماع موسع لقيادات هذه المجموعات الثلاث حضره ٧١ فردا مثل الشيوعين منهم اثنان فحسب هما ليبكنشت وويلهم بيك . أما الباقون فكانوا من المستقلين أو المندوبين الثورين واتخذوا بأغلبية ٦٥ إلى ٦ قرارا خطيرا هو الدعوة للاضراب العام ، وتأييد هجوم مسلح على الحكومه . . ووضع ألمانيا فى طليعة الثورة البلوريتارية العالميه . .

ولم تكن هذه القيادات قد اجتمعت لاتخاذ هذا القرار بالذات وكان يجب على أعضائها ـ وهم جميعا من القيادات المسئولة ـ أن يعلموا خطورة قرارهم

هذا ، وأنه كائنا ما كان وهن الحكومة فإنه يعنى الحرب الأهلية فى كل مدينة وليس فى برلين وحدها وأن الانتصار فى برلين — حتى لو كان مضمونا — فإنه لا يكفل ضرورة الانتصار فى النهاية وأن الثورات حتى على أقل المستويات لا يمكن أن تتخذ فجأة ودون دراسة مفصله وأن الفشل فى هذه الخطوة الحاسمة يعنى تصفية القوى الثوريه .

كل هذه اعتبارات من العسير علينا أن نتصور أنها دقت على المجتمعين ولكن الذى حدث أن المد الثورى وموجه الحماسة اذابت كل اتزان أو تعقل وجعلت المندوبين يجزمون فجأة بأن ساعة الثورة قد دقت ، وكان الرسل يهرعون بين آونه وأخرى بالأنباء والتقارير عن التحركات الكاسحه للعمال المسلحين وعن استمداد فرقة بحارة الشعب للعمل تأييدا للثورة ، وقيل إن ألفى مدفع رشاش وعشرين مدفع هاون ستكون تحت طلب الثائرين فى سباندو .. فالثورة التى يتحدثون عنها قد بدأت بالفعل وهل هناك دليل اكثر من أنهم يناقشونها فى مقر إدارة البوليس . .

أضف إلى هذه المشاعر التى انتظمت الجميع اندفاع ليبكنشت فمع أنه لم يحضر من الشيوعيين سوى اثنين وأن ليبكنشت كان يعلم أن سياسة الحزب المعلنه والتى وضعتها روزا لوكسمبرج وتمسكت بها هى الاثارة والدعاية بين صفوف العمال حتى يدعى الحزب بحكم الأغلبية لتقلد السلطة دون حاجة إلى انقلاب .. فإن من المؤكد أن ليبكنشت تزعم الدعوة للثورة ، وأن انقياد المجتمعين لهذا الرأى يعود إلى حد كبير لتزعم ليبكنشت له ووقوف ليبكنشت هذا الموقف أمر يثير التساؤل ، فهل حقاً انساق وراء عواطفه ، أو أنه كان لديه من الأسباب الخاصة جداً ، والسرية ما يجعله يقفه ، وهل من المحتمل أن يكون وراء هذا الموقف « معاهدة » وبينه وبين السوفيت عقدت فى أواخر سنة ١٩١٨ لتأييده

عسكريا بمجرد إعلانه الثورة ، على حد ماروى ملیو کوف Milukov ؛ أو حتى اتصالات مكثفة بهذا المعنى وان لم تصل إلى مستوى « المعاهدة » ؟

وعندما استقر الرأى على هذا القرار بدأت كتابة المنشورات لبدأ الأضراب فى اليوم التالى واختار المجتمعون لجنة ثورية من ٥٣ عضوا ووضعت هذه منشورات لتوزع عقب قيام الأضراب العام تعلن سقوط حكومة ايبرت — شيدمان وإن اللجنة الثورية قد قبضت على زمام الأمور . كما بدأت عملية توزيع الأسلحة .

وبدأ الاضراب العام فى موعده المحدد — ٦ يناير — وسارت مظاهره ضمت قرابة ٢٠٠,٠٠٠ عامل بينما احتلت مجموعات من العمال وكالة انباء ولف ومعظم دور الصحف ، وفى صباح اليوم التالى (٧ يناير) استولى العمال على بوابة براند بورج وأقاموا عليها المدافع ـ وأصبح باستطاعتهم اطلاق النار من هذا المكان المرتفع على الجهات الأربع ـ كما استولوا على دار طباعة الحكومة ومحطات السكك الحديدية وحفرت الخنادق ووضعت المتاريس .

وفى ٧ يناير كانت الحكومة قد بلغت أقصى درجة من الضعف وأعلن أحد الوزراء فى اجتماع الوزارة بدار المستشارية « ان الاسبرتا كوسيين قد استولوا على مبنى إدارة السكة الحديد، ووزارة الحربية هى الثانية فى الترتيب ، وبعدها سيأتى الدور علينا » واقترح برنشتين وبعض المعتدلين من المستقلين مثل كوتسكى وهيلفردنج فتح باب المفاوضات مع الثائرين ، ولكن كل محاولات التفاوض ذهبت هدرا ، ذلك أن ليبكنشت كان فى حكم الواثق من النجاح وقد امرت اللجنة الثورية بطبع بيان فى ثمان صفحات بمجرد تقلد اللجنة السلطة .

ولكن موقف الحكومة لم يكن ميئوسا منه ، كما تصور ليبكنشت ، فقد

ذهب نوسكه إلى ضاحيه داهلم Dahlem ليعبأ الجنود ، واستطاعت الوزارة عندما استنجدت بالمواطنين أن تسلح خمسة الاف من الموظفين المدنيين وعهدت إليهم بحراسة المبانى واستطاع هؤلاء المتطوعون أن يستولوا على بوابة براندبورج وينحوا الثوار عنها وأرسل ايبرت أحد كبار معاونيه إلى فرقة بحارة الشعب ليكسبها إلى صف الحكومة . وحاول زعيم الفرقة الذى وعد الثوار بالمعونة أن يلقى القبض عليه ، ولكن البحارة الذين أعادوا التفكير فى الأمر وخافوا مغبة مقاومة الحكومة حرروا مندوب ايبرت واعتقلوا قائدهم نفسه وأعلنوا حيدتهم . وغنى عن القول أن كل القوى العسكرية قد رحبت بهذه الفرصة التى تمكنها من الخلاص مرة وإلى الأبد من الشيوعيين المقيتين . وظهرت عشرات الفرق الحره يقودها ضباط ممرسون . وعزفت الطبقة الوسطى الصغيرة عن تأييد الثائرين ، ولوثت القسوة والوحشية التى مورست بها الثورة البلشفيه حركة الثوره الألمانية ، والصقت بها . واعتقد إن حقا أو باطلا أن كل ما طبقه البولشفيك فى روسيا سيطبقه الشيوعيون فى ألمانيا . وكانت الملصقات الكبيرة تعلن أن الوطن فى خطر وتصم الحركة بالعمالة لروسيا وتحذر المواطنين من الأعدام والمصادرة « وتأميم النساء » واصدرت الحكومة نفسها بيانا حذرت فيه الشعب من أنه إذا انتصر السبرتا كوسيون فسيكون فى ذلك القضاء على الأمن والحرية وردت مجلة العلم الأحمر على ذلك « اليوم لن تكون هناك رحمة لاشترا كيي ايبرت وليس إلا الضربات » .

وكائناً ما كانت للمبالغة فى هذه الادعاءات ، فإنها لم تخل من حقيقة . فمن الوقائع الثابتة أن السفير السوفيتى جوف كان يصرف بسخاء ، ويضع الخطط ويقدم المنظمين والمهيجين ، وعندما طرد جاء رادك الذى لم يقلع عن تشبيه الوضع فى ألمانيا بالوضع فى الاتحاد السوفيتى قبيل ثورة أكتوبر ، بل إن

دعوى تأميم النساء — على ما فيها من سخف وإثارة — لم تخل من أصل فقد ظلت دعوة « الحب الحر » تساير الدعوة الاشتراكية وتصطحب بها ، ولم يبذل الاشتراكيون جهدا فى إبعادها ، أو يستطيعون لها تفنيدا على أسس مبدئية ، وعندما انتشر الحب الحر فى الاتحاد السوفيتى غداة الثورة ، وذاع أن الممارسة الجنسية ليست إلا كشربة من كوب ماء ، لم يبذل لينين إلا جهدا ضئيلا ولستر بعض المظاهر فى مقاومة هذه الفكرة ، وإن ظل هو نفسه بعيداً عن التحلل الجنسى .

* * *

وهكذا استطاعت الحكومة أن توجه قوة كبيرة تحت قيادة الميجور فون ستيفانى لتحتل الميدان المواجه لدار جريدة فوروارد التى اعتبرت قيادة الثورة ولتسد كل المنافذ إليه حتى لا يتكرر فيه ما حدث عند قصف بحارة الشعب . وكان ستيفانى نفسه قد تخفى فى زى عامل ودخل مبنى الجريدة ، وألم بتحصينها ، فوجه إليها مدافعه وعندما أحدثت فجوة كبيرة فى المبنى تقدمت دبابة وحطمت الأبواب وتبعتها العربات المدرعة التى كانت تحمل الجنود وكان عدد المدافعين عن الجريدة ضئيلا بالنسبة لعدد الجنود ودافعوا بشراسة ولكن أسلحتهم الصغيرة لم تجد أمام مدافع الهاون . . ولم يرحم الجنود أحدا فأعدم فوراً كل أو معظم من أسرتهم .

وكان نوسكه ينظم حشد وسير القوات التى أخذت تزحف على برلين يوم ١١ يناير بعد أن وضعت خطة دقيقة لتطويقها وتمشيطها بحيث تصفى كل العناصر الثورية ووزعت هذه القوات نفسها على أحياء المدينة وحدودها . وخلال الأيام الثلاثة ١٣ و ١٤ و ١٥ سقطت المدينة فى يد الجيش وصفيت الجيوب الثورية جيبا جيبا وقبض على زعماء المستقلين والشيوعيين بينما عرضت

جمعية مقاومة البلشفية عشرة آلاف مارك ثمنا لرادك . ولكن رادك استطاع الفرار هو وايشورن — سبب هذه المصائب كلها . .

أما الطلبتان الثمينتان : روزا لوكسمبرج وكارل ليبكنشت فقد وشى بهما فيما يبدو ، فقبض عليهما فى مساء ١٥ يناير وأخذا إلى قيادة قوة الفرسان التى كان مقرها فندق ايدن حيث ضربا . وفى الليل عند إخراجهما كل على حدة من باب الفندق رفع جندى عتل يدعى رنج Runge بندقيته وهوى بها على رأس ليبكنشت الذى سقط لتوه ، وأصبح إلى الموت أقرب منه إلى الحياة ، فقذف به إلى عربة تقل ستة من الضباط ، سارت فى اتجاه سجن موابيت Moapit ، وبعد لحظات أخرجت روزا لوكسمبرج من باب الفندق حيث كان الجندى الشرير نفسه — رنج — يترصدها — فضربها ببندقيته وقذف بها إلى عربة كانت تقل الملازم فوجل .

وأوقفت عربة ليبكنشت فى الطريق حيث أطلق عليه النار بدعوى أنه حاول الهرب وسلمت جثته إلى المشرحة على أساس أنها « جثة لرجل مجهول وجد فى التيرجاردن » ، أما روزا فما من أحد يعلم أكانت حية أم ميتة عندما ألهب فوجل رأسها بطلقة مباشرة وألقيت جثتها فى إحدى القنوات ، ولم تستخرج إلا فى ٣١ مايو .

إن تسل أين قبــــور العظما

فعلى الأفواه . . أو فى الأنفس . .

* * *

بموت روزا لوكسمبرج فقدت ألمانيا زعامة الفكر الاشتراكى الدولى ، تلك الزعامة التى انتزعها ماركس من الاشتراكيين الفرنسيين والإنجليز ودعمها انجلز ، وكانت روزا هى « الأمازونة » التى تأتى مباشرة بعد ماركس

أو انجلز والشخصية النسائية الوحيدة فى الفكر الاشتراكى التى وصلت إلى هذه المنزلة ، وانتقلت زعامة الفكر الاشتراكى إلى روسيا بفضل فكر بليخانوف . . وعمل لينين وكتابة ترونسكى .

وفقد الحزب الشيوعى الألمانى منزلته الرفيعة بعد فقد المفكرة الوحيدة التى كان يمكن أن تتصدى للينين تصدى الند للند بل وتغلبه فى حلبة الجدل المذهبي . .

وفقدت ألمانيا أيضا أملها الأخير فى الثورة الشيوعية ، ولم تقم لها قائمة رغم ما سيلى من محاولات كان الألمان يقومون بها عندما تصدر إليهم الأوامر من موسكو . .

واستطاع العسكريون الألمان بهذا العمل الأثيم أن يحققوا هدفاً مزدوجا : أن يتخلصوا من أعدى أعدائهم وأن يلوثوا حكومة ايبرت ، وقد نجحوا فى الهدف الثانى كما نجحوا فى الهدف الأول لأن الحكومة رغم استياء ايبرت عجزت عن الاقتصاص من قتلة روزا وليبكنشت . فقد حكم على أربعة من الضباط بالموت ولكن المحكمة أنقذتهم وحكم على رنج بالسجن عامين والملازم فوجل عامين وأربعة أشهر ولكنه عبر الحدود إلى هولندا بجواز سفر مزور . وفى النهاية تمخضت العملية كلها عن سجن عسكرى واحد .

ومن العسير التنبؤ بما كان يمكن أن يحدث لو قدر لروزا لوكسمبرج أن تعيش وتواصل كفاحها ، فترى هل كانت الأحداث والضرورات تقهرها وتغلبها على رأيها وتجعلها تلوذ رغم أنفها بصور من الكبت والديكتاتورية . . أو هل كانت تنجح فتقدم إضافة جديدة مبدعة .. ؟ إن النقد الأكبر الذى يمكن أن يوجه إلى روزا هو تشبثها الشديد وإلى النهاية بفكرة الطبيعة العالمية للثورة الاشتراكية، وكانت هذه الفكرة شائعة بين كل الاشتراكيين

قبيل الحرب العالمية الأولى .. وكان لينين أحد كبار المؤمنين بها ، وكان يرى أن قيامها — وفى ألمانيا بالذات — هو الذى يؤمن الثورة السوفيتية بل إنه فى بعض الأوقات كان يعلمها على الثورة السوفيتية نفسها ، وقد ظل يترقبها يوما بعد يوم قبل أن يوقع معاهدة بريست ليتوفسك المهينة .

وفى المؤتمر السابع للحزب الشيوعى أعلن لينين يوم ٧ مارس سنة ١٩١٨ « أن الثورة الروسية ستكون عملية ميئوس منها إذا بقيت وحيدة ، وإذا لم تقم ثورات فى الدول الأخرى . وأن الذى سوف ينقذنا — وأكرر ذلك مرة أخرى — هو الثورة الأوروبية » واستطرد « إنها لحقيقة مطلقة أننا دون الثورة الألمانية سنهلك ، وقد لا يدركنا الهلاك فى بتروجراد — أو موسكو أو حتى فى فيلا ديفستوك أو غيرها من المناطق النائية التى يكون علينا الانسحاب إليها ولكننا سنهلك فى مطلق الأحوال وبالرغم من جميع التحولات الممكنة إذا لم تشتعل الثورة الألمانية » ومع هذا فإنه أدرك أن الثورة الألمانية المنشودة لن تأت بالسرعة المطلوبة ، ووضع حساباته وقراراته على هذا الأساس الواقعى بالفعل .. ومن الناحية النظرية فإن فكرة الاشتراكية فى دولة واحدة لا يمكن أن تكون خطأ تماما . وقد لاحظ تروتسكى — وهو نفسه من دعاة الثورة العالمية — أن احتمالات نجاح الثورة فى ألمانيا الصناعية المتقدمة كانت أكثر من احتمالات نجاحها فى روسيا المتخلفة ، وقد دعا إلى مثل هذا الرأى الاشتراكى الديمقراطى « فولمار » الذى كان يعد من أعمدة التنقيحية — دع عنك أن المناخ الذى كان يحيط بروزا كان مناخا وطنيا متعصبا وأن الظرف كان ساخنا بل ملتهبا ولم يكن ليسمح بحديث عن العالمية ، بل كان يرى فى مثل هذا الحديث خيانة ..

وفى وزننا لشخصية ومكانة روزا يجب أن لا ننسى أبدا أنها أولا وأخيرا

ماركسية وقد زج بها إيمانها بالماركسية فى بعض الحالات إلى صور من الفظاظة والحدة غريبة عن طبيعتها التى كانت تنبسط وتترقرق بمثل ترقرق النسيم أمام الفنون والآداب والإنسانيات ، ويمكن القول أن سوءاتها المحدودة تعود إلى عناصر ماركسية ، بينما انبثقت حسناتها العديدة عن طبيعتها الكريمة الذكية ، الشجاعة . .

بالاضافة إلى هذا كله فقد كان هناك عامل خاص تنبه إليه إيبرت ورجال الحزب الاشتراكى الديمقراطى المسئولين ، بل كانوا يضعونه فى صدارة الاعتبارات ، ولم يظفر مع ذلك بأى اهتمام من الشيوعيين على اختلافهم ، هذا العامل هو موقف الحلفاء واحتمال تدخلهم أو على الأقل استمرار فرضهم للحصار الاقتصادى الذى كان يهدد ألمانيا بالمجاعة .

ولم تكن هذه المخاوف خيالية أو وهمية وقد يوضح فكرة رجال هذا العهد وقتئذ ذلك الحديث الذى دار ما بين جوليوس برونتال ورودلف هيلفردنج الذى كان من أبرز شخصيات الحزب الاشتراكى المستقل ورئيس تحرير صحيفة « فريهيت Freiheit سنة ١٩١٩ . ففى هذا الحديث سأل برونتال .

— ولكن لنفترض أن اليسار الاشتراكى فى ألمانيا حصل أخيراً على السلطة — ولا يزال احتمال هذا قائماً — أفلا تسنح من ذلك فرصة لتتحول ألمانيا إلى سوفيتية وتلحق بروسيا . إن هنغاريا قد أصبحت جمهورية بلشفيه . والنمسا على أبواب ذلك فإذا أصبحت ألمانيا بلشفيه ، فيمكن أن تحذو حذوها بولندا وتشيكوسلوفاكيا أفلا ترى هذا .

— هذه هى اليوتوبيا الكلاسيكية التى لايزال يتشبث بها اليسار ، ولكن بصرف النظر عما إذا كان النظام السوفييتى معلوبا فإن تحقيق ذلك مستحيل تماما من وجهة النظر الداخلية والخارجية على سواء . ففيما يتعلق بالاتجاه

الداخلي للبلاد فقد قامت محاولة لذلك في نوفمبر عند البارقة الأولى للثورة ، ومع أننا لم ننجح ، فقد كان هناك على الأقل فرصة شريطة أن لا يتدخل الحلفاء وهو ما كانوا سيفعلونه وستؤدى مثل هذه المحاولة الآن إلى أعنف صور الحرب الأهلية ، وماتجره من عواقب وخيمه . وفيما يتعلق بالنتيجة فليس هناك أي شك . . فسيزحف الحلفاء علي برلين وسيحتلون البلاد ، وسيقيمون حكومة معارضة للثورة وسيكون ذلك نهاية الأمل في التقدم للجيل المقبل .

ولاتنسى أن المنتصرين فى هذه الحرب ليسوا هم الشعب الفرنسى والانجليزى وإنما هم الامبرياليون الفرنسيون والإنجليز . إن ثورتنا كان محكوما عليها بالفشل من البدايه . . لقد جابهنا الامبرياليون القساة المقنعون بقناع ديمقراطى . ولما كانوا يخشون البلشفية فإنهم كانوا سيرفضون مفاوضه أى حكومة لاتنتخبها الجمعية الوطنيه . وهذا هو السبب فى أنهم لم يرفعوا الحصار عن ألمانيا الثورية . . إنهم يجيعونها .

— وماذا تظن سيحدث لألمانيا .

— إنها ستصبح ديمقراطية رأسمالية ، ومن بعض النواحى فإنها قد تصبح أكثر الدول الرأسمالية تقدما . ولكن ستظل ألمانيا هيكليا رأسمالية — حتى تأتى[1] الفرصة التالية التى يمكن أن يقدمها لنا التاريخ » .

وكل من يتذكر المحاولات العديدة التى بذلها الحلفاء لوأد الثورة الروسية والمساعدات التى قدموها لجنرالات الجيش القيصرى والحصار الذى طوق روسيا وأن هذا كله كاد أن يقضى على الثورة الناشئة لولا العوامل الاستثنائية التى أحاطت بحالة كتفرقه كلمة الجنرالات البيض أو العوامل الخاصة

(1) In Search The of Millenium hsy Julius Braunthal p. 244

بروسيا بالذات مثل المناخ الذى كان يجعل فى خدمتها قائدا لا يقهر هو « الجنرال شتاء » ومثل سعة الرقعة التى كانت تستغرق وتبتلع أى جيش مهما كبر ومثل الموقع الجغرافى الذى كان يجعلها بعيدة عن يد الحلفاء . ولم يكن لألمانيا هذه المزايا . فقد كان مناخها عاديا بالمقاييس الأوربية ورقعتها محدودة وهى مطوقه بالحلفاء . . وكانت فرنسا لها بالمرصاد واحتلت السار بالفعل عند أول خلاف . من يقدر هذا لا بد وأن يسلم أن كلام هيلفردنج لم يكن خيالا أو وهما وإنما كان حقيقة ، وأنه كان حقيقية بالنسبة لذلك الوقت كما كان حقيقة بالنسبة لتصور المستقبل عندما جاءت الفرصة التالية وتحولت أوروبا الشرقية إلى معسكر اشتراكى . والتحفظ الوحيد هو أن العالم الغربى والرأسمالى تعلم من خطئه السابق « عندما جاءت الفرصة التالية » فلم يسمح تشرشل وروزفلت للحقد الأعمى والسخيمه السوداء أن يصلا بهما إلى ما وصـــلا بلويد جورج وكليمنصو . إنهما غداة الانتصار أخذا يبنيان بالأموال ما هدمه بالقنابل . واستطاعا بذلك أن يستنقذا الجزء الأعظم من ألمانيا من قبضة البلشفيه بعد أن كادت تذهب بها .

وبصرف النظر عن هذه الاعتبارات كلها ، فإن ثورة يناير لم يتوفر لها أقل استعداد يفترض أن يتوفر لأقل ثورة . كانت نوعا من اللعب بالنار ، والمغامرة الحماسية وقد اتخذ قرارها فجأة ودون سابق اعداد فى اجتماع اكتسحته العاطفه . فلم تدرس عمليات الثورة أو توضع الحلول البديله لمختلف الاحتمالات ولم توجد اللجنة التنفيذيه المحدودة والمترابطة والحازمة . وكان لدى ألمانيا من الجماهير التى لبت نداء الثورة بالفعل أضعاف الجماهير التى أيدت البولشفيك . ولـكن لم يكن لدى الألمان أركان حرب الثورة وقد وصفت مجلة العلم الأحمر اضراب ٦ يناير .

« ومن المحتمل أن ما حدث يوم الأثنين فى برلين كان أعظم عرض

بروليتارى فى التاريخ . فمن تمثال رولاند فى مواجهة قاعة المدينة إلى تمثال النصر فى كونجزبلاتز كان العمال يقفون كتفا إلى كتف وقد أحضروا معهم أسلحتهم وأعلامهم الحمراء . . وكانوا على استعداد لعمل كل شىء . . ولتقديم كل شىء . . حتى حياتهم . كان هناك جيش من ٢٠٠٫٠٠٠ لم يشهده أى « لودندورف » من قبل .

وعندئذ حدث آخر شىء كان يخطر بالبال . لقد كانت الجماهير مجتمعة من التاسعة صباحا فى البرد والضباب بينما كان زعماؤهم فى مكان ما يأتمرون وانقشع الضباب وهم لا يزالون واقفين وزعماؤهم لا يزالون يأتمرون ٠٠ وجاء الظهر وجاء معه بالإضافه إلى البرد الجوع ٠٠ ولكن الزعماء كانوا يأتمرون ٠٠ كانت الجماهير تتقد حماسه ٠٠ تريد أى شىء ٠٠ ولو كلمة واحدة ٠٠ ولكن ما من أحد قال لهم شيئا لأن الزعماء كانوا يأتمرون وعاد الضباب مرة أخرى وجاء معه الغسق والظلام فعادوا إلى بيوتهم أسفين ، لقد أرادوا أشياء عظيمة ولكنهم لم يفعلوا شيئا لأن زعمائهم كانوا يأتمرون ٠٠ لقد اجتمعوا فى « مارستال » ثم عادوا إلى مركز البوليس وهناك جلسوا الليل بطوله ٠٠ وعندما أشرق الفجر كانوا لا يزالون يأتمرون ٠٠ »

ونتيجة لعدم الاستعداد ولعدم وجود الكوادر الموثوق بها والتى يوكل إليها تحريك الجماهير وتوجيه الثورة فى مختلف المواقع . فقد أندس عدد من « العملاء المهيجين » بين الجماهير المستثاره ، واستغلوا حماستها فى غيبة القيادات المسئولة . وقد أظهرت التحقيقات التى أجراها — فيما بعد — الديت البروسى أن معظم النداءات التى وجهت الجماهير لاحتلال دور الصحف إنما جاءت من العملاء المهيجين ، أو على الأقل من عناصر لا علاقه لها بالثائرين وقد قاد المجموعة التى احتلت « فورروارد » الفرد رولاند الذى اكتشف فيما بعد أنه عميل مهيج .

وكانت السلطات التى جابهت الثورة الألمانية أقوى من السلطات التى جابهت الثورة البلشفيه .. ومن المحتمل أن كرنسكى كان أكثر تألقا من ايبرت، ولكنه لم يكن له حزب منظم مثل الحزب الاشتراكى الديمقراطى (الأغلبية) وكانت الأغلبية ضد الثورة فى ألمانيا على عكس ما كان فى روسيا. وكانت الطبقة الوسطى الألمانية مضادة للثورة، بينما لم يكن فى روسيا طبقة وسطى تقاوم الثورة وكان نوسكه والعسكرية البروسية فى ألمانيا أقدر من الجنرالات القيصريه فى روسيا

وأخيرا جدا فلم تتوفر لقومة يناير الشخصيات القديرة التى تدير الثورة على هدى وبصيره.

ولو أردنا تحديد مسئوليات فشل قومه يناير لوجدنا أن الحزب الاشتراكى الديمقراطى المستقل الذى كان يفترض أنه المسئول الأول عنها لم يكن موجودا فيها .. لا بجمهوره .. ولا بقياداته ..

ولوجدنا أن المندوبين الثوريين الذين يلون الحزب الاشتراكى الديمقراطى المستقل فى الوزن، والذين أيدوا الثورة، نجحوا فى دائرة تخصصهم — تعبئة العمال والقيام بالاضراب — ولكنهم خارج هذه الدوائرة لم يفعلوا شيئا ..

ولعل أكثر الزعماء مسئولية عن قيام الثورة، وفشلها هو ليبكنشت .. والخطأ فى ليبكنشت أنه لم يفهم الثورة إلا أنها استعراض جماهيرى واستثارة عاطفيه ولم يذهب ابداً إلى ما هو أبعد عن ذلك .. حتى عندما تكون الثمرة فى متناول يده ..

وقد أوردنا شواهد عديدة .. تنبيء أنه أنه لو سار خطوة بعد الخطوة التى وقف عندها .. لتغيرت الأحوال.

أما روزا لوكسمبرج فقد برأت ساحتها كتاباتها العديدة المعارضة للثورة .. وعندما عاد إليها ليبكنشت بقرار اللجنة قرعته وذكرته بالسياسة المقرره

الحزب التى كانت ضد افتعال الثورة . وحاول رادك أن يحمل روزا على أن تتنكر للقرار « فالاخطاء يجب أن تصفى فورا مهما كانت النتيجة » وكان فى هذا مصيبا ولكن روزا آثرت أن تقف مع الجماهير فى محنتها .. وإلى النهايه وفضلت الخطأ النبيل على الصواب الرذيل .. ودفعت حياتها ثمنا له وأغلب الظن أنها كانت تعلم ذلك أو تحسه لأنها اعترفت أن الثورة فشلت .. ولكنها لم تفقد ابدا إيمانها في عودتها وانتصارها . وقبل مصرعها بيوم واحد كتبت فى مجلة العلم الأحمر تخاطب المنتصرين .

« أيها الحمقى .. إن نظامكم يقوم على الرمال وفى الغد سترفع الثورة رأسها من جديد وستصيح بمثل دوى الرعد ..

لقد كنت ...

وها انذا ...

وسأكون ... »

فهل كان نوسكه يعلم أن هذه ليست نبوءه طائشه أو بلاغه فارغه .. وهل كان يخطر بباله أن الثورة الشيوعية المقيته ستعود بعد عشرين عاما .. وبعد كل بهرة الهتلرية ، وسيكون على رأسها تلميذ روزا وزميل ليبكنشت فى ذلك الاجتماع المشئوم الذى قرر الثورة « ولهلم بيك . وأنه سيكون قاب قوسين من الوقوع فى يدها ولن يستطيع الفرار إلا فى أخر لحظة .. وبصعوبة ..

وكثيرا ما يخطر للانسان أن جزءا من قمع الحركة بهذه الوحشية إنما يعود إلى الانتصار الوحشى لثورة اكتوبر السوفيتية والسياسة التى انتهجها لينين . فقد كانت العسكرية الألمانية تثأر للعسكرية الروسية وتحمى نفسها وتؤمن مستقبلها من تشريد يماثل ماتعرض له ضباط الجيش القيصرى الروسى وثمة تشابه

عجيب بين الغـــل والحقد وفكرة الاستئصال التى وسمت تصرف الضباط الألمان ازاء روزا وليبكنشت وتصرف السوفيت ازاء الأسرة القيصرية فى سجنها . فكأن نجاح الشيوعيه فى روسيا استتبع بطريقة ما .. أو بنسبة ما هزيمة الشيوعية فى ألمانيا وكأن روزا وليبكنشت وزملاءهما كانوا شهداء التعصب الليلنيني قدر ما كانوا شهداء التعصب العسكرى الألمانى ، كما أن هذا التعصب العسكرى الألمانى نفسه انقذ لينين من مصير كمصير روزا ، عندما طلب إليه تسليم نفسه لحكومة كرنسكى ووافق الحزب على ذلك ، ورفض هو وكأن الشيوعين الألمان دفعوا ثمن انتصار الشيوعين الروس وسددوا عنهم خطاياهم ، كما دفع الرأسماليون الروس ثمن استغلال الرأسماليين البريطانيين الذى سجله ماركس وولد النقمة على الرأسمالية حيثما كانت . فكأن التاريخ يجرى مقاصه عالمية لا تقف دونها اسوار الدول ولا تميز بين جيل وجيل ولا يدفع ثمنها الذين ظلموا فيها خاصه .

الفصل العاشر

أحداث بافاريا العجيبة

فى الوقت الذى كانت برلين تضطرم بالأحداث التى عرضنا لها كانت ميونيخ — عاصمة مملكة بافاريا — مسرحاً لأحداث مماثلة فى كل شىء تقريباً، وإن فاقتها غرابة وشططاً . .

وكانت بفاريا إحدى الولايات الألمانية البارزة التى احتفظت على مر العصور بشخصيتها وإستقلالها الذاتى، وحكمتها — على إمتداد ٧٥٠ عاما تقريباً — أسرة تكاد تفوق فى عراقتها الهوهنزلرن هى أسرة ويتلباش وعندما أراد بسمارك تكوين الإمبراطورية الألمانية بذل جهداً خارقا ليمكن حمل بفاريا على الإنضمام، وعندما وافقت فى ٢٣ نوفمبر سنة ١٨٧٠ قال بسمارك « لقد صنعنا وحدة ألمانيا وقيصرها أيضاً » وكان الملك لودفيج الثانى ملك بفاريا هو الذى تقدم إلى ملك بروسيا طالبا قبول تاج القيصرية . . وعندما تحققت الوحدة احتفظت بفاريا بملكها وجيشها، وإدارة شئونها الداخلية ولم يكن مسموحاً للجيش البروسى بالدخول إلى الأرض البافارية .

وعندما قامت الحرب العالمية الأولى أسهمت بافاريا فيها، وقاد ولى العهد البافارى البرنس روبرخت فرقتين، وأثبتتا شجاعة . .

ومن ناحية الميول والإتجاهات كانت بفاريا نقيضا لبروسيا، كان شعبها

زراعيا وادعا ، يدين بالمذهب الكاثوليكى ، ويؤثر الحفاظ وكانت إشتراكيته معتدله ، وكان زعيم الإشتراكيين الديمقراطيين فيها — فولمار — يمثل اليمين الإشتراكى الذى يؤمن بالإصلاح ، ويؤيد التحالف والتعاون مع بقية الأحزاب ، وقد كان هو الذى توصل قبل غيره إلى إمكان إقامة نظام إشتراكى فى دولة واحدة . .

فى هذه الظروف يكون مما يثير الدهشة أن يحدث فى مونيخ ما حدث فى برلين ، وأغرب من ذلك أن تسبق بفاريا برلين ، وأن يتم الإنقلاب كما لو كان مجرد تغيير نوبه الحرس . ، والحقيقة هى أنه عندما طالت الحرب واشتدت بأساؤها . . ثم حدثت الهزيمة . . تملك الإستياء والضيق البافاريين الذين لم يكونوا كالبروسيين يؤيدون الحرب ، وانما سيقوا إليها بحكم الولاء .

كما يجب أن نضع فى حسابنا دائما ما أشرنا إليه أكثر من مرة من أن الفكر الإنسانى يتأثر بعوامل خارجية ، كما يتأثر بعوامل محلية ، معنوية كما هى مادية ، مستقبلية كما هى واقعية . . ونتيجة لهذا تكرر فى الإشتراكيين الديمقراطيين البافاريين ما حدث فى الإشتراكيين الديمقراطيين الألمان من وجود أغلبية محافظة وأقلية ثائرة ووقوع الأغلبية فى التسويات التى لا تنتهى وما تتطلبه من تنازلات وما تؤدى إليه من ضعف ، الأمر الذى إنتهى بانشقاق جناح « الاشتراكيين المستقلين » عن الأغلبية التقليدية .

وفى يوم ٧ نوفمبر سنة ١٩١٨ دعا زعيم أغلبية الإشتراكيين الديمقراطيين أرهارت إير Erhard Auer الجماهير للإجتماع للمطالبة بالسلام فى السهل الشعبي الذى كانت تعقد فيه الإحتفالات السنوية ويقع على مقربه من ميدان بافاريا ووقف زعيم الإشتراكيين تحت تمثال بافاريا الضخم واقترح — بعد عدة خطابات — أن تسير الجماهير فى مظاهرة تأييدا السلام ، ولكن صوتا

آخر ، هو صوت كورت إيزنر الإشتراكى الديمقراطى المستقل أرتفع وطالب الجماهير أن تحتل الثكنات وتأخذ الأسلحة وتضع يدها على السلطة ، الأمر الذى كان يتفق مع حالة الجماهير التى لم تلبث أن سارت قدما وحققت بسهولة غير متصورة ما أمرها كورت به . وخلال بضع ساعات سيطر كورت إيزنر على بفاريا وشكل وزارة من الأغلبية ومن المستقلين . أما الملك لودفيج الثالث ملك بفاريا الذى كان يتنزه وقتئذ فى حدائقه ، فما أن سمع أن إشتراكيا يهوديا أعلن الجمهورية ، وأن الوزارة لا تضمن سلامته حتى عبأ حقائبه وفر بأسرته من المدينة .

بهذه التلقائية إنبثقت الثورة ، وبهذه الدرجة من السهولة تمت . ولم يكن هذا وذاك طبيعيا .

ولم يكن كورت إيزنر — الذى قاد هذه المسيرة — مواطنا بافاريا فلقد ولد فى برلين من أسرة يهودية غنية واشتغل بالصحافة . وفى سنة ١٨٩٧ كتب مقالا إنتقد فيه القيصر فقبض عليه بتهمة العيب فى الذات الملكية وحكم عليه بالسجن تسعة شهور ، وجذب هذا إنتباه ليبكنشت (الأب) الذى أدخله الحزب وعينه محررا فى جريدة « فوروارد » ولما إنحاز إيزنر للمستقلين عقب ظهور حركة التنقيح خسر وظيفته . وفى سنة ١٩٠٧ هاجر بأسرته إلى بافاريا حيث أشتغل كناقد درامى وفرغ شيئا ما لهواياته البوهيمية ولكن الحرب انتشلته من النكر والفاقة فبرز فى مظاهرات السلام فى يناير ١٩١٨ وسجن [١]

---

(١) لاحظ أحد المؤرخين أن ايزنر أمضى مدة عقوبته فى الزنزانة ٧٠ فى سجن ستادلهيم وفى هذه الزنزانة نفسها سجن الكونت أركو الذى اغتال ايزنر ، كما شغلها هتلر سنة ٢٣ بعد فشل ثورة « قاعة البيرة » وقتل ارنست روم — رئيس هتلر العسكرى وزميله فى الحزب ورئيس فرق العاصفة الهتلرية فى الزنزانة نفسها .

ولم يخرج عنه إلا بفضل العفو الذى أصدره المستشار البرنس ماكس فى أكتوبر سنة ١٩١٨ .

وكان إيزنر قصيراً نحيفا يضع نظارة ذات إطار معدنى وتغطى لحيته الكثيفة معظم وجهه ويلبس قبعة سوداء .

وأدار إيزنر حكومته ببساطة بوهيمية ، فكانت مكاتبه مفتوحة الأبواب . وأوراق الدولة على المكاتب يطلع عليها من يشاء ، وكانت بساطته وثقافته يكسبانه شعبية كبرى وظهر أثر الميول الفنية فى حكم إيزنر — فأمم المسرح وأوجد إلى جانب مجلس العمال والجنود (الذى تكون تلقائيا غداة الثورة) مجلسا للمثقفين والفنانين ، ولكن بأستثناء هذا فإن الوضع فى ميونيخ شابه الوضع فى برلين ووجد إيزنر نفسه (وهو من المستقلين) فى مثل وضع إيبرت — دون أن توجد هذه التفرقة أثراً — فتقرر أجراء إنتخابات فى يناير . وثارت العناصر الماركسية كما ثارت العناصر الرجعية ، وكان هناك عامل أساء إلى إيزنر بوجه خاص هو أنه كان يهوديا ولم يكن بفاريا وأشاع أعداؤه أن أسمه الحقيقى هو سلمون كشنسكى وأنه ليس إلا عميلا روسيا للينين .

وعندما أجريت الإنتخابات فى ١٢ يناير فشل المستقلون ، وحازت الأغلبية نصراً مدويا ، ومع هذا فقد أبقى على كورت إيزنر كرئيس يكاد يكون فخريا للدولة للإفادة من شعبيته . ولم يطل به الأمر ففى ٢١ فبراير تربص له شاب من أحدى أسر النبلاء هو الكونت أنتون أركو فالى وأطلق على رأسه رصاصتين فمات فوراً .

وكما هو الدأب فى المهزلة البشرية ، فإن الجماهير التى عزفت عن تأييده حيا جنت به ميتا ، وتذكرت خدماته وعقدت العزم على الثأر له فأطلق صبي جزار يدعى ليندنر Lindiner النار على أرهارد أيروسط قاعة اللاندتاج على سمع

وبصر النواب . وكون العمال فرقا قبضت على كثير من النبلاء . ووضعت صور كبيرة لا يزنر على مفارق الطرق ، وكان الجنود يرغمون المارة على خلع قبعاتهم . ونظمت مسيرة كبيرة يوم ٢٦ فبراير يوم جنازة ايزير وأعلن قبل هذا الميعاد بثلاثة أيام الإضراب العام كما أعلن اليوم — يوم حداد قومى .

وسقطت الوزارة وقامت على أنقاضها وزارة إئتلافية أخرى برآسه جوهان هوفمان ولكن بعض المجموعات الثورية من مندوبى العنابر والإشتراكيين والسينديكاليين ثارت عليها ففرت الوزارة إلى يامبرج فى الشمال — وكونت مجموعة من الاشتراكيين المستقلين برآسة الشاعر والكاتب المسرحى أرنست تولر وزارة ضمت عدداً من المسرحيين والفوضويين .

ودفع إعلان الجمهورية السوفيتية فى المجر المجاورة لبافاريا وإستيلاء الشيوعى اليهودى بيلا كون على الحكم الجناح اليسارى فى الوزارة دفعة إلى الإمام ، ففى ٦ إبريل سنة ١٩١٩ إجتمع أرنست تولر وأصدقاءه فى حجرة نوم الملكة وأعلنوا بفاريا جمهورية سوفيتية تقوم على مجالس العمال والجنود .

وأظهر تولر وأصدقاءه من الشذوذ ما صغرت أمامه بوهيمية إيزنر وما إستحق أن يطلق عليه وزملائه « فوضوى المقاهى أو المغامرون الرومانتيكيون » فدعا تولر إلى صور جديدة من النحت والدراما والرسم والعمارة ، وأعلنت جامعة مونيخ حرة ومجانية ويمكن للجميع دخولها بعد إستبعاد دراسة التاريخ على أساس أنه « عدو للمدنية » وقرر وزير الإسكان أن لا يكون لأى بيت أكثر من ثلاث حجرات وأن تكون حجرة المعيشة دائماً فوق المطبخ وحجرة النوم ومضت عدة أيام قبل أن يتضح أن وزير الخارجية — دكتور فرانزنزليب — رجل معتوه يشتكى لروسيا تلغرافيا من أن سلفه قد أخذ معه مفاتيح دورة المياه بالوزارة وأنه سيعلن الحرب على ورتمبرج وسويسرا .. الخ .

وأفسح هذا الجنون المجال للشيوعيين ليجربوا حظهم ، فنزل الحلبة اثنان من الشيوعيين كانا قد ولدا فى روسيا وسكنا برلين وحملا على التعاقب اسمى لفين Levien وليفينه Leviné إلى جانب روسى ألمانى ثالث يدعى توبيا اكسلرود ليختموا المهزلة بمأساة من أشد المآسى قتاما .

ولم يكن هؤلاء الروس مندوبين رسميين عن الحزب الشيوعى الروسى ، أو الاتحاد السوفيتى أو لينين ، وإن كان أحدهم – توبيا اكسلرود – قد أمضى فترة فى بتروجراد مع لينين ويمكن أن يعد مندوبا للدولية وأرسل إلى برلين مع السفير الروسى جوف ، فلما أبعد جوف انتقل إلى مونيخ .

أما الروسيان الآخران فقد كان أحدهما ماكس ليفين ، أشقر طويلا من أسرة يهودية غنية ، وكان يمكن أن يعد ألمانيا كما هو روسيا ، فقد هاجر إلى ألمانيا للدراسة ، ثم عاد إلى روسيا حيث قبض عليه وأبعد إلى سيبريا ، ولكنه فر منها واستطاع أن يهرب إلى زيورخ حيث لاقى لينين عندما كان هناك وانتقل منها إلى ألمانيا وعندما شبت الحرب جند فى الجيش ولكنه أخذ يبث الدعايات ضد الحرب ، وضد ألمانيا « إن من الضرورى إذلال ألمانيا ، وأن تدخل جيوش المستعمرات بوابة براندبورج وأن تصبح هليجولاند ملكا لبريطانيا وأن يؤخذ الأسطول الألمانى . . » الخ . إلى آخر هذا الهوس الذى لا يمكن أن يفهم إلا فى ضوء التعصب للدولية وأنه كان رجل عمل لا ينثنى عن استخدام الإرهاب أو إعدام الرهائن . وكان قد درس أسلوب لينين ويريد تطبيقه .

أما الثانى – يوجين ليفينيه ، فقد كان أكثرهم مثالية . وقد ذهب إلى ألمانيا للدراسة وأصبح من أتباع روزا لوكسمبرج المتعصبين . وقبل وفاتها بفترة وجيزة انتدبته لتمثل الحزب الشيوعى الألمانى فى الاجتماع الأول للدولية وليتحمل

تحفظاتها على تكوين الدولية الثالثة ولكنه لم يستطع اختراق الحدود فعاد إلى برلين حيث أوفده بول ليفى ليرأس الحزب الشيوعى فى بفاريا . ومع أنه لم يكن يقل تعصبا عن زميليه ـ فإنه كان أقلهما ميلا للارهاب .

وأضيف إلى هؤلاء الروس الثلاثة الذين كانوا أشبه برسل الثورة السوفيتية الظافرة ـ بحار ألمانى من بحارة كيل يدعى رودلف اجلهوفر Pudolf Egelhofer لم يكن بالطبع مفكرا أو منظرا ولكن رجل عمل ونجح فى إيجاد جيش بافارى أحمر كان كما ذكر أحد الكتاب « أعلى الجيوش أجرا للضباط والجنود على سواء . كما كان يقدم بالمجان الطعام والشراب والنساء » ولم يكن ينقص هذا الجيش سوى السلاح الذى بذلت لتوفيره محاولات ووسائل جديدة من نوعها بما فيها منح الجندى الذى يستطيع الحصول على بندقية مكافأة عشرة أيام وقيل إن عدد هذا الجيش وصل إلى ثلاثين ألفا وأحيط بدعايات مفتعلة للابقاء على روحه المعنوية كالزعم أن جيشا روسيا جرارا يتحرك نحوهم وأن جيش المجر يعبر الدانوب من بودابست .

وأعلن الشيوعيون حكم الارهاب وملئوا السجون بالرهائن من الأسر البورجوازية وأغرقوا الأسواق بأوراق العملات التى كانت المطابع تصدرها ليل نهار وأرسلوا اكسلرود إلى روسيا لطلب المساعدة ، ولكن الطائرة التى استقلها ، وكان يقودها طالب طيار اضطرت للهبوط داخل بفاريا .

ولم تكن الحكومة المركزية فى برلين لتقف مكتوفة الأيدى أمام هذه التطورات خاصة بعد أن طلبت منها وزارة هوفمان الاشتراكية الديمقراطيه المبعدة التدخل . وكانت الفرق الحرة قد نمت وتضخمت من مجرد وحدات صغيرة تلقائية لا يصل أكبرها إلى أربعة آلاف إلى ما يبلغ فى مجموعة ربعمائة ألف . فجردت حكومة برلين حملة من ثلاثين ألفا ضمت عددا من أشرس

الفرق وطعمت بعدد من الجنود البافاريين أنفسهم ووضعت على رأسها قائد بافارى الأصل هو الجنرال فون إب ، وفى الأسبوع الأخير من أبريل كانت هذه الفرق تطوق ميونيخ بينما كان الذعر يتملك الشيوعيين والخلاف بين الروس والبافاريين يمزق البقية الباقية من المقاومة بحيث تحلل الجيش الأحمر ولم يبق منه إلا عصابات متفـــرقة وهرب ليفين إلى النمسا بينما اختبأ لفينيه وا كسلرود ،وعندما بدأت النهاية أخذوا يقتلون الرهائن ويمثلون بهم وترامت أنباء ذلك إلى الفرق الحرة التى كانت تتقدم بحيث أطبقت على المدينة مع أول مايو . . فى الوقت الذى كان لينين يخطب فى الميدان الأحمر فى موسكو « إن الطبقة العاملة المحررة لاتحتفل بذكراها فى روسيا السوفيتية وحدها ، ولـكن فى المجر السوفيتية ، وفى بافاريا السوفيتية » ولم تجد الجيوش الزاحفة مقاومة ، تذكروا كتشفنت رودلف أجلهوفر ـ تروتسكى بفاريا ـ وهو يحاول الفرار فى سيارة فقبض عليه وأعدم فورا .

وتلا الارهاب الشيوعى الأحمر . ارهاب أبيض مارسته الفرق الحرة ، وقد يصوره الأمر الذى أصدره الميجور شولتز Schulz الضابط فى فرقة لتزو Lutzou فى ٤ مايو « أى واحد لايعلم ، أولا يفهم ، أن أمامنا عملا كبيرا يجب أن يؤدى ، أو يحس بوخز ضمير ، فإن من الخير له أن يتركنا . فمن الأفضل قتل بضعة أبرياء عن ترك مذنب واحد ، وأنتم تعلمون كيف تتصرفون أطلقوا عليهم النار وقولوا إنهم هاجموكم أو حاولوا الفرار » وطبق الجنود هذا الأمر حتى دون أن يحاولوا تبرير التقتيل بحجة الهجوم أو الفرار ، كما حدث فى مساء يوم ٦ مايو عندما داهمت إحدى الفرق قرابة ثلاثين عاملا من أعضاء جمعية دينية واقتادتهم وأمرتهم بالانبطاح أرضا وأطلقت النار على ٢١ منهم .

وقبضت الفرق الحرة على ليفينيه ، وأمام المحكمة العسكرية ألقى مرافعة طويلة ختمها بقولة :

« لقد كنت أعلم من وقت أننا نحن الشيوعيين لسنا إلا موتى فى أجازة . والأمر مفوض إليكم أيها السادة لتقرروا ما إذا كانت هذه الأجازة تطول أو أن على أن ألحق بكارل ليبكنشت وروزا لوكسمبرج إنكم تستطيعون قتلى ، أما أفكارى فستواصل الحياة . . » .

والحق أن الإنسان لا يستطيع إلا أن يعجب ببعض هؤلاء الشيوعيين قدر مايحتقر البعض الآخر . . والجميع أدلة حية على المدى الذى تصل إليه العقيدة فى إصعاد أو إسفال النفس البشرية .

ولما جاوزت الحرب كل توقع ، وناهز عدد القتلى ألفا خلال الأسبوع الأول ، انقلب الترحيب بالفرق الحرة إلى ضيق واستياء وظهرت الملصقات التى تندد بالبروسيين ، كما ظهرت من قبل منددة بالروسيين . ورأت هذه الفرق أن عليها أن تكتفى بذلك . وفى ١٣ مايو سلمت الحكم للسلطات المدنية وارتحلت من بافاريا ، ولكن بعد أن أصابتها بجرح لم يندمل .

والحقيقة أن بفاريا فقدت بشاشتها ووداعتها ودماثتها وتسامحها بعد التجارب العديدة الماضية التى تعرضت لها ، والتى لم تتصف بالقسوة والشده فحسب ، ولكن التعارض الصارخ والاختلاف المبين بحيث مست كل واحد ، مهما كان وضعه ، بطريقة أو أخرى ، وجعلته يصبح طرفا فى نزاع حاد لا يقبل تسوية أو ينتهى إلى عدالة أو تسامح ، وأصبحت ميونيخ بلد البارات المرحة عشا للمؤامرات الخفية والدسائس من كل نوع وهرع إليها الضباط الطامحون وعلى رأسهم لودندورف ، وتكونت فيها الجمعيات السرية من كل نوع .

* * *

ولم تكن بفاريا هى الولاية الوحيدة التى ثارت ، فالحقيقة أن الثورة امتدت إلى معظم الولايات الألمانية بدرجات متفاوته . فقادت بريمن ثورة موانى الشمال ووجهت إليها الحكومة إحدى الفرق الحرة فى ٢ فبراير . وكان عدد أفراد

هذه الفرقة يقل عن عدد الثوار . ولكن سلاحهم كان أفضل وكان لديهم عربات مدرعة ومدفعية ـ فاستطاعت أن تشق طريقها وتدمر مراكز المقاومة وتفرق مجلس العمال والفلاحين الذى كان يدير الأمور وخلال بضعة أيام عاد العمل مرة أخرى إلى الموانى .

ولم تكد الفرق الحرة تكبت ثورة بريمن حتى أعلن عمال مناجم الفحم والصلب فى منطقة الرين اضرابهم معلنين أنهم لن يعودوا إلى العمل قبل أن تأمم الحكومة المناجم فقطعت الحكومة عنهم امدادات الطعام ووجهت أشتاتا من الفرق الحرة نحو منطقة الرين وفطن قائدها إلى ضعف موقفه فبدأ المفاوضات وتعهد بعدم القيام بأى اجراء من اجراءات التشفى أو الانتقام إذا سلم العمال أسلحتهم وعادوا إلى العمل . وقبل العمال مرغمين هذا العرض بعد أن أحسوا ببداية المجاعة .

وكانت هل Hale — الميناء النهرى الهام الذى يتوسط مقاطعة سكسونيا — أصعب الجميع . ففى الأيام الأخيرة من فبراير أعلن العمال الاضراب وأوقفوا القطارات التى كانت تربط مابين برلين وفايمار وكونوا مجلسا للعمال والجنود جرد البوليس من سلاحه وسلح به العمال فأرسلت الحكومة الجنرال ميركر رائد ومؤسس الفرق الحرة على رأس مجموعة من أقوى الفرق الحرة ، وبعد قتال عنيف كاد ميركر نفسه أن يفقد فيه حياته استسلمت هل . .

* * *

وتوضح هذه القومات المتكررة والانبعاثات المتوالية وجود حاجة إلى تغيير اجتماعى وسياسى واقتصادى ، لم تستطع أن تعبر عن نفسها فى صورة سليمة أو مناسبة ، كما لم ترزق القيادات القديرة والتنظيم الدقيق . ومن ثم باءت بالفشل .

الفصل الحادي عشر

نهاية البداية

أخيرا استراحت الحكومة — ولو مؤقتا — من الجناح الشيوعى المزعج ومطالبته الملحة بالحكومة السوفيتية . واستخلصت القرار بعقد جمعية وطنية لتضفى الشرعية على الحكم الذى مارسه ايبرت — على مضض — طوال الشهرين العاصفين الماضيين .

فهل لم يخطر فى ذهن ايبرت أن قوى الحفاظ القديمة من أركان الحرب فى القيادة العليا والضباط البروسيين والنبلاء والملاك وبقايا المجتمع الرأسمالى كلها يمكن أن تكيد له وتطيح به بمثل ما كان اليسار والشيوعيون يفعلون ..

الحق أن هذه النقطة دقت على ايبرت ، وتصور أن كل هذه القوى لا يمكن أن تفكر فى أن تعيد الساعة إلى الوراء بعدما شاهدته من الأهوال وبعد أن كادت الثورة تذهب بها . وتصور أنها ستقف بجانبه وستؤيده وتدين له بالطاعة والولاء .

كان ايبرت فى هذا ساذجا ، وأساء تقدير تعقيد المجتمع وأغوار النفس البشرية . . ولم يلبث أن شاهد تلك القوي التى حماها من الأعصار وهى تتحكم فيه وتملى شروطها عليه .

فما أن أعلن عن الانتخابات حتى ظهرت هذه القوى وأعادت أحزابها

القديمة بأسماء جديدة . ودخلت بها الانتخابات ونالت عدداً كبيراً من الأصوات . واستطاعت خلال أسبوعين أن تعيد الساعة إلى الوراء . . وأن تنال الاعتراف الرسمي والعملي بوجودها وكيانها . . ذلك أنه وإن كان الحزب الاشتراكي الديمقراطي اكتسب ٣٩ ٪ من مجموع الأصوات ، وأصبح له بذلك ١٦٣ نائبا ، وأن الحزب الاشتراكي المستقل حاز على ٧ ٪ من الأصوات وأصبح له ٢٢ نائباً ، فإن حزب الوسط الكاثوليكي حصل على ٨٩ مقعدا ، وحصل الحزب الديمقراطي الذي يمثل الأحرار والتقدميين على ٧٥ مقعدا وحصل الحزب الوطني الذي يمثل المحافظين وأنصار الامبراطورية على ٤٢ مقعدا . وحصل حزب الشعب وهو حزب كبار الصناعيين برآسة سترسمان على ٢١ مقعدا . وهذه الأصوات في مجموعها تفوق أصوات الاشتراكيين ، كما أن مما يثير الانتباه عجز الحزب الاشتراكي المستقل الذي كان يمكن أن يكون أمل الاشتراكيين الراشدين عن أن ينال أكثر من النسبة الهزيلة التي حصل عليها ، وأغلب الظن أن هذا السقوط يعود إلى ما حاق به من تمزق وما ألصقه به الشيوعيون والمندوبون الثوريون من دعاية . .

واضطر الحزب الاشتراكي الديمقراطي لأن يدخل في تحالف مع الديمقراطيين والوسط عندما رفض الحزب الاشتراكي المستقل أن يدخل الوزارة واتفق معهما على تشكيل الوزارة على الأسس الآتية :

(١) التأييد المطلق للجمهورية .

(ب) التعاون في سياسة الاصلاح الاقتصادي والضريبي .

(ح) وضع برنامج للاصلاح الاشتراكي يقوم على « تشريك » Sociaeisation الصناعات المهيأه ripe للتشريك .

وهكذا بدأ الاشتراكيون الديمقراطيون يحصدون الثمار المرة لسياستهم

العقيمة . وعجزوا عن تكوين وزارة تكتسب الأغلبية واضطروا للتحالف وبعد فترة سيفقدون أغلبيتهم . ويصبحون رهينة فى أيدى حلفائهم الألداء ..

* * *

ووضعت هذه التطورات نهاية البداية ، بداية الثورة ، وغيرت جذرياً خط السير الذى شقه العمال بدمائهم .. وعلقوا عليه الآمال العريضة فى مستقبل جديد ، ومهد الجو لأن يعود كل شىء كما كان .. وكأن لم تكن هناك ثورة أو شبه ثورة ..

حقيقة ان اليسار تعجل الأمور ، ولم يرزق الحيطة والرشد وسمح لنفسه بأن يتأثر بالتجربة السوفيتية .. وكان هذا خطأ ، ولكن كان من الخطأ أيضاً أن تعود الأمور إلى ما كانت عليه .. وأن لا يظفر الشعب من هذه التجربة المريرة بغير صفقة المغبون . إن واجب السياسى الحكيم أن يستفيد من التطور ومن التغيير . وليس أن يعود بالأمور إلى ما كانت عليه ..

لقد أصبح من البدائه الآن أن الخطأ الفاحش الذى وقع فيه ايبرت هو أنه — إيجابيا — لم يحاول أن يحقق الدرجة المطلوبة والسليمة من التغيير — وسلبيا — لم يقض على العناصر التى كانت بحكم وجودها وأصولها وأوضاعها لابد وأن تقاوم هذا التغيير .

وقد وقع ايبرت فى هذا الخطأ لأنه لم يكن بحكم المزاج ثورياً أو حتى مناصراً للتغيير كائنا ما كان . ولكن بصرف النظر عن هذا العامل الذاتى والنفسى الذى نفترض أنه كان يمكن أن يخضع لدوامة الأحداث فإن السبب الموضوعى لوقوعه فى هذا الخطأ هو أنه لم يفرق بين قضيتين مختلفتين بالمرة : القضية الأولى : التغيير ، والقضية الثانية : الأسلوب البلشفى / الليفينى . وقد التبس التغيير الثورى الذى كان يحتاجه المجتمع الألمانى فى ذهنه بالأسلوب البلشفى

الليني ، فحتى لو أنه سلم بالحاجة إلى التغيير الثورى ، أو حتى الحاسم ، فإن كراهيته للأسلوب الليني ، الذى ربط ما بينه وبين التغيير دون داع موضوعى جعله يرفض التغيير كلية . .

وقد أظهرت الأحداث التى حفلت بها جمهورية فايمار منذ أن قامت حتى سقطت واستمرار الثورات اليسارية .. أن المجتمع الألمانى كان بحاجة إلى تغيير ولو لم توجد هذه الحاجة لما استطاعت هذه العناصر أن تجد جماهيرها المتطوعين الذين قدموا العديد من التضحيات ، حتى عندما نضع فى اعتبارنا « المفارقة » التى يفرضها الفكر على الواقع . والتى أشرنا إليها أكثر من مرة .. كما أظهر فشل هذه الانبعاثات أن التغيير السليم لم يكن التغيير الذى تصورته . . . ولكن يبقى بعد هذا كله أن هناك تغييرا مطلوبا .

وكان التصرف السليم يقضى على ايبرت بأن يتخذ اجراءات قوية وحاسمة لكى يحقق هذا التغيير المنشود ، وأن لا يتردد فى توجيه ضربات قوية أو يستخدم عمليات بتر بالقدر المطلوب ، لأن هذا هو منطق الضرورة والواجب. وأى نكوص عن ذلك هو استخذاء وجبن . . وأى سرف فيه فهو إفراط وتجاوز وقد تصور إيبرت أنه لكى يحقق التغيير ، فلابد أن يسلك كما سلك لينين فآثر الضعف على الفجور . ولو اردنا مثالين للضعف والفجور لما وجدنا خيرا من ايبرت ولينين . . فقد أغرى لينين الجنود بقتل الضباط ، والفلاحين بقتل الملاك والعمال بقتل الرأسماليين ومن لم يقتل هؤلاء فرناجيا بجلده ، وأغرق العملة القديمة بحيث أصبح لاقيمة لها . . ودعا العمال والفلاحين للتجمع والتظاهر وترك المصانع وصفى الجهاز الادارى للدوله وأوجد محاكم الشعب للحكم بالاعدام على كل مخالف واستصفى كل الأموال وجحد كل الديون وبهذه الطريقة تهاوى النظام القديم حجرا حجرا ولم يعد هناك أى احتمال ليظهر من جديد . وقد تصورت أوروبا كلها فداة تقلد الشيوعيين الحكم انهم لن يلبثوا طويلا ، ولكن

الشيوعيين كانوا قد حطموا من أول لحظة ، وبلا رحمة ، النظام القديم ولم يقنعوا بهدم البيت ، ولكنهم أيضا تعقبوا أحجاره فسحقوها حتى لا يمكن أن أن تستخدم فى بناء بيت جديد ، وبذلك كتبوا لأنفسهم البقاء وأقاموا بيتهم الخاص بعرق ودم واسمنت وحديد جديد . . وكانت الوحشية التى طبق بها هذا كله من العوامل التى وصمت الشيوعية وجعلت الاشتراكيين فى بقيه دول العالم تعزف عن الأخذ بالنظام اللينينى . ولكن كان يجب على ايبرت أن يفهم أنه لم يكن مطلوبا منه أن يفعل كما فعل لينين ، فأن هذا لم يكن ضروريا ، أوحتى مطلوبا ، إن مشنقة واحدة تنصب فى ميدان عام فى وقت مناسب ولحالة مستحقة وتحاط بدعاية قوية يمكن أن تغنى عن مجزرة ، وتحدث الأثر المطلوب . أما أن يتصور ايبرت أنه ليس فى حاجة للمساس بالنظام الأمبراطورى القديم، فهذه هى الغفلة بعينها إن الولاء — ونعنى به الولاء المخلص — لا يتداول كما تتداول العملة وإنه لمن العسير على نبلاء بروسيا الفخورين بتقاليدهم العسكرية وقباطنة الصناعة واساطين التشريع وبيروقراطى الخدمة المدنية أن يستشعروا السروجى نقابى ، وللجمهورية فرضها البحارة الغلاظ والجنود الجهلة ولاء يماثل ولاءهم لسليل الهوهنزلرن أو لامبراطورية تعود إلى « بارباروسا » فى القديم وبسمارك فى الحديث . .

ومما يضاعف من مسئولية ايبرت أن دعائم المجتمع الأمبراطورى ، أى الجيش والجهاز الأدارى ، والتحالف مابين الاقطاع والرأسمالية كانت فى المانيا حتى آخر لحظة فى الحرب قوية ومتماسكة تتسم بدقة وضبط وإحكام قلما تتوفر لمثيلاتها فى أى دولة ، وكان يجب أن يعرف أن الوقت الوحيد المناسب لضرب هذا الحديد القاسى وتطويعه إنما كان فترة تعالى المد الثورى عندما أرتفعت الحرارة إلى الدرجة التى كان يمكن أن تذيب هذا الحديد ، أو تطوعه كما يريد إيبرت .

ولو أن ايبرت اهتبل الفرصة،وسارع فى الأيام الأولى للثورة فأصلح القضاء بما يحقق شعبيته ، ووضع أسس جيش شعبي من أعضاء الحزب الاشتراكى الديمقراطى ، وحاكم عددا من الضباط الذين عرفوا بعداوتهم للجمهورية،وأعدم بعضهم – ولن يكون ظالما لهم – فما أكثر ماظلموا ، بل وأعدموا – ودعم الحركة النقابية تجاه الرأسماليين ، وأمم عددا من الصناعات، كما أمم الاقطاعات البروسية الفسيحة محضن النبالة البروسية لخضد شوكة المجتمع القديم وقلم أظافره. ولم يكن فى هذا ظالما . ولا كتسب تأييد الطبقة الوسطى الصغيرة ، وجرد الشيوعيين من دعاواهم الفارغة ، بل ولجعل موقفه أقوى أمام الحلفاء .

ولكن ايبرت لم يفعل هذا . ونسى أن الثورة البيضاء قد تكون أطول الثورات وأكثرها دموية . وأن الحكم ليس عملا بيروقراطيا . ولكنه حسم وعزم .. وأنه ماأن يرفض أن يكون المطرقة التى تضرب حتى يصبح السندان الذى يتلقى الضربات وأصبح على جمهورية فايمار أن تسير فى الطريق الذى اختارته لنفسها، طريق الضياع .. وأن تلحق بثورة مارس الروسية .

ومن يراجع الثورتين – ثورة مارس الروسية وثورة نوفمبر الألمانيه . . يجد وجوها عديدا للتشابه بينهما .

فقد كان للجنود والبحارة والعمال فضل المبادأة فى القيام بهما .

وأدت كل واحدة منهما إلى فرار الحاكم المطلق الذى كان فى الحالين يحمل لقب « قيصر » إلى مقر قيادته حيث اضطر إلى التنازل عن العرش

وسلمت مقاليد الأمور فى كل منهما إلى رئيس يحمل لقب برنس يرأس الحكومة الانتقالية كان هو البرنس ليفوف فى روسيا والبرنس ماكس أوف بادن فى ألمانيا .

وسلم هذا « البرنس » الأمور إلى رئيس ديمقراطى النزعة على الطريقة

الكلاسيكية هو كير نسكى الروسى وايبرت الألمانى .

وأظهر هذا النظام الديمقراطى الليبرالى البرلمانى عجزه ودخل فى صراع مع القوى الثورية .

ولكن كان هناك نقط للخلاف أيضاً :

فثورة مارس عجزت عن أن تحقق للشعب الروسى مطلبيه الرئيسيين : توزيع الأرض وإحلال السلام . فحافظت السوفيتيات على سلطاتها ، ولم تتخل عنها حتى أعلنت ثورة أكتوبر .

ولكن ثورة نوفمبر أدت للشعب الألمانى مطلبيه العاجلين السلام والحرية . ومن هنا سلمت سوفيتات العمال والجنود سلطاتها للجمعية الوطنية . ولم يكن هناك مبرر لثورة مثل ثورة أكتوبر اللينينية .

ولكن المفارقة التى أشرنا إليها فى الفصل الأول تحكمت فيها ولم تدع لها راحة أو تسمح لها بأن تحتل الموقع السليم ، ولم يكن رئيسها بالسياسى الحازم الذى يضرب عندما يجب الضرب. ويحدد الموقف السليم مابين اليمين واليسار . فكان لابد من ثورة ثانية تتفق مع الوضع الألمانى قدر ماتبتعد عن الوضع الروسى .

وجاءت هذه الثورة مع النازية . .

وكان وجود الزعيم القوى فى الحالين (فى روسيا وألمانيا) إيذانا بالثورة الثانيـــة .

وكل مافى الأمر أن عجز ثورة مارس عن أن تحقق المطلبين الأساسيين للشعب الروسى مكن هذا الزعيم من العمل ومن هزيمة الثورة الأولى بعد ستة شهور من قيامها . وأن تحقيق ثورة نوفمبر للمطلبين الرئيسيين للشعب الألمانى مد فى حياة فايمار لمدة أربعة عشر عاما — قبل أن يظهر الزعيم الذى يهزمها وقبل أن يبين تحللها وعجزها هذا الزعيم على النجاح .

ولعله قد يمكن القول أن عجز ثورة مارس أوجد لينين وأفسح له المجال ولو لم يظهر لظهر من يقوم بدوره . وإن كانت الثورة وقتئذ ستختلف كثيرا عما أصبحت عليه عندما قام بها هو . وأن تحقيق ثورة نوفمبر لمطالبي الشعب حال دون أن يظهر الزعيم القوى . ولو أنه ظهر لهزم - كما حدث بالفعل لكاب سنة ١٩٢٠ ، وهتلر سنة ١٩٢٣ .

وأن تأتى نهاية البداية بهذه السرعة . أى بعد أقل من عامين من البداية هو ما يعطى الطبقات العاملة درسا لا ينسى .

فقد كانت ثورة نوفمبر ثورة قام بها العمال والجنود ، ولكنهم لم يحسنوا القيام عليها .. فاستحوذت عليها الطبقة الوسطى واحتوتها .

ولكن الطبقة الوسطى بدورها لم تهنأ بها ، وكان عليها أن تدفع الثمن ، فالدين لا يبلى . . ولا يمكن لأحد أن يفلت — فى المدى الطويل — من دفع الثمن ، وإن ظن ذلك .

وجاء القسط الأول من الثمن فى معاهدة « فرساى » .

الباب الثالث

المسيرة المتعثرة

الفصل الثانى عشر

معاهدة فرساى المشئومة

كانت الجمعية التى جاءت بها انتخابات ١٩ يناير — تلك الانتخابات التى وضعت السطر الأخير فى ثورة العمال، تجتمع فى الأسبوع الأول من فبراير فى المدينة الصغيرة الهادئة « فايمار » لتضع السطر الأول فى جمهورية الطبقة الوسطى.

وكانت « فايمار » التى يحتضنها نهر « ألم » وتبعد مائة وخمسين ميلا جنوب غرب برلين، ترتبط فى الأذهان بذكريات جوتة وشيلر وهردر وفاجنر والتراث الإنسانى الليبرالى الذى كان يمثل أثمن ماقدمه الفكر الأوروبى وقتئذ، وقيل إن هذه المدينة قد أختيرت بالذات لتضفى على الجمهورية الوليدة قبسا من مثلها الإنسانية، ولتضع فى ظلال هـذه المثل الدستور الجديد.

ولكن كان هناك سبب آخر أقل رومانتيكية، فقد أريد ابعاد الجمعية الوطنية عن برلين ومناخها الثورى الوبيل وذكريات الصدام الدامى واغتيال روزا وليبكنشت وما قد يحتمل أن تتعرض له من هجوم ومضايقات فأرتؤى عقد الجمعية فى مكان آخر. ووقع الاختيار على فايمار خاصة وقد أتضح أن فيها مسرحا فسيحا يصلح لعقد الجمعية. ومع هذا كله وبعد أن وقع الاختيار

عليها أتضح أن بهـا عناصر ثورية هزمت طلائع الفرق الحرة التى أرسلت فى ٣٠ يناير لاعداد الترتيبات وتطلب الأمر إرسال فرقة من سبعة آلاف مقاتل عسكرت فى قلب المدينة ، بينما وزعت فصائلها على كل الأماكن والمراكز الهـامة .

وكان أمام الجمعية الوطنية ثلاث مهام رئيسية : الأولى وضع دستور الجمهورية الجديدة والثانى تشكيل حكومة طبقا لهذا الدستور والثالث توقيع معاهدة السلام مع الحلفاء[1] .

بالنسبة للمهة الأولى كان أمام الجمعية مشروع دستور وضعه هوجو بروس Hugo Preuss وزير الداخلية واحد الثقات فى القـانون وناقشت الجمعية المشروع وأحالته إلى لجنة من ثمانية وعشرين عضوا .

وكان مشروع بروس محاولة للجمع بين أفضل العناصر فى دساتير أوروبا والولايات المتحدة ، وطبقا له فإن رئيس الجمهورية ينتخب بطريق الاقتراع العام المباشر . ويمنح سلطات تفوق السلطات التقليديه لرئيس الدولة الديمقراطية ولعل ابرزها ما نصت عليه المادة ٤٨ المشهوره التى كانت تعطى الرئيس الحق فى التدخل « إذا هدد أو تعرض للخطر إلا من العـام والنظام فى الريخ المانى » وعندئذ يستطيع أن يصدر مرسوما يوقف به حريات الإجتماع والخطابة الخ . ويستخدم القوات المسلحة إذا رأى ذلك . والقيد الوحيد على هذه السلطة هو أن يوقع أحد أعضاء الوزارة على المرسوم ، وأن الحريات المدنية يجب أن تعاد عند طلب الرشستاج ذلك . وقد تصور وقتئذ أن استخدام المادة ٤٨ إنما يكون وقت حرب أو ثورة شيوعية ولكن الأيام أثبتت أنه يمكن أن تستخدم لمآرب سياسية وحزبية . . كما كان المشروع يقضى بتكوين مجلسين يكونان فى مجموعهما « البرلمان » أحدهما الرشستاج وهو المجلس الرئيسى ويتكون من نواب بواقع نائب واحد عن كل ستين ألفا من السكان والثانى الريشسرات

Reichsrat ويضم نوابا معينين عن مختلف الولايات وتقل سلطته عن سلطة الريشستاج . ويرشح الرئيس مستشارا يتمتع بثقة الريشستاج ويشكل هذا المستشار الوزارة ويكون هو والوزارة مسئولين أمام الريشستاج . كما كان المشروع ينص على تكوين محكمة دستورية عليا على غرار المحكمة الدستورية فى الولايات المتحدة .

وكانت هناك مسائل ذات صعوبة أو حساسية خاصة ، وقد استطاعت الجمعية الوطنية أن تتغلب على معظمها ، وكان من هذه اسم الدولة وهل تكون الجمهورية الألمانية وانتهت الجمعية إلى كلمة « الريخ » ، وهو تعبير اصطلاحى يوحى بما يمكن للدولة الجديدة أن تصل إليه ، بما فى ذلك انضمام النمسا الذى كان أملا قديما ومتجددا . ومن هذه المسائل أيضا العلم فقد أراد المستقلون والإشترا كيون العلم الأحمر . بينما أراد المحافظون العلم القديم الذى حارب تحته الجنود وانتهت الجمعية إلى علم يضم الأسود والأحمر والذهبى .

ولم يخل المشروع من لمسات اشترا كية تأتت من أن صياغته بدأت من نوفمبر ، عندما كان المد الاشترا كى عاليا ، ومن أن الحزب الاشترا كى الديمقراطى ــ كائنا ما كان حفاظه ــ فإنه كان يحرص على طابع اشترا كى، فنص المشروع على أن الملكية الخاصة محمية ، ولكن على أساس أن يعمل أصحابها طبقا للمصلحة العامة ويجوز للحكومة أن تأمر بتأميم المشروعات الصناعية التى يناسبها هذا الاجراء . كما احتفظت الحكومة بحق اجبار بعض المنشآت على أن تندمج فى منشآت أخرى مثيلة .

وكان موضوع الجيش من النقط الشائكة . وقد أرادت الجمعية البلزمة أن ترجىء هذا الموضوع إذ كان من المعروف ان سيكون للحلفاء شروط وتحفظات عديدة على وضع الجيش . ولكن القيادة العامة أو ضحت للجمعية

أنه من غير المرغوب فيه تأجيل هذه النقطة الهامة . وكانت القيادة العامة تريد إجراءً يدمج الفرق الحرة فى الجيش النظامى حتى تتخلى هذه الفرق عن صفاتها التى لا تتلاءم مع الإلتزام العسكرى ، وبقدر ما كان هذا الدمج يتأخر بقدر ما كان يصعب تأصيل عادات الإلتزام فيها وبقدر ما يزداد خطر هذه الفرق . ولهذا وضعت الجمعية « قانون الجيش المؤقت » الذى بنى على التطوع وليس التجنيد وأن يكون نظامه ديمقراطيا . ولكنه ألغى « مجالس الجنود » وأحل محلها نظاما فضفاضا ومبهما يدور حول « رجال الثقة » الذين ينتخبهم رفاقهم بواقع ثلاثة لكل فرقة ، وتكون لهم سلطات إستشارية ولكن دون أن يكون لهم أى سلطة فى الأمر أو إختيار الضباط . وكانت هذه الصفقة فى مجموعها ترضى القيادة العليا .

وكان من الأعمال الأولى للجمعية الوطنية تشكيل حكومة وقد إختارت بأغلبية ٢٧٧ من ٣٧٩ صوتا ايبرت رئيساً للجمهورية . وإختار هذا شيدمان مستشاراً وكون شيدمان وزارة إئتلافية تضم أربعة من الحزب الديمقراطى وثلاثة من حزب الشعب المسيحى وخمسه من الحـــزب الإشتراكى الديمقراطى (الأغلبية) وكان منهم نوسكه — وزير الدفاع .

وكان وزير الخارجية نبيلا بروسيا هو الكونت بروكدورف رانتزو . وقد رأى ايبرت ضرورة الإستعانة به فى المهمة الخطرة المقبلة — تسوية السلام — لما أعتقده من عدم وجود الا كفاء من الديبلوماسيين بين الإشتراكيين . وكان بروكدورف رانتزو — ككل النبلاء ملكى الميول — ولكنه أيضاً — كالكثير منهم — كان يرى أن من الواجب عليه أن يخدم الدولة . حتى لو كان على رأسها الإشتراكيون ولم يدع هذه المشاعر سرا — فضلا عن أنه إحتفظ بحقه فى الإستقالة إذا لم تكفل مفاوضات السلام تسوية مشرفه .

وكائنا ما كانت المقـــدرة الفنية المظنونة للـكونت ، فإن الإختيار — كقرار سياسى — لم يـكن موفقا . فلم يـكن مما يسهل مهمة الوفد أن يـكون على رأسه نبيل من زمره النبلاء الذين أشعلوا الحرب ،وإستهدف الحلفاء إستئصالهم تماما . والحزب الإشتراكى بعد هو الحزب الذى قاوم منذ نشأته العسكرية والتوسع الحربى . وعارض الحرب السبعينية وأحتج على ضم الالزاس واللورين وطالب بصلح مشرف مع فرنسا وتعرض فى هذا السبيل لنقمة بسمارك . ثم هو الذى قاوم — إلى حد ما — الحرب وتظاهر ضدها وأحتج خلالها بلسان هوجو هاسه على معاهدة برست ليتوفسك .

كان يجب على ايبرت أن يقدر هذه المعانى وإن يذكّر فرنسا بها ، بإيفاد شخصية إشتراكية ، فإن لم يفلح فى إعادة هذه الذكريات وما تؤدى إليه من تخفيف للمرارة . فعلى الأقل يبعد شبح العسكرية البروسيه المخوفة . لا أن يجابه الحلفاء بها فى شخص الـكونت .

* * *

وفى باريس كان مجلس العشرة ، الذى تقلص إلى مجلس الخمسة . ثم الأربعة ثم فى حقيقة الحال الثلاثة (ويلسون ولويد جورج وكليمنصو) يجتمع ويمسك بيده مصاير العالم . وكان إثنان على الأقل من الثلاثة يـكنان كراهية عميقة لألمانيا ويعتزمان الإنتقام بلا رحمة وكان . كليمنصو — النمر الفرنسى — الذى لم ينس هزيمة ١٨٧٠ فى الماضى ولا قسوة المعركة فى الحاضر — يريد أن لا تتـكرر المأساة فى المستقبل ويعتزم أن يقلم أظافر ألمانيا ويقطع أوصالها حتى لا تصبح العدو الرهيب المخوف الذى لا قبل لفرنسا به ، كما كان لويد جورج قد تورط فى دعاياته الإنتخابية . فوعد بشنق القيصر وإعتصار ألمانيا — كالليمونه — لآخر قطره . ولم تـكن ألمانيا بعد ، وبصرف النظر عن هذه المشاعر ، بالنسبه لهمـــا سوى دولة مهزومة مغلوبة ، وقد أعطت ألمانيا نفسها المثل

لما يجب على المغلوب أن يدفعه ، ولما يمكن للغالب أن يذهب إليه . عندما فرضت معاهدة بريست ليتوفسك الجائرة على الاتحاد السوفييتى المهزوم .

وكانت وزارة الخارجية الألمانية قد كونت فريقا من الخبراء والمختصين أطلق عليه مكتب مفاوضة السلام Paxkonferenz عكف لمدة طويلة على جمع الإحصائيات وتحضير الوثائق التى يجب أن تكون معدة عندما تنتهى الحرب ، سواء انتهت بالهزيمة أو بالانتصار ، وقد دعم بركدورف وانتزو هذا الفريق بحيث أصبح يتكون من أربعين من موظفى الخارجية ومائة من الخبراء الخارجيين فى مختلف المجالات كالصناعة والزراعة والاقتصاد .. الخ .

وتوقع هؤلاء الخبراء أن يطلب الحلفاء إلى ألمانيا تسليم الالزاس واللورين وتجريد منطقة الرين من السلاح ، وتحديد الجيش والأسطول وأن يكون هناك صراع حول منطقة حوض السار وسيليزيا العليا ودانزج ، كما تصوروا أن ستفرض على ألمانيا تعويضات قد تصل إلى خمسين ألف مليون مارك تدفع على مدة طويلة . وأنه سيسمح لألمانيا بمجرد توقيع المعاهدة بعضوية « عصبة الأمم » . بالاختصار ، كانت توقعات هؤلاء الخبراء أنه وإن كان على ألمانيا أن تدفع ثمن الهزيمة ، فإن هذا الثمن لن يكون باهظا لدرجة تعجزها عن الأداء أو يكون مهينا لشرفها أو كرامتها . وكان فى ذهن هؤلاء بالطبع ، أن ألمانيا وإن طالبت بالهــدنة فعلى أساس النقط التى وضعها الرئيس ولسن لسلام عادل ودائم .

وفى ١٨ أبريل سلم مندوب قيادة الحلفاء ألمانيا مذكرة يدعو فيها ألمانيا لإرسال مندوبيها مساء ٢٥ أبريل لاستلام النص الأولى للمعاهدة .

وردت ألمانيا فى اليوم التالى بأنها سترسل سفيراً ومساعدين وأربعة من الكتبة لاستلام النص ، ولكن الحلفاء ردوا بأنهم يصرون على

أن ترسل ألمانيا مفوضين لهم كافة السلطات لمعالجة موضوع السلام بأسره .

وقبلت ألمانيا ، وفى ٢٨ أبريل غادر برلين قطاران خاصان يحملان ١٨٠ شخصاً هم الوفد الألمانى إلى مؤتمر السلام بباريس ، وكان يضم بالإضافة إلى وزير الخارجية عدداً من كبار الشخصيات السياسية والخبراء وقد قسم نفسه إلى لجان تختص كل بناحية معينة .

ولم يكد القطار المقل للوفد يغادر الحدود الألمانية ويصبح تحت رحمة الفرنسيين حتى بدأت أولى تصرفات الحلفاء ، فقد هبطت سرعته إلى ١٥ كيلو ، وكان يقف لحظات طويلة عند كل موقع من مواقع المعارك الحربية ليرى الوفد الألمانى الآثار المدمرة التى تركتها جيوشه ، والقرى المهدمة المهجورة . . وعندما أصبح القطار على مقربة من فرساى أنزل الوفد وأركب العربات حتى لا يتعرض لهجوم الشعب فى محطة فرساى حتى أوصلوا إلى فندق دى رسرفوار Hotel des Reservoirs .

واكتشف الألمان أن هذا الفندق كان هو الذى استقر به الوفد الفرنسى الذى كان يفاوض بسمارك فى شروط الصلح سنة ١٨٧١ ، كما اكتشفوا أن السلطات الفرنسية أحاطته بسور من الأسلاك الشائكة بدعوى الحرص على سلامتهم وحمايتهم وإن كان الغرض الحقيقى هو منعهم من الاتصال بالخارج .

وما لم يكتشفه الوفد الألمانى وقتئذ هو أن الحلفاء لم يكونوا قد أتموا استعداداتهم ، وأن استدعاءه فى هذا الوقت إنما يعود إلى أسباب دعائية تتعلق بمركز لويد جورج وكليمنصو ، ولتهدئة ثائرة الجماهير فى فرنسا وبريطانيا ، ولكن نصوص المعاهدة كانت مشتتة ما بين الحلفاء بعضهم بعضا ، وفى عدد كبير من المكاتب والإدارات ، وكان هناك اختلاف جسيم فى وجهات نظر الحلفاء الثلاث حول عدد من المسائل .

وفى انتظار تسوية هذه المسائل كان أفراد الوفد الألمانى يقضون نهارهم وليلهم فى فندق دى « رسرفوار » يقرأون الجرائد ، ويتبادلون الأحاديث ويتناولون العشاء ثم يأوون إلى الفراش . ومع أن الكونت كان يستمتع بالكونياك الفرنسى إلا أنه ضاق الفراغ ، واعتقد أن هذا الإجراء إهمال مقصود ، فأرسل فى ٤ مايو مذكرة بأن الشخصيات المسئولة فى الوفد ستضطر للعودة إلى ألمانيا ما لم يكن الحلفاء على استعداد لاستقبالهم ، ووضع ذلك الحلفاء فى مأزق . فلم يكن بإمكانهم استبقاء وزير الخارجية دون عمل لمدة غير محدودة ، ولم يكونوا على استعداد للسماح له بالسفر وهدم كل ما بنوه من دعاية عن قرب التسوية ، لهذا قرر المجلس أن تسلم المعاهدة يوم ٧ مايو فى قصر التريانون بفرساى ، وشرعت لجنة الصياغة فجمعت ما أعدته اللجان ، وبعضها كان فى صورة توصيات ، أو مناقشات أولية ، أو نصوصا تمثل الحد الأعلى الذى يمكن النزول عنه عند المفاوضة أو يمكن تسويتها عن طريق عصبة الأمم . وكانت هذه الفوضى من العوامل التى أسهمت فى جعل معاهدة فرساى وثيقة اتهام أكثر مما كانت تسوية سلام ..

وطبعت هذه المعاهدة فى سرية تامة وسرعة بالغة بحيث سلمت قبيل فجر يوم ٧ مايو ، وأسرع بها السعاة إلى كبار المسئولين من الحلفاء الذين نزلت عليهم كالصاعقة . فعندما أيقظ هربرت هوفر فى الساعة الرابعة بعد منتصف الليل ليتسلم نسخته عكف على قراءتها ، ولم يكد يمضى فيها حتى استحال عليه النوم ، وعند أول ضوء للفجر وضع ملابسه وخرج ليلتقى بالاقتصادى البريطانى كينز ، ورئيس اتحاد جنوب أفريقيا سمتس اللذين لم يستطيعا مثله النوم ولا البقاء بعد قراءة المعاهدة ، بل حتى وزير الخارجية الأمريكى لانسنج كتب مذكرة يستنكر فيها قسوة وفظاظة المعاهدة وأن الكثير من نصوصها غير قابل للتحقيق .

وخلال ذلك كانت الترتيبات تسير على قدم وساق فى قصر التريانون . فأعدت فى القاعة الرئيسية أربع منصات كبيرة تكون فى مجموعها مربعا شغل ممثلو الحلفاء ثلاثاً منها ، وترك الرابع للوفد الألمانى ، وأشارت إحدى الصحف الفرنسية إلى منصة الوفد الألمانى بأنها « قفص الاتهام » .

وفى ٦ مايو سلم الوفد الألمانى مذكرة بجدول الأعمال . اتضح منها أن الاجتماع سيبدأ الثالثة بعد الظهر ، وأنه لن يستمر إلا بضعة دقائق يسلم بعدها الوفد الألمانى المعاهدة وينصرف ، وتأكد الوفد أن هذا الاجتماع لن يكون مؤتمراً للسلام بالمعنى التقليدى ، وأنهم سيقتادون ليقفوا أمام المنتصرين فى قفص الاتهام ليسمعوا « إملاء » الاتفاقية عليهم وأن كل خطوة اتخذها الحلفاء من إبطاء القطار ، وحبسهم داخل الفندق وإهمالهم فيه لمدة طويلة ، وجعل مكان تسليم المعاهدة هو المكان الذى توج فيه الامبراطور وليهم الأول . وأن ميعادها يوافق الذكرى الرابعة لإغراق « لوزيتانا » كلها . . إنما أريدبها إذلالهم . .

وأعد الوفد الألمانى ثلاث صيغ مختلفة للخطاب الذى سيلقيه الكونت بروكدورف رانتزو وترك له اختيار الصيغة التى تتناسب مع الموقف .

وسيق الوفد الألمانى إلى قصر التريانون فى عدد من العربات ، وكانت وفود الحلفاء قد سبقت وأخذت أماكنها عندما نزل الكونت بروكدورف رانتزو من عربته ، وتوقف ليتجمع بقية الوفد وراءه ، ودخل الكونت وصيحة الحاجب تدوى « السادة أعضاء الوفد الألمانى » فوقف كل الحاضرين على أقدامهم . وانحنى الكونت وردت بقية الوفود بالانحناء ثم أخذ مجلسه فى مواجهة كليمنصو . .

وقف كليمنصو — الذى كان من حقه بصفته رئيسا لمؤتمر السلام —

أن يبدأ الحديث فخاطب الوفد الالمانى قائلا « . . لا الوقت ، ولا المكان يسمحان بعبارات جوفاء، إن ساعة التسوية الثقيلة لحساباتنا قد دقت . فقد طلبتم السلام، وقد قررنا أن نمنحه لكم ـ وسيوضح لكم المجلد الذى سيسلمه سكرتير المجلس الشروط التى وضعت . وأنا مجبر أن أضيف ، إن هذا المؤتمر الثانى للسلام فى فرساى قد اشترته الشعوب الممثله هنا بثمن باهظ لدرجة تجعلنا نقرر بالاجماع وبكل الوسائل التى فى وسعنا ـ ضمان الترضيات المشروعة التى هى من حقنا . . » .

وختم كليمنصو كلمته القصيرة بأن أمام الوفد الالمانى خمسة عشر يوما لارسال ملاحظات مكتوبة وسيعقب عليها الحلفاء بالصيغة النهائية وميعاد التوقيع.

وعندما انتهى من كلمته ، رفع الكونت يده ،وانتقى إحدى الأوراق أمامه وشرع يقرأ ـ دون أن يقف ـ كما فعل كليمنصو .

« نحن لاتخالجنا أية شكوك فى مدى هزيمتنا ، أو درجة عجزنا . ونحن نعلم عمق الكراهية التى تحيط بنا هنا. وقد سمعنا الطلب الملح أن يجعلنا المنتصرون ندفع كمهزومين ونعاقب كمذنبين ، وقد أريد منا أن نعترف أننا وحدنا المذنبون ، ومثل هذا الاعتراف سيكون كذبه على طرف اللسان . ونحن أبعد ما نكون عن أن نبرىء المانيا من كل مسئوليتها . ولكننا نعارض فكرة أن ألمانيا ،التى آمن شعبها أنه يخوض حربا دفاعية ـ تثقل وحدها بكل عبء الادانة.

قد لاتكون الجرائم فى الحرب معفاه أو مبررة . ولكنها تقترف خلال الكفاح فى سبيل النصر ، وفى غمرة العاطفة التى تخرس ضمير الشعوب، إن مئات الألوف من غير المحاربين الذين هلكوا منذ ١١ نوفمبر بسبب الحصار إنما قتلوا صبرا وعمدا بعد أن اكتسب أعداؤنا النصر ، وتثبتوا منه .. ففكروا فى هذا عندما تتحدثون عن الادانة .

ومع أننا قد نكون وحدنا فى هذا المؤتمر ، إلا أننا لسنا دون دفاع ، فأنتم أنفسكم قد اكسبتمونا حليفا هو ـ العدل » .

وكان لهذا الخطاب أسوأ الأثر . وأُوِّلَ كل شيء فيه تأويلا معينا . فعدم قيام بروكدورف ـ رانتزو اعتبر تحديا ، وأولت الألفاظ والمعانى وطريقة الالقاء بأنه إصرار ، وأن ألمانيا لم تتغير ، وهاهى ذى ترسل كونتا من المدرسة القديمة. وكانت هذه الظنون غير حقيقية . فالكونت رغم ماضيه الديبلوماسى وأصله الارستقراطى لم يكن يجيد الخطابة فى المحافل العامة.وكان المشهد يضاعف من حرجه وضيقه ويكفى أنه كان يضطر عند كل جملة للتوقف وتسليم الورقة الوحيدة التى يقرأ منها للمترجم لكى يترجم الفقرة .

ومن ناحية أخرى فقد روع الألمان بجد المؤتمر ورغبة الانتقام وأن العملية ليست عملية تفاوض ولكنها إملاء .

كان المشهد بأسره صورة عكسية لجملة كلاوزفيتز المشهورة عن أن « الحرب هى مواصلة السياسة بطرق أخرى » . فهنا كانت السياسة مواصلة للحرب بطرق أخرى .

وما أن خرج الوفد ومعهم نسخة المعاهدة المشئومة التى سلمت لهم ، ووصلوا إلى الفندق حتى قسموها إلى عشرين جزء وسلم كل جزء إلى أحد خبراء الوفد لترجمتها وما أن انتصف الليـــل حتى فرغت ترجمتها وأرسلت إلى برلين . وهناك سلمت لمطابع الامبراليه التى أتمت طبع بضعة آلاف منها خلال يومين ، وبعد بضعة أيام كان نص المعاهدة المطبوع يباع فى شوارع برلين بما يعادل خمسين سنتا.

وفى المناقشة العامة الأولى للمعاهدة التى عقدت فى جامعة برلين فى ١٢ مايو ـ أعلن المستشار شيدمان رفضه البات للمعاهدة صائحا « أى يد لاتجف يمكن أن تقيد نفسها وتقيدنا بهذه الشروط » وأكد أن ألمانيا لن توقع على هذه

المعاهدة مالم تعدل جذريا ، وأعقب شيدمان متحدثون من كل الأحزاب أجمعوا بأسرهم ، وعلى اختلاف مذاهبهم على رفض المعاهدة . وكان الاستثناء الوحيد من هذا الاجماع هو هوجو هاسه رئيس الاشتراكيين المستقلين الذى وإن انتقد المعاهدة فإنه قال إن الاشتراكيين المستقلين هم وحدهم الذين يستطيعون انتقاد المعاهدة دون تثريب ، فهى ليست أسوأ من معاهدة بريست ليتوفسك والمستقلون وحدهم هم الذين انتقدوها ، أما الاشتراكيون الديمقراطيون (الأغلبية) فقد اكتفوا بالامتناع . ولاحظ هاسه أنه من غير الطبيعى من الذين فرضوا برست ليتوفسك أن يسألوا الرحمة .

على أن هذه الملاحظة كائنة ما كانت وجاهتها ، لم تلبث أن أغرقت فى خضم العواطف المتأججة ضد المعاهدة .

وفى فندق الرسوفوار كان المندوبون الألمان يعكفون على المواد مادة مادة ينقحون كل واحدة بما يتفق مع النقط الأربعة عشر ، ووضع ألمانيا كدولة جاءت إلى فرساى لا كدولة مقهورة ولكن كأحد الأطراف السامية المتعاقدة. وكانت الردود تأتى رافضة الملاحظات مذكرة ألمانيا بما سبق أن اتخذته مع فرنسا أيام الحرب السبعينية أو غيرها .

وأخيرا وبعد أن اكتسب الألمان مهلة أسبوع من الحلفاء أرسل الألمان ردهم عن المعاهدة بأسرها يوم ٢٩ مايو ، وكان هذا الرد ينقض أو يعدل كل مادة فى نص الحلفاء تقريبا. ولكن ثلاث نقاط أساسية استأثرت باهتمام ومدافعة الألمان . تلك هى (١) الحدود (ب) التعويضات (ج) اثم الحرب .

بالنسبة للنقطة الأولى كانت المعاهدة تقضى بتنازل ألمانيا عن شمال شلزويك للدنمارك والالزاس واللورين لفرنسا وبوزن وغرب بروسيا الشرقية لبولندا ووضع منطقة السار لمدة خمسة عشر عاما تحت إشراف عصبة الأمم ، على أن

تفيد فرنسا من مناجم الفحم بها. وكان على ألمانيا أن تتنازل عن جميع مستعمراتها وراء البحار، وأن تبقى الضفة اليسرى لنهر الرين وجسوره محتلة ، وأن تخلى المنطقة المحاذية لها على امتداد النهر بعرض ٥٠ كيلو مترا .

وكذلك تضمنت المعاهدة مصـــادرة المعدات الحربية والأسطول وجميع السفن التجارية التي تزيد حمولتها على ١٦٠٠ طناً وعدداً من القطارات وأن يكون عدد أفراد الجيش النظامي مائة ألف على أن لا يسلح بأسلحة ثقيلة أو دبابات أو طائرات أو بوارج حربية .

وكانت الدولة المستفيدة بالدرجة الأولى من هذه النصوص هي فرنسا ،وقد كافح كليمنصو حليفيه كفاحا مريراً ليحصل على كل ماأراده ، وكان وراءه — على عداوته لألمانيا — سياسي معارض له أكثر عداوة لألمانيا هو بوانكاريه الذي كان يندد بتهاون كليمنصو واستسلامه لحليفيه وضعفه أمامهما .

ولم يكن موضوع التعويضات أقل أهمية من موضوع الأراضي . فقد أراد لويد جورج وكليمنصو أن تدفع ألمانيا تعويضات عن كل ما يتصور من أضرار تسببت فيها الحرب ، بما في ذلك معاشات القتلى وتعويضات الجرحى وكان وراء كل منهما جمهور مسعور ومجلس نيابي حانق تتربص فيه المعارضة بالحزب الحاكم وتنتهز الفرصة لإقتلاعه، وكان الطرف الوحيد الذي لم يكن له مصلحة في التعويضات هو الولايات المتحدة الذي كان يضم وفدها الإقتصادي عمالقة مثل برنارد باروخ وفيس ما كورميك ونورمان ديفيس وتوماس لا مونت وجون فوستردالاس وحاول هؤلاء أن يوضحوا أن ألمانيا ستعجز قطعا عن دفع ما قدرته فرنسا وبريطانيا — شيئاً يقرب من ١٢٠ ألف مليون دولار لأنه يفوق كل الثروة الألمانية القومية التي قدرت وقتئذ بـ ٧٥ ألف مليون دولار ، ولكن عبثا ، فقد قيل لهم إن ذلك ليس ذنب فرنسا أو إنجلترا ،

وأن على ألمانيا أن تدفع بالتقسيط ما تعجز عن دفعه نقداً مع إحتساب الفوائد التى تجعل المبلغ يتضاعف ، وأورد العضو البارز فى الوفد البريطانى — المستر كينز — طريقتين ممكنتين للدفع، الأولى أن يقوم العمال الألمان بتعمير ما خربته الحرب . والثانية مساعدة ألمانيا بحيث تكون دولة صناعية قوية تفيض مواردها وتؤخذ الديون من هذه الفوائض . وبالطبع رفض الحلان . فقد كان لدى فرنسا من عمالها ما يفيض عن الحاجة ، كما لم تكن مستعدة لمساعدة ألمانيا لكن تأخذ منها بعد ذلك . وإستقال كينز وكتب كتابه المشهور « النتائج الإقتصادية لمعاهدة السلام » الذى إنتقد فيه التعويضات نقداً مرا .

وعندما إستشعر لويد جورج شيئاً من الحقيقة ، لم يكن مستعدا لأن يصارح مجلس العموم بذلك — وإعتزم أن يقول إن موضوع التعويضات معقد جداً بحيث لم يمكن ألبت فيه . وعندما يأتى الوقت تكون ثائرة الشعب البريطانى قد هدأت . .

وكان مشروع المعاهدة يجبر ألمانيا على دفع خمسة آلاف مليون دولار ذهبا قبل ١ مايو سنة ١٩٢١ بجانب ما ستقدمه من الفحم والكيماويات . إلخ . . على أن تعقد لجنة للتعويضات لتجرى حساب ما يجب أن يدفع . ولكن الأمريكيين رأوا أنه خلال هذين العاملين سيمحى الحنق على ألمانيا ، وأن من الخير تحديد مبلغ معين ، خاصة وأن هذا سيدفع العمال الألمان للعمل بجد وإخلاص . ولكن فرنسا رفضت ذلك .

ولم تكن النقطة الثالثة التى أثارت حنق الألمان تتعلق بأرض أو مال ، ولكنها كانت تتعلق بأثم الحرب . ففى مقدمة القسم الخاص بالتعويضات . وضع الحلفاء — كمقدمة له — مادة مختصرة هى المادة ٢٣١ أريد بها تبرير دفع ألمانيا للتعويضات . وكانت هذه المادة تنص على أن « الحلفاء والحكومات

المرتبطة بهم ، تؤكد أن ألمانيا تقبل مسئوليتها وحلفائها لكل الخسائر التي لحقت بالحلفاء والحكومات المرتبطة بهم ، ومواطنيهم نتيجة للحرب التي شنها عليهم عدوان ألمانيا وحلفائها ».

وكما لاحظ أحد المؤرخين ، فمع أن المادة لم توضع عرضا فإنه لم يتصور أن تثير ما أثارته من معارضة ، والواقع أن لجنة التعويضات لم تفكر في وضع هذه الماده حتى إقترح الفرنسيون ذلك إقامة للحق المادى على أساس أدبى ومعنوى ، ووجدت اللجنة الفكرة طيبة .

وكانت دهشة الحلفاء عظيمة ،عندما وجدوا أن هذه المادة بالذات إستأثرت بأعظم جزء من معارضة الألمان وأن ألمانيا لاتقبل « أثم الحرب » War Guilt Clause ورأى الحلفاء أنهم لم يذكروا كلمة إثم guilt ولكن مسئولية responsibility ،ولكن الالمان ـ فيما يبدو ـ لم يفرقوا بينهما خاصة وقد سبق هذه المادة المواد من ٢٢٧ — ٢٣٠ التى تتحدث عن العقوبات وكان منها محاكمة القيصر المخلوع وتسليم مجرمى الحرب (وقد كان منهم هندنبرج ـ الذى سيصبح فيما بعد رئيسا للجمهورية) . وفى ١٠ مايو أرسل الوفد الالمانى مذكرة إلى الحلفاء يقول فيها إن ألمانيا ليست الدولة الوحيدة أو الرئيسية التى تلام على الحرب،وبينما كان الحلفاء يعتقدون أن مسئولية ألمانيا عن الحرب مسألة لاتحتاج إلى تدليل ، فإن الالمان بتأثير دعاية الحرب الطويلة ، وتداخل الأحداث التى أدت إليها ـ كانوا مقتنعين أنهم دخلوا حربا دفاعية . ومع أن الحلفاء لم يكن يهمهم بوجه خاص هذه المادة ، إلا أنهم هم أيضا ، بفضل دعايتهم الطويلة عن أنهم إنما دخلوا الحرب دفاعا عن المبادىء الإنسانية لم يكن أمامهم إلا التمسك بها . لأن التنازل عنها ، بعد أن أُثبتت ،يصبح له مدلول إيجابى ، فإذا لم يكن اثم هذه الحرب المدمرة يقع على ألمانيا فعلى من يقع وكيف يمكن لأى واحد

من الثلاثة الكبار مواجهة الناخبين بمضمون هذه النتيجة ، وهكذا تمسك الحلفاء بالمادة المشئومة ورفضوا مناقشتها .

* * *

بعد أن قدم الألمان ملاحظاتهم بفترة ، ونتيجة لإلحاحهم وكشفهم عن وجهة النظر الأخرى وماحفلت به المعاهدة من ثغرات، تملكت الهواجس لويدجورج، خاصة بعد أن كتب إليه الجنرال سمتس مندوب اتحاد جنوب أفريقيا ،وأحد الشخصيات اللامعة . وممن كانوا من ألد أعداء الامبراطورية البريطانية ، ثم انقلبوا من أكثر أبنائها حماسة — مذكره مسهبه فى ٢٢ مايو حافله بالنذر — أوضح له فيها أن احتلال الرين سيكون بداية لقلاقل فى المستقبل وأنه لما كان على ألمانيا أن تدفع نفقات جيش الاحتلال فلن تتردد فرنسا فى أن ترسل جيشا جرارا يستنفد مالية ألمانيا .

ولما كان هذا الاحتلال لاينتهى إلا بعد التثبت من أداء كل التزامات المعاهدة وهو أمر مشكوك فيه . فإن هذا يعنى بقاء الاحتلال وبقاء العبء المالى والإثارة المعنوية أما التعويضات ، فحتى الدفعة المقررة من الذهب والكيماويات والفحم هى أكبر مما تطيق ألمانيا دفعه . وحذره من أن الحلفاء سيذبحون الدجاجة التى تبيض بيضة الذهب . وأن ألمانيا بعد أن جردت مناجمها فى سيليزيا والسار لن تستطيع أن تدفع شيئا ، وحذر سمتس من اعطاء بولندا مزيدا من الأرض الالمانية لأن هذا سيكون خطأ بالغا سينتقم له فى المستقبل ، كما رأى أن من الحماقة مطالبة ألمانيا بتسليم أى واحد يطلبه الحلفاء وأن تخفيض الجيش الالمانى إلى مائة ألف سيشجع الثورة بالداخل باختصار طالب سمتس بتغيير شامل فى المعاهدة .

وبعد ذلك بأسبوع كتب إلى الرئيس ولسن خطابا مماثلا ذكره فيه بالنقط الاربعة عشر وأن المعاهدة الماثلة تتناقض قلبا وقالبا مع نقاط ولسن .

ومن العجيب أن الرئيس الامريكى الذى تملكه القرف واليأس ، والذى كان فى حالة صحية سيئة وحالة نفسية أسوأ ، لم يعن بهذه المذكرة ، على نقيض لويد جورج الذى عندما واجهته هذه الحقائق الرهيبة تملكه الذعر . وفى أول يونيو دعا أعضاء الوزارة البريطانية ومندوبى الدومنيون للاجتماع فى باريس حيث أغلقوا على أنفسهم الابواب وبقوا فى مناقشة ظلت يومين كاملين .

وإفتتح لويدجورج الإجتماع بعرض مذكرات الوفد الألمانى وردد الحلفاء، ثم تلاه سمتس بتنديد كاسح للمعاهدة وأوضح لويد جورج أن من الممكن للحلفاء إجبار ألمانيا على توقيع المعاهدة ، ولكن ماذا يحدث لو أن الحكومة الألمانية رفضت التوقيع وإستقالت بصفة جماعية ، وحلت محلها وزارة لا قيمة لها تصدق على الإتفاقيةولا تستطيع تحقيق بنودها . إن فرنسا المستفيدة الأولى من المعاهدة ، ستجر بريطانيا بحكم إلتزامها إلى منازعات لا حد لها . وقد يتطلب الأمر الإبقاء على جيش كبير . ثم هناك احتمال أن لا توجد أى وزارة تقبل توقيع المعاهدة ، فهل بريطانيا مستعدة لتعبئة جيش جديد لإحتلال ألمانيا؟ وتلا لويد جورج وسمتس الخبراء الماليون الذين أوضحوا حماقة التعويضات وإستحالة دفعها . وما سيؤدى إليه ذلك من فوضى ماليه ستهز دعائم الإقتصاد العالمى .

وصرح المجلس للويد جورج ، بل وجهه، لأن يطالب بتعديل شامل للاتفاقية فإذا رفض ذلك فله أن يوقف الحصار الذى يفرضه الأسطول البريطانى أو العمليات العسكرية التى تقوم بها الجيوش البريطانية .

وما أن قدم لويد جورج اقتراحه بالتعديل الشامل للمعاهدة حتى هاجمه كليمنصو ، وأوضح أن بريطانيا لم تقدم شيئاً يهدأ ثائرة الألمان على حساب المصالح البريطانية فلم تقترح مثلا تخفيض عدد السفن الألمانية التى تسلم إليها .

أو إعادة الأسطول الألمانى الذى يسلم إليها أو رفع القيود على التجارة الدولية لألمانيا أو إعادة مستعمراتها وبدلا من ذلك فإنها اقترحت تنازلات على حساب المصالح الفرنسية وقال كليمنصو « نحن نعرف الألمان خيرا منكم . إن هذه التنازلات ستشجع الألمان على المقاومة وستحرم شعوبنا من حقها . ولسنا فى حاجة لأن نلتمس المعذرة لانتصارنا » وعرض أن يقدم لويد جورج إلى مجموعة من النساء الفرنسيات ما بين سن ١٤ و ٦٥ اغتصبهن الألمان .

ولم يكن هذا المسلك مفاجأة للويد جورج ، فقد توقعه ، ولكن ما لم يتوقعه هو مسلك الوفد الأمريكى الذى كان عدد من أبرز شخصياته قد أظهر تعاطفا مع سمتس وكينز ، وكان لانسج وزير الخارجية يعارض المعاهدة . لهذا تملكت الدهشة الوفد البريطانى عندما قام الرئيس ولسن وعارض التعديل وأوضح أن إتمام المعاهدة كان معجزة وأنه يستحيل تعديلها من جديد . فقد غادرت معظم الوفود باريس وقد لا يمكن إقناع بعضها بالنصوص الجديدة . .

وأوضح الرئيس ولسن وجهة نظره الأخيرة « لست أريد أن أكون غير معقول ، ولكن مشاعرى هى كالآتى . ليس علينا أن نعدل فى المعاهدة بفكرة الحصول على توقيعها . إن وقت تقدير هذه الاعتبارات كان وقت كتابتها . وإنه لمما يشعرنى التعب أن يأتى إلى إناس يقولون إنهم يخشون من عدم توقيع ألمانيا للمعاهدة وها هو ذا فريق بريطانى يمثل كل أنماط الفكر البريطانى يتملكه الهلع إن عليهم أن يكونوا عقلاء . . فليسوا فى حاجة إلى الهلع . . وليكن الله معنا » . .

وأحبط هذا الموقف آمال لويد جورج ، فلم يستطع أن يحصل إلا على تعديلات تافهة واستبعدت فكرة الإعادة الشاملة بحيث أتم الحلفاء ردودهم على الملاحظات الألمانية يوم ١٦ يونيو . وسكن روع لويد جورج ، وأعار

سكرتيره فيليب كير Philip Kerr الذى كان يعد أكفأ وأسرع ديبلوماسى لإعداد الصياغة الأخيرة التى تضمنت أن هذا النص يمثل الكلمة الأخيرة وأن الحلفاء يريدون إعلانا من الوفد الألمانى خلال خمسة أيام باستعداده لتوقيع المعاهدة، وفى حالة عدم إرسال مثل هذا الإخطار فإن الهدنة ستنتهى وسيقوم الحلفاء بما يرونه لازما لتحقيق شروطهم .

وسلم هذا الرد مع نسخة واحدة من المعاهدة المعدلة إلى الوفد الألمانى الذى وجد لفجيعته أن التعديلات طفيفة لدرجة لم يجد فيها الحلفاء حاجة لإعادة طبع المعاهدة . . وإنما كتبوا التعديلات على هامش المشروع الأصلى بالخط الأحمر، وعلى الفور قرر بروكدورف رانتزو أن ليس لديه ما يبقيه فى فرساى وأن قبول أو رفض المعاهدة هو ما تبت فيه برلين . فسافر فى سواد الليل البهيم ، دون أن يتوافر العدد اللازم من العربات أو الحماية الكافية من الجمهور المعادى بعد أن اكتسب من الحلفاء مدة يومين هى فى الحقيقة مدة السفر — وبذلك أصبحت المهلة أمام ألمانيا سبعة أيام . .

وخلال يومى السفر عكف بروكدورف رانتزو على إعداد تقريره الذى انتهى فيه إلى أن شروط الحلفاء مما لا يمكن قبوله أو الوفاء به . وما كاد القطار يدخل فايمار فى صباح ٨ يونيو حتى كان التقرير قد كتب على الآلة الكاتبة . وهرع بروكدورف رانتزو الى الرئيس ايبرت والمستشار شيدمان وبقية أعضاء الوزارة الذين كانوا فى الانتظار .

ولو جاء بروكدورف رانتزو قبل ذلك بأسبوع لوجد الوزارة مجمعة على نبذ المعاهدة ولكنه الآن وجدها منقسمة على نفسها ففى خلال هذا الأسبوع استطاع رجل واحد أن يؤثر عليها بمنطقه البارد ذلك الرجل هو ماتياس ارزبرجــــر .

وكان ارزبرجر فى الرابعة والأربعين من عمره ، وقد بدأ مستقبله فى عمر مبكر واستطاع أن يشق طريقه صعدا من نائب فى حزب الوسط الكاثوليكى حتى أصبح زعيما له . وعندما بدأت الحرب تحمس ارزبرجر لها ولكنه أدرك فى صيف ١٩١٧ أن المعركة خاسرة ولم يتردد فى أن يعلن فى الرشتستاج أن ألمانيا عاجزة عن الهجوم . وأن عليها أن تناور بالدفاع لحين الحصول على أفضل شروط السلام .

وفى نوفمبر سنة ١٩١٨ سنه المستشار ماكس رئيساً لوفد الهدنة ولما تشكلت وزارة شيدمان كان ارزبرجر قد أعاد تشكيل حزب الوسط الكاثوليكى وغير اسمه إلى حزب الشعب المسيحى . وجاء هذا الحزب فى انتخابات يناير سنة ١٩١٩ بعد الحزب الاشتراكى الديمقراطى (الأغلبية) مباشرة فاختاره شيدمان وزير دولة ، ولكن مقدرته فرضته على الوزارة بحيث أصبح واحدا من أقوى أفرادها .

وكان ارزبرجر منذ أن عين رئيسا لوفد الهدنة قد استطاع أن يتفهم نفسية الحلفاء وأن يوجد بعض الصلات بهم بحيث أصبح فى الوزارة العمدة فيما يتعلق بالحلفاء وكان يتكلم فى اجتماعات الوزارة عن علم ودراية وصلة لاتتوفر لأى واحد آخر ، وعندما عين بروكدورف رانتزو وزيراً للخارجية نشأ نوع من الصراع الخفى بينهما، وشك بروكدورف فى أن ارزبرجر يطمع فى أن يحل محله ، وأنه يقوم وراء ظهره باتصالات ببعض دوائر الحلفاء .

وحقيقة الحال أن ارزبرجر كان قد قام بعدد من الاتصالات لعجم عود الحلفاء وللتعرف على حقيقة موقفهم من ألمانيا إذا رفضت ألمانيا التوقيع ، وقد بددت هذه الاتصالات كل الشكوك التى كانت تساوره فى إصرار الحلفاء على احتلال ألمانيا إذا رفضت التوقيع . وعندما تأكد من هذا جابه

مجلس الوزراء بها . وأن الحلفاء ليسوا على استعداد لإجراء تعديلات جذرية في المعاهدة وأن خطتهم هي احتلال ألمانيا وتجزئتها إلى ولايات وفرض المعاهدة على كل ولاية على حدة . وأعلن أنه يناصر توقيع المعاهدة على فداحة ذلك . وما قد يؤدى إليه من احتمال انشقاق شرق ألمانيا أو وقوع انقلاب عسكرى ولـكنه فى الوقت نفسه سيكفل فك الحصار وعودة الأقوات والتجارة ، والاحتفاظ بوحدة الريخ . أما إذا رفضت الوزارة التوقيع فسيكون هناك الاحتلال والبطالة والمجاعة وستتدعم البلشفية وتتقطع أوصال الدولة الألمانية وتتحول إلى دويلات صغيرة .

وعندما قال أحد الوزراء إن التوقيع على معاهدة دون الوفاء بالتزاماتها يعد جريمة قال « إذا استطاع بعضهم أن يقيد يدى وأن يوجه إلى رأسى مسدسا طالباً أن أوقع على تعهد أن أطير إلى القمر خلال ٤٨ ساعة فإن أى واحد عاقل لا بد وأن يفضل التوقيع حرصاً على حياته » وإذا كانت الشروط مما لا يمكن أن تطبق فسيرى الحلفاء بأنفسهم ذلك وسينزلون على حكم الضرورة أو سيكون هناك حل بطريقة أو بأخرى، ولـكن الكونت بركدورف كان يرى غير ذلك ونصح الوزارة بأن ترفض التوقيع وتثبت فالوقت فى مصلحة ألمانيا .

وكان هناك جهة أخرى يجب التعرف على رأيها قبل الانتهاء إلى الرأى الأخير تلك هى القيادة العسكرية العليا . فما من مجموعة ستتأثر بالمعاهدة كالجيش إذ انحطت به هذه إلى مائة ألف جندى منهم أربعة آلاف ضابط أى أن يكون الجيش الألمانى العظيم أقل من جيش دويلة بلقانية . كما نصت المعاهدة على إيجاد لجان مراقبة للحلفاء للتثبت من عدم مجاوزة هذه الأرقام . وحددت صنع الأسلحة الثقيلة والدبابات وقضت بتسليم الأسطول الألمانى إلى الحلفاء .

وكانت القيادة العامة قد قامت قبيل ذلك بعدة اتصالات بالوزارة عبرت فيها عن تمسكها بالجيش القوى القائم على التجنيد الإجبارى وعرض جرونر على بروكدورف خطة يقوم بمقتضاها الجيش الألمانى بعملية غزو منظم للبلشفية الروسية لحساب الحلفاء . ولكن بروكدورف رفض الفكرة من أساسها . وعندما بدأت كفة التوقيع ترجح ارتؤى أولا الحصول على رد صريح من القيادة العسكرية عما إذا كان من الممكن للجيش أن يقاوم ويدخل المعركة من جديد .

كان الموقف حرجا للغاية ، فمن ناحية ما من ضابط يمكن أن يقبل هذه الشروط المهينة . ومن ناحية أخرى فإن الجيش لا يستطيع أبداً مقاومة جحافل الحلفاء وستنتهى المعركة لا بهزيمة مشرفة ولكن بانتصار الفوضى والبلشفية وتفكك الجيش . وأمام هذه المعادلة توقف جرونر نفسه ، وهو أكفأ الضباط وأكثرهم حكمة واتزانا وواقعية ، ورأى أن حكمه وحده لا يكفى ، ولا بد أن يصدر المارشال هندنبرج نفسه وكتابة قراراً عن ذلك . لأن هذا وحده هو الذى يمكن أن يلزم الضباط . ولكن هندنبرج لم يكن بدوره ليجد مخرجا وبعد ليلة نابغية لم ينم فيها المارشال . . سلم جرونر مذكرة مقتضبة جاء فيها :

« فى حالة استئناف العمليات العسكرية فيمكن للألمان أن ينتصروا فى الجبهة الشرقية . ولكنهم فى الجبهة الغربية لا يستطيعون — بالنسبة لتفوق العدو العددى واستعداده — مقاومة هجوم جدى للحلفاء . ومن هنا فمن المشكوك فيه أن نحصل على نتائج مرضية ولكنى كجندى أفضل الموت فى شرف على توقيع صلح مهين »

وفى دوائر الجيش — ارتأى الجنرال والتر رينهارد وزير الحربية فى

بروسيا أن لا توقع ألمانيا المعاهدة أبداً . فليغزو الحلفاء ألمانيا وليجزؤونها إلى ولايات فستظل بروسيا . وسيظل جيشها وسيكون ذلك نواة ألمانيا الجديدة وإذا وقعت الحكومة المدنية المعاهدة فعلى القيادة العليا أن تتزعم ثورة شعبية عسكرية وتضع على رأسها الماريشال هندنبرج ، ولكن جرونر رفض هذه الدعاوى ورأى أن ذلك سيكون نوعاً من الانتحار ، وأن الحلفاء أو البلاشفة سيقضون على البقية الباقية من هيئة الضباط والجيش .

وخلال هذه الفترة كانت الوزارة فى اجتماعات مستمرة دون أن ترى مخرجا فهى لا تستطيع التوقيع وهى لا تستطيع عدم التوقيع ، وقرأ نوسكه على

[illegible]

ما فيها . . وفى يوم ١٩ يونيه أجرت الوزارة أخذ الأصوات وتزعم فريق التوقيع ارزبرجر ، وتزعم فريق الرفض شيدمان ولكن النتيجة كانت متعادلة تقريبا ، فقرر الرئيس ايبرت إحالة الموضوع على الجمعية الوطنية ، وفى الوقت نفسه دعا الجنرال رينهارد كبار الضباط إلى مجلس حرب حضره كل الجنرالات المسئولين ، وعرض عليهم رينهارد فكرته فى أن ينسحب الجيش إلى بروسيا ، ويعمل كل شىء للاحتفاظ بها بصرف النظر عما يحدث

وفتحت هذه الايماءة آفاقا جديدة أمام الضباط ، فإذا حدث هذا وأصبح نوسكه حاكم المانيا وديكتاتورها فيمكن أن ينالوا كل شيء ، إن نوسكه هو رجلهم المفضل وهو يجمع بين ظاهره كمدنى واشتراكى وباطنه كمناصر ومؤيد للضباط على طول الخط . فتقدمت صفقة مضمرة يؤيد بمقتضاها الضباط وزير الدفاع إذا وقعت الوزارة على المعاهدة بشرط ابعاد بند « اثم الحرب » بأمل تقلد نوسكه السلطة على أسس مطلقة .

ولكن توقعات نوسكه لم تصب . فمع أن شيدمان وبروكدورف — رانتزو وأربعة من الوزراء الديمقراطيين قدموا استقالاتهم إلى الرئيس ايبرت فى الساعة الواحدة من صباح ١٩ — ٢٠ يونيو ، وأصبحت ألمانيا بلا وزارة ، فإن اختيار الرئيس ايبرت لم يقع على نوسكه ، فعلاقته الوثيقة بالضباط وماضيه الملوث بالدماء وشططه فى استخدام أساليب الكبت والقمع جعلت الرئيس ايبرت يعزف عن ترشيحه ويعين شخصية أقل نفوذا وقوة ، ولكن أكثر أمنا وحرصا على التقاليد الديمقراطية والبرلمانية . فاختـار جوستاف باور Gaustav Bauer وزير العمل فى الوزارة السابقة واحد الشخصيات النقابية البارزه ولكنه فيما عدا هذا لم يكن له ما يشفع لتعيينه فى منصب المستشار . ولم يكن نوسكه — الذى احتفظ بمنصبه كوزير للدفاع هو الوحيد الحانق ، إن ارزبرجر أيضاً استاء لأنه اعتقد أنه أجدر وأحق من باور . وناقشت الوزارة الجديدة قضية المعاهده وبعد مناقشة مستفيضه تقدم ارزبرجر بما بدا وكأنه الحل . فقد ذكر أنه فى حكم الواثق من أن الحلفاء يمكن أن يتنازلوا عن المواد المثيرة (من ٢٢٧ إلى ٢٣١) الخاصة بإثم الحرب ، وأن هذا التنازل يتيح للحكومة اكتساب تأييد الجمعية الوطنية والضباط معا . وطبقا لهذا أعلن باور يوم ٢٢ يونيو أمام الجمعية الوطنيه أن وزارته ستوقع المعاهدة دون المواد

من ٢٢٧ إلى ٢٣١ وايدت الجمعية الوطنية الموقف الذى اتخذته الوزارة ولكن الاشتراكيين المستقلين نددوا بربط التوقيع باستبعاد المواد ، فاثم الحرب بيّن ، ومصير القيصر والضباط لايهم فى قليل أو كثير ، وعندما عارض نواب اليمين ذلك جابههم باور « عما إذا كانوا على استعداد لتقبل مسئولية الحكومة ؟ وما هو الذى يريدونه بالضبط وكيف سيدافعون عن البلاد تجاه هجوم الحلفاء الذى يمكن أن يبدأ فى الساعة السابعة من صباح اليوم التالى » ولما لم يكن هناك رد فقد وافقت الجمعية الوطنية بأغلبية ٢٣٧ إلى ١٣٨ على توقيع المعاهدة بشرط أن تحاول الحكومة استبعاد المواد من ٢٢٧ إلى ٢٣١ .

وما أن حصلت الوزارة على هذا التفويض حتى ابرقت إلى فرساى عن طريق خط تليفونى مباشر بقبول التوقيع على المعاهدة دون الاعتراف بأن الشعب الألمانى هو الذى أغرى بهذه الحرب ودون التعهد بتسليم أشخاص طبقا للمواد من ٢٢٧ إلى ٢٣٠ . ولكن من سوء حظ ألمانيا أن بعض رجال الأسطول الألمانى الراسى فى ميناء سكا بافلو البريطانية اغرقوه صباح ٢١ يونيو أى قبل ذلك بيوم واحد، واثار ذلك حنق الحلفاء وبوجه خاص لويد جورج، فوضع الرئيس ولسن مذكرة مقتضبة جاء فيها إن وقت المناقشة قد فات وأن المطلوب من ألمانيا هو قرار بقبول التوقيع على المعاهده ككل . وصدرت الأوامر إلى جيش الحلفاء المرابط فى الرين بالاستعداد للزحف على برلين ، كما تأهبت جيوش البولنديين والتشكيين .

ونزلت انباء رفض الحلفاء على الوزارة كالصاعقة ، فقد كانت توقعات ارزبرجر صائبه دائما ولكنها هذه المره الهامه والحساسة أخطأها التوفيق وارتأت الوزارة عرض الأمر على الجمعية الوطنيه مرة أخرى فدعيت على عجل.

فى هذه الاثناء كان الجنرال ميركور رائد الفرق الحرة ومعه أركان حرب

نوسكه الميجور فون جيلسا يقابلان نوسكه ، ويعرض الأول عليه أن يرفض الاشتراك فى توقيع المعاهدة . وأن يكون ديكتاتور ألمانيا ، وعندئذ تقف وراءه كل الفرق الحرة وهيئة الضباط والجيش وأنه هو وضباطه وجنود على استعداد ليموتوا ، وليقطعوا أربا فى سبيله . وأصاب هذا العرض الوتر الحساس فى نوسكه ، فقام واقفا وشد على يد الجنرال ووعده بأن يكون معهم ، وذهب فعلا إلى الوزارة وقدم استقالته على أساس أن التوقيع سيؤدى إلى سقوط الوزارة — وعدم توقيع المعاهدة ، وسيادة الفوضى ، وسيكون للجيش الحرية فى إقامة حكومة .

ووجد الرئيس ايبرت نفسه فى مأزق ، فإذا استقال نوسكه واستقال معه عدد من الوزراء فستسقط الوزارة ، ولن يتيسر تشكيل وزارة جديدة قبل انتهاء مدة الانذار ، فالتقط التليفون واتصل بجرونر وطلب إليه افادته بصورة صريحة ما إذا كان الجيش على استعداد للمقاومه . فإذا كان فسيؤيد رفض المعاهده وستعود ألمانيا مرة أخرى إلى الحرب . ولكن إذا لم يكن هناك امل ، فيجب على القيادة أن تصارحه بذلك وعندئذ لا يكون هناك مناص من التوقيع. وحمل جرونر الرسالة إلى المارشال الذى قال له « إنك لتعلم — كما أعلم أنا — أن المقاومة مستحيله » ولكنه رفض الاقرار بذلك علانيه وعندما جاء وقت اتصال ايبرت نظر المارشال فى ساعته وقال « ليس هناك ضرورة لبقائى إنك تستطيع أن تقدم الإجابة للرئيس كما لو كنت أنا » وعندما اتصل ايبرت أخبره جرونر أن المقاومة ميئوس منها . وأن المعاهده يجب أن توقع . وفى المساء أخطرت الجمعية العمومية بفحوى إجابة القيادة وأمكن اقناع نوسكه بالبقاء فى الوزارة وقدمت الجمعية الوطنية قرارا غامضا مهزوزا ، يصرح للوزارة بتوقيع المعاهدة طبقا لتصويت اليوم السابق وعندئذ ارسلت الوزارة المذكرة التالية للحلفاء .

« إن حكومة الجمهورية الألمانية ـ خضوعا منها للقوة القاهرة ، ولكن دون هجر لفكرتها عن اللاعداله التى لم يسمع بمثلها لشروط الصلح — تعلن أنها على استعداد لقبول وتوقيع معاهدة الصلح التى فرضها الحلفاء والدول المرتبطة بهم » .

وجاءت هذه فى آخر وقت ، قبل تسعين دقيقه من زحف القوات ، وكان مجلس الأربعة منعقدا وآخر سطر فى محضره « أعطيت الأوامر باطلاق النيران » عندما دخل أحد الضباط يلوح فى يده باشارة الحكومة الالمانية .

* * *

كانت معاهدة فرساى شئوما على العالم كله أوقعت به الفوضى والدمار والازمات، وحقت لعنتها على كل شعوب العالم وليس ألمانيا وحدها ـ كما حقت على المهندسين الأساسيين لها ، فاغتيل ارزبرجر الذى دعا إلى قبولها . وهزم فرسانها الثلاثة كليمنصو ـ ولويد جورج وويلسن فى الانتخابات التى أعقبت المعاهدة . ونحى كل واحد منهم عن الحكم ، وعاش كسير القلب حتى أدركته الوفاة

الفصل الثالث عشر

مؤامرة كاب

وقعت معاهدة فرساى فى الملابسات التى شرحناها فى الفصل السابق ، وبعد أن عرضت أكثر من مرة على الجمعية الوطنية واستفتيت فى أمرها القيادة العليا ، وبعد أن اتضح أن توقيع المعاهدة كائنة ما كانت - أفضل من أى بديل آخر . ومع هـذا فلم يكد التوقيع يتم فى ٢٨ يونيو سنة ١٩٢٠ حتى ثارت الدوائر العسكرية ، وانتهزتها فرصة لكى تعيد جذعة أسطورة الطعنة من الظهر Dolchstoss التى تفتقت عنها الحيلة لتبرير طلب الهدنة ، وماتلا ذلك كله من أحداث ، وطبقا لهذه الأسطورة فإن اليهود والشيوعيون هم الذين قاموا بالثورة فى ٩ نوفمبر فى وقت كان الجيش — فيما قالوا — بعيدا عن الهزيمة ومستعدا للمقاومة .

لقد قيل إن الكلمة جاءت عرضا على لسان الجنرال سير نيل والكولم فى سياق حديث له مع لودندورف الذى ما أن سمعها حتى هب واقفا وأكدها فإذا صحت الرواية فإنها تكون رمية من غير رام . لأن التعبير يتجاوب مع أعماق الأساطير الألمانية التى تصور الدور التاريخى والقدر الألمانى . . بل إن له أصلا حرفيا فى هذه الأساطير ، فسيجفريد ، البطل الرمزى لألمانيا قد حصن ضد الموت عندما غمس جسده فى دم التنين ، ولكن ورقة شجرة صغيرة لصقت

بظهره ، وحالت دون أن يغمس مكانها فى الدم . وكانت هذه البقعة الصغيرة هى المقتل الذى أوتى منه .

وكان من حسن حظ أنصار هذه الدعوى ، أن الشواهد التى تعززها كالاضرابات وبروز العنصر اليهودى فى الدعوة الشيوعية — وماقام به السفير الشيوعى جوف من جهود . . الخ معروفة ومعلنة ، وأن الشواهد التى تنفيها كاعتراف لودندورف بعجز الجيش عن المضى وطلبه الهدنة مما يصعب اثباته ، فضلا عن أنها كانت تنقذ الكبرياء القومى على حساب حفنة من الشيوعيين واليهود . ولهذا رزقت ذيوعا وانتشارا ، وآمن بها الكثيرون بما فيهم الذين ابتدعوها أنفسهم .

وكان من أبرز شروط المعاهدة تسريح الجيش والإبقاء على مائة ألف جندى وضابط وعمليا فإن الجيش كان مسرحاً ، ولكن هيئة الضباط وحدها كانت تقارب المائة ألف كما كان هناك الفرق الحرة التى تكاثرت تكاثرا وبائياً فى الفترة التى سبقت وعاصرت توقيع المعاهدة ، فضلا عن الفرق التى كانت تحارب فى منطقة بحر البلطيق ولم تكن الحكومة لتستطيع شيئا أمامها . بل عندما حوصرت إحدى هذه الفرق تكونت فرقة حرة فى برلين وشقت طريقها بحر لا تفيا لإنقاذ الفرقة المحاصرة ، ضاربة عرض الحائط بأوامر الحكومة .

وعندما أمرت الحكومة بتسريح فرقة البحارة الثانية ، التى كانت تحمل اسم الكابتن ايرهاردت ، زحفت هذه وعدد أفرادها قرابة ثلاثة آلاف فى مساء ١٢ مارس ١٩٢٠ على برلين واستطاعت أن تضم إليها فلولا عديدة من مختلف الفرق وفى الساعة الواحدة صباحا . . أصبحت على مشارف برلين .

وعقد نوسكه وزير الدفاع فى مكتبه اجتماعا لكبار الضباط لوضع خطة رد هذا الهجوم — ولم يكد يبدأ الحديث حتى قاطعه الجنرال هانزفون سيكت

قائلا « إن الجيش لا يطلق النار على الجيش . إذ عندما يحدث هذا فإن أواصر الزمالة بين هيئة الضباط تتلاشى » ودهش نوسكه وتوجه إلى بقية القواد ووجد لفجيعته أن اثنين فحسب من احدى عشر قائدا على استعدا لحماية الجمهورية من التمرد. أما البقية فقد أعلنوا أنهم سيكونون على الحياد ،وللمرة الأولى يكتشف نوسكه حقيقة أصدقائه الضباط وأنهم على استعداد لسحق أى تحرك يقوم به الشيوعيون ، ولكنهم ليسوا على استعداد لمقاومة احدى الفرق العسكرية المتمردة . وأنه بعد كل ماقدمه لهم لا يعنى شيئا بالنسبة لهم .

واضطر نوسكه وبقية الوزراء إلى الفرار من العاصمة أولا إلى درسدن ثم إلى استوجرت ، وفى الساعات الأولى من فجر يوم ١٣ مارس كانت الجنود المتمرده تدخل « التيرجارتن » ويقابلها الجنرال لودندورف وفى الوقت نفسه وصل إلى برلين أحد كبار الموظفين المدنيين السابقين ويدعى ولفجانج كاب ليرأس الحركة وليكون المستشار .

وتملكت الحيره الحكومة فى ملاذها القصى ماذا تفعل ، إنها لا تستطيع رد القوه بالقوه ، فقد ظهر أن « لودندورف » وراء الحركة وأن أحد مساعديه من أبرز المنظمين لها . وأن أمر الزحف إنما أصدره الجنرال فون لوفتيز الذى قاد عملية سحق قومة الشيوعيين فى يناير . ولم يكن ليجديها أن تصدر الأمر بإقالته والواقع أنها نفسها كادت تصبح أسيره فرقة الجنرال ميركر أثناء عملية انسحابها . وكاد الجنرال يقبض على الوزارة بأسرها ولم ينثنى عن هذا إلا بصعوبة ، وبعد أن حذر الوزراء من أن الفرق الحره كلها تناصر الحركة وتقف وراءها .

فى هذا المأزق تحرك العملاق الذى ظل نائما طوال هذه السنين — الحركة النقابية — فدعا اتحاد النقابات الشعب إلى الاضراب العام — وأيدت الحكومة هذه الدعوة وقاد الزعيم النقابى العنيد كارل لين الاضراب من مخبئه فى برلين .

وكانت النتيجة رائعة فقد شل الاضراب كل المرافق وتوقفت كل وسائل الحركة الصناعية والمياه والمرافق والخدمة المدنية ، ووقفت الطبقة العاملة وقفة رجل واحد بحيث لم تستطع القوات الزاحفة أن تفيد من انتصارها بشيء واضطربت فى يدها الأمور فاضطرت إلى أن تنسحب ، وتعود من حيث جاءت وفر كاب إلى تمبلهوف حيث كانت تنتظره طائرة أقلته إلى السويد . . بينما اتجه لودندورف إلى ميونيخ .

وكانت المجموعة الشيوعية بين العمال هى الوحيدة التى رفضت الاشتراك فى الاضراب بحجة أنه ليس لها من مصلحة فى عداء بين فريقين رجعيين !! ولكنها تبينت خطأها قبيل نهاية الاضراب خاصه وأن اللجان المحليه رفضت أن تنصاع للتوجيهات السلبية التى أصدرتها « السنترال » أى اللجنة المركزية للحزب .

وفى رأى أحد الكتاب « لم يحدث قبل — كما لم يحدث بعد — أن ظهر تضامن الشعب الألمانى واشتراكه عظيما كما حدث فى قومه كاب Kapp Putsch (كما سميت) ولم يحدث قبله كما لم يحدث بعده ، ان كانت الفرصة مهيأة أمام الشعب الألمانى ليخلص نفسه من قوى العدوان والرجعية وليضع أسس ديمقراطيه فعالة[1] » .

ولم يغب عن لجنة الاضراب أن تفاوض الحكومة حول شروط الوضع الجديد فدعت إلى اجتماع ووضعت عددا من المطالب تقبلتها الأحزاب المشتركة فى الحكم وكان أبرز هذه المطالب :

١ — معاقبة الذين قاموا بالتمرد أو اشتركوا فيه عقابا صارما .

٢ — اجراء تطهير دقيق فى الجيش .

٣ — اجراء تطهير فى موظفى الدولة .

---

(1) Hammer or Anvil p. 72.

٤ — تأميم الصناعات المهيئه للتأميم .

٥ — تكوين حكومة جديدة يكون للنقابات فيها نفوذ حاسم .

والشيء العجيب الذى يدل على أن الحركة النقابية وإن أثبتت فعاليتها فى العمل المهنى (الاضراب) فإنها تفتقد الوعى السياسى تماما أنها لم تنتهز هذه الفرصة للقضاء على التحالف الوزارى الذى أثبت عجزه وفر أمام تآمر العسكريين، وكان يجب ابقاء الاضراب لحين التوصل إلى تحقيق المطالب أو على الأقل تشكيل وزارة قوية من عناصر تمثل الطبقة العاملة حقا . . وإذا كان الزعيم النقابى كارل ليجين قد استطاع أن يدير هذا الاضراب الناجح وأن يدير شبكة الحركة النقابية القوية . فانه كان يصلح دون ريب لتقلد أى وزارة .

ولكن شيئا من هذا لم يحدث وا كتفت النقابات فى بلاهه بقبول الحكومه لهذه المطالب .

صحيح ان نوسكه السكريه قد أجبر على الاستقالة كما أقيل أيضا وزير الداخليه البروسى هاين، ولكن سلبية النقابات وامتناع الحزب الاشتراكى الديمقراطى المستقل عن الاشتراك فى الوزارة نتيجة لضغط الجناح الشيوعى الذى كان يتزعمه دوميج Daumig جعل التغيير الوزارى لاقيمة لأنه جاء بوزارة ائتلافيه أخرى برآسة هرمان مولر ، وحال دون تكوين الوزارة العمالية التى أرادتها النقابات .

إن الفرصة التاريخية الحاسمة قلما تسنح إلا مرة واحدة. وقد سنحت الفرصة أمام الطبقة العاملة الألمانيه حتى الآن مرتين ، وأضاعوها فى المرتين . المرة الأولى غداة الثورة فى الأيام الأولى لنوفمبر . . والمرة الثانية فى آثار «قومة» كاب .

وفى كلتا المناسبتين عجزت عن ممارسة السلطه وسلمتها دون ضمانات أو استثمارات .

ولاريب أن الحزب الاشتراكى الديمقراطى المستقل يتحمل مسئولية كبرى حتى وإن كان السبب فى هذا الموقف هو الجناح الشيوعى الذى كان نوعا من النحس لازم الحزب منذ البداية حتى أودى به فى النهاية .

إن فن السياسة لم يكن قط هكذا . . وإلا فلا .

إن هذا يكون فى العقيدة وإلى حد ما فى الثورة . . ولكن السياسة تتطلب الولوج من مداخل متعددة .

وفى أعقاب نجاح اضراب كاب كان يجب على الحزب الاشتراكى المستقل أن يدخل الوزارة مستندا إلى القاعده الشعبيه والعماليه الضخمه والمنتصره التى جاءت به ، وأن يقود هذه القاعده — التى لم يكن ينقصها إلا القياده — لاستعادة الثوره .. أو على الأقل .. تصحيح مسارها بحيث تتخلص من قبضة العسكريين أو من براثن الأحزاب البورجوازية .. وكانت هذه وتلك تستحوذ على الثوره شيئا فشيئا وتحتويها .

وقد دفع العمال ، كما دفع الاشتراكيون المستقلون ، ثمنا غاليا وسريعا لهذا الغباء السياسى .

فعندما واصل عمال الرور اضرابهم أرسلت الحكومة كارل سيفرنج زعيم عمال معادن برلين للتفاوض معهم ، وتوصل سيفرنج مع العمال إلى اتفاق حمل اسم اتفاق Bielefeld Agreement فى ٢٤ مارس ، وكانت تتضمن بالاضافة إلى مطالب لجنة الاضراب المركزية ، الافراج عن المسجونين وبعض المطالب الأخرى .. ولكن الاضرابات استمرت ، فأرسلت الحكومة الائتلافيه الجديده الجيش إلى منطقة الرور لاخضاع العمال وقام الجيش بهذه العمليه بوحشيه . ولعله رأى فيها فرصه للانتقام من العمال الذين ضيعوا عليه ثمرة كاب — فكأن الحكومه عاقبت حلفاءها بأيدى أعدائها .

الفصل الرابع عشر

ثورة بالمراسلة

لم يكد يمضى شهران على صدام يناير الدامى (١٩١٩) ، ومصرع روزا لوكسمبرج . حتى حدث الصدام الثانى الذى كان نقطة تحول فى توازن القوى ، وأوضح بما لا يدع شكا أن القوى العسكرية قد أصبحت ذات اليد العليا والكلمة الراجحة . .

وكانت قيادة الحزب الشيوعى قد آلت بعد فقد زعيميه الملهمين روزا وليبكنشت إلى ليوجوجيش Leo Jogiches زميل روزا وزوجها الأفلاطونى والذى كان يتولى الأمور التنظيمية والإدارية للحزب ، وكان قد قبض عليه فى صدام يناير ، ولكن لم تعرف شخصيته ، فأطلقوا سراحه .

وانتهى جوجيش من تحليله للموقف إلى أن قوى الحفاظ والعسكرية تسترد قواها بسرعة بقدر ما تخسر قوة الفريق الثورى ، ففى نوفمبر ، عندما قامت الثورة لجأ القيصر المتعالى إلى هولندا ، وهرب فى آثاره لودندورف ممثل العسكرية الألمانية ، وأصبحت أزمة الأمور فى أيدى مجالس العمال والجنود ولو من الناحية الرسمية . وتحلل الجيش الامبراطورى . وتوارى الملاك والنبلاء بينما سلم أصحاب الأعمال بكل مطالب العمال .

ولكن عجز القوى الثورية عن انتهاز الفرصة السانحة لاستئصال فلول

العهد . القديم . أدى إلى عودة هذه الفلول القديمة . وتبين جوجيش أنه إذا أريد قيام ثورة شيوعية فى ألمانيا فيجب أن تقوم بسرعة ، لأن كل يوم يمضى يكسب القوى الرجعية نفوذا . فضلا عن أنه يسمح للجمعية الوطنية بأن تجتمع وتضع دستورا يقوم على أسس ستكون — على أفضل الأحوال — هى أسس الديمقراطية الكلاسيكيه الليبرالية وليست الأسس الشيوعية أو الماركسية ..

وانتهى جوجيتش أيضاً إلى نتيجة أخرى أكدتها الوقائع ، ففى كل الانبعاثات والقومات لم تستطع جموع البلوريتاريا أن تقاوم الفرق الحرة ، وانهزمت إمام أسلوبها وتنظيمها وسلاحها ، وأنه لاينتظر أن تتغير هذه النتيجة ، بل إن إتاحة فرصة لاشتباك مسلح مع الفرق الحرة ستؤدى إلى تصفية البقية الباقية من الحزب الشيوعى والقوى الثورية . ولهذا يجب تفادى هذا الاشتباك .

وكانت ثمرة هاتين النتيجتين هى أن على الحزب الشيوعى أن ينظم انبعاثه جديده تشل الحكومة وتجبرها على التسليم دون الدخول معها فى معركة مسلحة تنتصر فيها بفضل جيشها وسلاحها . وليس لهذا من سبيل سوى الاضراب العام . فلن تستطيع الحكومة أن تطلق النار على العمال العزل المضربين وفى الوقت نفسه ، فإن الأضراب يمكن أن يشل الحياة .

وفى يوم ٣ مارس خصصت الصفحة الأولى من مجلة العلم الأحمر لنداء وجه إلى العمال يناشدهم الأضراب العام وحثهم على الاعتصام بالمصانع فى هدوء — وأن لا يسمحوا لأحد باستدراجهم إلى صدام « إن نوسكه ينتظر مثل هذه التعلة لسفك المزيد من الدماء » .

وفى يوم ٤ مارس اجتمع ١٥٠٠ مندوب من مندوبى العمال واتفقوا بأغلبية تزيد على ٩٠ ٪ على القيام بالاضراب ، ووضعوا قائمة بالمطالب التى على

أساس قبولها ينهى الاضراب . وكانت هذه المطالب تتضمن حل الحكومة للفرق الحره ، وأن تعيد العلاقات التجارية والدبلوماسية مع الاتحاد السوفيتى وأن تزيد من دور سلطات مجالس العمال ، وكانت هذه المطالب ، كما اعتزم واضعوها ، ليست إلا مقدمة فحسب . فإذا تقبلتها الحكومة فسيكون هناك مطالب أخرى ، ولن تجد الحكومة وقد جردت من سلطاتها مناصا من القبول .

وعندما بدأ الاضراب ، بدا وكأن كل شيء يسير طبقا للخطة المقررة ، ولكن هذا لم يستمر إلا فترة وجيزة ظهر بعدها أن من المستحيل كبح جماح العناصر الثورية فى العمال ، أو فى المعسكرات الأخرى ، فهاجمت مجموعات مسلحة مراكز البوليس واستولت على قرابة ثلاثين منها وزحف أفراد فرقة بحارة الشعب على مقر البوليس فى الكساندربلاتز واشترك مع البحارة والعمال فلول الميلشيا التى كان أميل ابشهورن قد كونها ، وأخذت تضع الاسلاك الشائكة وتنصب المدافع الرشاشة فى المدينه وحاول جوجيش وزملاؤه عبثا مقاومة هذا الاتجاه ، فقد أفلت الزمام من أيديهم ، وأصبح فى يد الثوريين المسلحين الذين أعمتهم انتصاراتهم السهله الأولى ، أو مفاهيمهم السطحية عن الثورة .

وكانت تلك هى فرصة نوسكه والعسكريين، فقد اجتمعت الحكومة وأعطت نوسكه سلطات مطلقة فى منطقة برلين ، فأعلن هذا الأحكام العرفيه وبدأ يحرك قواته طبقا لخطة مرسومة يطوق بها برلين ، وكان القتال عنيفا خاصة فى الشوارع المحيطة بميدان الكساندربلاتز ، ولكن الفرق الحرة التى كانت تحت قيادة الجنرال فون لوتفيتيز ، بدأت تتقدم وعندما استعصى عليها الاستيلاء على مقر رآسة البوليس الذى كان الثوار قد استولوا عليه يوم ٣ مارس

استدعوا طائرة قصفت المبنى ، بينما ضربت المبانى الأخرى بالقنابل المحرقة ، وفى ٦ مارس استولت قوات الحكومة على ميدان الكساندربلاتز والمناطق المجاورة ، وبدأت عملية تعقب الثوار المنسحبين .

ولم يعد من مبرر للاضراب ، فأعلن انهاؤه يوم ٩ مارس ولكن هذا لم يؤثر أقل تأثير على سير العمليات العسكرية ، فقد نفضت الحكومة يديها من الموضوع ، وذابت كل الذكريات الاشتراكية القديمة أمام ضرورات السلطة والمآزق التى التجئت إليها . بل إن نوسكه اصدر هذا اليوم نفسه — ٩ مارس — امره المشهور Schiessbefehl باطلاق النار فورا على أى واحد يحمل السلاح ضد قوات الحكومة ، وارتكب الضباط كل جرائمهم المعهودة وافتعلت اشاعات لإثارة نقمة الجنود على العمال وغررت إحدى الفرق ببقايا فرقة بحارة الشعب فأمرتهم بالتوجه إلى مكان معين يوم ١١ مارس لاستلام أوراق تسريحهم ومكافآتهم ، وما أن وصلوا إلى هناك حتى قبض عليهم . واقتاد أحد الضباط ويدعى مارلو تسعة وعشرين منهم واطلق عليهم النار . وكاد هذا الضباط أن يعدم ١٥٠ بحارا لولا أن أوقفه ضابط آخر .

وانتهى القتال يوم ١٣ مارس عندما اطبقت القوات على المكان الأخير الذى تجمع فيه الثوار ، ولما سألوا نوسكه عن شروط الصلح قال « سلموا دون قيد أوشرط . والافلست مسئولا » وسلم البعض بينما آثر الآخرون أن لا يموتوا صبرا وواصلوا القتال حتى قتلوا .

وأسفرت معارك الأيام العشرة عن قتل ما بين ١٥٠٠ و ٢٠٠٠ من الثوار وجرح قرابة عشرة الآف وكان من بين القتلى جوجيتش ودورانباخ زعيم فرقة بحارة الشعب وقد أطلق عليهما النار مخبر بوليس واحد يدعى تامشيك .

وتكرر فى مارس ، ما حدث فى يناير قبل شهرين ...

والحقيقة أن المفكر ليدهش من سلوك الشيوعين هذا المسلك مرتين متتاليتين فى برلين وحدها . وكان لهم منأى عن ذلك ..

فإذا كان اندفاع ليبكنشت هو الذى ورط الشيوعيين فى القومة الأولى ، فإن المنطق الدقيق والمحسوب لليوجوجيتش هو الذى أدى إلى القومة الثانية ، التى لم تكن بأفضل من الأولى ..

أخطأ جوجيتش عندما أعتقد أن من الممكن فى مثل الظروف الملتهبة أن يستمر الاضراب العام دون أن يتحول إلى اشتباك .

وأخطأ فى حساب التوقيت كذلك .

ذلك أن مد القوى العسكريه .. وانحسار القوى الثورية كان قدبدأ بالفعل ، وعندما يبدأ المد فإن كل محاولة لايقافه تصبح عبثا ويتعين انتظار وقت الجزر.

ولكن اذا حم القدر عمى البصر ..

وليس الشيوعيون بدعا فى ذلك ، فقد قرع القرآن أسلافهم فى القديم .

« أفلايرون أنهم يفتنون فى كل عام مرة أو مرتين — ثم لايتوبون .. ولا هم يذكرون » .

وقبل أن ينتهى العام كان الجناح الثورى قدفقد معظم قادته ففى يناير قتلت روزا وليبكنشت ، وفى فبراير قتل كورت ايزنر وفى مارس قتل اليوجوجيتش ودورنباخ ..

وكان فى أصل هذه الانبعاثات كلها الحزب الشيوعى ..

وكان الحزب الشيوعى قد تكون فى ٣٠ ديسمبر سنة ١٩١٨ على أساس برنامج وضعته روزالو كسمبرج وأشرنا إليه فى حينه ، وكانت كتلة الحزب هى مجموعة الاسبرتاكوس .

ولكن روزا لم تعش للحزب أكثر من أسبوعين ، وولى شئونه بعد مصرعها ليوجوجيتش الذى لقى حتفه هو الآخر فى مارس . فآلت القيادة إلى بول ليفى .

وكان بول ليفى محاميا يهوديا من الطبقة الوسطى وعلى قدر كبير من الثقافة والنبوغ . وكان محاميا لروزا ثم معجبا بها وتابعا لها ولكن كان ينقصه وقتئذ العمق الإنسانى الذى وهبته روزا وجعلها تضيق بأساليب لينين وترفض تكوين « الدولية » .

ولا ريب فى إخلاص ليفى وتفانيه فى قضية الماركسية ، فلو أنه أراد لوصل إلى أعلا المراكز ولكسب مئات الالوف بفضل نبوغه فى مهنه المحاماه . لقد كان مفكرا من المفكرين الذين تربيهم البورجوازيه فى حجرها وتغذيهم بلبانها ليكون لها عدوا وحزنا وليستخدم كل مازودته به لخدمة الطبقة العاملة .. شأنه فى ذلك شأن ماركس وانجلز وروزا ولينين وكولونتاى .

ولكن ليفى أوتى من ناحيتين :

الأولى : أن النزعة التنظيمية التى غلبت عليه بحكم تخبط الحزب من ناحية ، واستعداده الشخصى من ناحية أخرى أسلمته شيئا فشيئاً إلى دوامة الضرورات التى اضطرته إلى إغفال بعض القيم الثمينة التى حرصت عليها روزا ، والتى كانت فى أصل مقاومتها للنزعة التحكمية عند لينين .

الثانية : أن التطور الاشتراكى العالمى وبروز الدوليه الثالثة جعل له فى المجموعة الشيوعية الألمانية شركاء منشا كسين ، وفى كثير من الحالات أمسك هؤلاء الشركاء على غير معرفة دقيقة بزمام الأمور أو التوجيه .

وهذه العوامل كلها : الأصل البورجوازى لليفى . ونبوغه الفكرى والمهنى ومقدرته التنظيمية ، وما تركته روزا له من تراث . وما اضطرته الأحوال من

مشاركة للكومنترن آونة ومعارضة له آونة أخرى جعلته شخصا فذا . وعندما مات فى ١٤ فبراير سنة ١٩٣٠ حضر جنازته جموع غفيرة من أعلى المستويات الثقافية والفنية والاجتماعية إلى أدناها ..

وورث ليفى عن روزا معارضه انبعاثات وقومات الحزب الشيوعى ومحاولاته السيطرة على الحكم بالثورة ، وكان هذا الاتجاه يتفق تماما مع اتجاهاته وميوله الخاصة . وقد انتقد كل هذه الصوره من النشاط فى ميونيخ وفى المجر . وهاجم دعوى رادك عن أن الهزائم التى حدثت فى المجر تدعم الوعى الطبقى فيه .

وفى أعقاب نكسه مارس أراد ليفى أن يشفى الحزب من دائه الانقلابى العضال. فاستبعد كل ذوى الميول السينديكالية والانقلابية وأدى هذا إلى تقلص الحزب من ١٠٧ ألف إلى أقل من نصف هذا العدد وشكلت المجموعة المنشقة الحزب الشيوعى الألمانى KAPD . وعندما حدثت قومه كاب — كان ليفى فى السجن . وكان الذى يشرف على الحزب هــو اوجست تالمر August Thalheimer الذى تردد طويلا فى مناصرة الاضراب العام بحجة أن من الخطأ تأييد « اشتراكيى الثورة المضادة ضد رجعيى الثورة المضادة » ولم يقف موقف التأييد الاقرابه النهايه .. وانتقد ليفى هذا الموقف .

وفى هذا الوقت تقريبا كان المؤتمر الثانى للكومنترن يجتمع فى يوليو سنة ١٩٢٠ ويضع خطين أساسيين لسياسته تلقاء الأحزاب الاشتراكية فى مختلف دول العالم . الخط الأول تشجيع تكوين أحزاب شيوعية جماهيرية . وذلك بجذب جماهير الأحزاب اليسارية دون قياداتها ، وصهر هذه الجماهير فى بوتقة الحزب بوسائل الضبط والربط «والمركزية الديمقراطية » المدعاه . والثانى جعل الأحزاب الشيوعية تابعة تبعية تامة للكومنترن بحيث يضع (أى الكومنترن) الخطط والتوجيهات وتصبح الأحزاب مجرد هيئات تطبيق ، ولتحقيق هذا

الهدف المزدوج وضع المؤتمر الثانى للكومنترن الواحـــد والعشرين نقطة المشهورة . فقد كانت من ناحية تجذب الجماهير دون القيادات لأنها تنص على استبعاد القيادات الصفراء ، العميلة ، الانتهازيه .. الخ .. ولأنها كانت تتضمن التبعية التامة للكومنترن .

وقد كانت هذه النقاط أولا تسع عشر ، ولكن لما اعترض المندوبان الفرنسيان كاستين وفروسارد على بعض ما جاء بها أضيفت نقطتان تقضى الأولى منهما بأن يعاد تنظيم كل الأحزاب الشيوعية بحيث يكون ثلثا أعضاء مجالس الإدارات من الذين أعترفوا بالكومنترن قبل المؤتمر الثانى ، وتقتضى الثانية فصل كل الذين يعترضون على النقاط الواحد والعشرين .

وفى المانيا كان الحزب الاشتراكى الديمقراطى المستقل هو الفريسة المشتهاه من الشيوعيين التى أريد الاستحواذ عليها عن طريق هـــذه النقط . ففى الانتخابات التى سبقت المؤتمر الثانى للكومنترن أكتسب الحزب قرابة خمسة ملايين صوت فى حين لم يكسب الحزب الشيوعى سوى نصف مليون . وكانت خطة الشيوعيين هى ايقاع التفرقة فى الحزب بحيث تنشق المجموعة الكبرى ، وتنضم للحزب الشيوعى . ولم يكن هذا عسيرا عليهم بحكم تداخلهم المستمر فى الحزب ، وبذلك تمكنوا من أن يقرر الحزب فى مؤتمر ليبزج (١٩١٩) الانضمام إلى الكومنترن . وفى المؤتمر الثانى ذهب وفد من الحزب إلى موسكو لمناقشة الأمر حيث عرضت عليهم الشروط الواحدة والعشرين للانضمام ، والتى كانت جملة وتفصيلا مما لا يمكن للقيادات قبولها .

وعندما نوقش هذا الأمر فى مؤتمر الحزب فى هال فى أكتوبر ١٩٢٠ أرسل الكومنترن رئيسه زينو فيف ، كما قام ليفى بدور كبير لاكتساب أغلبية الأعضاء ..

ووصفت تونى ساندر التى كانت عضوا بالحزب والرشتستاج كيف أن زينوفيف حضر بنفسه ليتأكد من تمزق أفضل حزب ثورى فى ألمانيا، وكيف جاء مختالا مزهوا كأنه « بريمادونا حسنة التغذية ومحاطا بشلة من المعجبين الشبان » ولاحظت ما لم يلاحظه هؤلاء : دخول الزعيم الاشتراكى والمكافح القديم « مارتوف » الذى سجنه القياصرة ثم جاء البلاشفة فاعادوا سجنه ، ونفى أخيرا ، وكان يقضى سنواته الأخيرة ضاويا عليلا يعبث به السل الذى أصيب به فى سجنه .

وتحدث زينوفيف أربع ساعات فى عرض البدائه الشيوعية لدرجة أثارت الغيظ وجعلت تونى ساندر تمنع نفسها بصعوبة من أن تصيح « إننا لسنا موجيك[1] » ثم تحدث عن الثورة السوفيتية وأعدائها دون أن يشير إلى الشروط الواحدة والعشرين المسمومة ..

وقام رودلف هيلفردينج بالرد عليه . ولم يكن هيلفردينج خطيبا فقد كان كاتبا ومنظرا ، ورئيسا لتحرير كبرى الصحف الاشتراكية ولكن كان لديه من الدواعى ما يثيره وما يجعله يفند خلال ثلاث ساعات إدعاءات زينوفيف . وحذر من استخدام الارهاب ومن أن هذه الطريقة ستبعد الحزب عن الجماهير وتخضعه للفساد والديكتاتوريه .

ولكن هذه النبوءه لم تكن لتعنى شيئا وقتئذ . كان لابد أن تمر سنوات وسنوات قبل أن يفصل ليفى من الكومنترن ، ومن الحزب نفسه ، وقبل أن يواجه زينوفيف طابور الأعدام بعد الفصل والمحاكمة ، وقبل أن تصبح الاحزاب الشيوعية أدوات طيعة فى يد ستالين ، أما فى اكتوبر

(١) الفلاحون الروس ، وكان يضرب بهم المثل فى الغفله والفجاجة والجهالة ..

سنة ١٩٢٠ . فقد كانت شخصية زينوفيف ، ولباقة ليفى ، « وصيت » الثورة الباشفية المدوى من القوة بحيث أعمت أغلبية الاعضاء ، فوافقت على النقط المسمومة وكونت مع الحزب الشيوعى الحزب الشيوعى المتحد VKPD [١] ، وتحلل الحزب الاشتراكى الديمقراطى المستقل وفى ٢٤/٩/٢٢ عادت البقية منه إلى الحزب القديم (الحزب اشتراكى الديمقراطى — الأغلبية) وذابت فيه ، وإن رفضت ذلك قلة على رأسها ديبور ، وبهذه الطريقة فقدت فايمار حزبها الموعود والوحيد الذى كان يمكن أن يتوسط ويتصرف طبقا لما تقتضيه الحكمة ، وأصبح ليفى رئيسا لحزب جماهيرى يبلغ ٣٥٠ الفا وحاول أن يسير به بعيدا عن التورطات فى الانقلابات ، ولكن القدر كان يدخر للحزب وليفى غير ذلك . .

ففى يناير سنة ١٩٢١ شهد ليفى ممثلا للشيوعيين الالمان مؤتمر الحزب الاشتراكى الايطالى الذى عقد فى ليفورنو ، وأريد فيه إرغام « سيراتى » زعيم الحزب على تطبيق الشروط الواحدة والعشرين ، ولكن سيراتى لم يؤخذ بإرهاب الكومنترن وأدى هذا إلى تصدع الحزب وانتقد ليفى طريقة تدخل الكومنترن ، وإن وافق عليه من ناحية المبدأ ، وعند عودة راكوسى ، مندوب الكومنترن فى ايطاليا إلى روسيا بطريق المانيا توقف فى برلين حيث عرض موقف ليفى على اللجنه المركزية ، ولما أدانت اللجنة ، بأغلبية ضئيلة ، هذا الموقف . استقال ليفى من اللجنة المركزية وأستقالت معه كلارازتكن وثلاثة اعضاء آخرين ووقع الحزب مرة أخرى فى أيدى « الصقور » التى كانت تناصر سياسة هجومية . خاصة بعد أن اتخذ الكومنترن نفسه هذه السياسة .

---

(١) أسقطت الـ ٧ الأولى من اسم الحزب من أغسطس سنة ١٩٢١ .

وفى مارس سنة ١٩٢١ ظهر بلاكون مساعد زينوفيف وممثل الكومنترن فى برلين حاملا تعليمات إلى الحزب الشيوعى، تلك هى أن هناك حالة ثوريه فى المانيا، وعلى الحزب أن يقبض على السلطة .

وحدث وقتئذ (١٦ مارس) أن أمر اوتو هورسنج حاكم سكسونيا البوليس باحتلال المناجم ردا على مازعم وقوعه من اضرابات وسرقات ، وقدمت هذه الواقعه تعله لبدايه القومة الشيوعية المنشودة ونجحت الوسائل الشيوعية فى حمل عمال المناجم فى مانسفيلد ، والكيماويات فى هال على الثورة المسلحة . ولإستحثاث الحركة أعلن الحزب الشيوعى الاضراب العام فى ٢٤ مارس وسيطر الشيوعيون على مبانى بلديه هامبورج . وفى ليبزج وبقية مدن وسط المانيا وجه الشيوعيون هجومهم نحو المحاكم والبنوك وأقسام البوليس بينما حفر عمال مصانع النتروجين الضخمة فى ليونا الخنادق حول المصانع وتسلحوا بالبنادق والقنابل اليدويه . .

ولكن هذه الجهود رغم ما ظهر فيها من فدائية وبطولة — خاصة تحت قيادة الفوضوى ماكس هولز — كانت جزئية . وحاول الحزب الشيوعى أن يعوض ذلك بأن يدفع المتعطلين لقتال العمال الذين واصلوا العمل . وتخبط الحزب ، وفى ٣١ مارس انهى الاضراب بعد أن قتل مئات من أخلص الشيوعين وقبض على الالوف وخسر الحزب مابين نصف وثلث اعضائه بحيث هبط إلى قرابة خمسين ألفا .

وأصبح الفشل فى عملية مارس March Action — كما اطلق عليها — موضوعا لصراع حزبى وجدل مذهبي . وأرسل ليفى الذى شاهد العملية كمراقب خطاباً شديدا إلى لينين يبرىء نفسه ، وعندما اجتمعت اللجنه المركزية للحزب فى ٧ — ٨ أبريل لمناقشة الأمر إدعت أن الاجراء كان خطوة هامة لكى يكون

الحزب حزبا ثوريا واضطر ليفى ـ لـكى يفند هذا الزعم ، وبعد أن جرد من كل سلطاته ـ أن يكتب رسالة نشرها على الملأ ومزق فيها دعاوى الحزب اشلاء واتهم الحزب والـكومنترن بأرتـكاب « اعظم حركة انقلابية باكونينية فى التاريخ » وان الحزب اساء العمل ، كما أن مندوبى الـكومنترن ـ من نوع بيلا كون ـ لم يكن لهم لا الخبرة ، ولا المـكانة التى تجعلهم نافعين للحزب ، وأعتبرت اللجنه المركزية للحزب هذه المخالفة لقواعد الانضباط الحزبى خيانه للحزب . وفصلته ،وعندما أستأنف أمام الـكومنترن قرار الفصل بدأت محاولات تشويه « المارق renegade » ليفى ونشر رادك مقالا ندد فيه بشخصيه ليفى ، وأدعى أنه انتهازى ، ومثقف متفسخ وأحد بلشفيك الصالونات . وأنه لم يكن أبداً محلا للثقة وترك مكانه كجبان . ورد ليفى فى أغسطس بنشر سلسلة من الخطابات أرسلها رادك إلى بعض اتباعه من أعضاء اللجنه المركزية مثل براندلر ، وثالهيمر وفروبش تثبت أنه كان يسعى لتـكوين « عصبه » خاصة لمعارضته ، وفى المؤتمر الثالث للـكومنترن الذى اجتمع من ٢٢ يونيو إلى ١٢ يوليو عرضت كل من شيعة ليفى واللجنه المركزية دعاواها . وناصر رادك وبخارين وزينوفيف اللجنه المركزية ، بينما ناصرت كلارا زاتـكين ليفى ودافعت عنه . وارتأى لينين وتروتسكى وكامنيف أن التطور العالمى من ناحية والأحوال فى الاتحاد السوفيتى من ناحية أخرى تقتضى النـكوص عن السياسة الهجومية ، والأخذ بالسياسة الدفاعية والتسلل إلى الأحزاب البورجوازيه والنقابات ودعمت قيادة الحزب الشيوعى الألمانى إلى أن تقدر فى المستقبل ظروف العمل مسبقا ، وأن تلحظ المركزية الديمقراطية .

وهكذا اطرح الحزب الشيوعى الألمانى والـكومنترن السياسة الهجومية ، فلما سنحت له للمرة الأخير — فرصة العمل الايجابى تردد حتى ضاعت الفرصة . .

وكانت هذه الفرصة هى احتلال فرنسا لمنطقة الرور ، وماسبق ذلك من تضخم مالى وبطالة ، وماعقبه من اجراءات استفزازية قامت بها السلطات الفرنسية بعد أن أعلن العمال المقاومة السلبية فى منطقة الرور .

كان الجو مهيئا للثورة ، وتصاعدت هذه الحالة النفسية تلقائيا إلى إضراب عام بدأ فى برلين وانتشر منها إلى غيرها من المناطق ، واستهدف اسقاط حكومة كنو التى أصبحت رمزا لكل ما يكرهه الشعب وفى ١٢ أغسطس سقطت الوزارة . .

وفى رأى أحد الكتاب :

« بعد إضراب كاب ، يعد إضراب كنو اعظم إجراء جماهيرى قامت به الطبقة العاملة الألمانية ، على أنه كان هناك فروق أساسية بين إضرابين . ففى مارس سنة ١٩٢٠ — استجابت الطبقة العاملة لنداء نقاباتها وحكومتها معا ، ولكن مثل هذا النداء لم يصدر فى أغسطس سنة ١٩٢٣ لا من النقابات ، ولا من أى حزب من الأحزاب العمالية . لقد كان إضراب كنو اضرابا تلقائيا تاما ، ويمكن لهذا السبب أن يعد فريدا فى تاريخ الحركة العمالية الألمانية . فقد تقلد مندوبو العنابر والزعماء المحليون للعمال زمام المبادأة ، وقادوا الحركة ولم تفطن الاحزاب إلى مايدور إلا بعد أن أصبحت حركة هذه الجماهير واقعة . وكان لهذا نتائج هامة ، فقد استنزفت الحركة واستنفدت كل قوتها بعد أن حققت غرضها — أى استقالة الحكومة — وكان استغلال هذه الحالة الثورية والنجاح هى المهمة المدخرة للأحزاب السياسة[1] » وبالذات الحزب الشيوعى الذى كان قد أخذ ينهض من كبوة مارس ، وأخذت المواقف السياسية العقيمة للحزب الاشتراكى الديمقراطى تدفع العمال دفعا للحزب الشيوعى .

(1) Hammer or Anvil p. 92-93

كان الحزب الشيوعى يدرك ذلك ، ولكنه خلال الفترة الحاسمة من يوليو إلى أغسطس تردد . ولم يستجمع شجاعته ، وتراءى له شبح « عملية مارس » وآثر أن يتلقى التوجيهات من الكومنترن الذى كان بدوره يراقب الحالة ، ويتخلص شيئا من آثار الأحـــداث والسياسات السابقة . كما كان الروس ـ سادة الكومنترن بالطبع ـ يتخوفون من سياسه سترسمان وتقربه إلى الغرب، وأخيرا فقد كان هناك اعتقاد تملك بعض قادة الكومنترن أن ألمانيا ستمر بتجربة « أكتوبرية » تماثل تجربة الاتحاد السوفيتى .

وفى اجتماع سرى عقده « البوليتبرو » الروسى فى ٢٣ أغسطس سنة ١٩٢٣ تقرر أن يتعاون الحزب الشيوعى الروسى والكومنترن والحزب الشيوعى الألمانى للقيام بثورة . وعينت قيادة عليا من خمسة أشخاص تضم رادك ممثل الكومنترن وبياتاكوف وانشليكت Unshlikht (من البوليس السرى) وشميدت وزير العمـــل وكريستنسكى Krestinsky الوزير السوفيتى المفوض فى ألمانيا لتوزيع الأموال اللازمة ، وقرابة آخر الشهر استدعى براندلر للتشاور واستدعيت بعده فيشر وماسلو وتالمان الذين يمثلون المعارضة اليسارية فى الحزب الشيوعى الألمانى واستمرت المداولات بين هؤلاء جميعا حتى انقاد براندلر ـ الذى كان يتخوف المخاطره ـ للحماسة الروسية والتفاؤل الذى جعل زينوفيف يتنبأ بأن ٢٢ مليونا من العمال الألمان سيسهمون فى الثورة المقبلة ، واقترح تروتسكى جعل يوم الثورة ٧ نوفمبر ، وطلب براندلر أن يرسل تروتسكى إلى ألمانيا لقيادة الثورة ، ولكن البوليتبيرو أرسل بياتاكوف .

ووضعت ترتيبات خطة كبرى يغزو فيها الشيوعيون أولا حكومة سكسونيا ذات الاتجاهات الاشتراكيه ، ويفعل الشىء نفسه فى تورنجيا وفى الوقت نفسه تعبأ المئات البلوريتاريه Proliterian hundreds . وهى المليشيا التى دربها

الحزب والخبراء السوفيت ويستشار العمال بحيث يمكن للقومة أن تكون في مجموعها ثورة ناجحه .

وكانت هذه كلها مجرد تهيئوات . .

فأولا : وقبل كل شيء ، أن المد الثورى الذى كان قد تعالى فى يوليو أخذ ينحسر شيئا فشيئا مع نهاية أغسطس بحيث استعادت الحكومة بسلسلة من السياسات الاقتصادية والسياسية زمام المباداه . .

وثانيا : كانت العملية مقسمة ما بين ثلاث جهات هى الحزب الشيوعى الألمانى . والحزب الشيوعى الروسى ، والكومنترن . ولكل واحد من هؤلاء اعتزازه ، ومنطقه ، وتخوفه من الآخرين . .

وقد نجحت بعض اجزاء الخطة ، فعين ثلاثة من الشيوعيين فى حكومة سكسونيا . ولكن الحكومة الاتحادية أمرت الجنرال مولر بالزحف على سكسونيا واعادة النظام إليها وبهذا هزمت الثورة قبل أن تبدأ . .

على أن فشل هذا الجانب من الخطه لم يؤثر على مضى بقية الجوانب التى كانت الاطراف الأخرى فى العملية تقوم بها فالاتحاد السوفيتى كان قد أصدر الأمر إلى عدد من ضباط المخابرات السوفيتية بالسفر إلى ألمانيا ، وعلى رأس هؤلاء و . ج . كريفيتسكى W.G Krivitsky الذى سجل أحداث هذه الفترة فى كتابة « كنت عميلا لستالين » .

ويقول كريفيتسكى أنه وزملاءه عمدوا على الفور إلى العمل، وكونوا ثلاث أنواع من المجموعات من بين أعضاء الحزب الشيوعى هى أولا إدارة مخابرات الحزب التى كانت تحت إدارة القسم الرابع بالجيش الأحمر ثانياً تشكيلات عسكرية تصلح لتكون نواة الجيش الأحمر الألمانى ثالثاً وحدات صغيرة من الرجال مهمتها إفساد معنوية الجيش والبوليس — ووضع على رأس إدارة

مخابرات الحزب هانز كيبنبرجر[1] Hans Kiepenberger الذى استطاع أن يعمل بدأب وصبر ليضع رجاله فى كل الهيئات والمنشآت حتى فى الجيش .

وكان تكوين التشكيلات العسكرية من وحدات كل وحدة من مائة رجل . وضمت كل وحدة الأعضاء الذين حاربوا خلال سنوات ١٤ — ١٨ طبقا لنوعيتهم العسكرية ، وبدأت عملية استخلاص الضباط والفنيين من بين هذه المجموعات كما نظمت وحدة من النساء كممرضات .

واعد الحزب الشيوعى عدته للقيام بالثورة ، وأخذ ينتظر اللحظه الحاسمة ، لحظة صدور الأمر بالثورة ، وكان الذى سيصدر هذا الأمر هو زينوفيف رئيس الكومنترن .

وأخيرا قيل إن الأمر قد صدر ، ووصل تلغراف بذلك إلى اللجنة المركزية ، وأسرع رسل الحزب إلى كل لجنة أو فرع ، واستخرجت البنادق من مخابئها استعدادا لساعة الصفر . .

ولكن قيل إن تلغرافا من « جريشا » ، وهو اسم الشفرة لزينوفيف ، قد وصل وهو يؤجل الثورة . .

ومرة أخرى أسرع الرسل بالأوامر الجديدة والانتظار لميعاد آخر قريب . .

---

(١) وكانت نهايته هى النهاية التقليدية للشيوعى . فى سنة ١٩٢٧ انتخب نائبا فى الرشستاج وعضوا فى لجنة الشئون الحربية ، ولما كان يعتبر نفسه ممثل الكومنترن فى هذه اللجنة ، فقد أمد المخابرات السوفيتية بمعلومات ثمينة . وظل فى ألمانيا الفترة بعد حكم هتلر يواصل العمل السرى للحزب حتى استطاع فى خريف ١٩٣٣ الفرار إلى روسيا ، وفى سنة ١٩٣٦ قبض عليه باعتباره جاسوساً نازيا وطلب منه الاعتراف بأنه كان فى خدمة المخابرات الألمانية . ومع انه رفض إلا أن ستة أشهر من « الاستجواب » جعلته يعترف .. بعد أن ظل يردد « إن مسماراً فى رأسى أعطونى شيئا لأنام » .

ولم تكد أنفاس هؤلاء الرسل تهدأ حتى قيل إن تلغرافا جديدا وقد وصل، ومرة أخرى أسرع الرسل . .

وظلت هذه اللعبة مستمرة — لعدة أسابيع . . تتوالى تلغرافات جريشا . . حتى بدا أن هذه الثورة بالمراسلة لن تبدأ أبدا . .

وأخيرا جدا وصل التلغراف المنتظر ، والذى اعتقد أنه الأخير ولن يكون بعده تأجيل . .

ولكن فى آخر دقيقة . وقبيل الميعاد بفترة قصيرة جدا فوجىء الحزب بتلغراف يؤجل الثورة ، فأرسلت التعليمات على وجه السرعة إلى فروع الحزب. ولكن هذه التعليمات لم تصل إلى فرع هامبورج قبيل الميعاد ، ونتيجة لذلك ثار شيوعيو هامبورج واحتلوا بالليل عددا من مراكز البوليس، ودعوا فى الصباح التالى إلى الاضراب العام ، ولكن بقية عمال هامبورج الذين لم يفهموا السر فى هذا ، ولم يجدوا من بقية عمال المدن الأخرى ما يساعدهم على الفهم أو يشجعهم على التجاوب رفضوا ، فوقف شيوعيو هامبورج وحدهم ، وتعرضوا وحدهم لوطأة الجيش الذى سحق تمردهم بعد ثلاثة أيام من مقاومة عنيفة انتهت باستئصال معظم الشيوعيين ، بينما دخل الجيش بقيادة الجنرال فون سيكت مدينة درسدن واسقط حكومة سكسونيا الاشتراكية ولاقت حكومة تورنجيا المصير نفسه ، كل هذا دون أن يتحرك الشيوعيون الذين التزموا بتلغراف التأجيل . .

كانت قومة أكتوبر هى الفرصة الأخيرة التى سنحت للشيوعيين . . وهو ما يعترف به التحليل الشيوعى نفسه لفترة ما بعد الحرب إذ يجعل من انبعاثة أكتوبر الفاشلة نهاية للمرحلة الأولى التى يرمز لها بالموجه الثورية Revolutionary wave.

وقد كان التطور كريما أمام الشيوعيين ، وأتاح لهم ثلاث فرص سابقة فى يناير ١٩ ، ومارس ١٩ ومارس ٢١ وأضاعوها جميعا بطريقة واحـــدة ، ودون أن يحاولوا الافادة من أخطائهم أو تغيير مواقفهم ، حتى ليمكن القول أنهم أحق من البوربون بما قيل عنهم من أنهم « لا ينسون شيئا ولا يتعلمون شيئا » . . أو ممن قال عنهم القرآن « لا يتوبون . . ولا هم يذكرون » . .

* * *

إن مؤامرة كتاب العسكرية وانبعاثة « جريشا » الشيوعية تصوران أصدق تمثيل الموقف الذى اضطرت الجمهورية الناشئة لأن تقفه بين نارين :

نار العسكريين   من اليمين .

ونار الشيوعيين   من اليسار .

كان الموقف كموقف طارق القديم ما بين البحر والعدو .

وكانت الجمهورية فى حاجة لمثل عزيمة طارق أو مخيلة شوقى لترى فى هذا الموقف . .   اليأس خاف ، والرجاء إمام

الضعف والاحجام فيه اذا هما

قتلا ، فأقتل منهما الأحجام

ولكن لم يكن لدى جمهورية فايمار عزيمة طارق أو مخيلة شوقى . .

وكان لابد أن تحترق فى النهاية . .

الباب الرابع

سنوات التحول

الفصل الخامس عشر

الديمقراطية العزلاء فى معسكر الاعداء

ليس من العسير على من يتابع مجرى الأحداث فى الجمهورية الناشئة أن يرى أن المجموعات الثورية قد استنفدت قوتها خلال السنوات الخمس الأولى للجمهورية فى قومات طائشة لم ترزق التنظيم الدقيق أو التوقيت السليم ، وأنها بذلك خسرت المبادأة وسمحت للمجموعات العسكرية والرأسمالية باستعادة قواها وتنظيم صفوفها بحيث كانت سنة ١٩٢٣ سنة فاصلة ، فقد انطلق التحول الذى كان كامنا فى طبيعة وملابسات الثورة دون أن تقفه أو تكبح جماحه حركات جماهيرية كالتى حدثت حتى ذلك الوقت .

وأخذ هذا التحول عددا من الصور كان ابرزها تقهقر الحزب الاشتراكى الديمقراطى أمام أحزاب الوسط أو الاحزاب الرجعية ، وهيمنة العسكريين على الحياة المدنية ، وانتصار الرأسمالية على الحركة النقابية .

ومتابعة تطورات التشكيل الوزارى تعكس تقهقر الحزب الاشتراكى الديمقراطى ، فحتى فى الانتخابات الأولى وجد الحزب أنه ، وإن نال أكبر عدد من الأصوات، إلا أنه وحده يعجز عن تشكيل الوزارة . وأن عليه أن يدخل فى ائتلاف مع أحزاب لم تكن تؤمن تماما بالجمهورية ، وهى حقيقة ذات مغزى لا يقتصر على المجال السياسى وحده . .

على كل حال ، كان يمكن تقبل هذه الحقيقة ، على ما فيها ، ما ظلت الأغلبية للحزب الاشتراكي. ولكن هذه الأغلبية لم تبق طويلا، ففي الأسبوع الأول من يونيو سنة ١٩٢٠ ، وفي أعقاب مؤامرة كلب التي كان يمكن أن تؤدي إلى تشكيل وزارة عمالية ، فقد الحزب أغلبيته ، ولم يظفر إلا بأقل مما ظفر به من عامين . ورأس الوزارة كونستانتين فهرنباخ من حزب الوسط ، وتلاه (من مايو ٢١ حتى نوفمبر ٢٢) جوزيف ويرث ثم (من نوفمبر ٢٢ حتى أغسطس ٢٣) ولهلم كنو . وفي أغسطس سنة ٢٣ شكل سترسمان الوزارة وتعاقب بعد ذلك على المستشارية ولهلم ماركس . وهانز لوثر . . ولم يستعد الاشتراكيون الديمقراطيون قوتهم ، أو تشكل الوزارة برآسة مستشار منهم الا سنة ١٩٢٨ عندما شكل هرمان مولر وزارته ، وكانت وزارة أشخاص ، وكان وزير الخارجية فيها سترسمان وفي ٢٧ مارس سنة ١٩٣٠ استقالت . . ومن هذا التاريخ وقد فقد الحزب الاشتراكي الديمقراطي ليس فحسب الأغلبية . بل أيضا الوزن الذي يفترض أن يكون لمثل هذا الحزب وأصبح لعبة الأحداث . . . حتى اكتسح النازي النظام بأسره وقضى على جمهورية فايمار .

حقيقة إن علينا عندما نحاسب الحزب الاشتراكي الديمقراطي على ضعفه وتقهقره . أن نضع في هذا الحساب أن قسما من المسئولية لا يعود إلى الحزب نفسه ، ولكن إلى الحرب الضارية التي شنها عليه الشيوعيون الذين جعلوا أنفسهم حلفاء متطوعين للرأسماليين في القضاء على الحزب الاشتراكي واستخدموا في هذا السبيل من الأساليب والتكتيكات الشيوعية ما كان يعجز الرأسماليون عن استخدامها ، ومع أن الحزب الاشتراكي الديمقراطي مسئول — جزئيا — عن هذا أيضا إلا أن قسما كبيرا من المسئولية لا يعود إلى الحزب قدر ما يعود إلى شنآن العداوة والعمى المذهبي الذي أصيب به

الشيوعيون وكانوا هم أنفسهم الضحية التالية له ، بعد الحزب الاشتراكي الديمقراطي .

* * *

وهناك ظاهرة أخرى تكشف عنها هذه التطورات وتظهر لنا نقصا خطيرا لا في سياسة الحزب الاشتراكي الديمقراطي ، ولكن في بنية الجمهورية ونظامها الأساسي ، فقد تأثر واضعو دستورها بالنظام البرلماني في بريطانيا والولايات المتحدة ، ولكنهم نسوا أن هاتين الدولتين تأخذ بنظام الحزبين ، وأن هذا النظام بدوره يعود إلى ملابسات وجذور تاريخية لم تتأت لألمانيا ، ونتيجة لهذا أفسح النظام البرلماني في ألمانيا المجال لظهور عدد من الأحزاب ، لم يكن كبيرا فحسب ، بل إنه أيضا كان يمثل تعارضا في الاتجاهات ، فالأحزاب المحافظة على اختلافها كانت تؤثر الوضع الامبراطوري القديم . والحزب الاشتراكي الديمقراطي يناصر البرلمانية الديمقراطية ، والحزب الشيوعي لا يؤمن إلا بديكتاتورية البلوريتاريا . ولما لم يكن لأي حزب من هذه الأحزاب قدرة على نيل الأغلبية أو تشكيل الوزارة ، فقد كان عليها أن تدخل في ائتلاف . ولكن الخلافات لم تكن تسمح بأن يمضي هذا الائتلاف طويلا . كان الاختلاف أكبر من الائتلاف مما أدى إلى عدم فعالية العمل ثم سقوط الوزارة . . خاصة وأن الأحزاب المعارضة التي تترصد للوزارة كانت تملك — في معظم الحالات — من الأصوات ما لو اجتمعت لكونت الأغلبية وأسقطت الوزارة .

وظهر هذا جليا في تعدد الانتخابات ، وقصر مدد الوزارات بحيث لم يكن من النادر أن تجرى الانتخابات مرتين في السنة الواحدة ، ولم يكن من شأن هذه اللعبة الحزبية استقرار الأمور في أي بلد ، فضلا عن ألمانيا التي كانت تمزقها الخلافات وتهبظها معاهدة فرساي

ومع أن هذه قضية لانزاع فيها ، فلكى نكون عدولا وعارضين لكل الحقيقة ، وليس لجزء منها ، فإن علينا أن نتصور موقف واضعى دستور فايمار فى تلك الأيام المكفهرة من عام ١٩١٩ . عندما كانوا يعكفون على مهمتهم القاسية . . فماذا كان البديل ؟ هل البديل هو مجالس العمال والجنود التى لم تكن مؤهلة للحكم بدليل تنازلها عن صفتها كهيئة حاكمة ، ومناصرتها للنظام البرلمانى . ولو قدر لها البقاء لأصبحت — دون أقل ريب — مطية الشيوعيين ؟ هل يكون البديل الحزب الواحد ؟ إن هذا البديل مرفوض لأنه لم يكن يعنى شيئا إلا الحزب الليلينى المقيت ، والديكتاتورية . . هل كان يتصور تكوين حزبين بالأمر ؟

لقد اعتقد واضعو دستور فايمار أن ليس هناك إلا مخرج واحد هو ما انتهوا إليه ، وبالفعل فلم يكن فى الفقه الدستورى الديمقراطى ما يمكن أن يقدمه غير ذلك . وقد حاولوا علاج هذا النقص بوضع المادة ٤٨ التى كانت تعزز وضع رئيس الجمهورية وتمنحه سلطات تكاد تكون مطلقة فى حالات معينة ولكن هذا حل « اجرائى » . وهو أشبه بعلاج الازمة برفع سعر الخصم أو اتباع سياسة انكماشية . . . وفى كثير من الحالات يكون له أثر عكسى . .

لقد كان الحل الوحيد ، ما دام الحزب الاشتراكى الديمقراطى قد آثر الديمقراطية البرلمانية أن يحكم بالأغلبية ، اعنى أن يحرص على أن تكون له الأغلبية المطلقة التى تمكنه من تشكيل الوزارة دون شركاء . وأن يعمل باستمرار على كسب القاعدة الشعبية ، وبهذا يستطيع إن يحكم بقوة وفعالية دون أن يخشى المعارضة لأنه يظفر بالأغلبية .

وبالطبع فإن هذا ليس سهلا أو هينا . ولكن من قال إن الحكم سهل أو هين ؟ إنه لمقعد الشرف والخطر . . والتعب والدأب ويجب على كل من

يتصدى له أن يضع هذا نصب عينيه ، فإذا لم يكن له أهلا ، فليقعد فى بيته مع القاعدين . .

وكان الحزب الاشتراكى الديمقراطى يستطيع بفضل دفعة الثورة ومدها العالى أن يهتبل الفرصة ليتخذ الاجراءات الحاسمة التى يعزز بها مركزه ، بقدر ما يوهن بها مركز أعدائه ، ولكن سياسته المائعة خلال الشهرين الحاسمين — نوفمبر وديسمبر — كانت كافية لأن تفقده الأغلبية المطلوبة . وأن تقفل الباب فى وجهه من أول انتخاب . .

لقد ظن الاشتراكيون غداة إكتساحهم ١٦٣ مقعدا ، وتفوقهم على أى حزب آخر فى الانتخابات الأولى (٥ يناير ١٩) أنهم انتصروا . . والحقيقة أن هذا كان أول الوهن ، إن عدم ظفرهم بالأغلبية التى تمكنهم وحدهم من تشكيل الوزارة كان هزيمة قضت على كل الآمال . . لأنها كانت تعنى أن هزائم المستقبل ستكون أكبر وافدح ، وهذا ما حدث بالفعل .

وما من شىء كهذا يوضح جريرة التخبط والضعف والتميع . .

فى مقابل تقهقر الحزب الاشتراكى ، وبقدره ، كان تقدم القوى العسكرية التى لم تستشعر شيئا من الخجل بعد موآمرة كاب ، ولم تتعرض لمؤاخذة الحكومة . . .

وكانت هيئة الضباط والقيادة العسكرية العليا لا تزال تعتقد أنها الأمينة على حاضر البلاد ومستقبلها . وأن ألمانيا — كامبراطورية — إنما قامت بفضل السيف البروسى . . وتدعمت بالانتصارات فى المعارك الثلاث الفاصلة واترلو . وسادوا وسيدان . وأن مستقبلها — كماضيها — يجب أن يقوم على السيف ويحمى بالجيش . أما السياسيون . . . فلا يستطيعون البناء والانتصار وإنما

الكلام والانهزام . وكانت شواهد الحال تؤيد ذلك ، فماذا كانت تفعل الحكومة بدونهم ؟

من أجل هـذا انصرفت القيادة العسكرية الألمانية — التي لم تكن قد تحللت — لكي تعمل بكل دقة وضبط في جبهتين الأولى تدعيم الجيش والتغلب على نصوص معاهدة فرساي والثانية الهيمنة على الحياة المدنية والسياسية في الداخل والتخلص ممن سموهم « مجرمي نوفمبر » .

وكان من أغرب الوقائع التي قامت بها القيادة العليا للعمل في الجبهة الأولى تلك الاتصالات والمفاوضات التي بدأتها من سنة ١٩٢٠ مع الاتحاد السوفيتي ، وكانت هذه الاتصالات والمفاوضات على أعلا مستوى وقام بها من جانب السوفيت رادك ، وكراسين وكريستنسكي ومن جانب الألمان فون سيكت القائد العام وفون شليشر ووزير المالية في هذه الفترة جوزيف ويرث ووزير الدفاع جيسلر . وكانت هذه الاتصالات التي تجرى وراء ظهر الاشتراكيين الديمقراطيين ، وتجمع بين العدوين اللدودين تثير الدهشة . فبينما كان رادك يضع سياسة الحزب الشيوعي الألماني ويسهم في انبعاثاته ويصب اللعنات على العسكريين ، وبينما كان فون سيكت والضباط يتعقبون الشيوعيون ويوقعون بهم دون رحمة ، كان هؤلاء أنفسهم — رادك من ناحية وفون سيكت من ناحية أخرى وبقيه أتباعهما يجتمعون ويتفقون من سبتمبر سنة ١٩٢١ على تكوين مؤسسة أطلق عليها الاسم المختصر Gefu تتولى صنع الأسلحة لحساب المنشآت الألمانية برأس مال قدر في نهاية فترة التضخم بقرابة ٧٥ مليون مارك ذهبي . واقامت هذه المؤسسة عددا من المصانع في الأورال وبتروجراد بينما بدأ إنتاج الطائرات في فيلي Fili على مقربة من موسكو لحساب الروس . وكونت شركة روسية ألمانية لإنتاج الغاز السام في تروتسك (بجوار سمارا) وأقام عمالقة الصناعة

الرأسمالية الألمانية : كروب وديملر وريمنتال Rheinmetall . فروعا فى قازان لصنع الدبابات . وكان تبادل الضباط للتدريب يتم بنظام ، فيأتى الضباط الروس إلى ألمانيا ، ويذهب الضباط الألمان إلى روسيا . وقد كان الكولونيل فون بلومبرج وزير الدفاع فى عهد هتلر — أحد الاساتذة الذين تولوا تدريب الضباط الروس ، وفى مقابل هذا كان الطيارون الألمان يتدربون على الطيران الذى حرم عليهم بمقتضى فرساى — فى روسيا . وعندما انتهت خدمة الجنرال فون سيكت الذى تبنى هذه السياسة سنة ١٩٢٦ ، وتكشفت بعض هذه الحقائق ، هاجم شيدمان الجيش والضباط ، ولكن هذا الهجوم كان يمكن أن يضر الحكومة أكثر مما كان يضر الجيش ، ولهذا لم يكن له نتيجة حاسمة . وظلت سياسة سيكت مستمرة — إلى حد ما — فى عهد خليفته الجنرال كورت فون هامرستين اكورد[1] .

وحتى تولى هتلر الحكم ، كانت العلاقات ما بين الجيش الألمانى والجيش الأحمر قائمة . ففى مايو سنة ١٩٣٣ زار وفد من كبار ضباط الألمان الاتحاد السوفيتى . واستقبلهم المارشال فورشيلوف ، وأكد لهم ضرورة بقاء العلاقات بين الجيشين . ولكن هتلر أمر بانهائها .

وكان من الوسائل التى استحدثتها العسكرية الألمانية للهيمنة على الحياة المدنية وبث الرعب فى نفوس السياسيين أسلوب الأغتيال السياسى الذى وجه ضد « مجرمى نوفمبر » وكان يدخل فى هؤلاء دعاة الجمهورية على اختلافهم ، دون أن يقتصر الأمر على الشيوعيين . وبعد أن قضى هذا الاغتيال على زهرة قيادات الشيوعيين اتجه نحو الديمقراطيين مثل ارزبرجر الذى قتل فى أغسطس سنة ١٩٢١ ووالتر راتينو الذى اغتيل فى ٢٤ يونيو سنة ١٩٢٢ وقد قدر أحد

---

(1) Survey No 44 - 45 p. 114 - 132

الكتاب الاغتيالات السياسية التى حدثت ما بين يناير ١٩ ويونيو ١٩٢٢ ، والمسئولين عنها والأحكام التى صدرت على مقترفيها ، مع التفرقة ما بين اليمين واليسار فكانت كالآتى :

الاغتيالات السياسية

عدد الاغتيالات التى قام بها اليمين	عدد الاغتيالات التى قام بها اليسار	
٣٥٤	٢٢	عدد الاغتيالات
٢٤	٣٨	عدد الأشخاص الذين حكم عليهم لهذه الاغتيالات
—	١٠	أحكام بالموت
٢٣	—	قتلة اعترفوا ، وبرئوا
٣	—	« سياسيون نالوا ترقيات فى الجيش
٤ شهور	١٥ سنة	متوسط مدة السجن لكل حالة اغتيال
٢ مارك	—	« الغرامة « « «

وعندما اغتيل راتينو قامت اضرابات عديدة ، واتحدت النقابات والأحزاب الاشتراكية الثلاث وأرسلت نداء طالبت فيه بإصدار قانون لحماية الجمهورية يتضمن العقاب الرادع للمسئولين كما طالبوا :

(ا) بكبت التشكيلات العسكرية التى نظمت الأغتيالات السياسية .

(ب) باجراء تطهير فى الموظفين المدنيين العاملين فى الجيش والمحاكم يخلص هذه الهيئات من العناصر المعادية للجمهورية .

(ج) بإصدار عفو عن المسجونين السياسيين باستثناء الذين تثبت اداتهم بمقتضى القانون الجديد .

والحقيقة أن مثل هذا القانون كان موجودا بالفعل ، ولكن تحيز القضاة جعله معدوم الأثر ، ولم يكن هذا التحيز مجهولا أو طفيفا ، لقد كان معلوما وصارخا فمن بين قتلة ليبكنشت حكم على واحد بثلاثة شهور وحكم على آخر بغرامة زهيدة . وحكم على واحد من قتلة روزا لوكسمبرج بالسجن سنتين وسمح للباقين بالفرار ، ولم يحاكم قتلة جوجيتش ودورنباخ رغم التعرف عليهم وحكم على الضابط مارلو الذى أمر باطلاق النار على ثمانية وعشرين بحارا بثلاثة شهور من تحديد الإقامة ، وفر معظم المشتركين فى موآمرة كاب .

ولكن لم يستطع أحد أن يفعل شيئا لإصلاح النظام القضائى حتى عندما امتدت يد الاغتيال إلى شخصيات عامة ومسئولة من غير الاشتراكين مثل راتينو وازربنجر كانت كل جرائمهم أنهم اشتركوا فى الحكم أو توقيع معاهدة فرساى . الأمر الذى دفع المستشار ويرث زعيم الحزب الكاثوليكى لأن يقول فى الرشستاج « إن العدو يقف فى اليمين » .

وقد يصور زحف القوى العسكرية على الجمهورية ، مؤيدين بتعاطف القضاة ما حدث فى بفاريا . . .

فبعد ثورات بافاريا الاشتراكية التى قمعت بارهاب أبيض غشيم ، أصبحت بافاريا مأوى لكل المتآمرين ، وهرع إليها عدد كبير من الروس البيض الفارين من السوفيت . وعدد آخر من ألمان البلطيق الذين كانوا قد حاربوا الاتحاد السوفيتى . بينما كان أنصار الأسرة المالكة يعيشون فى سلام ويمدون المتآمرين بالمال . وقيل إن زوجة البرنس كيريك ــ كوبرج المطالب بالعرش الروسى ــ وهى ألمانية ــ وضعت مبلغا كبيرا من المال فى يدى لودندورف

ما بين عام ٢٢ و ٢٤ لتمويل الحركات الألمانية اليمينية . بينما كان الضابط الألماني ماكسى ايروين فوق شوبنر – ريشتر يضم الجماعات المتعددة والمتمادية للروس البيض ويحاول أن يوحد جبهتهم .

وبينما كانت فرقة اهرهاردت Ehrh: rdt تحتل برلين أيام موآمرة كاب ثار عدد من الضباط فى بافاريا بزعامة الجنرال فون موهل وارغموا وزارة هوفمان الاشتراكية على الاستقالة وأثار ذلك الحكومة المركزية فأحالت الجنرال فون اب قائد الجيش فى بفاريا على الاستيداع وأحلت محله فون لوسو ، وعينت فون كاهر حاكما عاما .

وفى هذا الوقت كان شاويش بإحدى الفرق المرابطة فى ميونيخ (بافاريا) يستكشف ، بأمر روسائه ، أمر مجموعة سياسية مغمورة وقادته هذه المهمة لأن يسيطر على هذه المجموعة ، ويجعل منها حزبا ناهضا . وكان هذا الشاويش هو أدولف هتلر وقد استطاع أن يكسب تأييد لودندورف وعدد من الضباط بما فيهم رئيسه المباشر الكابتن روهم رئيس القسم السياسى بالجيش وشيئا فشيئا استطاع أن يكون فرق العاصفة وأصبح عددها بضعة ألوف .

ووضع هتلر خطة لانقلاب يسيطر به على الحكم ، وكانت هذه الخطة تقضى بأن تحاصر فرقه المسلحة مشرب بيرة كان فون كاهر سيخطب فيها فى مساء ٨ سبتمبر ١٩٢٣ ، بينما يدخل هتلر ويعلن الثورة ويدعو فون كاهر وفون لوسو وفون سيزر (قائد البوليس) للتشاور معه . وتم هذا تقريبا ، واستطاع هتلر أن يسيطر على القاعة وأن يأخذ الثلاثة الكبار أسرى فى غرفة جانبية وهناك ذكر لهم أنه كون حكومة جديدة بالاتفاق مع لودندورف — وعرض عليهم الاشتراك معه ووافق هؤلاء بعد أن قال لهم هتلر إن فى مسدسه أربع رصاصات رصاصة لكل واحد منهم والرابعة له . وهرع هتلر إلى الخارج وأعلن أنه كون

الحكومة بالاشتراك مع المسئولين الثلاثة ، وضجت القاعة بالتصفيق خاصة بعد أن جاء لودندورف وظهر الجميع أمامهم .

واستطاع فون كاهر وفون لوسو الانصراف حيث كانت قواتهم وحيث تبينوا خطأهم . وعند الصباح تقابلت القوتان : قوة هتلر . وقوة الحكومة ، ولم تجد هذه الأخيرة صعوبة فى تفريق القوة الثائرة . والقبض على هتلر . بينما ترك لودندورف ينصرف دون أن يتعرض له أحد وتبددت قومة مشرب البيرة .

وعندما علمت برلين بنبأ هذه المحاولة استدعى ايبرت رئيس الجمهورية الجنرال فون سيكت القائد العام وسأله « أخبرنى أيها الجنرال من ذا يطيع الجيش .. الحكومة أو المتآمرين » فرد هذا ببرود « إن الجيش يطيعنى ياسيدى الرئيس » .

وحوكم هتلر وحكم عليه بالسجن خمس سنوات فى احدى القلاع حيث وضع كتابه .. كفاحى وأهداه « للذين سقطوا ضحية الحركة » .

* * *

وفى فبراير سنة ١٩٢٥ مات ايبرت .

ومع أن ايبرت لم يكن فى مستهل حياته جمهوريا متحمسا . وأنه تجهم لشيدمان عندما أعلن هذا الجمهورية دون مراعاة للرسميات أو الشكليات ، فإنه كان أكثر من أى شخص آخر ، يجسد جمهورية فايمار ، ولم يكن هلكه — على حد قول الشاعر :

هلك واحد . . .

ولكنه بنيان قوم تهدما

وحمل معه إلى قبره الجمهورية التى رأسها ، فمع أنها ظلت بعد وفاته سبع

سنوات إلا أنها كانت سنوات النهاية والاحتضار ولم يكن هذا حقيقيا من ناحية اختفاء الرجل الذى عاصر الجمهورية وأخلص لها وتفانى فيها ، وكان — رغم كل ماقيل فيه — الذى جمع المعسكرات المختلفة حوله ، ولكنه كان حقيقيا من ناحية أن اختفاءه أظهر شخصا بعيدا كل البعد عن الميول الديمقراطية . شخصا كان ينظر إلى القيصر باعتباره « صاحب الجلالة سيدى ومولاى » وطلبت معاهدة فرساى تسليمه باعتباره مجرم حرب ، وأديت وراء ظهره أو باسمه كل الأدوار التى دعمت القوى العسكرية ، بقدر ما أوهنت الجمهورية الاشتراكية . بحيث يمكن القول دون مبالغة أن وفاة أيبرت وتولى هندنبرج كان يمثل نهاية سنوات التحول التى جاذبت الجمهورية .. وبداية مرحلة النهاية والتصفية .

لقد دفع ايبرت غاليا ثمن الموقف الذى اختاره ، من أعصابه ، ومن صحته ، ومن كرامته الشخصية ، وتعرض فى أول توليه لمنصبه ، وقرابة نهاية مدته ، ومابين هاتين لسلسلة من المآزق والمتاعب ، ففى مستهل عهده كانت مشكلة تحديد المسار الشائكة وماتطلبته من تصفية لليسار الشيوعى وفكرة مجالس العمال والجنود ثم كانت فى الحقبة الأخيرة مآزق وضرورات معاهدة فرساى القاسية . وخلال هذه الفترة كلها شنت صحف اليمين ، بعد صحف اليسار — حملة شعواء عليه ولم تخالجها رحمة أو تقدير للملابسات الصعبة التى وضع فيها الرجل ، وأنه فى النهاية آثر العجز على الفجور ، وأنه كان أقرب إلى اليمين منه إلى اليسار ، وكان مستحقا لتقديرها لالتنديدها ، رغم هذا فإن هوى النفوس وغلبة الأثرة نغصت عليه حياته ، فأخذت الصحف اليمينية تنبش أيامه الأولى عندما كان صبى سروجى ، أو صاحب قهوة . وفى سنة ١٩٢٢ عندما كان يزور ميونيخ زيارة رسمية اقتحم شخص يدعى جانسر Gansser الجموع وصاح فى وجهه « خائن » واضطر ايبرت لرفع قضية قذف عليه ، وشاهد الشعب رئيسه

وهو يطالب فى محكمة بافاريا ـ باظهار الأدلة على وطنيته . ومع أن الحكم قد صدر فى جانبه، فإنه تضمن أن الرئيس ـ من الناحية الفنية ـ كان خائنا للملكية عندما دعا إلى الاضراب العام يوم ٩ نوفمبر . ولم تكن هذه إلا حالة واحدة من حالات عديدة وصلت إلى ١٥٠ حالة . ولم يظهر القضاة الاحترام الواجب لرئيس الدولة ، ولا التقدير الشامل للموقف، وسمحوا للاعتبارات الضيقة والفنية أن تقودهم ، فوطنية ايبرت لم تكن أبدا محل شك . وإذا كان هناك نقد . فهو لاجتهاداته ويفترض أن يأتى من اليسار لا من اليمين ، فإن ايبرت هو أكبر مسئول عن الاتجاه اليمينى الذى أخذته الثورة ، وقد يكون هذا خطأ ، ولكنه لا يكون كذلك من وجهة نظر اليمين .

وقد كان من الدناءة التى قلما تخاص منها الصحافة البورجوازية أن تتحدث هذه الصحف عن ماضيه وعصاميته بفكرة النيل منه أو تشويه سمعته وأن تضطره للوقوف أمام المحاكم لإثبات وطنيته . ومن الناحية الموضوعية ، فإن هذا كله يشرف ايبرت ويدل على عدالته ، كما كان يمكن أن يشرف القضاء ويؤكد « أن فى برلين قضاة » لولا الهوى واستغلال الشكليات والنصوص .

* * *

حقيقة إن ايبرت ـ كما قلنا ـ هو المسئول الأول عن كبح الثورة أن تبلغ المدى الواجب . والسماح لقوى الملاك والرأسمالية بالبقاء ، ثم استعادة قواهم ومراكزهم .

وكان هذا خطأ لاشك فيه .

ولكن الثورة بالمعنى اللينينى ـ وديكتاتورية البلوريتاريا المزعومة . التى كان يطالب بها الشيوعيون .. كانت أيضا خطأ .

وقد رماه الشيوعيون بالصغار لأنه لم يكن لديه القوة والعرامة التى يفرض

بها على ألمانيا الثورة التى فرضها لينين على روسيا .

ولكنه لو فعل ذلك لما كان ذلك شجاعة ، وإنما تقليدا عقيما لنظام سيء بطبيعته وغير مطلوب لألمانيا بالذات .

كان المطلوب تغييرا حاسما . ولكن دون تلك الحماقات والمنكرات التى وصمت الثورة السوفيتية .

وكان ذلك يتطلب قائدا يتوفر له الخيال والشجاعة .

ولم تتوفر هذه الصفات فى ايبرت فغلبت عليه قوى الحفاظ التى كانت كامنة فيه .

وعزز اتجاهه هذا ، وجعله يصرعليه، سرف الشيوعيين فى ألمانيا وجرائمهم فى روسيا .

وقد حلل الكاتب والمفكر الاشتراكى هيلفردينج ـ وهو أحد زعماء الحزب الاشتراكى الديمقراطى المستقل وقتئذ الموقف وشخصية ايبرت فى حديثه مع جوليوس بروننتال .

« فى الثورة الفرنسية والروسية كان هناك إرادة ثورية متوهجة اكتسحت البلاد كالحريق المستعر ، وكان هناك رجال تملكتهم إرادة تغيير العالم ، ولكن الايبرتيين والشيدمانيين لدينا لا يريدون تغيير العالم ، وكل مايريدونه هو الحكومة البرلمانية .

إن أسوأ الحظوظ قاطبة أن يواجه مثل هؤلاء الرجال الصغار ـ مثل هذه الفرصة الكبيرة .. خذ مثلا ايبرت وشيدمان وأمثالهما .. أنا لا أقول إنهم خانوا الثورة عمدا . إن هذا يستحيل لأنهم لم يكونوا ثوريين أبدا . ولهذا فإنهم لم يشعروا بأى ولاء نحو الثورة . لقد كانوا منظمين بارعين ودعاة فى وقتهم ، ولكنهم ، ببساطة لم يفهموا الحاجة التى يتطلبها اليوم . إنهم مجردون

من الخيال كلية . إنهم البورجوازية الصغيرة التي تريد قبل كل شيء النظام . وبعد كل هذا فقد أفسدهم المديح والاطراء الذى تلقوه من الطبقات المالية وأرادوا أن يرضوها .. فما هى الفكرة فى أن يترك هندنبرج فى القيادة لقد سعد إيبرت بأن يتقدم إليه هذا الشخص المهول — الماريشال .. والآن فإن الجنرالات والمصرفيين ورجال الصناعة يتملقون الهر إيبرت ... وإيبرت سعيد ويرى من واجبه أن يوافق ما بين الثورة والجنرالات ورجال الصناعة[1] » .

إن النقد سهل دائماً ، خاصة إذا كان الناقد بعيداً عن مسرح الأحداث أو ثقل المسئولية أو حميا المعركة ، ولم يكن هيلفردينج يعلم وهو ينقد أيبرت أنه هو نفسه سيصبح بعد أقل من عشر سنوات إصلاحياً أكثر من أيبرت ، وأن مدرسة مانشستر ستجعله أقرب إليها أكثر من أى مدرسة اشتراكية ، وأنه سيناصر ضغط الميزانية وتخفيض مزايا البطالة .. الخ .

وهذا لاينفى أن نقد هيلفردينج حقيقى — ولكن يجب أن يوضع فى الحسبان أمران :

الأول : أن إرادة التغيير التى كانت تنقص إيبرت يجب أن لاتفسر بأنها الثورة اللنينية — كما يروق للشيوعيين أن يتصوروا ذلك — فالحزب الاشتراكى المستقل قد اصطلى بالشيوعيين وذاق من نحسهم ما أودى به فى النهاية ، وقد كان هيلفردينج نفسه هو الذى قاوم الانضمام الذليل إلى الدولية — كما عرضنا . إن التغيير الذى كان يريده هيلفردينج وكل المنصفين كان هو التغيير الاشتراكى وليس التغيير اللينينى وكان يمكن اقتلاع العسكريين وكبار الملاك والرأسماليين بقدر محدود من العمل وإراقة الدماء بفضل المد الثورى والتحلل العسكرى .

---

(1) In Search of The Millennium p. 242.

والثانى : موقف الحلفاء المتعنت من المانيا وعدواتهم المريرة للاتحاد السوفييتى وضيقهم بالشيوعيين . ومن هنا فقد كان واجبا على ايبرت أن يتحرك بكل حكمة وبصورة لا تثير شكوك الحلفاء .

وهذه الاعتبارات وإن لم تكن تبرىء ايبرت إلا أنها توضح الصعوبة التى تجابه رجل الدولة عند تحديد موقفه ، وكيف أن عليه أن يحاور ويداور ، وأن يسير بين المتناقضات التى تملأ طريقه كما لو كان يسير فى حقل ألغام أو أن يعبر الطريق إلى غايته كالبهلوان على سلك أدق من الشعرة وأحد من السيف ، أو أن يبدع طريقا آخر جديدا بفضل سعة الأفق وقوة المخيلة ، طريقا يستبعد اليسار السوفييتى واليمين الرجعى على سواء .

ولم يستطيع ايبرت استكشاف هـــذا الطريق ، كما لم يستطع أحد آخر أستكشافه وقتئذ ، وكان لابد من حرب عالمية ثالثة ومخاض دموى جديد حتى يستكشف هذا الطريق الثالث .

الفصل السادس عشر

الحــــــركة النقابية تدفع الثمن

أين كانت النقابات التى تعبيء جمهرة العمال وتدير حركة العمل والإنتاج خلال هذا الصراع الدامى الحافل بالأحداث الجسام ؟

لئن كان الحزب الاشتراكى الديمقراطى يمينيا بعض الشيء ، فقد كانت النقابات على يمين الحزب ، وعندما أعلنت الحكومة الحرب ، بادر الزعيم النقابى « ليجين » فأعلن تأييده للحكومة والقيصر ، وعندما عارض ليبكنشت وبعض النواب الاشتراكيين ، اعتمادات الحرب فى الرشستاج طالب ليجين بفصلهم وحدث هذا فعلا بعد مدة .

ولما تدهور الموقف العسكرى كان مندبو العنابر ، وليس القادة النقابيين ، هم الذين قاموا بالاضرابات ، التى كانت النذر الأولى للثورة وعند اشتعلت بالفعل كان البحارة والعمال هم جنودها الأوفياء ، وكونوا مجالس العمال والجنود التى ضاقت بها النقابات قدر ماضاق بها الحزب الاشتراكى الديمقراطى . وبعد أن هدأت ثورة الحماس ، ولانعدام الخبرة التنظيمية والتأهيل الفكرى فى مجالس العمال والجنود استطاعت النقابات والحزب الهيمنة على الموقف والعودة إلى الخط الذى كان الحزب ينادى به قبل الحرب .

الحقيقة أن الثورة وضعت النقابات - كما وضعت مجالس الجنود فى مأزق -

وكانت محطاً لاختبار قدراتهم ، فهل النقابات على استعداد لادارة الصناعة؟ وهل الجنود على استعداد للهيمنه على الجيش ؟ أثبتت التجربة أن النقابات ومجالس الجنود أيضا لم يكن لديها هذا الاستعداد،أو حتى الرغبة وأن استعدادها ورغبتها إنما كان يدور حول محور العدالة .. وليس الحكم .. رغم وجود قلة سينديكالية اقترحت إحلال مجالس العمال محل النقابات والأحزاب الاشتراكية معا ، على أساس أن النقابات تعنى بالعمل المهنى وحده ، وأن الأحزاب تعنى بالعمل السياسى البرلمانى . وأن أى كفاح ثورى تتوفر له الطبيعة المهنية والسياسية لا يمكن أن ينبع إلا من الجماهير نفسها والأجهزة التى توجدها هذه الجماهير لتحقيق هذا الغرض المزدوج.

وفى الأيام الأولى للثورة أصدرت وزارة القومسيرين عدداً من القوانين دعمت بها الحركة النقابية وأرغمت أصحاب الأعمال المذعورين على أن يقابلوا العمال فى منتصف الطريق. ورحب أصحاب الأعمال بذلك ووضعوا أيديهم فى يد النقابات ، لاحباً فى النقابات ، ولكن حربا للجناح الشيوعى ومجالس العمال ولأن هذا الموقف كان كرما من الحكومة لم يحلم به أصحاب الأعمال بعد أن أصبحوا قاب قوسين من الاعدام والمصادرة .

ونتيجة لهذا عقدت النقابات مع أصحاب الأعمال ماسمى باتفاقية نوفمبر ، وتعهد أصحاب الأعمال بمقتضاها بعدم الاعتراف بنقابات المنشآت . كما وافقوا أيضا على :

(ا) إعادة كل العمال المسرحين إلى عملهم .

(ب) ضبط كل ظروف وشروط العمل عن طريق المفاوضة الجماعية التى تتضمن نصوصا عن التحكيم فى حالة الخلاف .

(ج) جعل الحد الأقصى لساعات العمل ثمانى ساعات .

(د) تشكيل لجنة برآسة مندوب نقابى فى المحال التى بها خمسون عاملا فأكثر.

(هـ) تكوين لجنة قومية من عدد متماثل من العمال وأصحاب الأعمال لحل كل المشكلات الصناعية.

وفى ٢٣ نوفمبر سنة ١٨ أصدرت الحكومة عددا من المراسيم تجعل ساعات العمل ثمانية وبأن يكون للاتفاقيات الجماعية التحريرية قوة الالزام القانونى وفى بعض الحالات التطبيق على كل الصناعة. وأن تكون قرارات مجالس التحكيم ملزمة للطرفين.

وفى ١١ فبراير سنة ٢٠ صدر قانون حدد حقوق وواجبات مجالس العنابر Works Councils وبمقتضى هذا القانون تنتخب فى كل المنشآت والمحال التى يعمل بها أكثر من خمسين عاملا مجالس عنابر تكون مهمتها الاشتراك مع أصحاب الأعمال فى وضع لوائح العمل، وملاحظة تطبيق الاتفاقيات الجماعية واشتراطات الأمن الصناعى.. الخ ولها حق محدود فى الاعتراض على فصل أحد العمال ومقاضاة أصحاب الأعمال لاعادتهم أو لنيل التعويض. ولا يمكن فصل قيادات هذه المجالس.

ورأت النقابات أن مجالس العنابر يمكن أن تكون الخطوه الأولى والقاعدية فى تحقيق الديمقراطية الصناعية التى كانت الهدف الأسمى للنقابات الألمانية قدر ما كانت الديمقراطية البرلمانية الهدف الأسمى للحزب الاشتراكى الديمقراطى. وأن مالا يمكن أن تؤديه المجالس مباشرة سيقوم به المجلس القومى الاقتصادى الذى أصرت النقابات على أن يدمج النص عليه فى صلب الدستور وكان لها ماأرادت بمقتضى المادة ١٦٥ من دستور فايمار.

وكان تأميم بعض الصناعات من المطالب النقابية التى وافقت عليها حكومة القوميسرين السته — وفى مارس سنة ١٩ أجازت الجمعية الوطنية قانونا يمنح

الحكومة سلطة تأميم كل الصناعات التى تكون مهيئة للتأميم وبوجه خاص الصناعات الاستخراجيه كما صدر قانون وضع صناعة الفحم تحت رقابة المجلس القومى للفحم الذى كون وقتئذ وضم ممثلين للنقابات وأصحاب الأعمال والمستهلكين والجمعيات التعاونية والدولة، كما كونت لجنة تأميم أو تشريك Socialisation Commission لدراسة التفاصيل ولكنها تحللت بعد شهر من انعقادها لعدم تمكن أعضائها من الوصول إلى قرار متفق عليه .

وبعد دحر مؤامرة كاب كان من المطالب التى قدمتها لجنة الاضراب تأميم بعض الصناعات ، وكونت لجنة ثانية . واحتدم النزاع بين فريق العمال وأصحاب الأعمال. وفى نوفمبر سنة ١٩٢٠ نشرت اللجنة مذكرة باسم مذكرة إسن Essen Memomorandem عن تأميم صناعة الفحم موضحة وجهة نظر أصحاب الأعمال وحدهم إذ رفض العمال التوقيع وكان فى هذا نهاية المحاولة الثانية.

وفى ديسمبر سنة ٢١ طالب عمال السكك الحديد زيادة فى الأجور ولكن الحكومة رفضت فأضرب العمال. وحاولت القيادات النقابية التدخل ولكنها لم تظفر برضاء العمال وفى الوقت نفسه أضرب عمال الغاز والصناعات الكهربائية فاستنجدت الحكومة بفرق الطوارىء الفنية Teno التى تكونت خلال الثورة للقيام بالخدمات عند الطوارىء ، وكانت ذات إتجاهات رجعية ويتكون معظمها من الطلبة والضباط والجنود المسرحين والمهندسين وتشبه منظمات « البنكرتون » الأمريكية التى تخصصت فى تحطيم الاضرابات .

وأدان المؤتمر الحادى عشر للنقابات الذى عقد فى ليبزج فى يونيو سنة ١٩٢٢ استخدام فرق الطوارىء الفنية ، وندد بتحولها إلى منظمة لتحطيم الاضرابات واحتج على استخدام الأموال العامة لإعانة هذه الهيئات وأعلن أن أى اتصال بها لايتمشى مع العضوية النقابية .

وتعلل أصحاب الأعمال بالتضخم الذى أخذ شكلا حادا فى أواخر عام ١٩٢٢ لاستئناف هجومهم على القوانين الاجتماعية التى أصدرتها الثورة فى أيامها الأولى فوجه ستينس عميد أصحاب الأعمال وقتئذ خطابا مفتوحا إلى المستشار ويرث يقول فيه « أن خلاص ألمانيا الوحيد إنما هو فى العودة إلى يوم عمل العشر ساعات » وبعد ذلك بأسبوعين فى الذكرى الرابعة للثورة ألقى ستينس خطابا فى المجلس الاقتصادى القومى جاء فيه :

« لست أتردد فى القول أننى مقتنع بأن على الشعب الألمانى أن يعمل ساعتين إضافيتين فى اليوم خلال العشر أو الخمس عشرة سنة القادمة فالشرط الأول لكل تثبيت ناجح هو — فى رأيى — استبعاد الاضرابات ومنازعات الأجور لمدة طويلة ويجب أن تكون لدينا الشجاعة لنقول للشعب فى الوقت الحاضر ، ولبعض الوقت الآتى ، عليك أن تعمل عملا إضافيا . . دون أن تأخذ أجراً إضافياً » .

وعرضت الهيئة الأهلية للصناعيين الألمان على الدولة فترة التضخم قرضا بشرط أن تصبح السكك الحديدة وكل المنشآت المؤممة ملكا خاصا . وقاومت النقابات هــذه المحاولة للابتزاز ونجحت فى الحيلوله دون عقد الصفقة . .

وفى الوقت الذى كان أصحاب الأعمال يحملون الاحتلال الفرنسى لمنطقة الرور كل أوزار التضخم وسوء الحاله الاقتصاديه ، فإنهم فى حقيقة الحال كانوا يرحبون به ويعمقونه ، لأنه يقدم لهم فرصة للتستر وراءه ولتحويل غضب الجماهير عليهم إليه ، ولطمس الحقائق بحيث تعجز الطبقة العامله عن تحديد المسوؤل عن مشقاتهم وهل هو ستينس ممثل الرأسماليين الألمان أو بوانكارية داعية الاحتلال الفرنسى . والحقيقة انهما كانا مسئولين معا ، وان جرم الصناعيين لم يكن ليقل عن جرم المحتلين . فقد استغل هؤلاء الاحتلال الفرنسى للمنطقة

فبدأوا التفاوض مع سلطات الجيش الفرنسى لاكتساب تأييدها ففى ٥ اكتوبر سنة ٢٣ اجتمعت لجنة تضم ستة من كبار رجال الصناعه فى منطقة الروهر. منهم ستينس وفوجل بالجنرال ديجوت Degoutte قائد قوات الاحتلال وقالت أن رجال الصناعة فى منطقة الرور ووستفاليا قرروا العودة إلى وقت عمل ما قبل الحرب ابتداء من الإثنين المقبل ولكنهم لا يستطيعون تحقيق ذلك دون تأييد قوات الحلفاء ولكن استمداء قوات الاحتلال الفرنسية على العمال فشلت . لأن قائد قوات الاحتلال الفرنسية رأى أنه لا يستطيع انتهاك القانون الألمانى .

ولم يثن هذا الرد الرأسماليين ، فبعد هذا الإجتماع بيومين أرسل ستينس إلى سترسمان خطابا تضمن عددا من المطالب والتعويضات منها تأييد الحكومة فى اطالة ساعات العمل فى المناطق المحتله وغيرها . والغاء القوانين التى تحمى العمال من الفصل وتلزم أصحاب الأعمال باعادة المسرحين من العمال إلى وظائفهم .

وعندما علم فحوى هذا الخطاب واجتماع الصناعيين بالجنرال ديجوت اجتاحت موجه من الاستياء الشعب . فسارت مظاهرات عديدة . وندد النائب الديمقراطى اركلانز Erkalans باجتماع الصناعيين بالجنرال دجوت ووصف بأنه « واحد من أكبر الأحداث المشينه فى التاريخ الألمانى الحديث » ونشرت جريدة فوروارت لسان حال الحزب الاشتراكى الديمقراطى مقالا جاء فيه « لقد حاول ستينس بمساعده الحراب الفرنسية أن يخضع العمال لديكتاتورية الاستغلال الصناعى » ورأت هيئات أخرى عديدة أن هذا التصرف يقارب الخيانه . وقدم الحزب الشيوعى فى الرشستاج اقتراحا بمحاكمة الصناعيين السته بتهمة الخيانة العظمى .

ولكن لم يكن لكل هذه الاجراءات من أثر عملى ، على العكس ، لقد

رد سترسمان على خطاب ستينس واعدا باجابة عدد من مطالب الصناعيين ، بما فى ذلك دفع تعويضات جسيمة عن الخسائر التى أصابتهم خلال المقاومة السلبية. ولم يعلم زملاء سترسمان فى الوزارة بهذا الوعد ، ولم يعرف إلا بعد خمسة عشر شهرا أن الحكومة قدمت إلى الصناعيين مبلغ ٧١٥ مليون مارك ذهبي كتعويض عن الخسائر ونال ستينس وحده مائة مليون مارك .

ولم تشبع هذه المبالغ الرأسماليين بل يبدو انها فتحت شهيتهم وشجعتهم . ففى ٣٠ سبتمبر سنة ٢٣ عقد أصحاب مناجم الفحم اجتماعا فى يونا Unna واتخذوا قرارا بزيادة ساعات عمل الذين يعملون داخل المناجم من سبع إلى ثمان ساعات ونصف ، والذين يعملون خارجها من ثمان إلى عشر أو اثني عشر ساعه. وحاولت النقابات أن تعارض هذا القرار . ولكنها لم تستطع ذلك فترة التضخم والمقاومه السلبيه . وعندما ثبت المارك اخيرا عرض أصحاب الأعمال حدودا بخسة للأجور رفضتها النقابات فأخذ أصحاب الأعمال فى تكوين نقابات صورية. وكان هذا خرقا صريحا لاحد بنود اتفاقية نوفمبر بحيث أعلنت النقابات فى يناير سنة ١٩٢٤ انسحابها منها .

وكان يمكن أن يكسب هذا الانسحاب النقابات حرية العمل ، ولكن النقابات كانت قد فقدت الكثير من قوتها وحماستها ، ثم جاء التضخم فأودى بشكل سياستها ، فلم تفد شيئا من حرية العمل ، وواصل الرأسماليون انتصاراتهم فصدر مرسوم فى ٢١ ديسمبر ٢٣ يعطى أصحاب الأعمال اعفاءات عديدة من يوم عمل الثمان ساعات ، كما أزيلت كل القيود على حرية أصحاب الأعمال فى فصل العمال أو اغلاق المنشآت . وهبطت هبوطا كبيرا مستويات الأجور .

* * *

كان السبب الرئيسى فى وهن النقابات هو سياستها الضيقه وأفقها المحدود الذى جعلها لا تعمل إلا للحاضر، ولا تنظر إلا للمصالح المباشرة. وكان يمكن لهذه السياسة — على خطئها — أن تستمر ماظلت الأمور تسير تسيرا عاديا، وان لم تكن هذه السياسة نفسها لتساعد على سير الأمور سيرا عاديا حتى فى الدول الأخرى التى لم تكن تتعرض لظروف استثنائية مثل المانيا فما بالك بألمانيا ..

وعندما ظهر التضخم، كشف عن هذا النقص، ووضع النقابات فى مأزق، فلم يكن ثمة مخرج من هذا المشكل القومى إلا بالمعالجة على المستوى القومى وليس على المستوى المهنى، بمعنى معالجته باعتباره مشكلة اقتصادية تعود إلى النظام ويعانى منها كل الشعب وليست مشكلة مهنية تعنى العمال فحسب. ولكن هذا المنهج كان غريبا على الحركة النقابية الألمانية المتأثرة بتقاليدها الفنيه.

وحقا إن النقابات أساسا هيئات مهنيه. وان وسائلها المقررة وسائل مهنيه وفنيه، ولكن هذا لايعنى ابدا انعزال النقابات عن مجرى الأحداث وتجاهلها للمتطلبات المتغيره خاصة عندما تبلغ النقابات حجما معينا يمكنها من التأثير على مجرى الأحداث وكما أن الانغماس فى العمل السياسى أو التبعية التامه لحزب أمر يخالف طبيعة العمل والتكوين النقابى فإن ملاحظة المرونه والتكيف مع الأوضاع وانتهاج الوسائل التى تتطابق مع المشكلات أمر لا يمكن لأى حركة نقابية حيه وواعيه ان تتجاهله. وقد كان يجب على الحركة النقابية عندما كان الجو مواتيا للعمل القومى — السياسى، بل عندما كان — يتطلبه — أن تنوم به وتكون على مستواه. وقد تهيأت لها الفرص غداة نجاحها فى دحر قومه كاب، وعندما أخذ اضراب العمال ضد سياسة كنو شكل الاضراب العام الناجح الذى أدى إلى سقوط الوزارة، وليس هاتان إلا فرصتين من فرص عديدة سنحت للنقابات منذ أن بدأت الثورة — ولكن النقابات لم تنتهز هذه الفرص

وتركتها تفلت من يدها فسارت من ضعف إلى ضعف . ومن تحلل إلى تحلل . وفقدت شيئا فشيئا ثقة العمال ، فكان عجز النقابات يشبه تماما عجز الحزب الاشتراكى الديمقراطى الذى كان دائما يؤثر السلامه ، ويعزف عن الدخول فى تجربه ومعركة ، حتى وان تطلبت الاوضاع ذلك .

والواقع أن جزأ كبيرا من عجز كل من النقابات والحزب يعود إلى انفراد كل منهما بالعمل ، فقد افقد هذا الانفراد العمل النقابى أى مضمون سياسى ، كما أفقد الحزب القاعده الجماهيريه والعماليه العريضه . وفى تلك الفترة التى كانت المانيا تجتازها فإن هذا الانفراد مرفوض شكلا وموضوعا ـ وقد تنبهت روزا لوكسمبرج إلى عقم هذا الوضع . ولما لم تكن ترى ـ كما كان يرى لينين ـ استلحاق النقابات بالحزب . فإن الفكرة التى عرضتها فى رسالتها « الاضراب الجماهيرى . الحزب السياسى . والنقابات » كانت جديره بالنظر ، حتى وان لم يؤخذ بها حرفيا بالنسبه لانها عالجت المشكله من منظور ماركسى فى هذه الرساله كتبت روزا .

« وحقيقة الحال أن الفصل بين الكفاح السياسى والكفاح الاقتصادى واستقلال كل منهما عن الآخر ليس إلا ثمرة مصطنعه للفترة البرلمانية التى قد يوجدها التاريخ . وفى المجرى السلمى والعادى للمجتمع البورجوازى ينشطر الكفاح الاقتصادى إلى حشد من الكفاحات الفردية فى كل منشأه . ويتخلل فى كل فرع من فروع الإنتاج ، بينما لا تقوم الجماهير بنفسها بتوجيه الكفاح السياسى بصورة مباشرة . ولكن بصورة غير مباشرة . بصورة تمثيلية عبر الهيئة التشريعية . ولكن ما أن تبدأ فترة الكفاحات الثورية ، أى ما أن تظهر الجماهير على مسرح الصراع حتى تنتهى تجزئة الكفاح الاقتصادى على أجزاء متعددة . وتنتهى كذلك طريقة الكفاح البرلمانى غير المباشر . ففى العمل الثورى الجماعى يصبح الصراع الاقتصادى والسياسى واحدا ، وتكتسح

الحدود المصطنعة مابين النقابية والديمقراطية الاشتراكية التى تجعل لكل واحدة منها صورة مستقلة تماما ، ولكن حتى فى المرحلة البرلمانية ، يمكن أن توجد ترجمة صلبة للحركة الثورية الجماهيرية بقدر ماتسمح الظروف القائمة ، فلا يكون هناك كفاحان طبقيان مختلفان للطبقة العاملة كفاح اقتصادى وكفاح سياسى . ولكن يكون هناك كفاح طبقى واحد يستهدف ، فى وقت واحد، تضيق مدى الاستغلال الرأسمالى فى إطار المجتمع البورجوازى جنبا إلى جنب محو المجتمع البورجوازى نفسه .

وعندما ينفصل هذان الجانبان للكفاح الطبقى أحدهما عن الآخر لأسباب فنية فى الفترة البرلمانية ، فأنهما لا يكونان عملين متوازيين ، ولكن مرحلتين أو درجتين لتحرير الطبقة العاملة ، إن الكفاح النقابى يضم المصالح العاجلة للحركة العمالية ، بينما تعالج الاشتراكية المصالح المستقبلة لها . والشيوعيون — كما يقول البيان الشيوعى — يمثلون فى مواجهة مصالح المجموعات المتميز المصالح المشتركة للطبقة العاملة ككل فى مختلف مراحل تطور الكفاح الطبقى . لأنهم يمثلون مصالح الطبقة بأسرها . أعنى الهدف النهائى : تحرير البلوريتاريا . إن النقابات لا تمثل إلا مجموعة مصالح، وإلا مرحلة واحدة من تطور الحركة العمالية بينما تمثل الاشتراكية قضية التحرير ككل . ومن هنا فإن علاقة النقابات بالاشتراكية الديمقراطية هى علاقة الجزء من الكل . وعندما نجد نظرية السلطة المتساوية قبولا بين القيادات النقابية — فإن هذا يقوم على سوء فهم جوهر النقابية نفسها ودورها فى الكفاح لتحرير الطبقة العاملة .

ومع هذا فإن نظرية العمل المتوازى للاشتراكية الديمقراطية والنقابات والسلطة المتساوية لكل منها ليست دون أساس . ولكن لها جذورها التاريخية، أنها تقوم على وهم المرحلة السلمية والعادية للمجتمع البورجوازى التى يبدو فيها الكفاح السياسى للاشتراكية الديمقراطية وكأنه يستنفد فى

الكفاح البرلمانى . الذى يقابل الكفاح النقابى، والذى هو بحكم طبيعته عمل اصلاحى سياسى ، كما أن عمل النقابات عمل اصلاحى اقتصادى . وهو يمثل العمل السياسى للحاضر كما تمثل النقابات العمل الاقتصادى للحاضر . وهما مما مرحلة ودرجة فى العملية الكاملة لكفاح البروليتاريا الذى يستهدف بصورة نهائيه ، ما يجاوز الكفاح البرلمانى وما يجاوز الكفاح النقابى . ومن هنا ، فإن الكفاح البرلمانى للاشتراكية الديمقراطية هو أيضاً جزء من كل،وككفاح النقابات تماماً ، والاشتراكية الديمقراطية اليوم تضم الكفاح البرلمانى والنقابى فى كفاح طبقى واحد يستهدف القضاء على نظام المجتمع البورجوازى .

إن نظرية « السلطات المتساوية » للنقابات والاشتراكية الديمقراطية ليست كذلك مجرد سوء فهم نظرى ، ولا هى حالة من حالات الخلط ، ولكنها تعبير عن نزعة معروفة جيداً للجناح الانتهازى من الاشتراكية الديمقراطية الذى ينحط بالكفاح السياسى للطبقة العاملة إلى درك المناقشة البرلمانية ويريد تحويل الاشتراكية الديمقراطية من حزب بروليتارى ثورى إلى حزب من الاحزاب الاصلاحية للبورجوازية الصغيرة . وإذا تقبلت الاشتراكية الديمقراطية مبدأ « السلطة المتساوية » للنقابات فإنها تتقبل — بصورة مضمره وغير مباشرة — هذا التحويل الذى عمل له طويلا ممثلو النزعة الانتهازية .

إن التخصص الفنى للقيادات النقابية ، والافق الضيق بطبيعتة لذى ايلتصق بالمنازعات المفككة يؤديان إلى تطرق البيروقراطية وضيق الافق إلى القيادات النقابية . ويظهر ذلك فى سلسلة من الاتجاهات يمكن أن تكون وخيمة العاقبه على مستقبل الحركة النقابية . فهناك أولا التقييم المبالغ فيه للتنظيم الذى تحول بالتدريج من وسيلة إلى غاية فى حد ذاته . ويمكن أن تصبح مقتضيات الكفاح ثانوية بالنسبة له ، ومنها أيضاً ينبع ذلك الجنوح إلى السلام والعزوف عن

الخاطر والميل إلى الاستقرار . . وكذلك المبالغة فى تقدير الوسيلة النقابية فى الكفاح واحتمالاتها وإنجازاتها . والقـــادة النقابيون مستنفدون باستمرار فى حرب العصابات الاقتصادية التى يكون هدفها المنشود جعل العمال يمنحون قيمة كبيرة للانجازات الضئيلة . فكل زيادة فى الأجر أو تقصير فى العمل يؤدى بالتدريج إلى فقد القوة على رؤية العلاقات الأكبر أو استطلاع الوضع كله ،وهذا هو الذى جعل عدداً كبيراً من القيادات النقابية يشيرون فى رضا إلى إنجازات الخمسة عشر عاما[1] الأخيرة ، بدلا من أن يبرزوا الوجه الآخر للمدالية ، أى الانحطاط الكبير فى مستوى معيشة البلوريتاريا نتيجة لاستغلال ملاك الأراضى ونظام الضرائب والجمارك وارتفاع الإيجارات وغير ذلك من ثمرات السياسة البورجوازية التى التهمت ثمرة الخمسة عشر عاما من الكفاح النقابى.

إن ذكر الحقيقة الكاملة وإن أقتضى الاعتراف بأهمية وضرورة العمل الحالى فإنه يتطلب مقاومة التفاؤل النقابى الذى يجعل النقابيين يعتقدون أن من الممكن الوصول إلى درجة لاحد لها من التقدم بفضل العمل النقابى داخل النظام الرأسمالى ،وهى النظرية التى يروج لها البروفيسور سومبارت بفكرة وضع إسفين ما بين النقابات والاشتراكية الديمقراطية. وإغواء النقابات بالوضع البورجوازى».

---

(١) كتبت روزا هذا الكلام سنة ١٩٠٥ .

الفصل السابع عشر

من الانهيار إلى الازدهار

ماحدث فى ألمانيا سنوات التضخم شىء لم يحدث مثله فى أى دولة أخرى من قبل ، ويغلب أن لايحدث شىء مثله من بعد ، فمع أن التضخم عرض مألوف من أعراض الاقتصاد الرأسمالى ، فلم يسبق أبدا أن حدث ، أو كشف عن المفارقات المذهلة التى تصطحب به ، كما حدث ، أو كشف ، فى ألمانيا ..

فعندما اضطرت ألمانيا إلى قبول معاهدة فرساى حرصا على وحدة الريخ ، وتجنبا لهزيمة ثانية كان عليها أن تجابه الإلتزامات العديدة التى رضخت لها ، وكان بعضها قد نفذ بالفعل ووضع الحلفاء أيديهم على المصانع والسفن والقاطرات ، كما بتروا من الوطن الألمانى بعض المناطق الغنية بالفحم والمعادن ، وتأخرت عملية التعويضات شيئاً ما لأن الحلفاء ارادوا أن يحمّلوا ألمانيا بكل تكاليف الحرب « بما فى ذلك معاشات القتلى وتعويضات الجرحى » وإذا علمنا أن بريطانيا قد أنفقت خلال سنوات الحرب مايعادل ما أنفقته خلال قرنين ونصف. ادركنا فداحة ما كان على ألمانيا أن تدفعه لبريطانيا وقس على ذلك أيضاً فرنسا التى كانت سخيمتها على ألمانيا تفوق نقمة بريطانيا ولما كان الحقد — وليس العقل — هو الذى يملى فاتورة الحساب فقد رفض الحلفاء كل الدفوع التى ذكرت عن عقم هذا الإجراء ، وكان من سوء حظ ألمانيا أن نفضت أمريكا يدها من كل مايتعلق بذلك بعد أن رفض الكونجرس الأمريكى الموافقة على فرساى ،

إذ كان ينتظر أن يرأس أمريكى لجنة التعويضات ، وأن يستطيع هو والعضو البريطانى والعضو الإيطالى السيطرة على غلواء العضوين الفرنسى والبلجيكى. ولكن انسحاب الولايات المتحدة جعل فرنسا سيدة الموقف .

وبعد مرحلة طويلة من المكاس والأخذ والرد أنتهى الحلفاء إلى تحديد مبلغ رأته باريس أقل مما يجب ، ورآه العالم افدح مما يجب . وحددت مواعيد للدفع تبدأ من سنة ١٩٢١ وتنتهى سنة ١٩٦٢ ، ويكون على ألمانيا أن تدفع كل سنة خلال هذه المدة مبلغا يتفاوت ما بين ٢ مليار مارك ذهبي (سنة ١٩٢١) و٦ مليار مارك ذهبي (سنة ١٩٦٢) وعندما قدمت « الفاتورة » ، كانت نسبة المارك الورقى إلى المارك الذهبي هى نسبة ١٥ إلى ١ ، أى أن كل خمسة عشر مارك ورقى كانت تعادل ماركا ذهبيا .

ولو كان لدى الحلفاء وقتئذ مسكة من العقل لأدركوا جنون ما أمضوا فى تدبيجه الأسابيع الطوال .. لأن التعويضات المطلوبة كانت تعنى أن تصدر ألمانيا ما يزيد على ما تصدره بريطانيا وأمريكا ، فلو فرضنا جدلا وحققت ألمانيا هذه المعجزة الخارقة لتقضى ذلك على صادرات أمريكا .. وبريطانيا ، ولأوقع بهما مشكلات اقتصادية ومالية لاحد لها .. كما كان على الحلفاء أن يعلموا أنهم مفاتح لا يملكون الغيب ولا يستطيعون مصادرة مقادره والتحكم فى مصايره حتى يفرضوا على أمه كبيرة ومتقدمة إرادتهم الغاشمة لمدة أربعين سنة قادمة .

وعندما جوبه الألمان سنة ١٩٢٠ بالتقدير الأول للجنة التعويضات سنة ١٩٢٠ وكان يقضى أن تدفع ألمانيا ٢٦٩,٠٠٠ مليون مارك ذهبي . أحتجوا وأوضحوا استحالة ذلك وتمكنوا فى السنة التالية (١٩٢١) من تخفيض المبلغ إلى ١٣٢,٠٠٠ مليون . قدر مادفع منها بالفعل بثمانية بلايين . وفى أواخر ابريل طالب الحلفاء بالدفع ودفعت ألمانيا بليونا ذهبيا آخر . وكان هذا مع كل آثار

الحرب من اقتطاع الالزاس واللورين وحرمان ألمانيا من مناجم السار ، وما أحدثته الحرب من دمار وتخريب وما استولى عليه الحلفاء من عتاد وآلات. بداية لظهور أولى عوارض التضخم ، ففي يناير سنة ١٩٢١ كانت نسبة الدولار إلى المارك ١ إلى ٤٥ وفي الربيع والصيف أصبحت ١ إلى ٦٠ ولكنها في سبتمبر أصبحت ١ إلى ١٠٠ وفي آخر العام ١ إلى ١٦٠ وكانت هذه صورة حادة للتضخم الكلاسيكي في الرأسمالية .

ولكن الأمور ساءت .. وازدادت سوءا ، ولم تستطع المانيا دفع القسط الثانى ، وطلبت التأجيل ووافقت بريطانيا ، ولكن فرنسا ، التى كان على رأسها وقتئذ بوانكاريه — عدو المانيا اللدود — رفض — وفي أوائل عام ١٩٢٣ أرسلت فرنسا قواتها (وكان بعضها من الفرق الأفريقيه) لتحتل منطقة الرور الغنية بالفحم ، وأخذت تحاول استغلال المنطقه وأدى توقف توفر الفحم إلى توقف المصانع ، وزيادة البطالة وبالتالى انطلاق دوامة التضخم . . .

وأخيرا انفجر الخزان وتهاوى السد وأخذت العمله تتدافع كشلال داو وفي أكتوبر ١٩٢٣ لم يعد يكفي مليون مارك ، ولا بليون ولكن تريليونا لشراء رغيف خبز ، وفي نوفمبر أصبح ثمن كيلو خبز يعادل ٢٠٠،٠٠٠،٠٠٠،٠٠٠ مارك .

فهل يمكن للإنسان أن يقدر شيئا كهذا .. شيئا يحيل مدخرات رجل غنى طوال أربعين عاما إلى ملاليم ! ويجعل من « جرسون » أمريكي مليونيرا لأنه يملك بضعة دولارات .. ويدفع الناس لأن يتمسكوا بأى شيء إلا النقود .. التى كانت تفقد قيمتها مع كل لحظه .

كيف تكون الحياة تجاه هذا الزلزال الرهيب .. أو الشلال الداوى الذى

أودى بالمعيار الأساسى الذى يعيش عليه المجتمع البرجوازى ؟ وصف ستيفان زفايج هذه الحقبه فى النمسا والمانيا .

« .. إن أغرب شىء هو اننى لا استطيع أن اتذكر - مهما حاولت - كيف استطعنا أن نحافظ على إدارة البيت ؟ وبأى طريقة استطاع النمساويون أن يواصلوا اصدار الالوف ومئات الالوف من « الكرونتن » واستطاع الألمان أن يواصلوا إصدار الملايين اللازمة من المارك كل يوم للابقاء على الرمق ؟ مهما كانت الغرابة فإنهم استطاعوا ذلك فقد تكيفت العادات . وقد يتصور البعض أنه فى الوقت الذى بلغ ثمن البيضه رقما يفوق ثمن كافة العقارات الألمانية أن النساء لابد وأن يجرين فى الشوارع كالمجنونات وأن المحال قد أغلقت أبوابها وأن المسارح أصبحت قاعا صفصفا، ولكن الحقيقة غير ذلك ، إن إرادة الحياة كانت أعظم ، وظل الخبازون يخبزون والحذاؤن يصنعون الأحذية والمؤلفون يضعون الروايات والمسارح تمتلأ بالمشاهدين » .

بل لقد كشف زفايج عن آثار أخرى غير متصوره للتضخم : إن سقوط قيمة النقود أعلى من قيمة العواطف . وأنه لايذكر أنه عمل بحماسة ونشاط كما عمل تلك الفترة .

ويشترك كل الذين كتبوا عن تلك الفترة أنهم — بعد أن فترت شرتها وحدتها لايذكرون كيف استطاعوا البقاء والتصرف « إننى لم أستطع أبدا أن أفهم كيف أمكن للفرد العادى أن يكوّن أى فكرة عن هذه الأرقام المذهله . لقد كانت العمله لاتكاد تصل إلى يد أى واحد حتى لا يستقر أو يرتاح حتى ينفقها . فالعمله الآن أفضل منها غدا . . وكان العامل يشترى حاجاته بمجرد تسلمه لمرتبه من أقرب محل للمصنع . . فلو أنه انتظر حتى العودة وترك لزوجته مهمة التسويق لفقدت النقود معظم قيمتها .

وفى آخر أكتوبر كانت تكلفة المعيشة فى فرانكفورت كالآتى:

٠٠٠ر٠٠٠ر٣٢٠ر١٤٥٨ مارك فى السنه بدون ملابس .

٠٠٠ر٠٠٠ر٩٣٦ر٩٣٦ر٧٠٥ر١ بالملابس هذه هى الأرقام الفلكية التى كان على الشعب أن يحسبها وعند هذه النقطة كان الحساب يقف والفكر يتجمد . . » هكذا كتبت تونى ساندر التى كانت عضو الرشستاج هذه الحقبة .

ورغم أن إرادة الحياة كانت أغلب من التضخم ، فقد كان للتضخم آثار بعيدة المدى على الحياة ، فقد حطم تحطيما النظام المألوف ، بل قل العمود الفقرى للمجتمع البرجوازى ، وابتلع بمثل قوة الزلزال القيم والتقاليد والأوضاع الموروثة وتحللت العلاقات الإنسانية وأصبحت الحياة مزيجا غير مفهوم من الأرقام . وعندما كشف زفايج عن أن سقوط قيمة العمله أعلى من قيمة العواطف فإنه كان يصور هذا الأثر بالنسبة لرجل الفكر .. أما الفرد البرجوازى العادى فقد انحط معنى العاطفة إلى « الغريزة » فاكتسحت برلين ومعظم مناطق ألمانيا، موجه من التحلل الجنسى والرذيله بصورة تكاد تعادل التضخم، وتحدث زفايج عما كان يحدث فى برلين فترة التضخم .

« كان الأطفال الذين صنعت لهم خطوط ومط وزينة نسائية يتبخترون عبر « كورفو ستندام » وكان كل تلميذ يريد أن يربح شيئا من المال، وفى البارات المعتمه كان يمكن رؤية كبار الموظفين والماليين يغازلون البحارة السكارى دون حياء . ولم تعرف روما حتى فى ستينوس Suetonius مثل مباذل برلين حيث كان الرجال يلبسون ملابس النساء والنساء يلبسن ملابس الرجال ويرقصون تحت أعين البوليس الحانية ، وكانت الشابات تفخرن بأنهن منحرفات واعتبر عارا فى كل مدارس برلين أن يظن بالواحدة أنها عذراء فى سن السادسة عشر »

وصور كلوزمان الجنون الجنسى الذى اكتسح برلين ودفع بالجميع إلى

ممارسه حميا الجنس « الأطفال مع البنات والأطفال مع الأطفال ، والبنات مع البنات ، والرجال مع الأطفال والبنات والنساء مع الأولاد أو الحيوانات الاليفه » .

لقد اكتسح الأعصار الملايين ودفعهم إلى ذهول الهستيريا والجونج . وأصبح الرقص نوعا من الهوس.. كل شيء يرقص، رقص البأساء والشيزوفرونيا ورقص الشبق والرقص بأقنعه زنجيه وخوذات جوتيه .

أصبحت برلين تتحدى « أنظر إلى انني بابل وحش المدائن انني سدم وعمورة على الطريقة البروسية . . انني سيرك الرذائل والانحراف » .

وانتشرت البارات وبؤر الفساد وأماكن التلاقى واندية القمار وفتح كبار الموظفين بيوتهم وأجرت أرامل الجنرالات غرف نومهم بالساعة وكانت كل هذه الأماكن تزدحم لأن برلين لم تكن لتنام . ان التوتر كان يطرد الاعياء والخوف . أما البغايا فكن من كل نوع من فتيات فى السادسة إلى عجائز فى الستين . منهم المنكسرات ومنهن الامازونات المفترسات « حدقت فى احداهن وقالت أتريد ان تكون عبدى . . لن يكلفك هذا سوى سته بلايين وسيجارة .. انها صفقة . . . »

هذه نماذج من كتابات هذه الحقبة ، فهل حقا أن هذا الهوس قد جعل الشعب الألمانى ينغمس فى مباءة قومية ؟ أو أنها مبالغات كتاب . . أو وصف لبعض القطاعات والفئات دون الأخرى ، وبعد فإن برلين ليست كل ألمانيا بل ان الميادين والأحياء التى تكرر ذكرها ليست هى كل برلين ولعل السؤال الجدير بالنظر هو هل استنفدت هذه المباءة النشاط الاجتماعى والسياسى للعاصمة خلال سنتى التضخم بحيث حال ذلك دون أن يحدث التضخم ما أحدثته الازمه التى جاءت بعده وكانت أقل حدة ولكنها حملت هتلر إلى الحكم ؟؟.

على كل حال انحصرت موجه الانحراف الجنسى بالسرعة التى انتشرت بها ، وفى عام ١٩٢٥ أصبحت «مودة» قديمة وأصبح اغراء الرقص العارى لايجذب أحدا «انيتا بربر .. لقد رأيتها منذ عهد طويل .. منذ سنتين . إن الرذيلة لم تعد «شيك» وأصبحت المودة هى الواقعية » وانحصرت بقايا ذلك الوباء القومى فى جيوب محدودة واصلت البقاء بعد انقشاع التضخم فى صورة بيوت التدليك التى تحدث عنها دوجلاس ريد فى كتابه Insanity Fair وكانت محلا لمختلف أنواع الشذوذ الجنسى .

وكيف حدث هذا ؟ حدث لأن الازمه بلغت الغاية والنهاية ، كانت كحريق هائل اكتسح كل ما حوله حتى انتهى إلى الفضاء أو البحر فلم يجد ما يحرقه وخمد من تلقاء نفسه ، أو أنها بلغت القاع الذى لا قاع تحته وبقدر ما كانت تصل إلى النهاية كانت تفسح المجال لبداية الانقاذ .

وكانت الوزارة التى اعتبرت مسئولة اكثر من غيرها عن التضخم هى وزارة كونو التى كانت تمثل رجال الصناعة والرأسماليين . وكان رجال الصناعة قد عارضوا على لسان ستينس محاولات التثبيت على أساس أنه سيوهن قدرة ألمانيا على التصدير ، دون أن يلحظوا بالطبع أنه حتى لو كان هذا صحيحا فإنه سيحدث على حساب فاقة العمال وبخس أجورهم وكشفوا عن زيف وطنيتهم باتصالهم مع الفرنسيين وضيقهم بالبقية الباقية من آثار الاشتراكية بحيث عرضوا على الحكومة ضمانا بخمسمائة مليون مارك ذهبي مقابل عدم التدخل فى ظروف الصناعة وجعل الصناعات المؤممه صناعة خاصة . ومن هنا انصبت على وزارة كونو نقمة الجماهير وادى الاضراب العام التلقائى إلى سقوط الوزارة وكلف ايبرت سترسمان بتشكيل الوزارة وأخذ سترسمان يعمل جاهدا لوقف التضخم بمساعدة ساحر الماليه «شاخت» بحيث بدأت موجه التضخم

تتوقف شيئا فشيئا وإن لم يعالج الموقف إلا بفضل مشروع داوز . فقد اقنع ستريسمان الأمريكيين بالتدخل . وكان لهولاء مصلحة مباشرة لأن دائنى ألمانيا كانوا مدينى أمريكا . وسيؤثر عجز ألمانيا عن سداد ديونها لدائنيها على مقدرة هؤلاء على سداد ديون أمريكا وبهذه الطريقة وضع الكولونيل داوز الذى كان يرأس لجنة التعويضات مشروعا جديدا يقضى بتخفيف الأقساط واعطاء ألمانيا قرضا يمكنها من إصدار عملة جديدة على أساس معيار الذهب . واخلاء منطقة الرور وفى الوقت نفسه ترك المارك فى الدرك الذى انحط إليه . واوجدت عملة جديدة هى « الرنتمارك » بضمان أصول ثابته . وقبلت الحكومة الألمانية المشروع بعد معارضة عنيفة لأن المشروع كان يجعل للدول الدائنة نوعا من الأشراف على إدارة بعض الموارد الماليا ضمانا للقروض . وبدأت الجيوش الفرنسية تنسحب من الرور . وعندما تحسنت الأحوال اعادت الحكومة الريشمارك على أساس معيار الذهب .

وكانت الشخصية التى هيمنت على الأفق السياسى خلال هذه الفترة بل ومابعدها هى شخصية جوستاف ستريسمان، وما من دليل على أن الكفاءة تفرض نفسها على الأصدقاء والاعداء وتنتصر على الميول والتحيزات من أن الوزارات الست التى توالت من ٢٣ إلى ٢٩ لم تستطع أن تستغنى عنه كوزير خارجيه . وكان ستريسمان « بروسيا » ومن غلاة الوطنيين فى الأيام القديمة ، وارتبط أيام الحرب بلودندورف وطالب بالحاق البلجيك . وعندما سئل وماذا يترك الحلفاء استشهد بالكلمة المأثورة « اترك لهم عيونهم ليبكوا بها » .

ولكن ستريسمان كان ذكيا شجاعا ، فاستطاع أن يكيف سياسته طبقا لما تتطلبه الأوضاع الجديدة بعد الهزيمة ، وبعد فرساى كون حزب الشعب وعندما تحرجت الأمور وتفشى التضخم وتوقفت الحياة فى الرور تصدى

سترسمان بشجاعة وبصيره لهذه الكوارث المتتالية وأثبت أنه كفء لها .
وكان الخط الرئيسى فى سياسته هو كسب ثقة الحلفاء حتى تستطيع ألمانيا الوقوف
على قدميها . ولو كان سترسمان أقل شجاعة لرأى فى مصرع ارزبرجر وراتينو
نذيرا يثبطه . ولكنه كان وطنيا شجاعا فأقدم على هذه السياسة التى كان
اعداؤه فيها هم الذين أراد لهم المصلحة . . أعنى الوطنيين الألمان . وتكمن
عبقريته فى أنه استطاع أن يستخدم أسلوبا دبلوماسيا لتحقيق أغراض
امبريالية ، وأن يتبين أن هذا ممكن فى المدى البعيد . وبفضل التقدم خطوة
لخطوة، وأن يحكم هذا كله إحكاما مكنه من أن يخدر الحلفاء وجعلهم يبتلعون
دعايته بشراهه « ويطلبون المزيد » على حد تعبير سياسى بريطانى لأن
سترسمان كان يشكرهم على حسن تقديرهم وتجاوبهم وبذلك يرضى غرورهم
ويستل سخيمتهم ويضعف مقاومتهم وكان الشيء الوحيد الذى أنقذ الحلفاء
من أن تستمر هذه اللعبة هو موت سترسمان نفسه سنة ١٩٢٩ ، إذ ايقظت
جمجمة هتلر الحلفاء من دغدغة سترسمان، وبذلك انقذتهم فى الساعة الأخيرة ،
والحقيقة أن سترسمان قد مهد لهتلر ، كما مهد بسمارك لولهلم ، ولكن هتلر هدم
بفظاظته مابناه سترسمان بكياسته كما هدم ولهلم بخيلائه مابناه بسمارك بدهائه .

واستطاع سترسمان أن يقنع مختلف الدول أن فرنسا تريد أن تعاقب ألمانيا
على الأخطاء الثلاثة التى أعترف نابليون بارتكابها « أن تركت بروسيا
تقوى ، وأبقيت على بولندا ضعيفه ، وأسأت فهم روسيا[1] » فهى تحاول
الآن أن تضعف بروسيا وأن تقوى بولندا وأن تناصر دنكن وترانجل
وغيرها ، وهى سياسة خاطئة لأن ألمانيا لاتتخلى عن بروسيا بل تتمسك بها،
ولأن بولندا ستظل ضعيفه بحكم عوامل القلق الكامنة فيها ، ولأن مناصرة

(1) The Hope of Europe py Philip Gibbs p. 199.

جنرالات الجيش القيصرى اساءة فى فهم روسيا أكثر من اساءة نابليون فهمها .

وفى الوقت نفسه كان سترسمان يقنع فرنسا بحسن نية ألمانيا وإيمانها بالسلام واستعدادها لدفع كل التزاماتها بقدر ما تمنح من فرص لإثبات ذلك . وكان من حسن حظه أن سقط بوانكاريه وأن جاء بريان « المتفهم الذى رأى بعينيه أن سياسة القوة والحقد والأرهاب واحتلال الرور لم تجد . وبذلك استطاع أن يوقع حلف لوكارنو الذى كان نقطة تحول من سياسة امتصاص ألمانيا وحربها إلى سياسة التسوية والمهادنة . وفى ٧ سبتمبر سنة ٢٥ عشية انتهاء مفاوضات لوكارنو كتب سترسمان إلى ولى العهد الامبراطورى الذى كان يعيش وقتئذ كمواطن عادى . ذاكرا أن المهام الرئيسية الثلاث أمام المستقبل الألمانى هى :

(ا) تسوية موضوع التعويضات وتأكيد السلام الذى هو الشرط الأول لاستعادة المانيا لقوتها .

(ب) حماية الاثنى عشر مليونا من الألمان الذين يعيشون فى أرض أجنبية من النير الأجنبي (وكان يقصد بذلك الألمان فى تشيكوسلوفاكيا والنمسا) .

(ج) اعادة النظر فى الحدود الشرقية الألمانية . بما يحقق استعادة دانزج والممر البولندى .

وكما لاحظ سير جيوفرى نوكس فى كتابه « السلام الأخير والمقبل » فإن هذا البرنامج لم يكن ليختلف عن برنامج هتلر عندما بدأ حكمه وختم سترسمان خطابه بأنه يأمل أن يرى الأمير قراره فى ضوء التقدير السليم الجدير به « ولكن إذا كان سموكم الامبراطورى يمنحنى الفرصه لحديث هادىء فإنى سأكون تحت تصرفكم » وكما هو واضح فإن سترسمان يخاطب ابن القيصر المخلوع « كما لو كان ولى العهد » وكما لو لم يكن هناك جمهورية على الاطلاق .

ووراء سترسمان كان شبح « ستينس » الهائل يقف ، وكان ستينس وقتئذ

يمثل الاقتصاد الألمانى ، ووصلت شخصيته من القوة والامتداد درجة جعلت بعض الكتاب يطلقون على سترسمان « الممثل السياسى لهوجو ستينس » وكان هوجو ستينس قـد ورث عن والده من الأراضى والمناجم والمصانع ما قدرت قيمته بسبعة ملايين جنيه استرلينى وليس معنى هذا أنه كان منعماً ، فقد عمل جرافا داخل المناجم وعلى أرصفة السفن وكانت فلسفته هى فلسفة الرأسماليين البريطانيين فى منتصف القرن الثامن عشر ، وقبيل التضخم أصبح ستينس مالكا لامبراطورية صغيرة تضم كل شىء . صحف . فحم . صلب . مواصلات . . الخ يعمل فيها ٢٥٠ ألف عامل ويبلغ رأسمالها ١٢ مليون مارك .

ولم يكن ستينس هو الوحيد — لقد كان هناك أوجست تيسن أحد أعمدة صناعة الفحم والحديد . والذى كان يعمل فى مصانعه قرابة ١٢٥ ألف عامل منهم ٦٥ ألف فى ملهم . وكان كلوكنر Kloeckner يأتى بعد بتسن مباشرة . أما كروب ومصانعه التى زودت ألمانيا طوال الحرب بأكبر مدافع عرفتها الجيوش حتى ذلك الوقت ، فقد واءمت بسرعة ما بين إنتاجها والظروف الجديدة . وأصبحت تنتج كل صور الصناعات المعدنية من سكك حديدية أو الات زراعية . . الخ .

ومع أن تثبيت المارك قد أودى ببعض هؤلاء مثل ستينس الذى توسع فترة التضخم توسعا انعكس عليه فترة التثبيت ، فإن الصناعة الألمانية بدأت تنتعش بفضل القروض التى انهالت على ألمانيا وأخذت هذه القروض تتمشى فى الصناعة كما يتمشى الدم فى الجسد . . بحيث طوت بسرعة صفحة البأساء . وفتحت مع بداية ١٩٢٥ . العشرينات الذهبية The Golden Twenties .

* * *

ولـكن فى هذه الفترة ـ فبراير ١٦٢٥ ـ توفى رئيس الجمهورية فردريك ايبرت وبرزت مشكلة انتخاب خلف له . .

وتقدمت الأحزاب المختلفة بسبعة مرشحين . فرشحت كتلة المحافظين (حزب الشعب الألماني والحزب الوطني الألماني) الدكتور جارس Garres الذى نال ٧ر١٠ مليون صوتا ورشح الاشتراكيون الديمقراطيون اوتو براون Otto Braun وهو رئيس وزراء بروسيا ونال ٨ر٧ مليون صوتا . ورشح حزب الوسط ويلهم ماركس وحصل على ٤ مليون صوتا ورشح الحزب الشيوعى تالمان وحصل على مليونين من الاصوات . كما حصل مرشح الديمقراطيين على مليون صوت وحصل مرشح حزب الشعب البافارى على نصف مليون صوت . أما الجنرال لودندورف الذى رشحه النازى فلم ينل سوى ربع مليون صوت .

ولما لم ينل أى واحد من هؤلاء الأغلبية المطلقة ، فقد كان يجب بحكم الدستور اجراء انتخاب ثان بين أكبر فائزين ، وأصبح من الواضح أنه لو تكتلت الأحزاب الاشتراكية وكونت جبهة ديمقراطية لكان هناك احتمال أمامها بالفوز بالأصوات المطلوبه للاغلبيه .

ولكن الذى حدث كان غير ذلك .

فقد خشى الاشتراكيون الديمقراطيون أن يعجزوا عن كسب مزيد من الأصوات البورجوازية لمرشح اشتراكى وبذلك يساعدون خصمهم المحافظ فسحبوا مرشحهم وايدوا الدكتور ويلهم ماركس مرشح حزب الوسط الكاثوليكى والذى لم يكن قد نال سوى نصف عدد أصوات مرشحهم ومن هنا فقد كان هذا التصرف من الناحية الحسابية المحضه مثيرا للدهشه وأهم من ذلك أن ماركس كان مكروها من العمال والأحرار ، وله سجل موغل فى الرجعية . وكان تأييده يعنى بالتأكيد فقد أصوات جميع اليساريين والراديكاليين .

وفى الوقت نفسه غيرت كتله المحافظين مرشحها ، فوضعت محل الدكتور

جارس الماريشال هندنبرج وأدارت حملة من الدعاية الانتخابية بعثت فيها كل الذكريات العسكرية المجيدة للمارشال ووصفته بأنه « المخلص » لألمانيا، بينما لم تكن صحف الحزب الاشتراكى الديمقراطى لتستطيع أن تسبغ على مرشحها إلا أنه « أقل الضررين ».

وأسفرت الانتخابات عن النتيجة التالية .

نال هندنبرج ٠٠٠ر٦٦٥ر١٤ صوتا .

نال ماركس ٦١٥ر٧٥١ر١٣ صوتا .

نال تالمان ١٥١ر٩٣١ر١ صوتا .

وتبادل الاشتراكيون والشيوعيون اللوم وكل منهما محق فى لومه . ومستحق لفشله ..

فلو لم يصر الشيوعيون على ترشيح مرشح خاص بهم رغم تأكدهم سلفا من فشله وأنه ليس هناك أى إحتمال لفوزهم وأن النتيجة المؤكدة الوحيدة هى إنخذال عدد من الأصوات سيؤدى إلى رجحان كفة المحافظين . ولو ضموا أصواتهم لأصوات الاشتراكيين الديمقراطيين لكان من المحتمل أن ينجح مرشح الاشتراكيين الديمقراطيين فى الانتخابات الأولى ومن هنا فإن خطأهم لا يمكن تبريره، ومن ناحية أخرى فإن سحب الاشتراكيين الديمقراطيين لمرشحهم وتأييدهم لشخصية بغيضة لا تفضل هندنبرج لم يدع للشيوعيين خيارا فى الانتخابات الثانية إلا الاصرار على مرشحهم .

وقد عكست المعركة الانتخابية ولخصت مأساة فايمار كلها : تخبط الحزب الاشتراكى الديمقراطى فى إتخاذ المواقف السليمة . وتحمل الجناح الشيوعى لشطر كبير فى المسئولية : ولولا ذلك لما كان يمكن أن يرأس الجمهورية التى قامت بفضل الثورة على العسكريين — كبير هؤلاء العسكريين وقائدهم الأعلى .

الفصل الثامن عشر

الصيف الهندى

وهكذا أصبح هندنبرج رئيسا للجمهورية ..

وكان هندنبرج قد أصبح نوعا من الأسطورة القومية ، لقد كان متقاعدا فى نوفمبر سنة ١٤ عندما نشبت الحرب العالمية الأولى وأرسل تلغرافه إلى القيصر « إنى مستعد » فأرسلوه إلى الجبهة الشرقية فدحر الروس وحول إنتصاراتهم إلى هزائم .. ثم استنجدوا به فى الجبهة الغربية فنظم الدفاع الذى جعل الألمان قاب قوسين من الإنتصار . ولما حدثت الفاجعة ظل اسمه نظيفا بعيدا عن أى شائبة لأنه رزق مساعدين تحملا عنه كل الأعباء المباشرة ، ففى المرحلة الأولى كان لودندورف هو المخطط والمنفذ معاً ، ولم يتردد فى الظهور بهذا المظهر مدفوعاً بطموحه الخاص . وعندما لم يكن ممكنا إخفاء الهزيمة كان لودندورف هو الذى دفع الثمن وإستقال بينما ظل المارشال فى منصبه ، وعين له مساعد قدير آخر هو جرونر . وحرص جرونر على إبقاء اسم هندنبرج عاليا ، وفوق كل الأحداث والضرورات الكريهة وتقدم بنفسه لإتخاذ كل القرارات التى تمليها الظروف المؤلمة حماية لاسم الماريشال وشخصه وحرصا على أن يكون فوق الخلاف والشوائب والإتهامات . وتقبل الماريشال من من مساعديه هذه المواقف لأنه كان مهيؤا لها بحكم المزاج ..

وعندما إنتهت الحرب قاد الماريشال عملية الإنسحاب بحيث تمت بكفاية

وسرعة وصورة مشرفة وبعدها آب إلى عزلته فى هانوفر كما كان قبل الحرب.
ولكنه ظل رمزاً حيا لا فضل ما توحى به العسكرية الألمانية ، ولعله فى عزلته تلك كان يمثل فى أذهان الكثيرين ، ألمانيا الحقيقية الممتزلة لتلك الأحداث المحيرة التى كانت تمر بها وتتحكم فى قدرها ، وكأنها ليست من صنع يدها أو سلطان إرادتها ، وإنما فرضها الغزاة فى الخارج والخونة أو الضعاف فى الداخل . وأقام له الألمان تمثالا خشبيا يعادل فى ضخامته تماثيل « رمسيس الثانى » وكانت المسامير تشترى لحساب مشروعات البر العسكرية لتدق فيه فكأنما هو « باب المتولى »

وعند موت ايبرت اهتبل العسكريون الفرصة ، فدفعوا به رئيسا للجمهورية ، وبطلا قوميا ، ومنقذا ، ونجحوا ، فأصبح رئيسا للجمهورية ، وواصل دوره فى رآسة الجمهورية ، كما كان يؤديه فى القيادة العليا بحيث كان يقوم مساعدوه بالعمل ، ولولا جو المؤامرات والوضع الخاص للجمهورية لأدى هندنبرج — رغم ماضيه العسكرى — دور الحاكم الذى يملك ولا يحكم أداء نموذجيا .

وقد راقب الكاتب السياسى البريطانى دوجلاس ريد ـ الذى كان فى ألمانيا فى الثلاثينات ـ هندنبرج خلال بعض الزيارات التى قام بها فى أعقاب اخلاء منطقة الرين ، ولمس كيف تجاوبت ألمانيا مع رجلها القديم ، وكيف أن عين الحب جعلت من هذا « التيتان الخشبي » الثقيل ، المترهل . الجاد ، معبودا كل شىء فيه يثير حماستهم ، وشاهد الجموع الغفيرة من مقاتلى معارك ١٨٦٤ و ١٨٦٦ و ١٨٧٠ التى شهدوها مع الماريشال ، وهم الآن فى ارذل العمر .. إلى البراعم الصغيرة من الصبيان والبنات ... وما بين ذلك من رجال أعمال وضباط ومهنيين وأساتذة جامعات . . تهتف له . . وتسير وراءه واستطاع دوجلاس ريد أن يطلع على النسخة الأصلية لبعض الخطابات التى ألقاها ، وفى

هذه النسخ كانت بعض السطور قد كتبت بالحرف الكبيرة Capitals ، وبعضها الآخر بالحروف الكبيرة التى وضعت تحتها خطوط . وكانت هذه السطور هى التى يرفع فيها صوته ، أو تشتد حماسته ...

كان هندنبرج فى الحقيقة هو الممثل الأخير لألمانيا فردريك الثانى .. ووليم الأول وتمسكت به الجماهير الألمانية لأن صورة الزعيم العسكرى كانت هى الصورة الوحيدة التى كانت ألمانيا تألفها حتى جاءت سنوات الهزيمة والتضخم والإنهيار الاقتصادى فاجتثت هذه الصورة وكيفت الاجيال الجديدة تكييفا مختلفا بحيث تهيأ الجو لان يبدع هتلر الصورة الجديدة للزعيم الذى لا يكون عسكريا كما ألفت ألمانيا القديمة . ولا يكون سياسيا على غرار ساسة فايمار وإنما وطنيا قوميا من نمط جديد .

* * *

كانت السنوات التى أعقبت تولية هندنبرج سنوات رخاء ظاهر ، فقد تدفقت الأموال الأجنبية لتمويل مختلف المشروعات .. فهل غفرت أوروبا لألمانيا جرمها عندما ولى أمرها « مجرم الحرب » الذى طالبت فى معاهدة فرساى بمحا كمته .. أو أن كراهيتها للشيوعية وخشيتها منها كانت أعمق من كراهيتها للعسكرية الألمانيـــة .. أو أن جهود سترسمان وتقمصه لقميص « الأوروبية » و « الوفاء » أتى ثماره .. لقد يكون هذا كله . ولكن المحقق أن السياسة المالية تختلف عن السياسة السياسية . وأن عالمية هـذه السياسة المالية إنما تتأثر بالعامل الاقتصادى ومدى « رأسماليته » وربحيته أكثر مما تتأثر بالنظم السياسية أو الرجال الحاكمين .. فالمال لا يعرف الوطنية ، ولا يفرق بين دين ودين .. دولة ودولة .. وهو دائماً فوق العداوات السياسية فقد هاجمت اليابان فى الحرب الثانية الولايات المتحدة ببترول وحديد باعه لها رجال الصناعة الامريكيون . . وحارب نابليون بريطانيا

بفضل أموال قدمها مصرفيو لندن بفائدة ٨٪ وكان الأخوة روتشيلد يسكنون عواصم العالم ويجرون معاملاتهم المالية فوق مستوى الحكومات . . واللواء الوحيد الذى يتبعه المال هو الربح أو سعر الفائدة ، وكانت ألمانيا تقترض بفائدة عاليه تصل إلى ٨٪ فتدفقت الأموال من أمريكا إلى ألمانيا ومن هذه الأموال كانت ألمانيا تدفع ديونها لفرنسا وانجلترا اللتين كانتا تدفعان منها ديونهما لأمريكا . . لتقدمها قروضا لألمانيا وهلم جرا . . وبفضل هذه العجلة الدائرة نهض الاقتصاد الألمانى من كبوته واستطاعت ألمانيا أن تستكمل انطلاقها الذى أوقفته الحرب والأحداث التى تلتها ، وأدخل أصحاب الأعمال طريقة « السير المتحرك » Conveyor bselt التى استخدمت وقتئذ فى الولايات المتحدة ، وفتحت صناعـــة الكيماويات تلك الآفاق والعوالم الجديدة التى مكنتها من استخلاص الجازولين من الفحم وصناعة المطاط الصناعى والأنسجة الصناعية. وتضاعف إنتاج الفحم الذى كان قد وقف سنة ٢٠ عند ٨٫٥٠٠٫٠٠٩ طنا فوصل إلى ١٦٫٣٠٠٫٠٠٠ طنا سنة ٢٧ كما قفز إنتاج الصاب خلال المدة نفسها فقفز من ٦٫٣٠٠٫٠٠٠ طنا إلى ١٦٫١٠٠٫٠٠٠ طنا بينما وقف إنتاج بريطانيا ثابتاً عند ٩٫٠٠٠٫٠٠٠ طنا وهبط إنتاجها من الفحم من ثمانية ملايين إلى ٧٫٢٠٠٫٠٠٠ وتكون خلال هذه الفترة أكبر عملاقين صناعيين هما ترست فاربن للاصباغ I. B. Farben سنـــة ١٩٢٥ وترست الصلب Vsreinigle Stahlworks سنة ٢٦ .

ولاحظ دوجلاس ريد الذى كان يطوف بألمانيا وقتئذ « إن ألمانيا التى حرمها الحلفاء من أسطولها التجارى بأسره ، أصبح لديها بعد عشر سنوات واحد من أكبر أساطيل العالم ، وقد حرموا عليها أن تبنى الطائرات الحربية ، وهبطوا بإنتاجها المدنى منها ، ولكن ألمانيا استطاعت أن تبنى العديد من

من الطائرات ومنها السفينة الطائرة DOX التي تطير عبر بحيرة كونستانس وعليها ١٧٣ راكبا ، وهو شيء — فيما أعلم — لم يسبق كما شيدت السفينتين « بريمن » و « أوروبا » اللتين حازتا الشريط الأزرق وجعلت المنتصرين يحاولون اللحاق بها ببناء نورماندى وكوين مارى. وفى سنة ١٩٢٩ كان المنطاد زبلين يجتاز المحيط فى رحلته عبر العالم » .

ودهش ريد لأنه لم ير « الأكواخ » المعروفة فى بريطانيا ، والتى تسود مناطق الفحم فى ديرهام وغيرها ، ووجد بدلا منها مدنا جميلة بحدائق يسكنها عمال الفحم أو عمال كروب أو غيرهم .

وقال ريد إن مشاهد الرخاء والتقدم فى ألمانيا ما بين سنتى ١٩٢٨ و ١٩٣٢ جعلته يسأل نفسه « ماذا كسبت بريطانيا خلال قرن من الازدهار والأمن والانتصار فى الحرب العالمية .. وماذا خسرت ألمانيا من هزيمتها ، وهلا يكون من الأفضل — فى المدى الطويل — لو هيمنت ألمانيا على أوروبا مادامت تستطيع أن تدير الشئون بأفضل مما نديرها؟

ولاريب أن جزءا كبيرا من هـــذا الازدهار أو على الأقل مايتعلق منه بالناحية الاجتماعية وضمان حقوق العمال يعود إلى الحزب الديمقراطى الاشتراكى الذى كان يفخر ، وله الحق ، أنه زاد هذا الميدان ، وشق طريقه فيه ، وأنه سيمضى فيه قدما رغم مضايقات الشيوعيين من اليسار والغلاة من اليمين .

صحيح إنه فقد المبادأة التى كانت له فى الأيام الأولى للثورة ، ولم يصبح المستشار منه منذ فترة طويلة ، وأنه اضطر للتعاون مع أحزاب الوسط والديمقراطيين ولـكن هـــذا لم يكن ليضيره كثيرا لأنه لايخالف فكرته الأساسية عن الديمقراطية البرلمانية القائمة على الأحزاب ، وهو بعد يستطيع التأثير خلال أى تحالف تأثيرا يتناسب مع عدد أعضائه فى الرشيستاج .

وكان الضعف الرئيسى فى مثل هذه السياسة هو فى « الروح » أكثر مما كان فى الأسلوب. فلم يكن الخطأ فى التحالف فى حد ذاته ، ولكنه كان فى التسليم ، إذ لا يكون للتحالف عندئذ من معنى إلا التبعية . وعندما كان التحالف يخير الاشتراكيين بين البقاء فى التحالف ومايقتضيه من النزول على رغبة شركائهم ، أو التمسك بآرائهم ، وماقد يقتضيه ذلك من استقالة ، فإنهم كانوا يفضلون دائما البقاء على أساس أن ذلك هو أضعف الإيمان ، أو أقل الشرين . وفى ظل هذا المنطق سارت سياسة التسامح حتى تسامحت فى حياة الجمهورية نفسها ، ولم يتنبه الاشتراكيون الديمقراطيون إلى خطئهم إلا أخيرا جدا ، وبعد أن كانت كل فرص الإصلاح قد ضاعت .

ولهذا السبب نفسه كان الحزب الاشتراكى الديمقراطى موفقا فى المعارضة أكثر مما كان فى الحكم، لأن بقاءه فى الحكم كان رهناً برضا شركائه ومن ثم كان عليه إذا أراد البقاء استرضاءهم الأمر، الذى لم يكن موجودا بالطبع فى المعارضة. وقد يصور ذلك أنه وهو فى المعارضة استطاع أن يحقق قانون التأمين من البطالة لسنة ١٩٢٧ ولكنه عندما ولى الحكم فى السنة التالية قبل الانتقاص من المزايا التى تضمنها القانون كما سيلى .

كما قد يصور هذا الموقف بطريقة دراماتيكية قضية بوارج الحبيب فعندما أسفرت انتخابات سنة ١٩٢٨ عن ظفر الحزب الاشتراكى الديمقراطى بأغلبية المقاعد (١٥٢ مقعدا) على حين لم يظفر الحزب الشيوعى بسوى ٤٥ مقعدا وحزب الوسط بسوى ٦١ مقعدا الف هرمان مولر وزارة ائتلافية ضمت كتلة الوسط والديمقراطيين وكان من الموضوعات الأولى التى جوبهت بها الوزارة الجديدة قضية بوارج الجيب التى كان الرشستاج قد أقرها فى الدوره السابقة ولكنها كانت موضوع معارضة شديدة من الاشتراكيين وبرزت هذه المعارضة فى فى المعركة الانتخابية وأخذت صورة التساؤل « بوارج الجيب .. أم مراكز تغذية الأطفال » .

وكان فوز الاشتراكيين يعنى استبعاد موضوع البوارج ، ولـكن العناصر العسكرية القوية أصرت على ضرورة صناعة هذه البوارج وأصبح مولر أمام أمرين : إما أن يثير أزمة وزارية تعرض الوزارة الجديدة للسقوط إذا أصر على عدم صناعة هذه البوارج ، وإما أن يتنكر للدعاية الانتخابية المعلنة للحزب . وانتهى إلى معارضة المشروع على أساس أن وزراء الأحزاب المؤتلفة لن تقبل ، وعندئذ يقبلون بفكرة ضغط الأغلبية عليهم ، بيد أن الوزراء الديمقراطيين أيدوا الاشتراكيين ، ولم يعد لهؤلاء عذر . ولـكن لو أن مولر وقف موقف المعارضة لاستقال عدد من الوزراء — منهم مستر سمان الثمين ، والذى رأى مولر أنه لا يستطيع الاستغناء عنه فضلا عن اكتساب عداوة العسكريين ، ولهذا آثر مولر أن لا يعترض على بناء البوارج . وأثار هذا ـ كما هو منتظر ـ موجة من الاحتجاج والاستياء ، ورفضت الهيئة البرلمانية للحزب فى الرشستاج هذا القرار ، وعرضت للتصويت قراراً مضاداً برفض صنع البوارج . . ولـكن القرار لم يظفر بالأغلبية . . وكشفت هذه القضية عن ضعف الحزب ، وعدم ثقته فى نفسه وعدم تملكه لأزمة القيادة بالحسم والعزم المطلوبين .

* * *

وكانت السياسة التى انتهجتها النقابات ـ وهى بعد كل شىء القاعدة الشعبية للحزب تماثل فى روحها سياسة الحزب الاشتراكى ، فمع أن النقابات بدأت تستشعر شيئا من القوة بعد انحسار موجة التضخم وعودة الازدهار ، إلا أن هذا الإحساس لم يكن مطلقا . فقد كان قبل التضخم أقوى منه بعده . كانت النقابات سنة ١٩٢٢ تضم ٧٫٨٠٠٫٠٠٠ عضوا ولـكنها سنة ٢٤ كانت تضم ٤٫٦٠٠٫٠٠٠ عضوا ، ولكن أهم من هذا الانخفاض فى العضوية الذى لم يكن ملحوظا فترة الازدهار لأنه جاء بعد انسحاق التضخم ، أن سياسة العمل النقابى كانت

تبتعد شيئا فشيئا عن العمل الذاتى والكفاحى الذى تمارسه النقابات نفسها عن طريق الاتفاقيات الجماعية ، وتتوصل به إلى تقرير شروط وظروف العمل ، قدر ما كانت تقترب إلى سياسة التحكيم والاعتماد على الدولة . وهى سياسة مهما كانت حسناتها ، فإنها تشعر العمال أن النقابات ليست هى الأداة الفعالة والحاسمة فى الموضوع ، وإنما هى أجهزة الدولة فيبدأ احساسهم بالحاجة إليها والتمسك بها فى الضعف ، وقد أدت النقابات دورا كبيرا فى وضع وإقرار قانون تأمين البطالة سنة ١٩٢٧ ، ولكن هذا الدور لم يبرز تماما لأنه ذاب فى فى القالب التشريعى الذى تتولاه سلطات الدولة .

وحاولت النقابات أن تعوض هذا النقص بالنشاط فى مجالات أخرى كالرعاية الاجتماعية والإسكان والتأمين الاجتماعى على أساس تعاونى . ومامن شك فى أن هذه الجهود قدمت خدمات ومساعدات لعدد كبير من العمال ، ولكن أثرها على الاقتصاد القومى كان معدوما فضلا عن أن عناية النقابات بهذا الجانب من النشاط كان بالطبع على حساب مهامها الأصلية .

ومما يثير الدهشة أن النقابات والحزب واصلا سياسة الاحتفاظ بالشعارات الثورية فى المؤتمرات والبرامج رغم سياسة التهدئة والتدريج والمساومة التى كان يتبعها عمليا، فقد تضمن برنامج الحزب الذى وضع فى مؤتمر هيدلبرج التعبيرات الماركسية القديمة مثل « إن عدد البلوريتاريا ينمو .. والصراع مابين المستغلين والمستغَلين يزداد عنفاً وتصبح الحرب الطبقية مابين الرأسماليين الحاكمين والعمال المكبوتين أشد وحشية » وهى كلمات لم يكن لها أى صدى عملى .

وبالمثل قرر مؤتمر النقابات الذى عقد فى برسلو Breslau سنة ١٩٢٥ تحويل مجلس الاقتصاد القومى المؤقت Provisional Nathional Econonmic Conncil إلى « برلمان إقتصادى سليم » وطالب بترشيد الصناعة ولم يكن من

ناحية العمال على الاقل لهذه المطالب صدى عملى . وأهم من هذا أن البرلمان الاقتصادى المنشود لم يكن ليفيد العمال كثيرا مادامت أعنة الصناعة فى أيدى الرأسماليين، إذ ستكون النقابات فيه فى موقف يشابه الحزب الاشتراكى الديمقراطى فى الوزارة ، وأن الدعوة للترشيد على مافيها من وجاهة موضوعية، إلا أن هناك احتمال أن يؤدى الترشيد ، مادام النظام الاقتصادى رأسماليا ، ومع ضعف الحركة النقابية إلى الاضرار بالعمال حتى مع انتعاش الصناعة والاقتصاد.

وماذا كانت مواقف الشيوعيين وهم القوة العمالية الثالثة بعد الحزب الاشتراكى الديمقراطى والنقابات؟ كان النحس النظرى لا يزال يلاحق الشيوعيين فعلى أثر القومة الشيوعية الفاشلة سنة ٢٣ التى راح ضحيتها براندلر ، وثب على زعامة الحزب روث فيشر وماسلو وهم من دعاة اليسار الهجومى ، فنبذا سياسة الجبهة المتحدة وشنا حملات متوالية على الحركة النقابية والحزب الاشتراكى الديمقراطى ، ولكن سقوط الأصوات الشيوعية فى الرشستاج هذه الفترة حكم على السياســـة بالفشل ، وهكذا ضحى بفيشر وماسلو وطردا (كما طرد ليفى وبراندلر من قبل) وانفرد تايلمان بالزعامة وبدأ يعود مرة أخرى إلى سياسة الجبهة المتحدة، ولكن عندما كون الحزب الاشتراكى الديمقراطى وزارة مولر الائتلافية عادت مرة أخرى حملات الشيوعيين على «الفاشست الاشتراكيين» وكانت الظروف السياسية فى الاتحاد السوفيتى وراء ذلك. ومع أن أنصار براندلر حصلوا على أغلبية فى اللجنة المركزية وأسقطوا تايلمان إلا أن الأوامر صدرت من موسكو بإعادة تايلمان على رأس اللجنة . ونفذ الأمر بالطبع فورا .

وحدث وقتئذ بضعة حوادث كانت ذات آثار بعيدة المدى على الحزب الشيوعى والحزب الاشتراكى الديمقراطى .

ففى خريف سنة ١٩٢٨ طالب عمال الصلب والحديد فى المنطقة الغربية من

المانيا بزيادات فى الأجور ، ورفض أصحاب الأعمال كالعادة ، فعرض الأمر على التحكيم الذى قضى بزيادة تبلغ خمسى (٢/٥) الزيادة التى طلبوها، وقبل العمال ولكن أصحاب الأعمال رفضوا رغم أن حكم التحكيم ملزم قانونا ، وبدلا من الانصياع لجأوا إلى الإغلاق ، وهو فى مثل هذه الحالة يعد عملا غير مشروع فتعطل مائتا ألف عامل ، فضلا عن ألوف أخرى من العمال الذين يعملون فى صناعات تتوقف على الصلب والحديد . ولما كان القانون يحكم للعمال فى مثل هذه الحالة باعانة بطالة من الدولة ، فقد تدخلت الحكومة فى شخص وزير الداخلية سيفرنج الذى أمكنه اقناع أصحاب الأعمال بقبول زيادة طفيفة فى الأجر تقل عن زيادة الخمسين المحكوم بها للعمال. وكان هذا انتصارا لأصحاب الأعمال على العمال الذين تملكتهم المرارة خاصة وأن الذى أشرف على هذه النهاية الفاشلة كان وزير الداخلية الاشتراكى الديمقراطى ولم يقصر الشيوعيون فى استغلال هذه الفرصة للتنديد بالاشتراكيين الديمقراطيين . وعندما أخذ أصحاب الأعمال فى الاستغناء عن العمال نتيجة للأخذ بنظم الترشيد وللاحساس بأولى بوادر الأزمة بدأ الشيوعيون فى تنظيم مظاهرات العمال العاطلين الذين جاوز عددهم ثلاثة ملايين استثنى منهم قرابة نصف مليون من حق تقاضى إعانة البطالة ، فأصبحوا أعداء دائمين للنظام .. وأصدقاء مقربين للشيوعيين .. ومع أن هذه المظاهرات التى استهدفت اجتذاب العمال للاضراب كانت فاشلة لأنها كانت خارج إطار التنظيم النقابى ، الذى ينظم الاضرابات ، إلا أنها على حد تعبير كتاب « المطرقة أو السندان » تبلور كلمات بيرنشتين عن أن « الحركة هى كل شىء . . والهدف لاشىء » وكانت النتيجة الوحيدة هى فصل العمال الشيوعيين بحيث أصبح الحزب الشيوعى حزبا من العمال المتعطلين .

فى هذا الجو المكفهر حل أول مايو سنة ٢٩ وكان الاحتفال بيوم أول مايو من التقاليد العريقة فى الحركة النقابية الألمانية التى حاربت فى سبيلها من

أيام بسمارك . ولكن زورجيبل Zorgiebel مدير بوليس برلين الاشتراكى الديمقراطى الذى خشى هذه الملابسات أصدر أمراً بمنع المظاهرات فى الميادين العامة . واهتبل الشيوعيون هذه الفرصة لتحدى أوامر البوليس ودعوا العمال للتظاهر . ولبى العمال الدعوة فاكتظت أحياء عديدة بالعمال وأطلق البوليس النار على العمال المتظاهرين والعزل الذين دافعوا عن أنفسهم بقدر استطاعتهم، وظلت المناوشات يومين بعد اليوم الأول، وقتل خمسة وعشرون عاملا وأصيب عدد آخر كبير . وحاول زوجيبل تبرير إطلاق البوليس النار على العمال ، بأن العمال هم الذين بدأوا وأنهم أصابوا عشرين بندقية من بنادق البوليس ، وإن لم يصب البوليس نفسه بسوء . واستولت الصحف على هذا القول وأخذت تتندر بقدرة العمال الفائقة على التصويب .. وأعاد هذا الحادث ذكرى نوسكه، وأطلق الشيوعيون اسم « زوجيبل » على القيادات النقابية والاشتراكية . وبقدر ماأدى هذا الحادث إلى انحياز عدد كبير من العمال إلى الشيوعيين ، فإنه عمق الهوة مابين الشيوعيين والاشتراكيين ، وزاد فى العداوة بينهما بحيث استحال اتفاقهما لمحاربة العدو المشترك ــ النازية .

ولم تكن متاعب الجمهورية والحزب الاشتراكى الديمقراطى لتقتصر على هذه المواقف من الشيوعيين والنازيين . إذ برزت ظاهرة أخرى لم تكن مألوفة فى المجتمع الألمانى ، حتى جمهورية فايمار ، أو على الأقل لم تكن معلنة . تلك هى « الفساد » الذى سمحت به بيئة الجمهورية من حرية أو تسامح ، على نقيض ماكان يأخذ المجتمع الألمانى نفسه به قبلا من ضبط والتزام وتدقيق . ولم تكن بيئة الجمهورية تسمح بظهور هذا الفساد فحسب، بل انها أيضا كانت تعمل على إعلانه وعلى أن يأخذ شكل الفضائح العامة التى تقتنصها الصحف المعارضة وتأخذ وتعيد فيها أو تتناولها المحاكم بالدرامه ومناقشة التفاصيل والاستماع إلى الشهود والمرافعات الخ . . مما يضاعف من أثرها السىء . وقد

لاتكون بيئة الجمهورية ونظامها الديمقراطى الحر هو الوحيد المسئول ، إذ من المؤكد أن الحصار الذى تلى الحرب ، والحرب الأهلية ، والتضخم الذى أدى إلى تحلل خلقى جاوز كل الحدود المعروفة وقتئذ كلها ساعدت على ابراز الفضائح العامة ، ولكن كائناً ما كانت الأسباب ، فقد وضعت تحت عنوان واحد هو جمهورية فايمار .

وكانت أولى القضايا الذائعة قضية ارزبرجر ، فبعد أن تناول بالنقد اللاذع السياسة المالية لأحد رجال الدولة السابقين ويدعى كارل هلفريش ، اتهمه هلفريش ببعض التصرفات الشائنة . وأدانت إحدى محاكم برلين ارز برجر بالفساد البرلمانى .

وبعدها جاءت فضيحة الاخوة سكلارز Sklarz وهم أخوة أربعة بدأوا من سنة ١٩١٨ فى بيع مخلفات الحرب . وكان فى هذه المخلفات قلاع وحصون كاملة مثل هيجولاند ودانزيج . وساعدهم فى هذه الصفقات عدد من النواب والموظفين حتى أثروا ثراء فاحشاً وأخذوا يقيمون حفلات باذخة فى قصرهم . وأخيراً كشفت الفضيحة وأدانهم القضاء .

ومن القضايا التى رزقت شهرة كبيرة قضية الأخوة بارماتس Barmats وهم ثلاثة جوليوس ، وسالمون وهرشل . وقد استطاعوا بحكم صلاتهم السياسية أن يحصلوا على اعتمادات وقروض لاتتناسب مع الضمانات التى قدموها ، أو بدون ضمانات ، فاقترضوا من بنك بروسيا ٤٣ مليون ماركا لقاء ضمانات لاتساوى أكثر من مليونين ونصف مليون كما أقرضتهم هيئة البريد أربعة عشر مليوناً مقابل أوراق مالية لاتتعدى أربعة ملايين . واستمرت هذه العمليات المالية عدة سنين قبل أن تكتشف ويحكم بالسجن على الأخوة بارماتس .

وتماثل القضيتين السابقتين قضية الاخوة سكلارك Sklarek . وهم ثلاثة كذلك . ماكس وليو وويلى وقد جاءوا بعد الثورة من بوسترا ، وبتعبير « إدجار مورر » مؤلف كتاب « المانيا تعيد الساعة إلى الوراء » فقد شاء جيوهوفا أن تكون لهم صلات عرضية ببعض رجال الادارة فى برلين . ولما كانوا موهوبين فى فن « الانبساط » فلم يعسر عليهم أن يظفروا بمعظم عقود ملابس وأقمشة الهيئات الحكومية والمستشفيات ، كما تلقوا مبالغ جسيمة لقاء عقود وهمية ، وفى مقابل هذا كانوا يزودون كل موظفى بلدية العاصمة تقريبا بالملابس مجانا .. ويعقدون حفلات باذخة تقدم فيها « تلال من الكافيار وبراميل من الشمبانيا » .. كما كانوا يحتفظون باسطبل خاص لخيل السباق .. وبعد محاكمة استمرت ثلاث سنوات حكم على الاخوة سكلارك بالأشغال الشاقة .

ومع أن سجل الفضائح والفساد لايقف عند هذا ، وأنه يحفل بقضايا مثل قضية د.ك Dumke المدير العام لإحدى شركات التأمين. ورجل المال لودفيج كاتزنليوجين Katzenellanbogen المصرفى المغامر. الخ .. إلا أن الحالات الثلاث الأولى لها أهمية خاصة لأنها كلها تدور حول عدد من الاخوة اليهود الذين استطاعوا بالرشوة والفساد واصطناع رجال الادارة تكوين ثروات ضخمة وكانت مثل هذه الحالات تعد لقيه ثمينة للصحافة النازية بوجه خاص لأنها تمكنها من أن تضرب عصفورين بحجر واحد ، أعنى أنها تمكنها من مهاجمة اليهود ، والجمهورية معاً ، خاصة وأن بعض المتسببين فيها ، أو المتورطين معها كانوا أعضاء فى الحزب الاشتراكى الديمقراطى .

كانت هذه المشكلات والمنازعات تتداخل ،فمشكلة التعويضات الاقتصادية كانت ترتبط بمشكلة فرساى السياسية واحتلال الرين ضماناً للدفع ، كما

كانت ترتبط بالمشكلات الداخلية ، كمشكلة البطالة والتأمينات وغيرها .
وكان فى الوزارة شخص واحد على الأقل يعرف ما يريد ، ويعمل بكل قوة ليخلص من هذه المتاهات ، ذلكم هو سترسمان وزير الخارجية ،وكان مايريده هو أن يحقق السيادة الالمانية وتطهير التراب الالمانى من احتلال الحلفاء له وكانت معاهدة فرساى قد قضت باحتلال منطقة الرين « الرينلاند » وقسمتها إلى ثلاثة أقسام تجلى القوات منها مابين ١٩٢٥ و ١٩٣٥ ، وتم الجلاء بالفعل عن المنطقة الأولى. ولما كان من أهم أسباب هذا الاحتلال ضمان دفع التعويضات ولم يكن مشروع داوز يعالج هذه النقطة بطريقة حاسمة ، فقد أراد سترسمان الاتفاق مع الحلفاء عليها ، وفى الوقت نفسه فقد كان هناك احتمال توقف هذا التيار المتدفق من القروض الخارجية . وفى منتصف ديسمبر سنة ٢٨ وبعد اتصالات متوالية ومكثفة من سترسمان وافقت فرنسا وبريطانيا على تكوين لجنة من الخبراء للنظر فى الموضوع ، ووافقت الولايات المتحدة على الاشتراك واجتمعت اللجنة المختصة فى فبراير سنـــة ٢٩ وضمت فردين عن كل دولة ورأسها العضو الأمريكى أوين . د . يونج . وفى ٧ يونيو سنة ٢٩ وضعت المشروع الذى أطلق عليه مشروع يونج وكفل لألمانيا السيادة التامة على أرضها مقابل أن تدفع أقساطا سنوية تصاعدية تبدأ من ١ر٧ بليون مارك فى السنة الأولى إلى ٢ر٥ بليون سنة ١٩٦٦ ثم تنزل بعدها إلى ١ر٥ بليون حتى سنة ١٩٨٨ . وتقرر تشكيل بنك للتسويات الدولية يتلقى هذه الأقساط ويوزعها .
وكانت هذه التقديرات على جسامتها أقل من أى تقدير آخر . وان كان يعيبها أنها لم تربط المدفوعات بمستويات المعيشة أو أرقامها القياسية وإنما بمعيار الذهب . ولكن هذا لم يكن ليثبط سترسمان بل لقد أبدى تنازلا آخر فى سبيل استحثاث الجلاء الأمر الذى تذرع به شاخت الذى اشترك فى المفاوضات لكى ينفصل من الاتفاقية وينحاز إلى اليمين المعارض . كان سترسمان يكافح أيامه

الأخيرة ضد المرض ليتحقق أمل حياته وفى أكتوبر سنة ٢٩ مات بالفعل ، ولكن بعد أن وضع الأساس لجلاء القوات الأجنبية وفى ٣٠ يونيو سنة ١٩٣٠ غادر آخر جندى فرنسى وبريطانى منطقة الرينلاند وتحررت ألمانيا من أسوأ آثار الهزيمة .

على أن مشروع يونج لم يقابل بترحاب أو برضا من المعسكرات اليمينية التى بدأ حزب النازى يظهر فيها، كما خضع الحزب الوطنى الألمانى لنفوذ هوجنبرج وطموحه . ونظمت هذه المجموعات معارضة قوية للمشروع واستطاعت فى سبتمبر سنة ٢٩ أن تجبر الحكومة على اجراء استفتاء على قبول مشروع يونج، وأظهر الاستفتاء أن أقل من ستة ملايين من قرابة ٤٥ مليونا هى التى أيدت معارضة المشروع .

وكانت الصخرة التى تصدع عليها الائتلاف الوزارى هى المشكلات الداخليه فقد كانت سنة ١٩٢٨ هى قمة الازدهار الالمانى ، وبدأت بعده نذر الانحسار فوراء هذا الازدهار كانت القروض التى انهالت على ألمانيا ، وكان يمكن لألمانيا أن تبنى بفضلها صناعتها من جديد ، لولا أن ألمانيا كانت مطالبة فى الوقت نفسه بتسديد أقساط التعويضات الباهظة فكانت تأخذ من أمريكا لتعطى فرنسا وانجلترا ، وكانت تسدد فوائد القروض القديمة بقروض جديدة ولم تترك لها « فترة سماح » تمكنها من استثمار القروض استثمارا طويلا، أو اعادة الاستثمار . ولم يكن هذا الوضع بالوضع السليم أو الذى يمكن أن يدوم ولكن لم يكن لألمانيا خيار فمضت تستمتع به .. وتفيد منه ، حتى جاءت سنة ١٩٢٩ فتقلصت القروض التى قدمتها أمريكا لالمانيا من بليون دولار فى السنة السابقة إلى ٢٢١ مليون دولار . كان هوس المضاربات المالية على أشده فى الولايات المتحدة وقتئذ واغراء الاثراء السريع هناك يفوق أى اغراء

آخر ، كما وقفت عملية الترشيد فى الصناعة الألمانية بعد أن خلفت عددا كبيرا من العاطلين . . وتضافرت هذه العوامل كلها على الحكومة . فعجزت عن موازنة مصروفاتها وإيراداتها ، وتمسك شركاء الحزب الاشتراكى الديمقراطى فى الوزارة بخفض مزايا التأمينات ، وخاصة تأمين البطالة ، ولم يكن المستشار مولر ليستطيع تخفيض تأمينات البطالة للمعارضة العنيفة التى أبدتها النقابات والجناح اليسارى للحزب الذى كان يقوده الشيوعى القديم « بول ليفى » الذى عاد إلى الحزب الاشتراكى الديمقراطى بعد حياته العاصفة فى المعسكر الشيوعى.

ومع أن هيلفردينج المنظّر الاقتصادى للحزب والذى كان يتمتع بنفوذ كبير أيد التخفيض كأمر لامحيص منه ، فإن أغلبية الحزب وقفت ضد الفكرة . وعندما طلب مولر من الرئيس هندنبرج استخدام سلطات الطوارى الاستثنائية التى كانت تجيز قرارات الحكومة رغم معارضة الرشستاج سأل هندنبرج القادة العسكريين عن مدى صواب اتخاذ هذا الاجراء ، فنصح جرونر ، وزير الدفاع ومساعد المارشال أيام الحرب ، وشليشر الذى كان يأتى فى الدوائر العسكرية بعد جرونر . برفض الطلب وذكر شليشر أن هناك مرشحا لرآسة الوزارة يمكنه أن يكسب أغلبية البرلمان المترددة هو هنريش برونتج . ونتيجة لذلك رفض هندنبرج طلب مولر . ولما كان مولر يعلم أنه ليس له الأغلبية فى الرشستاج فلم يعد أمامه إلا الاستقالة ، فاستقال وكان آخر اشتراكى ديمقراطى يشغل منصب المستشار .

ومن هـــذه اللحظة فقد الحزب الاشتراكى الديمقراطى صفته كأكبر الأحزاب الألمانية وانفسح الطريق أمام العودة إلى الوراء . . وانتهت تلك الحقبة القصيرة التى اشبهت الصيف الهندى فى حياة الاشتراكية الديمقراطية . . ولم تلبث أن تحطمت على صخور اليقظة .

الفصل التاسع عشر

المستشار البرلمانى الاخير

كان المستشار برونج رجلا قديرا، وعلى جانب كبير من الشجاعة والنزاهه اعترف له بها الأصدقاء والأعداء. ولو كان بمكنة رجل واحد أن يوقف التيار أو يجمد المد لكان من المحتمل أن ينجح برونج، ولكن تجربة التاريخ توضح لنا أن هذا أمر بعيد، وأن رجال الدولة وعباقرة السياسة إنما ينجحون فى دفع التيار أو توجيهه وليس وقفه أو تجميده، وأن قصارى ما يمكن أن ينجحوا فيه لو أرادوا الوقف هو التأخير وقتا ما .. ليأتى بعد ذلك الطوفان بدفع مضاعف.

بالاضافة إلى هذا العامل الموضوعى، فإن برونج كان رجلا من المدرسة القديمة يعمل بالطرق التقليدية ويحاول أن ينقذ الميزانية على حساب الذين وضعت من أجلهم هذه الميزانية. ولم يتبين خطأ ذلك لأنه لم يكن رجلا شعبيا فخسر صداقة الطبقة العاملة دون أن يكسب تأييد الطبقات المميزة التى كان يفترض أن تقف بجانبه.

وبدأ برونج عمله بالحملة على الأسلوب السياسى الذى أدى بالبلاد إلى هذه الحالة، واتهم الأحزاب بتمزيق وحدة البلاد ودعا أعضاء الرشستاج لأن يجدوا سبيلا للعمل وإلا فإن الرشستاج سيحفر قبره بنفسه.

وكان هذا حقيقيا ، ولكنه كان ثمرة النظام الحزبي الذي كان برونج نفسه باعتباره زعيم الحزب الكاثوليكي ، جزءا منه ، وكان من المستحيل أن يخلص ، هو أو سياسته منه ، ماظل كذلك ، ولم يكن هو من الشعبية بحيث يجمع الشعب حوله ، وقد وجد نفسه بحكم الظروف المعقده ، وتبعا للأفكار السائدة منساقا للعمل بطرق ديكتاتورية ولأهداف تضاد رغبات وآمال الجماهير ، وربما تختلف عن طبيعته عندما كان يقرع الرشستاج ويحذره أن يحفر قبره بيديه ، وأن يكون هو — برونج — المستشار البرلماني الأخير .

كان برونج يسابق الزمن فانهيار البورصة في الولايات المتحدة كان بداية للانهيار المالي والمصرفي أوقف التيار الذهبي الذي كان يتدفق على ألمانيا ويحمل إليها الحياة ويمكنها من دفع التعويضات . واستهدف برونج ضغط المصروفات بكل طريقة فخفضت الأجور ومزايا التأمينات وزيدت الضرائب الموجودة ، كما أضيفت ضرائب جديدة كان بعضها يسوي بين الغني والفقير كضريبة المواطن Citizen Tax التي أطلق عليها الشعب ضريبة العبد Nigger Tax وكانت تفرض على كل ألماني مبلغا واحدا سواء كان شحاذا أو مليونيرا ، وأشبهت بذلك ضريبة الرؤوس Poll Tax التي كانت السبب المباشر في اشتعال ثورة الفلاحين في القرن الرابع عشر في بريطانيا وعندما ضاق الرشستاج بهذه الاجراءات استصدر برونج قرارا بحله وواصل الحكم بمراسيم الطوارىء الاستثنائية التي كانت المادة ٤٨ تعطيها لرئيس الجمهورية .

ولم يكن حل المشكلة الاقتصادية ليتأتى بزيادة الضرائب وضغط الانفاق فقد تنبه المجددون من رجال الاقتصاد الرأسمالي وقتئذ إلى عقم هذه السياسة وعجزها عن تخليص المجتمع من الأزمة واهتدوا إلى فكرة « الأشغال العامة » وكان يمكن للنقابات أن تتنبه إلى مثل هذه الفكرة التي كانت تعالج أول ماتعالج البطالة ، وهناك مايدل على أن النقابات الالمانيه فكرت في هذا ولكن

الحزب الاشتراكى الديمقراطى الذى كان يفترض أن يكون أكثر تقدمية من النقابات رفض الفكرة ، لانه كان أسيراً للأوضاع المائلة بحيث سلك هيلفودنج منظر الحزب السلوك الذى سلكه سنودن وزير مالية حكومة العمال البريطانية سنة ٢٩ عندما تمسك بانقاذ الجنيه .. وليس بانقاذ العمال وسلك المسلك الانكماشى بما يقتضيه من ضغط النفقات والتأمينات .. الامر الذى لم ينقذ الاقتصاد وإن كان قد أسقط الوزارة ، وكما فعل هوفر فى الولايات المتحدة أيضاً.

وتحدث و . س . ويتنسكى الذى كان يعمل وقتئذ فى خدمة اتحاد النقابات الحره « الادجيب » عن خطة للمشروعات العامة تقدم بها إلى النقابات ومالت هذه إلى تقبلها ، ولكن أوتوفيلز ، رئيس الحزب الاشتراكى الذى حضر الاجتماع عارض الفكره وسأل الخبير الاقتصادى الذى احضره ويتنسكى .

— وما الذى سنبنيه ؟ لدينا ما فيه الكفاية من الطرق والبيوت هل تريد منا أن نبنى أهرامات كما كانوا يفعلون فى مصر .

واجاب الخبير :

— هذه فكرة ممتازة ياسيدى النائب فى الرشستاج يجب على البلد الذى لا يستطيع أن يفكر فى شىء أفضل أن يبنى أهرامات لتكون تمثالا خالدا لغبائه . ولكنى آمل فعلا وببعض الجهود أن تجد ألمانيا مشروعا أفضل .

ومع أن المشروع ظفر بموافقة النقابات إلا أن الحزب رفضه وكان من المبررات العجيبه التى ذكر ويتنسكى أن الحزب ساقها لتبرير ذلك أن عليه أن يعنى بالعمال المشتغلين بالفعل « إن العاطلين يعطون أصواتهم للشيوعيين والنازى ، ويجب أن ندع لهذه الأحزاب أن تفكر فيما تعمله لهم » .

فإذا كانت هذه الأفكار بدت جديدة وغريبة للاشتراكين الديمقراطيين فمن الطبيعى أن تبدو كذلك أو اكثر لبرونج ، ومن ثم فقد فكر هذا

فى اجراء اتحاد جمركى بين ألمانيا والنمسا التى كانت تعانى من الضائقة التى تعانيها ألمانيا وكان هذا يحقق نوعاً من الانتعاش الاقتصادى والسياسى للبلدين، ولكن فرنسا رفضت الموافقة على مثل هذا الاجراء خشية أن يكون خطوة نحو وحدة البلدين ، وفى الوقت نفسه فان عدوى الانهيار المصرفى أصابت النمسا عندما تهاوى بنك كريدت انستالت Credit Anstalt الذى كان يهيمن على ثلاثة أرباع بنوكها ، وعندما طلب البنك مساعدة البنوك الأجنبية اشترطت فرنسا أن لا تتخذ النمسا أى خطوة نحو التوحيد الجمركى ، فاستقالت الوزارة النمساوية وأعلن «موراتوريوم». وهكذا ، فبدلا من أن يأتى الانقاذ من النمسا ، فإن تهاوى النظام المصرفى فى النمسا عجل بتهاوى البنوك الألمانية . فخلال أربعة أسابيع سحب من الريشبنك أكثر من خمسين مليون جنيه استرلينى ذهبا . وكان عليه أن يقبض يديه عن مساعدة البنوك الأخرى التى أغلقت أبوابها وأخذت البنوك الخارجية فى لندن ونيويورك وباريس تطلب ودائعها قصيره الأجل . وتهددت العملة الألمانية بأن تبلغ ما بلغته سنة ٢٣ فأرسل الرئيس هندنبرج نداء مؤثراً إلى رؤساء الدول ، وأيد الرئيس هوفر رئيس الولايات المتحدة هذا النداء مقترحاً اعلان « موراتوريوم » لمدة سنة يمكن خلالها لألمانيا أن تلتقط أنفاسها ، وتنظم أمورها ، ووافقت معظم الدول ولكن فرنسا تلكأت لمدة ثلاثة أسابيع قبل أن توافق بتحفظات واضاع هذا وذاك الاثر الطيب الذى كان يمكن للموراتوريوم أن يحدثه لو وافقت عليه فرنسا توا.

وتجلت فورا أعراض الأزمة التى كانت كامنه فزاد عدد العاطلين من ١٫٨٣٠٫٠٠٠ سنة ٢٨ إلى ٢٫٨٥١٫٠٠٠ سنة ٢٩ إلى ٤٫٣٨٤٫٠٠٠ مع نهاية عام ٣٠ إلى ٥٫٦٦٨٫٠٠٠ مع نهاية عام ٣١ ، وانخفضت الصادرات بنسبة ١٣ ٪ وبلغ العجز أكثر من بليون مارك وكان يجب بالإضافة إلى هذا كله دفع ما يقارب مائة مليون جنيه استرلينى سنوياً طبقا لمشروع يونج وهو مبلغ

كان يمكن أن يشترى من المنتجات والمواد ثلاثة أمثال ما كان يشتريه قبل ذلك .

ودعا برونتج الحلفاء للاجتماع للنظر فى قدرة ألمانيا على الدفع كما أمل أن يتجاوب معه مؤتمر نزع السلاح الذى تقرر أن يعقد فى فبراير سنه ١٩٣٢ وأن يكسبه انتصارا دبلوماسيا يعزز مركزه فى ألمانيـــا ، ولكن اجراءات مؤتمر التعويضات طالت وأخذت تمتد من شهر إلى آخر لمماطلة فرنسا . . كما دل التغيير الوزارى فى بريطانيا واستقالة وزير الخارجية هندرسون . . على أنه لا أمل يرجى من مؤتمر نزع السلاح .

وفى الداخل — كان المسرح السياسى يعرض رواية المفارقات والمتناقضات السياسية ، فلم يكن الذين تصدوا لمعارضة برونتج من النقابات أو العمال الذين كانوا ضحية قراراته الجائرة ، إذ قضت الرواية عليهم أن يمثلوا دور الحلفاء له، بينما تصدى للمعارضه من هم أقرب إليه . . الوطنيون بقيادة الفرد هوجنبرج ، والخوذه الحديدية بزعامة سيلدت وفون سيكت والنازى ورجال المال بقيادة شاخت . وفى اكتوبر سنة ٣١ اجتمع هؤلاء فى هارزبورج Harzburg وكونوا ماسمى جبهة هارزبورج لمعارضه برونتج .

وكأن هذه المشكلات كلها لم تـكف . . فقد كانت مدة الرئيس هندنبرج تنتهى مع آخر مارس سنة ١٩٣٢ . . وكان المرشح الوحيد سواه هو هتلر . وكان هذا يعنى النهاية لبرونتج ولـكل جمهورية فايمار فعمل برونتج بكل قوة وأيدته معظم الأحزاب ـ وعلى راسها الحزب الاشتراكى الديمقراطى ـ لاقناع الماريشال الشيخ الذى كان قد بلغ من العمر عتيا وسرى إليه وهن الشيخوخه بترشيح نفسه ، واستجاب هندنبرج لنداء الواجب ورشح نفسه ونال ١٨٫٦٦١٫٧٣٦ صوتا مقابل ١١٫٣٣٨٫٥٩١ صوتا نالها هتلر و ٤٫٩٨٢٫٠٧٩ صوت نالها تالمان

(مرشح الشيوعيين) ولما لم تكن الأصوات التي نالها هندنبرج تبلغ الأغلبية المطلوبة فقد أجريت انتخابات ثانية نال فيها الأغلبية .

ولم تكن هذه النتيجة انتصارا شخصيا خالصا لبرونتج ، لأن هندنبرج وإن كان أفضل من هتلر فإنه لم يكن يضمر ودا خاصا لبرونتج وتوالت الأحداث السيئة ، فلم يحقق برونتج نجاحا في مؤتمر نزع السلاح لمعارضة فرنسا، وفي ابريل سنة ٣٣ طرحت بريطانيا قاعدة حرية التجارة وفرضت ضرائب جمركية تتفاوت ما بين ١٠ ./ و٣٣ ./ فأضاف هذا عبئا جديدا على الصادرات الألمانية التي كان معظمها يدخل بريطانيا دون ضرائب .

وتوترت العلاقات مابين برونتج وهندنبرج عندما فكر برونتج في المساس بأملاك الاقطاعيين والبروسيين. وكان هندنبرج قد حصل من مولر كشرط لتصديقه على مشروع يونج — على مبلغ كبير لتعويض كبار الملاك عما حاق بضياعهم من خسائر . وكان ثمة تقارب طبيعي بين هؤلاء الملاك وهندنبرج زاد عندما أهدوا إليه ضيعة نيودك Neudeck . وعندما دفعت الضرورات برونتج لأن يفكر في استخدام بعض هذه الضياع لتوظيف عدد من العاطلين ثار هندنبرج وتحركت حاشيته « الكاماريلا » Camarilla التي كانت في الفترة الأخيرة قد اكتسبت نفوذا كبيرا ، واوعزت إليه بأن برونتج قد خضع لتأثير البولشفيك والاشتراكيين . وقام ابنه « أوسكار » بدور كبير بحيث أصبح الماريشال المسن على استعداد لاقالة برونتج .

وفي هذا الوقت كان شليشر الضابط السياسي المتآمر ينسج خيوط مؤامرة جديدة ،لقد كان هو المسئول بالدرجة الأولى عن إختيار برونتج ، وقد فشلت تجربة برونتج ، فلم يستطع أن يخضع الرشستاج أو أن يكتسب تجاوب الشعب وأصبح عليه أن يبحث عن رجل آخر يحقق له المعادلة التي يريدها . والتي

كان يجب بمقتضاها اكتساب تأييد الجيش وثقة النازى النجم الصاعد فى سماء السياسة الألمانيه الذى كسف شمس المجموعة الاشتراكية ـ الشيوعية ، واخضاع الرشستاج بحيث يصبح هيئة تصدق على القرارات التى تضعها الوزارة

كان شليشر يريد وزارة رآسية، تستمد سلطتها الاساسية من الرئيس، ولكنها فى الوقت نفسه ترتكز على تأييد أو على الأقل قبول الرشستاج ، وكانت هذه فى الحقيقة عودة إلى الطريقة الامبراطورية مع تغيير طفيف يتمثل فى وضع « رئيس الجمهورية » محل « الامبراطور » واعتقد شليشر أنه وجد الشخص المناسب فى « فون بابن » وهو ضابط من الفرسان، ينتهى إلى فصيلة « الجونكرز » البروسيين وفى الوقت نفسه فإنه يمت بصلة إلى كبار الصناعيين الذين أصهر إليهم فتزوج بنت أحد كبارهم . وظن شليشر أن فون بابن بحكم كونه ضابطا بروسيا وكاثوليكياً سيكتسب تأييد الوسط فى الرشستاج . أما بالنسبة للنازى فلم يكن خافيا أنه على علاقات وثيقة بعدد من زعماء النازى وخاصة الضابط « روم » قائد فرق العاصفة . وفى الأسبوع الأخير من ابريل عام ٣٢ أجرى شليشر اتصالاته مع روم وهيلدورف وأخيرا مع هتلر ، واستمرت هذه الاتصالات حتى الأسبوع الأول من مايو عندما عقدت الصفقة فى بيت شليشر ما بين حاشية هندنبرج (أو سكار هندنبرج ـ أو توميسنر) وبين هتلر على رفع التحريم الذى كان جرونر وزير الدفاع قد فرضه على فرق العاصفة بعد أن اقنع هتلر هؤلاء أن فرق العاصفة ليست جيشاً أو ميليشيا لحرب أهليه ، وإنما هى تنظيم حزبى للدعاية الانتخابية، وانقاذ الديمقراطية البرلمانية يتطلب الابقاء عليها ، وفى مقابل هذا تعهد هتلر بأن يؤيد فى الرشستاج الوزارة التى سيعينها الرئيس بعد سقوط برونتج . وكان على شليشر أن يطيح بجرونر وزير الدفاع ومساعد هندنبرج فى الأيام الأولى . ولم يثن شليشر عن ذلك أن جرونر كان « الأب الروحى » له الذى رعاه وأحبه منذ وقت طويل . واستطاع شليشر

أن يشوه صفحة جرونر لدى هندنبرج وأخبره أن من الممكن تشكيل وزارة تكتسب تأييد الرشستاج وتحكم بطريقة مشروعة ، وفى الوقت نفسه لا تكون من ممثلى الأحزاب وإنما من أشخاص يأتمنهم ويثق فيهم شخصيا ، فعاد هندنبرج إلى برلين ، وفى ٢٩ مايو طلب برونتج ـ الذى وإن أحس بخيوط المؤامرة ، إلا أنه لم يتصور أنها قد سارت إلى هذا المدى ـ ولما أدخل عليه قرأ المارشال من أوراق كتبت بحروف غليظة ليمكنه قراءتها وراء نظارتيه « بلغنى أن لديك فى الوزارة وزراء لهم خطط بلشفية . وهذا أمر لا يمكن أن يمضى طويلا » . وطلب منه إن لا يسأله اقرار مراسيم طوارىء بعد الآن . وكان معنى هذا أن يقيل الريشستاج برونتج إن لم يستقل هو . وفى اليوم التالى استقال برونتج واتصل أوسكار هندنبرج بجورنج وطلب منه إحضار هتلر فجاء هذا ، وأخبره هندنبرج أنه عين فون بابن مستشارا فهل يعتزم حقا تأييده فرد بالايجاب .

ولم يكن لدى فون بابن مقدرة إدارية أو سياسيه خاصة ولكن توفرت له مجموعة من « المواصفات » المطلوبه . فقد كان ضابطا بروسيا من ضباط الفرسان يحظى بثقه وعطف المارشال الذى رأى فيه صورة من شبابه ، كما كان بشوشا ، دبلوماسيا ، ناجحا فى الدوائر والنوادى الارستقراطية ، ولكنه لم يكد يبدأ العمل حتى اصطدم بالصعوبات . فقد رفض الوسط الكاثوليكى شروط بابن واقترح الدكتور كاس Kaas زعيم الوسط أن يقحم بالنازى فى السلطة وأن يقوموا بمسئوليتهم عمليا وعلنيا حتى يحرموا من وضع المعارضة الذى يمكنهم من النقد دون أن يوقعهم فى ضرورات التطبيق ، أو يلزمهم تحقيق وعودهم المسرفة ، ولكن هذا كان يختلف عن الصيغة التى أرادها هندنبرج وجاء فون بابن على أساسها . ووجد هندنبرج نفسه فى مأزق لا يستطيع التراجع فيه ، فأمر بتشكيل الوزارة من شخصيات سبق لمعظمها العمل تحت امرته ،

وتمت هذه العملية بسرعة . فعين كونستانس فون نورات السفير فى لندن وزيرا للخارجية ، وعين شليشر وزيرا للحربية وعين الكونت فون شورين كروسيك Schwiren Krosigk وزيرا للمالية . واختير فرانز جرتز وزيرا للعدل . وبهذه الطريقة تكونت فى الأسبوع الأول من يونيو « وزارة البارونات » كما أطلق عليها . وحل الرشستاج . .

وكانت الصعوبة الحقيقية التى واجهها بابن هى موقف النازى فقد كان يجب طبقا لشروط الصفقة اعفاء فرق العاصفة من الحظر الذى كان مفروضا عليها واطلاق حريتها ومنح رجالات النازى بعض المناصب الوزارية ، ولكن فون بابن تردد فى إطلاق حرية فرق العاصفة ، وطلب تأييدا مكتوبا من هتلر بتأييد الوزارة حتى بعد الانتخابات ولم يكن هتلر مستعدا لتقديم مثل هذا التأييد . وفى خلال هذا الوقت كانت فرق العاصفة تستعد لتستعيد حريتها كاملة ولتحتفل بانتصار « الفوهرر » بحيث ساد جو محموم ، ووقعت اصطدامات بين مجموعات من النازى ومجموعات من الشيوعيين والاشتراكيين فى بعض المناطق بحيث أعلنت الحكومة يوم ٩ أغسطس سنة ٣٢ الأحكام العرفية . وفى منتصف ليل هذا اليوم نفسه عمد خمسة من النازى إلى قرية بوتمبا Potempa من أعمال سيليزيا العليا واقتحموا بيت فحام شيوعى وانتزعوه من فراشه وأنهالوا عليه أمام أمه وأخيه ضربا وركلا حتى فاضت روحه وقبض على الجناة وابرق إليهم هتلر مؤيدا ومشجعا. وكان لهذا أسوء الأثر لدى كل الدوائر السياسية ـ باستثناء النازى بالطبع .

وتعددت الاتصالات ما بين هتلر وأعوانه من ناحية ، وبين بابن وشليشر من ناحية أخرى،وفى هذه الاتصالات طالب هتلر بالمستشارية بيما أبدى شليشر استعداده لمنح النازى منصب نائب المستشار ورآسة بروسيا وعددا من المناصب الأخرى .وقام صراع داخل بين النازى الذين يقبلون « نصف الرغيف » ويفضلونه

على لا شيء والذين يرفضون هذا النصف انتظارا للاستئثار بالرغيف كاملا في مستقبل قريب . وفي بعض هذه الاتصالات أوضح هتلر أنه لا يريد السلطة حبا في السلطة، ولكن ليستطيع القضاء على الماركسية . وكان هندنبرج يضمر نوعا من العزوف والزراية لهتلر ويضيق بأدعاءاته ويحس نحوه أحساس الضابط الارستقراطي البروسي نحو «عسكري» نمساوي فلما لم تسفر الاتصالات عن طائل تدخل هو ، وطلب هتلر فجاء هذا وفي رفقته روم وفريك . وكان هندنبرج إلى جانب حبه المفقود لهتلر يضمر كراهية لروم . فاستقبل الثلاثة واقفا ومتكئا على عصاه حتى يضطرهم للوقوف ، وليعطى الحديث معنى الاقتضاب ووقف وراء هندنبرج ابنه أوسكار ، وميسنر وبابن وشليشر وبادر هندنبرج الحديث قائلا :

— هر هتلر : إن لدى سؤالا واحداً أحب أن أوجهه إليك : هل أنت مستعد لتقديم تعاونك مع حكومة بابن .

وفوجيء هتلر بهذا الاستقبال المقتضب فتمتم بأنه عرض شروطه فسأل هندنبرج . . — وهكذا فأنت تطلب السلطة بأسرها . .

وذكر البيان الرسمي الذي صدر عن المقابلة أن هندنبرج رفض ذلك لأن ضميره وواجبه نحو الوطن لا يسمحان له بتسليم السلطة كاملة لحركة الاشتراكية الوطنية ، وأن الرئيس «يأسف لأن هر هتلر لا يرى نفسه في وضع يؤيد فيه حكومة وطنية تتمتع بثقة الرئيس الأمر الذي قبله من قبل» وما لم يذكره البيان الرسمي بالطبع هو أن هندنبرج زجروهتلر يختفي من أمامه .. « هذا الرجل مستشارا . . سأجعله « بوسطجي » يلصق الطوابع التي تحمل رسمي » . .

وفي هذا الوقت كان بابن يحاول أن يثبت وجوده على طريقته الخاصة

فاستطاع فى مؤتمر لوزان أن يخفض التعويضات المطلوبة من ألمانيا إلى قرابة ثلاثة بلايين مارك (١٥٠ مليون جنيه استرليني) تدفع بعد مهلة ثلاث سنوات وبذلك انتهت قصة التعويضات الشائكة التى أريد لها أن تستمر ستين سنة أخرى . وطالب بمحو « اثم الحرب » وأن تكون ألمانيا على قدم المساواة مع الدول فى التسليح ، وعندما رفض الحلفاء ذلك انسحب من المؤتمر .

وفى الداخل أوجد إدارة للعمل التطوعى فى انشاءات عامة امتصت ٢٨٠ ألفا من العاطلين ، وإن لم يقدم إليهم إلا المأوى والطعام وحاول أن يشجع المنشآت الخاصة بائتمانات من الدولة بأن أصدر « شهادات ضريبية » قيمتها قرابة سبعة ملايين مارك تعطى كقروض للمنشآت التى تستخدم مزيدا من العمال بواقع شهادات قيمتها ربعمائة مارك لكل عامل يستخدم ويمكن للمنشأة أن تسدد بها ماعليها من ضرائب . وأمل بابن أن ذلك سيؤدى إلى تشغيل مليون وسبعمائة وخمسين ألف عامل ، وفى الوقت نفسه سمح لأصحاب الأعمال الذين يستخدمون العاطلين بتخفيض الأجور المتفق عليها مع النقابات .

ولكن هذه السياسة حسنة أو سيئة لم تحظ بأى نوع من التأييد أو التجاوب فحتى ذلك الانجاز الضخم فى مجال التعويضات أطلق عليه هتلر « فشل بابن » لأنه رأى أن الالتزام بدفع ثلاثة بلايين - إذا كان من الممكن عدم الدفع إطلاقا - نوع من الفشل ، وقال « إن اتفاقيـــة لوزان لن تساوى بعد ثلاثة أسابيع ثلاثة ماركات » .

وعندما أجريت الانتخابات فى نوفمبر سنة ٣٢ هبطت أغلبية النازى فى الرشستاج من ٢٣٠ نائبا إلى ١٩٧ ولكنه ظل مع هذا أقوى الأحزاب، وتطلب الأمر أن يقابل هتلر هندنبرج مرة أخرى للنظر فى الوزارة المقبلة . واصطحب هتلر معه جورنج الذى كان هندنبرج يتقبله . وفى هذه المرة طلب منه الجلوس

وسمح له بالحديث لمدة ساعة . وبدأ لأول مرة يثير اهتمام الماريشال ، وفى المرة الثانية التى رجا فيها هتلر أن تكون المناقشة مكتوبة قرأ الماريشال « إنك لتعلم أنى أناصر فكرة الوزارة الرآسية . وأنا أعنى بالوزارة الرآسية وزارة لايقودها زعيم حزبى، ولكن رجل يقف فوق الأحزاب، ويتمتع بثقتى الخاصة» وأوضح ميسنر ، الذى كان نوعا من رئيس الديوان ، أن هذا لايعنى الحكم ضد البرلمان « كقاعدة فإن الوزارة الرآسية يمكن أن تقوم بالاجراءات الوزارية اللازمة دون الموافقة المسبقة من البرلمان ولكنها بصفة عامة تريد تصديق ، أو تقبل البرلمان ومن ثم فيفترض أن تحصل على تأييد الأغلبية» وقال هندنبرج لهتلر إنه لما كان قد أعلن أن حركته لاتؤيد إلا وزارة يرؤسها هو (أى هتلر) فإن عليه أن يحصل على الأغلبية ، فإذا حصل عليها فليخطره فى ظرف خمسة أيام .

وفى الوقت نفسه فقد اتضح بما لايدع مجالا للشك أن مغامرة فون بابن فى رآسة الوزارة — رغم ما يحق لها الادعاء به — قوبلت بعداوة كل الأحزاب باستثناء حزب الشعب الذى نال خمسين صوتا ، وأنه وقد يأس من نيل تأييد هذه الأغلبية ، أصبح يفكر فى فرض دستور جديد نصف اقطاعى ، ورأى شليشر أن عليه أن يقيله من المنصب الذى رشحه له . وهكذا فعندما اجتمعت الوزارة فى صباح ديسمبر أعلن نصف الوزراء أنهم سيستقيلون مالم يستقل بابن نفسه ، واضطر هندنبرج رغم ميوله الخاصة وتعاطفه مع بابن أن يعفيه من الوزارة على أن يظل مستشاره الخاص. ولم يكن هناك مرشح الا شليشر الذى كان بتعبير بابن نفسه الوحيد الذى يستطيع أن يرخى التوتر ويتجنب الخلاف مع الرشستاج ، ومع أن شليشر كان يفضل الحكم وراء الستار وأن يحرك الخيوط دون أن يظهر على المسرح ، فإن هندنبرج أصر على أن يتحمل المسئولية كاملة وعلنا .

ودخل شليشر الحلبة ، كما دخلها برونيج وبابن من قبل ، آملا التغلب على

الأزمة وخاصة «لعبة الأغلبية» ولعل شليشر بحكم أنه الأخير والأكثر خبرة كان أقدر من غيره، ومع ذلك فقد كان القدر يأتمر بهذا المتآمر الكبير ويدخر له فشلا ذريعا . . ونهاية شنيعة .

حاول شليشر أن يكسب النازى بطريقته التآمرية ، فعرض على أقوى شخصية جماهيرية فى الحزب – جريجور ستراسر – وليس على هتلر منصب نائب المستشار ورئيس بروسيا وكان ستراسر أحد منظمى الحزب القدامى ومن أصحاب الاتجاهات الاشتراكية والعمالية فيه. وكان قد استطاع أن يكون داخل الحزب تشكيلا عماليا يقوم على خلايا العنابر ويحمل الحروف الأولى N. S. B. O. ولكنه أضاع الفرصة السانحة . وبدلا من أن يعمل بسرعة ، فإنه عندما اختلف مع هتلر قدم استقالته وسافر إلى إيطاليا حيث الشمس الساطعة وأخذ يمضى أوقاته فى الشراب متصورا أن هتلر لابد وأن يأتى إليه معتذرا .

وبالطبع لم يأبه هتلر حتى وإن اعتبر جربلز وغيره أن الاستقالة كانت بمثابة « قنبلة » وعلى العكس لقد مكنه هذا التصرف من أن يحكم قبضته على الحزب وأن يحصل على توقيعات كل قيادات الحزب ، بما فيهم أصدقاء ستراسر نفسه الذين أوهنهم غيابه – بتأييد هتلر وإدانة ستراسر . وبهذه الطريقة فشل مخطط شليشر للحصول على تأييد النازى من وراء ظهر هتلر .

وحاول شليشر اكتساب تأييد النقابات ، فاتصل بتيودور ليبارت رئيس النقابات الاشتراكية الديمقراطية وتعهد له برفع كل الغبن الذى أوقعه بابن بالعمال — وبوجه خاص الانتقاص من الأجور ، بحيث كتب ليبارت إلى القيادات النقابية « إن الهدف الأخير للطبقة العاملة هو تحقيق الاشتراكية ، ولكنكم تعلمون أن النقابات إنما قامت لتحسين حال الطبقة العاملة فى إطار النظام الاقتصادى القائم » ومع أن قيادة الحزب الاشتراكى الديمقراطى أدانت

هذا الاتجاه ، فقد ظهرت فى صحف الحزب نفسها مقالات تنادى « دعوا شليشر يعمل » وارتأى ليبارت « إن الشيء الوحيد الذى نحن الآن فى حاجة إليه هو سياسة إنتاجية وعمل حازم لتحسين وضع العمال الألمانيين . وشليشر يحاول أن يحقق بعض مطالبنا . إن هـذه الحكومة لن تأتينا بالاشتراكية ، نحن عالمون بذلك . ولكن هل نستطيع فى هـذه الحالة أن نرفض نداء الحكومة للمساعدة فى توفير العمالة » .

وتحدث و . س . ويتنسكى عن مقابلة شليسر وليبارت فقال « ترددت الاشاعات أن رئيس الحكومة الجديد يميل إلى انتهاج سياسة وسط ، وعندما خاطب الصحافة أبدى بعض ملاحظات يراد بها كسب عطف العمال ثم دعا ليبارت إلى المستشارية وعقدت لجنة الادجيب اجتماعا طارئا للاستماع إلى تقرير ليبارت عن مقابلته مع الجنرال فقال ، « جلس قبالتى على المكتب ، ولكنه لم ينظر لى أبدا ، وبدا كأنما يحدث نفسه وقال إنه بوصفه رجلا عسكريا يفضل أن يخدم امبراطوره فى ساحة القتال ، ولكنه مستعد للدفاع عن الجمهورية ضد الشيوعيين والنازى ، وفى إمكانه أن يهدمهم إذا كانت لديه قوى يعتمد عليها ، وسألنى عما إذا كانت النقابات تؤيده إذا التزم تنفيذ برنامجها الاقتصادى أم لا .

وسألته عن نوع التأييد الذى يتوقعه منا فأجاب قائلا إن ذهنه كان يتجه للعمل المباشر والاضراب والقتال فى الشوارع ، وأخبرته أنه كان ينبغى أن يتوجه بكلامه إلى الرشستاج والحزب فقال إنه لا يثق بالسياسيين ، ولكنه على استعداد للعمل معنا ، لأنه يعتبرنا ألمانا طيبين وأمناء ، وكان يبدو مخلصا فى أقواله وقد تحمل خطرا جديا وهو يتحدث معى على هذا النحو ، ولكنى لا أثق به . . إنه ليس متآمرا ينفذ أهدافه فى هدوء ، ولكنه قد يكون من أصحاب أحلام اليقظة » .

والحقيقة أن شليشر ، هذا المزيج الغريب من العسكرية والذكاء ،الانتهازية والنبالة، هذا الجنرال الاشتراكي كما سمى نفسه كان جادا فى إقامة مشروعات كبيرة من الأشغال العامة لتحقيق العماله تبلغ قيمتها بلميون مارك ، ومع أنه اضطر لخفض هذا الرقم إلى النصف ، فقد كان واضحا أنه ليس بالذى ينثنى أمام القداسات المدعاة للقوانين الاقتصادية أو الملكية أو الرأسمالية أو الاشتراكية وأنه فى هذا كان أكثر استعداداً للعمل من معظم المنظرين الاشتراكيين . وليس أدل على ذلك من أنه بدأ يخالس النظر «التابو» الذى تحق اللعنة على كل من يمسه أو يقربه: أراضى كبار الملاك فى بروسيا الشرقية.

ولكن كائنة ما كانت شجاعة شليشر ، فإنها كانت منبتة ، ودون جذور وتفقد جدواها تجاه المذهب النظرى والتنظيم الجماهيرى ونحن لا نستطيع أن نقاوم المذاهب إلا بالمذاهب وليس بالجهود الفردية أو الاجراءات الجزئية.. إن الاجراءات لا تبلغ أبدا نهاية الطريق .. ولا تتسع أبدا لكل المجالات .. وهى توقفنا فى نصف الطريق .. أو فى أحد المنعطفات .. ولا يكفى أن يكفر الإنسان بالقوانين الاقتصادية السائدة ، أو تكون لديه شجاعة لتجاهلها أو معارضتها ، لابد أن يكون لديه أيضا قوانين اقتصادية أخرى لا تقل فى تماسكها عن القوانين القديمة وهذا ما كان ينقص شليشر،ومن هنا استطاعت القوانين الاقتصادية أن تنتقم منه .

فقد شهد العام الزراعى ٣٢ — ٣٣ محصولا زراعيا وافراً لم تشهده ألمانيا لعقود خلت وزادت الحبوب والبطاطس واللحم والزبد زيادات كبيرة ، كما كان الجو لطيفا ، وكان يجب أن يسعد هذا الشعب الألمانى الذى طال جوعه وقرص برده ، ولكن الاقتصاديين تملكهم الهلع . فالشتاء اللطيف أدى إلى سقوط فى استهلاك الفحم كما أدت وفرة المحاصيل إلى سقوط فى أسعار الحاصلات ،

وفى هذا الوقت بالذات، بدأت أولى نتائج اتفاقية أوتاوا تظهر فقد أرغمت الضرائب البريطانية منتجي الزبدة الدنمركية على تصديرها إلى ألمانيا بأثمان رخيصة مغرقة، فارتفع صراخ منتجي الزبدة الألمانية وطالبوا الحكومة بوضع ضريبة جمركية حامية ولم يكن شليشر راغبا فى هذا حتى لاترد الدنمرك بالمثل فتغلق الباب فى وجه الصادرات الألمانية إليها ونصح منتجي الزبدة بأن يخلطوا خمسة عشر ألف طن من الزبده الدانماركية الممتازة بزبدتهم، ورفض المنتجون هذه النصيحة، ورفض هو أيضا الضريبة. فأخذوا يشنون الحملات عليه ويتهمونه بمعاداة المصالح الزراعية الألمانيه وادعوا أمام هندنبرج أنه يعاملهم معاملة أسوأ مما كان يمكن أن تعاملهم به أى حكومة ماركسية وبدأوا فى التآمر عليه وعندما علم شليشر بتآمر فون بابن عليه واجتماعه بهتلر كشف عن بعض الفضائح فى تعويض ومعونة كبار الملاك اقترفها بابن فضاعف ذلك من حنق كبار الملاك وتنديدهم به.

على كل حال لم تكن القضية الزراعية هى القضية الحاسمة فى وزارة شليشر رغم ماأثارته له من ضيق، أما القضية الحاسمة فقد كانت هى قضية النازى التى لم تحل نتيجة لفشل خطة احتواء ستراسر، وأخذت شكلا حادا عندما تدخل بابن، المستشار الخاص لهندنبرج والذى كان لايزال يحتفظ بحبه وتقديره فعندما علم أن النازى يجتاز أزمة مالية عمل على الجمع مابين هتلر وبعض ممثلى المصالح المالية والصناعية الكبرى، وبهذه الطريقة تم اللقاء المشهور بين هتلر والبارون كورت فون شرويدر، المصرفى فى كولون حيث تمت تسوية تعهد بمقتضاها رجال المال بمساندة الحزب ماليا، وتعهد هتلر بالابتعاد عن الاتجاهات الاقتصادية ذات الطابع الاشتراكى — والتى كان يرفعها بعض قيادات الحزب، كما كان هناك تقارب بين بعض دوائر الجيش والنازى اكتسبها النازى بفضل تأييد الجنرال فون بلومبرج وعدد آخر من الضباط.

وضاعفت هذه التطورات من الصعوبات أمام شليشر ووجد نفسه فى مأزق ضيق ، فإما أن يحكم ديمقراطيا ، ويكون عليه عندئذ أن يستعين بالنازى وهو آخر من يؤمن بالديمقراطية. وإما أن يدمر النازى ويحل الريشستاج ، وعندئذ سيوقف الجهاز الديمقراطى ويحكم بالطرق الديكتاتورية ، وفى الوقت نفسه فإن الأزمة بينه وبين الرشستاج ستتحول إلى أزمة بينه وبين هندنبرج ، إذ أن شليشر إنما جاء لاكتساب تجاوب أو تقبل الرشستاج لسياسته ، الأمر الذى فشل فيه بابن ، وكان سببا فى استعفائه .

وقد احتفظ شليشر حتى الآن بتأييد هندنبرج ، ولكن أزمة الرشستاج كانت تثير له الضيق ، ثم جاءت سعايات بابن الأخيرة فبدأت تحول هندنبرج شيئا فشيئا عن شليشر وفى ٢٧ يناير اجتمع شليشر بوزرائه للنظر فى الموقف — وقيل إن بعضهم اقترح أخذ بابن وهوجنبرج ووضعهما فى معزل ما لتخليص الماريشال العجوز من تأثيرهما الضار كما أشيع أن فكرة تسيير الجيش من بوتسدام إلى برلين قد عرضت ، فإذا كانت هذه الاقتراحات قد ذكرت بالفعل ، فأغلب الظن أنها لم تكن أكثر من أقاويل ، ولكنها كانت كافية لتدفع أحد صغار الضباط ليهرع إلى أوسكار (ابن هندنبرج) ويخبره بها .

وفى اليوم التالى (٢٨ يناير ١٩٣٢) ذهب شليشر إلى هندنبرج ليطلب منه وضع أمر حل المجلس تحت يده . وطبقا لما جاء فى البيان الرسمى فإن شليشر قال « إن حكومة الريخ الحالية ، بالنسبة لطبيعتها الرآسية لا تكون فى وضع يمكنها من الدفاع عن برنامجها فى الرشستاج مالم يضع رئيس الريخ أمر الحل تحت تصرفها » ولكن هندنبرج رفض الموافقة ، وعندئذ قال شليشر إنه مالم يحل المجلس فإنه لن يستطيع أن يمنع مناقشة موضوع إعانة كبار الملاك فى بروسيا الشرقية ، ولكن هذا لم يخف الماريشال الشيخ ، وإنما أثار غضبه وبعد هذا

لم يكن ثمة مجال للبقاء .. فخسر هذا الجندى الذكى الطموح المتآمر كل شىء ..
وبعد فترة قصيرة خسر حياته نفسها على أيدى أعوان هتلر ..

أن مأساة شليشر هى أنه حاول فى وقت ضيق وظروف غير موآتية أن يبنى ماأمضى طوال حياته الماضية فى هدمه عندما سلط الجيش على الحركات العمالية والاشتراكية ، وعندما دفع بابن ليقتلع الحكومة الاشتراكية فى بروسيا ، وعندما أودى بجرونر وزير الدفاع الذى كان لديه الشجاعة لتحريم فرق العاصفة . ولم يكن ذلك مستطاعا .. ليس فحسب لأن البناء أصعب من الهدم ، ولأن الوقت ضيق ، والظرف حرج . ولكن أيضا لأنه ليس من السهل التخلص من لعنة الماضى وذكراه التى لاحقته ولبدّت سماء العلاقات مابينه وبين أعداء الأمس وحلفاء اليوم ، ومن هنا فإنه أخفق فى أن يجعل من أعداء الأمس حلفاء .. ونجح فى أن يجعل من حلفاء الأمس أعداء . ولم يكن يستطيع باعتباره وزير الدفاع أن يحرك الجيش ضد أعدائه .. فقد كان من بين هؤلاء الأعداء عدد من كبار الضباط ، بل كبير العسكريين قاطبه ـ هندنبرج ـ وهكذا سدت فى وجهه الطرق . فلم يكن له حزب يعتمد عليه ولم يستطع أن يكسب تأييد النقابات ولم يكن يستطيع أن يحرك الجيش .

وعادت مرة أخرى المشكلة ، مشكلة اختيار مستشار يتمتع بثقة هندنبرج وتأييد الرشستاج . وكان النازى هو أقوى الأحزاب ولكن هندنبرج لم يكن قد تغلب بعد على كراهيته لهتلر ، وفوض هندنبرج الأمر مرة أخرى إلى فون بابن الذى استأنف مفاوضاته التى كانت قد بدأت منذ اجتماع كولون ، وفى بعض الروايات أن النقاش حول النقطة الشائكة نقطة أن يكون هتلر هو المستشار استمر طول الليل ولم يحسم إلا بعد أن سرت إليهم إشاعة تحرك الجيش من بوتسدام إلى برلين بناء على أوامر شليشر ، وأن هذا وحده هو

الذى جعل جناح فون بابن يقبل أن يكون هتلر مستشارا ، وكائنا ما كان الأمر فإن الورقة الرابحة كانت فى يد هتلر فهو زعيم الحزب الذى كسب فى انتخابات نوفمبر ٢٣٠ نائباً وعليهم أن يخضعوا له ، ما ظلوا يتمسكون بالرشستاج . وأمكن أخيرا التوصل إلى تسوية يكون هتلر بمقتضاها مستشارا ولكن لا يدخل الوزارة سوى اثنين فحسب من النازى هما فريك وعين وزيرا للداخلية وجورنج وعين وزيرا للطيران (وفيما بعد وزيرا لداخلية بروسيا) أما باقى الوزراء (وقد كان عدد الوزارات عشرة) فقد كان أبرزهم كونستاس فون نورات وهو أحد مستشارى هندنبرج وزيرا للخارجية والجنرال فون بلومبرج وزيرا للدفاع (ولم تكن قد اكتشفت بعد علاقته بهتلر) وهوجنبرج وزيرا للاقتصاد والزراعة وفرانز سيلدت أحد زعماء الخوذة الحديدية وزيرا للعمل وفون بابن نائبا للمستشار .

وحتى آخر لحظة عندما دخل هتلر وبقية أعضاء الوزارة على هندنبرج لم يكن الشيخ العجوز قد حزم أمره ، ولكنه رضخ أخيرا لضغط بابن وبقية الحاشية التى لم يكن يخالجها شك أنها أوقعت هتلر فى مأزق وأنها عرضته للمسئولية العامة دون أن تمنحه السلطة الحقيقية وكان الجميع يسلمون بأن الشخص القوى والمخوف فى الوزارة هو هوجنبرج ، أما هتلر فإن نفوذه لن يتعدى نسبة ٣٠ ٪ ، وروى هيو دالتن فى كتابه « حرب هتلر »[1] .

ان أستاذاً جامعياً جاء من المانيا وقتئذ ، وصف كيف أن فون بابن قاد هتلر « مكبلا بالأغلال » إلى حضرة هندنبرج ، وأن هذه الفكرة البارعة ، فكرة إثقال الداعية غير المسئول بضرورات السلطة كانت استئناماً سيكشف سريعاً عجز هتلر عن تحقيق وعوده الانتخابية ولم تكن لتخطر لغير فون بابن الداهية !

(1) Hitter's War, Before and After by Hugh Dalton Penquin Special p. 49.

كان هذا هو اعتقاد بابن وأنصاره ، وهو اعتقاد جعل أحـــد النقاد يتساءل . . ألم يسمع رجل النوادى الرشيق هذا بالسيدة الصغيرة التى ذهبت فى نزهة إلى ريجا راكبة على ظهر نمر ؟ وبلا ريب فإنه كان أجدر — من الخليفة العباسى — بتحذير المتنبي :

فيا عجبا من دائل أنت سيفه   أما يتوقى شفرتى ما تقـــلدا

ومن يجعل الضرغام فى الصيد بازه   تصيده الضرغام فيما تصيدا

* * *

وأين كان الحـزب الاشتراكى الديمقراطى أكبر أحزاب الجمهورية وأولاها بها خلال تلك السنوات الحاسمة . .

كان آخر العهد به عندما استقال — أو أقيل — هرمان مولر إثر تصدع الائتلاف الوزارى ورفض هندنبرج منحه سلطات استثنائية ثم جاء برونتج بسياسة إثقال الفقير بأوزار الأغنياء ، والهبوط بالأجور والتأمينات . الخ . وآثر الحزب التغاضى عن هذا كله وتحمله وقد يصور موقفه كلام تونى ساندر « لقد جوبهنا — نحن أعضاء الرشستاج الذين كان علينا أن نقرر استمرار سياسة التسامح تجاه وزارة الدكتور برونتج — باختبار رهيب فإن مواصلة التسامح معه كان يتطلب تضحيات جسيمة من الطبقات العاملة ، ولـكنه يعنى أيضا ابقاء النظام الجمهورى حتى ينقشع الـكساد ، ويمكن للتحسن الاقتصادى أن يؤدى لانتخاب مجلس أفضل والقضاء على وزارة برونتج — بينما كان عدم تأييد وزارة برونتج يفسح المجال لوزارة أكثر رجعية وديكتاتورية .

ولهذا رأينا أن نحاول أولا التسامح ، ولـكن عندما جاء الدكتور برونتج بمرسوم لتخفيض كبير فى الأجور والتأمينات والخدمات الاجتماعية شعرت أنى لا أستطيع أن أتحمل مسئولية المشاركه فى تأييد هذه السياسة . إن التبرير

الوحيد للتسامح كان هو الابقاء على الديمقراطية والجمهورية . ولكن من هم الناس الذين يريدون ويؤيدون الديمقراطية ؟ انهم بالدرجة الأولى الطبقات العاملة ، وتخفيض قوتهم الشرائية وإلغاء القوانين التى اكتسبوها بكفاحهم لحماية ظروف عملهم سينفرهم من الديمقراطية وسيكون تهديدا مباشراً لها. ومن هنا فإن تقبل حكومة برونتج فقد كل المعانى التى كان يتضمنها . وقد كافحت فى سبيل إبراز هذه النقطة وسط فريقنا البرلمانى ، محذرة من الخسائر الكبيرة فى الانتخابات القادمة ، وتوهين الروح الكفاحية لدى أعضائنا ، ولكن الأغلبية — كما كان يحدث — كانت ضدى ، ومن ثم مضت سياسة التسامح قدما » .

وقد سنحت للاشتراكيين الديمقراطيين فرصتان كان يمكن فيهما استعادة زمام المبادأة الذى فقدوه مع سقوط وزارة مولر الأولى هى الإطاحة بالحكومة الاشتراكية فى بروسيا والثانية هى مساندة شليشر ضد القوى القائمة .

وقد كانت المانيا جمهورية اتحادية تمثل بروسيا أقوى ولاياتها وتبلغ ثلاثة أخماس الدولة الاتحادية كلها . وكانت هى التى تولت تحقيق الوحدة الألمانيه وتكوين الامبراطورية كما رأينا فى الفصول السابقة . ومن الأيام الأولى للجمهورية وقد قام الحكم فى بروسيا على أساس ائتلاف مابين الاشتراكيين الديمقراطيين والكاثوليك والديمقراطيين . وفى عام ١٩٣٢ كان أوتو برون Otto Braun الاشتراكى الديمقراطى يرأس الوزارة .وحاولت القوى الرجعية أن تغرى برونتج بالبطش بالوزارة ، ولكنه رفض . وقيل إن هذا كان من الأسباب التى بررت استبعاده .

ما أن ولى بابن حتى أصدر فى ٢٠ يوليو سنة ٣٢ مرسوما جعل به نفسه « قوميسيرا » للريخ فى بروسيا ،واستدعى الوزراء إلى دار المستشارية وأخبرهم

بإعلان الأحكام العرفية ، وبتولية مهام السلطة فى بروسيا ، وأن الجنرال فون رندستدت Von Rundstedt قائد قوات برلين قد أعطى سلطة تامة لتحقيق ذلك ، وأن عليهم أن يعتبروا أنفسهم مقالين .

وفى رأى أحد الكتاب ان قليلا من الأحداث فى عهد مابعد الحرب فى العالم بأسره كان أكثر أهمية من هذا الحدث . ويمكن القول أنه قبل هذا الحدث كان الاشتراكيون الديمقراطيون ومعهم الحركة النقابية يمسكون مصاير العالم بأيديهم [١] فقد كانت بروسيا هى القلعة الاشتراكية الأخيرة فهل يتمسك بها أو يفرط فيها الاشتراكيون ؟ لو أرادوا التمسك بها لما كان هناك مناص من حرب أهلية . وقد قدر أن الاشتراكيين كانوا يستطيعون تعبئة مليون وستمائة وخمسين ألفا . منهم مائة ألف من المليشيا الشيوعية وأن بابن كان يستطيع تعبئة مليون وثلثمائة ألف منها مائة ألف هم الجيش النظامى ومليون من الخوذه الفولاذية ومائتى ألف من فرق الهجوم الهتلرية . ولكن قوة هذه المجموعات لاتتناسب مع أعدادها فالجيش النظامى مثلا كان أكثر قوة وتسليحا من أى تنظيم آخر ، كما أن مدى تجاوب بعض هذه الفئات (كالشيوعيين) مثلا كان محل مساءلة ، وفى مقابل هذا كان يمكن للنقابات أن تجرد سلاحها الرهيب « الاضراب العام » الذى شل من قبل مؤامرة كاب .

وما أن أعلن مرسوم بابن حتى توتر وتقطب مابين العمال والحكومة ، فتجمهرت جماعات العمال فى المصانع والميادين العامة وعززت الحكومة بوليسها ووزعته فى مختلف المواقع وتحفز الفريقان فى انتظار القـــرار الذى سيتخذه الاشتراكيون .

ولكن هذا القرار لم يصدر ، واضطرت الجماعات التى احتشدت حول

---

(١) تاريخ شعبى لألمانيا ـ رايوزا وليفيرا ص ١٦٠

« انشلتراس Inslstrasse مقر رآسة النقابات ولندنستراس Lindenstrasse مقر مكاتب الفورواردتس لأن تنصرف بعد أن نال منها التعب ، وغربت الشمس .

إن قرارا يتناسب مع حجم المشكلة وتعقيدها لم يكن ليمكن أن يتخذ فى ساعات . . لم تكن النقابات تستطيع إعلان الاضراب العام عندما كان هناك قرابة ستة ملايين متعطل إن هذا وحـــده يجعل العامل المشتغل يتردد فى الاستجابة ويجعل العامل المتعطل أداة طبيعية لتحطيم الاضراب لو تم . .

ولم يكن الاشتراكيون الديمقراطيون ليستطيعون الاعتماد على الشيوعيين . وحتى لو أمكن ، فإن انضمام الشيوعيين كان سيؤدى إلى تنفير مجموعات عديدة من الشعب وتصديقهم لدعايات الحكومة الاتحادية وقــد كان الشيوعيون ، بعد ، هم أول من يريد الأطاحة بالاشتراكيين .

صحيح كان من الممكن للمقاومة أن تتحول إلى منطقة « الرينلاند » التى كانت معاهدة فرساى ولوكارنو تحرم على الجيش دخولها — وكان من الممكن الاعتماد ، ولو مؤقتا ، على البوليس الذى كان حسن التسلح وتحت إدارة اشتراكية ، وكان من الممكن أيضاً الاتصال بالولايات الجنوبية التى كانت تضيق بسياسة الجونكرز . . ولكن هذه كلها كانت تتطلب إعدادات وترتيبات وعزيمة ولم تكن هذه موجودة . .

وقد كان التبرير الذى قدمه سيفرينج لعدم المقاومة هو أنه لم يجد من حقه أن يسفك دماء الوف العمال فى معركه يحتمل أن يدخل فيها الجيش ، وهو تبرير إنسانى ، وقد يستحق عليه شكر الألوف المؤلفة من زوجات وأبناء العمال الذين كان يمكن أن يكونوا أرامل أو يتامى ، ولكنه — بصرف النظر عن

مدى وجاهته بالنسبة لهــــذه الحالة بالذات — ليس بتبرير رجل الدولة . . أو الدعوة ، إن الدول والدعوات لا تقوم بايثار السلامة . . ولـكن بتقديم التضحيات . .

وكانت المقاومة الوحيدة التي استطاعها الاشترا كيون مقاومة رمزية ، فعندما ذهب الدكتور براشت Dr. Bracht عمدة مدينة إسن ، الذى عينه بابن محل سيفرينج إلى مكتب سيفرينج وأخبره أنه خليفته ، وإنه حضر لاستلام مهام وظيفته قال سيفرينج إنه لن يرضخ إلا للقوه ، وفى المساء حضر براشت وفى صحبته رئيس البوليس وضابطين واعاد طلبه ، فاعاد سيفرينج قوله ، فاضطر رجال البوليس إلى الأمساك بسيفرينج عنوة وإخراجه من المكتب . وحدثت مثل هذه المشاهد فى مكاتب أخرى . .

وكان سيفرنج اشترا كيا ديمقراطيا قديما ، ولـكنه فى الأيام الأولى للحرب كان هو الذى قال إن من حق القيصر أن يرسل ضابطا وعشرة جنود ليحلوا الرشستاج وادخر له القدر هذه القوله فى ضمير الغيب عشرين عاما حتى طبقها عليه ، بأقل من عشرة جنود .

وكانت المناسبة الثانية هى عندما سأل شليشر ، وقد ضاقت فى وجه المسالك — زعيم الهيئة البرلمانية للاشترا كيين الديمقراطيون بريتشلد Breitscheild ما إذا كان الاشترا كيون الديمقراطيون على استعداد لإقامة المتاريس فى الشوارع إذا ما حل الرشستاج ولم تجر انتخابات جديدة ورد بريتشيلدردا عاما غير محدد ، فاتصل بليبارت زعيم النقابات وسأله السؤال نفسه فهلع ليبارت وقال « ماذا عسى بمك Bumke أن يظن فى هذا » وبمك هو رئيس المحكمة الدستورية فى ليبزج الذى قدم إليه الوزراء الاشترا كيون المقالون طعنا فى دستورية إقالتهم .

حقيقة إن ماضى شليشر لم يكن مشجعا ، ولكنه قدم عرضا مغريا ، وكان جديرا بالنظر لا بالهلع ، وبدلا من ذلك فإن سياسة التسامح التى نهجها الحزب جملته يتحمل ويؤيد برونتج ، ثم يستسلم أمام بابن .. حتى بلغت أخر ما يمكن أن يتصور : أن يعلق الحزب الاشتراكى الديمقراطى أمله فى المحافظة على الجمهورية على حرص هندبرج على الدستور وأنه ما أن ينكث هتلر بقسمه أو ينتهك الدستور حتى يطلب هندنبرج مساعدتهم فى الاطاحة به ولم تكن تلك إلا إحدى التعلات التى يدفع بها العجز إلى العقل ..

فإذا كان الضعف المتوطن فى الحزب الاشتراكى الديمقراطى وايثاره السلامة قد جعله يقف موقف التسامح والسلبيه فماذا كان موقف الشيوعيين الذين ظلوا من الأيام الأولى للجمهورية يشعلون الثورات الواحدة تلو الأخرى.

كان من شأن التضخم والأزمة والبطاله أن تدعم الأفكار الشيوعية عن تناقضات الرأسمالية وإفلاسها الوشيك . وكانت ألمانيا وقتئذ تقدم المثل الكلاسيكى لما تكون عليه الدوله الرأسمالية المتقدمة المهيأه للثورة الماركسية . ففى أعقاب التضخم والأزمة الماليه وصل عدد العمال المتعطلين إلى ستة ملايين وكان معظم العمال الأخرين يعملون بعض الوقت وكانت المصانع المعردة والمناجم الغنية تقف عاطله . ويعرض توزيع الثروة صورة من المفارقة تجاوز ما تعرضه بريطانيا أو الولايات المتحدة ، ولكن كل محاولات الشيوعيين لتطبيق النظرية على الواقع أعنى القيام بالثورة باءت بالفشل ، ومن هنا فقد حدث تحول جاء مع الفاشية وكان يقدم تبريرا للفشل القديم وتأميلا فى نصر قريب ويقوم فى الوقت نفسه على قطعه أخرى من قطع النظرية ،وقد صور هذا التحول ستالين فى خطاب له إلى زينوفيف وبخارين « لقد يكون من الأفضل

لنا أن يضرب الفاشست أولا ـ فإن هذا سيجعل كل الطبقة العاملة تلتف حول الشيوعيين » وتعمقت هـذه الفكره شيئا فشيئا فى أذهان الشيوعيين . وعندما حذر برونج الرأسماليين فى خطاب القاه فى الرشستاج فى ١٣ اكتوبر سنة ٣١ أن لا يمضوا بعيدا حتى لا يدفعوا الطبقة العاملة لعمل موحد ، عقب فى اليوم التالى ـ رمل Remmele المتحدث باسم الشيوعيين فى الرشستاج « لقد تحدث الهر برونج بكل جلاء ، فما أن يكون الفاشست فى الحكم حتى تتكون الجبهه المتحده المضاده للفاشيه وتكتسح كل شىء حولها (تصفيق حاد من مقاعد الشيوعيين) من سيضرب من ؟ تلك هى القضية التى تقررت بالفعل والسؤال الباقى هو : فى أى وقت سنطيح بالبورجوازية إن الفاشست لايخيفوننا .. أنهم سينتهون بأسرع من أى حكومه أخرى (صيحات حقا[١]) .

وعقب انتخابات سبتمبر سنة ٣٠ التى اكتسب النازى فيها ستة ملايين ونصف مليون صوت بعد أن لم يزد ما نالوه قبل ذلك بعامين عن ثمانمائة ألف صوت كتبت مجلة « روت فاهن » « أمس كان اليوم العظيم لتهتلر ، ولكن هذا الأنتصار الانتخابى المزعوم للنازى ليس إلا بداية النهاية » وقال تالمان زعيم الحزب الشيوعى « عقب الأنتصار المذهل للاشتراكيين الوطنيين ، توقع أتباعهم الشىء الكثير منهم ، ولكننا لم نسمح لأنفسنا بأن نضلل بحالة الذعر التى سادت الدوائر العمالية وبالذات دوائر الحزب الاشتراكى الديمقراطى وقد قررنا بجدية وإيمان إن ١٤ سبتمبر كان يعنى أفضل أيام هتلر ، وان يكون بعدها ما هو أفضل منه ، ولكن أسوأ ، وصدقت اللجنة التنفيذية بالكومنترن على هذا ، وهنأته[٢] » .

---

(1) Der Fuhrer by Konrad Heiden p. 363.
(2) The Prophet Out Cast by gssac Deutscher p. 131.

وكانت قيادة الحزب الشيوعى قد واصلت تدهورها من قمة روزا لوكسمبرج المبدعه إلى حضيض تالمان المستعبد . وحقا إن براندلر الذى خلف ليفى كان قد بدأ سياسة الاذعان للكومنترن وكذلك روث فيشر التى ثارت على براندلر ، ولكن هؤلاء كانوا يملكون حتى النهاية قدرا من الشجاعة يمكنهم من تحمل طرد الكومنترن ، الأمر الذى حدث لهم جميعا وجعل الحزب الاشتراكى الديمقراطى يستعيد معظم زعماء الحزب الشيوعى الذين انشقوا عليه ، ثم وجدوا أن سياسة الحزب — على عيوبها — أفضل فى النهاية من جنون الكومنترن وتمسكه بالطاعه العمياء ، ولكن هذه الصفات لم تتوفر فى تالمان ولم يكن لديه الشجاعة والثقافة التى تمكنه من التصدى للكومنترن. وكانت ميزته الكبرى هى الطاعة العمياء والثقة المطلقة ،وعلى كل حال فلم يكن لديه خيار . فحلقة الطغيان الستالينى كانت تضيق شيئا فشيئا ، وتقضى على كل آثار وبقايا الحرية القديمه مهما كانت هذه الحرية محدودة أو محصورة فى دائرة الحزب .

ومع سابقة الفاشية فى إيطاليا والسياسة الشرسة التى أظهرها النازى بجلاء وأنه لم ينكر ابدا أن هدفه الأول هو القضاء على الشيوعية ، فإن هذه النذر كلها لم تستطع أن تنقذ الشيوعيين من عبوديتهم للنظرية أو توقظهم من أحلامهم الوردية ، على العكس لقد دفعتهم لتشديد الكرة على « الفاشست الاشتراكيين » وتعريتهم لدرجة الاتفاق مع النازى عليهم .

وعندما افتتح الرشستاج الجديد يوم ١٢ سبتمبر سنة ٣٢ استدعى الشيوعيون النائبة الشيوعية والمكافحة العنيدة « كلارا زيتكين » رفيقة روزا لوكسمبرج فى الأيام القديمة من روسيا حيث كانت تقيم وتقضى سنواتها الأخيره على الادوية .. وبالكاد تستطيع أن تتحرك .. لترأس الجلسة الاولى

للمجلس بحكم كونها أكبر الأعضاء سنا (٨٤ سنة) كما كانت تقضى بذلك لوائح المجلس .

وتقدمت كلارا زتكن وهى تسير بصعوبة متوكئه على عصا ومستنده على النائب الشيوعى « تورجلر » وسط ٢٣٠ نائبا نازيا يرتدون الزى الرسمى والزمتهم المناسبة الصمت رغم أنفهم .

واعتلت كلارا زتكن المنبر بصعوبة وفيما يشبه المعجزه استعادت هذه المكافحة العجوز من قواها القديمة ما جعلها ترتجل خطبة ملتهبه ، سردت فيها كل مخازى وأخطاء الرشستاج ، ورئيس الجمهورية . وقالت إنه كان يجب أن يحاكم أمام الرشستاج لولا أن ذلك كاتهام الشيطان إلى جدته ، وأنها لتأمل أن يكون لها فى القريب العاجل شرف افتتاح المؤتمر الأول للسوفيت الألمان .

وآسفاه ! لقد كان ذلك حلما من أحلام الماضى السحيق .. وكانت ألمانيا كما كانت كلارا زتكن نفسها ـ أبعد ماتكون عنه .. فقد ماتت كلارا بعد ذلك بقليل — كما لحقتها جمهورية فايمار فى السنة التاليه .

الفصل العشرون

ذلك الرجل ادولف هتلر

من كان ذلك الرجل ادولف هتلر الذى قدر له أن يقضى على جمهورية فايمار، ويقيم على أنقاضها دولة الحكم المطلق ويشعل أكبر حرب عرفتها البشرية ويمثل على مسرح العالم بأسره مأساة تصغر أمامها كل المآسى التى تصورها الخيال الإنسانى .

لقد ولد فى برونو على الحدود النمساوية البافاريه فى أبريل سنة ١٨٨٩ من أب كان موظفا صغيرا فى الجمرك ، وأم تصغره بثلاثة وعشرين عاما وذهب إلى المدرسة فى لينز حيث وقع تحت تأثير مدرس التاريخ لودفيج بوتش . وفى سن الحادية عشر أعلن أنه يريد ـ أن يكون فنانا وأثار ذلك والده الذى كان يريد له أن ينشأ موظفاً ولكن وفاة أبيه ثم وفاة أمه حالا دون أن يستمر فى الدراسة، أو يبقى فى تلك البلده الصغيرة ، فشد رحاله إلى فينا ، حاملا مجموعة من الرسوم والصور .

وكانت سنوات فينا ـ ١٩٠٩ — ١٩١٣ من أقسى السنوات على هذا الفتى الحائر المضطرب اليتيم فقد رفضت الأكاديمية رسومه ، واضطر لأن يواجه حياة العاصمة المائجة دون أن يملك مفتاحا واحدا يفتح به بابا من أبواب المجتمع التى لايفتح إلا بها ، من مال أو أسرة أو شهادة دراسية أو حرفة فتلقفته الشوارع والنزل والأعمال العرضية يوم بعد يوما وسنة بعد سنة دون أن يجد حيلة

أو يهتدى سبيلا ، وحز فى نفسه أن يضطر لأن يعيش مع عامة العمال . ليس فحسب لما فى ذلك من فاقة مدقعة ،ولكن أيضا لما اعتبره جهالة ، ورفض بشدة أن ينضم إلى « النقابة » ضارباً عرض الحائط بكل أقوالهم عن المطالب والحرفة إلخ وتحمل اضطهاداتهم ومقاطعتهم . .

ولفت فشله خلال هذه السنوات وعجزه عن الاستقرار أنظار بعض المؤرخين ، ولكن هذا لا يدل على عجز أو جبن أو ضعف ، ولكنه بإيجاز يدل على شخصية لم تتلاءم مع المقاييس والمعايير المقررة ، ولما لم يكن المجتمع البورجوازى هو المجتمع الأمثل، فإن عدم التلاؤم هذا لا يمكن أن يحسب ضرورة عليه أو يعد نقيصة فيه .

وجاءت الحرب، فأنقذته من تلك الحياة العقيمة ، السقيمة ، المتخبطة وهيأت له مناخا يتجاوب مع مشاعره فتطوع فى الجيش البافارى واشترك فى القتال وأثبت بطولة ونال نيشان « الصليب الحديدى » وإن لم يترق إلا إلى رتبة « جاويش » فى وقت كان يمكن أن يترقى كل جندى يثبت شجاعة أو كفاية إلى رتب الضباط ، ولكن هذا أيضا لا يمكن أن يكون له دلالة سيئة ، وإنما هو يسير مع خط شخصيته العام ، فحياؤه وانطواؤه حالا دون أن يظفر برعاية رؤسائه وإن قام بواجبه خير قيام .

وعندما انتهت الحرب تلك النهاية التراجيدية المفجعة ، لم يقطع هتلر صلته بفرقته، وعهد إليه رؤساؤه بالاستعلام عن جماعة سياسية مغمورة تعمل فى ميونيخ وتحمل اسم « حزب العمال الألمانى » .

كانت تلك هى اللحظة التاريخية التى أدخرها القدر لهتلر ، فللمرة الأولى بعد سنوات التيه والتخبط الطويلة يجد هتلر نفسه ، ويجد « المعامل » الذى يفجر طاقاته التى ظلت مخبوءة مجهولة ، فإذا كان حقا أن تلك المجموعة المغمورة التى تسمى نفسها « حزب العمال الألمانى » قد ولدت من جديد عندما جاءها

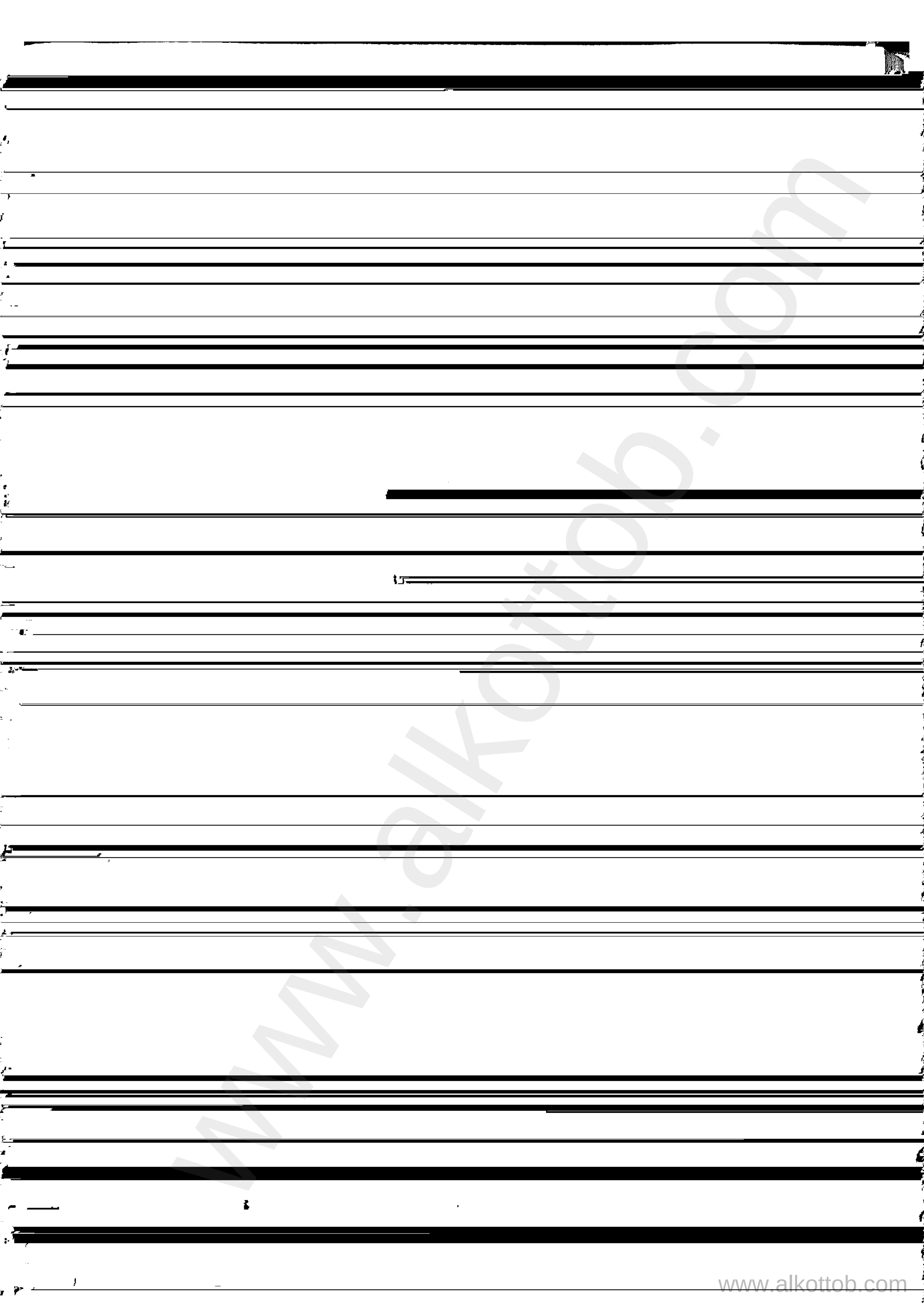
هتلر متجسسا عليها ، ثم مشتركا فيها ، فإن هتلر نفسه قد ولد من جديد عندما اهتدى إليها .

وكانت هذه الجماعة التي تعد على الأصابع،وتجتمع في مقاهي ميونيخ الصغيرة تضم انتون دركسلر صانع الأقفال الذي يريد أن يجمع مابين الاشتراكية والعمالية وجوتفريد فيدر المهندس المدني ، الذي كان يرى في « الفائدة » لعنة النظام الاقتصادي وديتريش ايكارت الكاتب وكارل هرر الصحفي ، وجاء فيما بعد روزنبرج والكابتن روهم — الذي كان إلى حد ما رئيس هتلر في الجيش .

ومن الأيام الأولى وجد هتلر نفسه وهو ينغمس في هذه المجموعة التي جاء ليتجسس عليها وأصبح العضو رقم « ٧ » ولم يلبث أن أصبح زعيم المجموعة وانفرد بالإدارة بعد أن كانت تقوم بها لجنة وغير اسمها إلى « الحزب الوطني الاشتراكي للعمال الألمان » ووضع لها برنامجا من ٢٥ نقطة أذاعه بنفسه في فبراير سنة ١٩٢٠ .

وكان البرنامج يتضمن الوحدة بين كل الألمان ، وإلغاء معاهدة فرساي وسان جرمان ،وحرمان اليهود والأجانب من الجنسية الألمانية ، وإخراج الذين جاءوا منهم بعد سنة ١٩١٤ ، وإلغاء الكسب غير المشروع ومراقبة الدولة للتكتلات الاقتصادية والإعدام للخونة .. الخ .

ولم يكن هذا إلا بداية .. فقد خرج مرة واحدة الزعيم الموهوب من جلدة المواطن المغمور وكشف فجأة عن مواهبه وأخذ يصعد ويتقدم بأسرع مما كان يفشل ويتخبط أيام فيينا،وظهر أن له قوة خارقة في التأثير على الجماهير وتحريكهم ومقدرة فذة على التنظيم وماهو أهم من هذا كله : ذكاء فطرياً وحاسة غريزية تهدي صاحبها دون علم أو ممارسة إلى اختيار المواقف السليمة .



ومع هذا كله كان الحزب ينمو. ففى سنة ٢٥ كان عدد الأعضاء ٢٧ألف وعند نهاية سنة ٢٩ قارب ١٧٨ ألفا ، وخلال هذه الفترة عقد الحزب عددا من المؤتمرات التى كانت تؤدى أغراضا متعددة فهى تثير الحماسة فى نفوس الأعضاء وهى تبث الخوف والرهبة فى نفوس الأعداء وتقدم دعاية عملية وملموسه على قوة الدعوة الهتلرية ، كما نظمت تشكيلات نوعية وفرعية للمعلمين أو النساء أو المحامين ... الخ .

على أن آثار هذا النشاط كانت إقليمية أكثر مما كانت قومية ، وفى انتخابات مايو ١٩٢٨ لم يحز النازى سوى ٨٠٠ ألف صوت و ١٣ مقعدا بينما نال الاشتراكيون الديمقراطيون أكثر من تسعة ملايين ، ويعود جزء كبير من عدم تجاوب الشعب مع هتلر وقتئذ إلى عودة الرخاء بفضل سياسة سترسمان ومشروع داوز .

وكان من حسن حظ هتلر أن أثارت سياسة « برونتج » الاستياء فى جميع الأوساط ، وأن تخوف الرأسماليون التطورات السياسية ، ورأوا فى هتلر حليفا قويا فتقربوا إليه ، وقدموا إليه المساعدات المالية التى تكفل النهضة بحزبه والوفاء بمصروفات الدعاية الضخمة فقدم فريتز تيسن كبيرا صحاب مصانع الحديد فى منطقة الرور ، ورشبرج Rochberg الذى كان يطلق عليه ملك البوتاس ، وكان عدوا لدوداً للشيوعيين ومؤيدا لكل دعاية ضدهم ، وايفار كروجر رجل الأعمال السويدى ، كما قدمت شركة جنرال موتورز ، التى كانت قد اشترت شركة أوبل وبيوت الاصدار الأمريكية تسهيلات ومساعدات كبيرة . وفيما بين سنة ٢٧ ، ٢٨ وضع أميل كيردورف صندوق تحطيم الاضراب تحت تصرف الحزب وقدرت ميزانية الحزب من سنة ١٩٢٨ إلى آخر سنة ١٩٣٢ بأكثر من ٢٥٠ مليون مارك خصص معظمها لعمليات

الدعاية ، والاحتفاظ بقوات خاصة وصل عددها إلى ٤٠٠ ألف . .

وقد يجوز لنا أن نقطع السياق لنقول إن هذه الصلة المالية المريبة ما بين حزب النازى ورجال الصناعة تقابلها صلة مالية مريبة أخرى ما بين الحزب الشيوعى والكومنترن ، فالحزب الشيوعى كان يستمد موارده الماليه من الكومنترن ، وروى كريفتينيسكى — وهو ثقة فى هذه الناحية — أن الكومنترن يدفع ما بين ٩٠ ٪ و ٩٥ ٪ من مصروفات الأحزاب الشيوعية خارج الاتحاد السوفيتى وأن هذا يتم بطرق دبلوماسية أو بالوكالات التجارية ، وعندما فشلت قومة الحزب الشيوعى الألمانى سنة ٢٣ تملكت الحيرة ميروف — ابراموف Mirov - Abramov وكيل قسم الاتصال الدولى بالكومنترن الذى يرمز له فالحروف O M S والذى يتولى تمويل الأحزاب الشيوعية الخارجية فيمن يأتمنه على توصيل الأموال للحزب حتى ظهر ولهلم بيك الذى كان محل ثقة ميروف ابراموف . وكان ميروف هذا هو ممثل قسم الاتصال فى ألمانيا خلال ١٩٢١ حتى ١٩٣٠ ، وكان عمله الظاهرى فى إدارة الصحافة بالسفارة السوفيتية فى برلين ، وكان يستخدم قرابه ٢٥ شخصا من المعاونين[1] .

وبالطبع ، فان كلا من الحزب النازى والشيوعى كان يتكتم هذه الاتصالات عن جمهوره الذى كان يساعده بكل قوة بالاشتراكات ولكن هذه الاشتراكات لم تكن لتفى بالمصروفات الضخمة لهما .

وكشفت انتخابات سنة ١٩٣٠ عن التقدم الذى بلغه الحزب وصعد بالأصوات

---

(١) وقد لاقى النهاية المعهودة ، فقد إستدعى الى موسكو ليعمل مساعداً لبياتنسكى Piatnisky رئيس قسم الاتصال الدولى واحد رفاق لينين المقربين وعند تصفية الحرس القديم استبعد بياتنسكى ومساعده وفى سنة ٣٧ أعدم فى التطهير .

التى نالها من ٨٠٠ ألف فى انتخابات ٢٨ سنة إلى ستة ملايين ونصف . وعدد المقاعد من ١٣ إلى ١٠٧ .

* * *

الحقيقة التى لا ريب فيها أن هتلر كان مهيئاً لقدره ، وأن كل الأحداث كانت تسوقه إلى هذا القدر . .

فنى الوقت الذى كان أقرانه من الفتيان يعنون بالرياضه،والبنات والدراسة والمستقبل المهنى ويبدأون أولى خطواتهم على الطريق البورجوازى المقرر ، كان هتلر ، بحكم وراثاته ونتيجة ليتمه، وفاقته ومزاجه، يجتر أحلامه ويعيش فى عالم لا يمت إلى الرياضة أو اللهو وأرهفت هذه العوامل المبكره حسه ، ونمت خياله وجعلت مشاعره تدور حول الميثلوجيا والبطولة وتأثر عميقاً بما قرأه فى طفولته عن الحرب الألمانية الفرنسية فى كتاب مصور ضخم من مجلدين وجده فى مكتبة أبيه . ثم جاءت موسيقى واجنر وأبطاله . فجسدت له ألمانيا المجيده الاسطوريه وكان كل مايقرأه- عندما كانت القراءة هى المتعه الوحيده المتاحه له - يضرم فيه المشاعر . ويحول شيئا فشيئا الطموح الفنى الذى ساوره فى مستهل شبابه إلى رؤى البطوله التاريخية . وقد يصور هذا التأثر أنه ، وهو فى قمة مجده ، قص على المستر تشمبرلين أسطورة بافاديه شائعه عن الامبراطور شارلمان الذى يجلس فى كهف مستغرقا فى النوم — وقد أخذت لحيته البيضاء تسترسل فى النمو وعندما تطول لدرجة تلف حول المائدة الصخرية امامه ثلاث لفات — فأنه سوف يستيقظ ويحكم ألمانيا من جديد .

وبالإضافه إلى هذه العوامل الخاصه بالطفوله والنشأه والقراءة والثقافه فقد حفرت المعاناه القاسيه التى عاناها فترات تشرده خطوطها العميقه ، وبذلك كله انتهى إلى ماعجز غيره عن الانتهاء اليه : أن من الضرورى لأى مذهب

سياسى ألمانى من عنصرين متكاملين الأول العنصر التاريخى البطولى الذى يمثل العنصر الذاتى فى الأمة الألمانية والثانى العنصر الاجتماعى ـ الاشتراكى الذى يمثل العنصر الموضوعى والضروره التى يمليها التعقيد الاجتماعى العصرى. وهذا مافات معظم الدعاة ورجال السياسه الألمان الذين كان كل واحد منهم يمثل عنصرا من العنصرين، أو لم يكن جمعهم للعنصرين جمعا مثاليا وبالنسب الواجبه، أو بالعمق الذى وصل إليه هتلر .

على أن الأهم من ذلك والأكثر أصالة بالنسبة لإضافة هتلر هو أسلوب العمل الذى أحكمه ، وكان يقوم على فهمه الغريزى لنفسية الجماهير وحاسته المرهفة التى كانت تهديه إلى القرارات السليمه. وبفضل فهمه الغريزى لنفسية الجماهير أصبح الخطيب ورجل الدعاية الذى لا يشق غباره ولا يبلغ شأوه ولا يمكن الاستغناء عنه ، وبذلك استطاع أن يقهر كل المنافسين له أو المؤتلفين معه ، وأن ينفرد بالزعامة والرآسة ، ولم يكن هؤلاء ليستطيعوا شيئاً مهما ضاقوا به ، ما دامت الجماهير مفتونة به . . .

ولم يكن الأثر العميق لخطابة هتلر يعود إلى إحكامه للأسلوب أو اللغة الألمانية ، أو تعمقه فى فهم أسرارها ، أو ثقافته الرفيعة أو منطقه السليم . . الخ فهذا كله لا علاقة له البتة بعالم الإثارة . بل من المحقق أنها تكون على حساب الإثارة . إن مصدر تأثير خطابة هتلر يعود إلى إيمانه التام بالمانيا وثقته المفرطة فى نفسه ، وقدرته على التبسيط ، وتقديمه لحلول جذرية ، ووعود وردية ، وتركيزه وتكراره للمعانى المبسطة والوعود المؤكدة ، ولعبه على الأوتار الحساسة من حب أو بغض أو أمل . وكان إيمانه العميق يجعله يصدر هذا كله بصوت واثق وتأكيد قاطع وعاطفة متأججة ..

وتحدث أحد الذين سمعوه فى عام ١٩٢٢ « كانت ألفاظه كالسياط ، ولما

تحدث عن المهانة التى لحقت بألمانيا شعرت كأنى أريد أن أنقض على عدو ، والتفت حولى فوجدت أن هذه المغناطيسية قد جذبت الآلاف كفرد واحد .. وأحسست بنشوة تماثل نشوة الإيمان الدينى . وإنى لمتأكد أنه ما من واحد سمع هتلر هذا المساء يمكن أن يشك أنه رجل القدر . والقوة التى ستبث الحياة فى مستقبل ألمانيا . فأعطيته روحى » .

إلى جانب هذه المقدرة الخطابية التى جعلت هتلر يؤثر فى الجماهير أكثر مما يؤثر أى نجم سينمائى أو مسرحى ، وجعلت اجتماعات الحزب موردا من الموارد المالية له ، فإن إحكامه للدعاية وفنينها لم يكن يقل عن إحكامه للخطابة . فالشعارات والملصقات والأعلام والطبول والعروض الرياضية والعسكرية هى مما يدين به العمل السياسى لهتلر . ومما لم يكن للعالم به عهد من قبل باستثناء موسولينى ، ولكن هتلر فاق موسولينى فى هذا كله ..

كانت السياسة فى يد السياسيين البرلمانيين أسلوباً روتينيا رتيبا ، مملا ، يثير النوم ويبعث على الضجر ، وكانت فى يد الشيوعيين علما جافاً ، وفكرة جبرية فجاء هتلر فجعل من السياسة فنا مثيراً ، وأعطاها لونا قوياً .. بحيث أصبحت مفعمة بالعاطفة والحماسة والحياة والآمال التى تنتقل من الزعيم إلى الجماهير ..

ووصفت ا . أو . لوريمر E. O. Loimer أحد الاجتماعات الانتخابية التى شهدتها فى ٥ نوفمبر ١٩٣٢ فى كولون فقالت « كان مكان الاجتماع قاعة عظيمة فى أحد أبنية المعرض شرق الرين فى الساعه الثامنة والنصف ، ولكن الأبواب فتحت من الساعة السابعة ، ووصلت المكان الساعة السابعة والدقيقة العاشرة فوجدت البناء قد أضاءته الأنوار وزينته الأعلام وغطيت الحوائط بإعلانات كبيرة كتب عليها :

الألمان يتحدون فى هتلر

حيث تعيش ألمانيا يجب أن تموت الماركسية

هتلر للحرية والعمل والطعام

ازدحم البناء بالوافدين رجالا ونساءا ، وبينما كانت الجموع لا تزال مستمرة فى قدومها كانت موسيقى النازى تعزف ، وكان الحشد ينشد مارش الفروسية « فردريك الأكبر » وعيونهم مغرورقة بالدموع بينما كان الرجال الطاعنون فى السن يتحدثون عن الذكريات التى تثيرها فى نفوسهم هذه النغمات . وكان الأطفال بائعو الجرائد يعرضون الصحف الهتلرية . وجاء أطفال فى ملابس رسمية يعرضون للبيع أعلاماً وصوراً فوتوغرافية والنقود تنتقل أثناء كل هذا من يد إلى يد ونحن فى صمت كصمت القبور ..

وكان مقدرا أن يأتى « الزعيم » فى الثامنة والنصف ، ولكن جاء قادم يعلن أن الزعيم قرر أن يخطب اليوم فى مدينة امن علاوة على خطبته التى ألقاها فى بر وثام ، لهذا فإنه سيتأخر ساعة ولم تبد علامة واحدة تدل على خيبة الأمل وتقدم رجل يتحدث عن تاريخ الحركة النازية . وطال انتظارنا ساعتين ونصف وأخيراً ارتفعت الأكف بالتصفيق فالزعيم قادم .

وما أن ظهر الزعيم وهو يسير بين صفين من أتباعه وقد انعقدت فوق رأسه الأعلام حتى هب الجميع هبة رجل واحد ، وتعالت صيحة واحدة من ١٢٥ ألف حنجرة « هايل هتلر » واستمرت الصيحات تتعالى حتى لوح الزعيم بيده ، فحل الصمت وعاد الناس إلى مقاعدهم وأخيراً تقدم رجل من هتلر ثم قال فى إيجاز « أهلا بك فى مدينتنا المقدسة كولون » وحينئذ رفع الزعيم يده بالتحية النازية ثم بدأ يتكلم ..

لقد مرت ثلاثة أرباع الساعة دون أن يسعل شخص واحد وهكذا كان الجمع صامت .. الخ » .

فإذا أردنا أن نقيّم الإضافة الهتلرية إلى عالم السياسة لرأينا أن هتلر لم يضع نظرية ، ولم يكن منظراً . ولكنه أنشأ حركة وقدم نظاما وأقامه على عدد محدود من الأسس السيكلوجية ، وكانت هذه الأسس تتجاوب مع نفسية الشعب الألمانى وظروف مجتمعه وقتئذ كما لم يكن معظمها يخلو من أصل صحيح ، أو على الأقل بعض الصحة والسلامة وإن كان شطط هتلر فى بعضها وهو شطط لم يكن منه مفر ما دامت السياسة فنا واستثارة وديماجوجية وفى غيبة الضوابط الموضوعية ، قد أخل بالتوازن الواجب وأساء إلى ما فيها من صحة وسلامة ، فمقاومة هتلر للماركسية ، ونظرته إليها كالعدو الأول الذى يهدد أمن ألمانيا وشنه لتلك الحرب العنيفة على الحزب الشيوعى أمر طبيعى تماما لأن قيادة الحزب الشيوعى كانت تتلقى أوامرها وتعليماتها وأموالها من موسكو ، ولا ينال من هذه الحقيقة جهل جمهور الأعضاء بها ، وهو أمر مشكوك فيه ، لأنه حتى جمهور الأعضاء لم يكونوا ليروا حرجاً فى مثل هذه التبعية ، فلم يكن الحزب قيادة وجمهوراً فى نظر كل الوطنيين سوى عميل « يتخابر » لحساب دولة أجنبية ، ولأن المثل الايديلوجى السياسى الذى تمسك به الحزب من بدأ الثورة حتى خطاب كلارا زيتكن الدراماتيكى فى الرشستاج ، وهو — سوفيتات العمال — كان غريبا على المجتمع الألمانى وتقليدا للتجربة الروسية ، وقد سلمت السوفيتات الألمانية طائعة مختارة السلطة إلى جمهورية فايمار . ولم يكن موقف هتلر صحيحا من الناحية الموضوعية فحسب ، بل كان صحيحا من ناحية الأسلوب والتكتيك لأن الشيوعيين ، منذ أن كتب ماركس سطوره الملتهبة فى الرين الجديدة ، ومنذ

أن ظهرت الأحزاب الشيوعية حتى الآن — وهم ينادون بسياسة « اللارحمة » ويرفعون لواء البغض وشنآن المداوة، ويرون جميع المسكرات غيرهم « ملة واحدة » ولا يمكن أن يفهموا المداله كعداله ، ولكن كضعف وهم على استعداد — يكاد يكون غريزيا — لاستغلال كل كرم نحوهم على أساس أنه « كسب من الرجعية » فسياسة هتلر الباطشة نحوهم كانت نوعا من المعاملة بالمثل، فضلا عن أنها كانت قصاصا لموقفهم من الحزب الاشتراكي الديمقراطى وعقابا على قصر نظرهم وعقم تقديرهم .

ومن المواقف التى وقفها هتلر وعارض فيها التيار السائد دعوته المرأه لأن تعود إلى البيت وأن تعنى بالاسرة ، وكانت جمهورية فايمار قد أعطت المرأة الحقوق السياسية والاجتماعية كما دفع الاتجاه الليبرالى والرأسمالى بها إلى المصانع والمكاتب . . الخ . . ونشأت بذلك مجموعة من المشكلات التى لابد وأن يظهرها السير وراء ماتهوى الأنفس ومجافاة الطبائع وتقديم الرغبات الفردية على المقتضيات الاجتماعية من منافسة بين الرجال والنساء على موارد الرزق ، وتميع خصائص كل جنس ، وافتقاد الشهامة والرجولة فى الرجال ، والدعة والعطاء فى النساء ، وتهدم البيت، وتشرد الأبناء لعدم كفاية أو فعالية دور الحضانة . فعارض هتلر هذا كله ، واستطاع أن يجعل المرأة تعود إلى البيت وتمارس وظيفتها الطبيعية السامية ، الأمومة ، وإشعاع الحب والعطاء . وكان فى هذا أسد نظرا من دعاة التحررية وأنصار المرأة . . وأرضى الرجال والنساء معا وحل إلى حد ما مشكلة المتعطلين ، كما أقام البيت على أسسه الطبيعية من تخصص كل من الأبوين تخصصا يحقق التكامل والتعاطف ، وليس التنافس والتعارض .

واعلاء هتلر لشأن الدم قد يكون له ما يبرره لا من الناحية البيولوجية ،

والفسيولوجية فحسب ، ولكن لأن الدم له سره الخاص الذى لم يتوصل إليه العلم بعد ، وإن حامت حوله ، أو استشفته بعض الأقوال أو الأمثال الدارجة التى تنبيء عن أصل ما ولكن هتلر أخطأ دون ريب فى ما زعمه عن رقى الجنس الآرى ، لأن أرقى شيء خص الله به البشرية ، وهو الأديان السماوية الكبرى . هو مما لم يكن ـ فيما نعلم ـ للجنس الآرى نصيب فيه ؛ ولم يكن أسمى نموذج للأبطال — الأنبياء — من الجنس الآرى . ولم يشترك الجنس الآرى فى وضع أصول التاريخ والحضارة ، فهذا ماقامت به مصر والعراق والصين والهند . وجاء بعد ذلك اليونان والرومان ، وحتى الفضائل التى زعمها هتلر للجنس الآرى ، فإنها لا يمكن أن تعد على إطلاقها فضائل . .

كما قد يكون لهتلر مبرر فى حملته على اليهود ، ولعله لا يعدم أسبابا موضوعية وأخرى ذاتية لمثل هذه الحملة . فهذا الجنس العريق الذى جمع ما بين الملوك والأنبياء ، والقردة والخنازير . والذى ضرب الله به المثل فى كفر النعمة التى أضفاها عليه، مقسم الولاء وهو يعود بمشاعره وعواطفه إلى اسرائيل، وإلى ذلك التاريخ الموغل فى القدم ، والغريب تماما على المناخ الأوروبى . وقد لا تتغير هذه المشاعر حتى عندما يتنصر اليهودى، فقد لا نجد شخصا مثل دزرائيلى يصل إلى اعلاقمة فى المجتمع فى بريطانيا عندما كان التمسك بالمثل الفيكتورية يكاد يكون دينا ، يكشف فى رواياته عن مشاعر كلها اسرائيليه . . ويثبت أن نبذه للديانه الموسويه ، واكتسابه للديانه المسيحية لا يغير الحقيقة الواقعة : أنه يمت بجذوره إلى جنس غير الجنس البريطانى، جنس آمن وصرح أنه أعرق واسمى من الجنس البريطانى نفسه ، فإذا كان المجتمع البريطانى وقتئذ من القوة وفى مرحلة من النمو والصعود ، بحيث لم يأخذ هذه المشاعر مأخذ الجد ، وأن دزرائيلى نفسه كان من الذكاء بحيث يحتفظ بها لرواياته ، وليس لعمله السياسى ، فإن هذا قد لا ينطبق على ألمانيا المهيضة المهزومة . وقد تحدى اليهود بعد كل المثل

الحضارية الأوربية المعاصرة عندما أقاموا دولة « دينية » وفرضوها فرضا على المجتمع الدولى . ومن الناحية الذاتية فقد كان اليهود فى ألمانيا يشغلون مجالات الآداب والفنون ، بل يكادون يحتكرونها لدرجة دفعت هتلر لأن يقول « كل الكتاب يهود ، وكل اليهود كتاب » وكانوا يسيطرون على أجهزة الأعلام والسينما والمهن الأدبية والمحاماه والطب ، وكانوا يحتكرون صناعات بأسرها ويتحكمون فى البنوك ، وكان من المستحيل التخلص منهم بغير الوسائل الهتلرية لأنهم نجحوا فى فرض شبكة من الحماية Protextion على أنفسهم ضد أى منافسة غير يهودية ، وأخيرا فإن التخلص من اليهود لم يكن يحل مشكلة العاطلين وتحرير الاقتصاد الالمانى فحسب ، ولكنه كان يحل عددا من المشكلات فى وقت واحد ، على أن المبرر « النظرى » للحملة على اليهود كان فيما رأى هتلر قضية الدم ومع أنه كان مخطئا فإن آخر من يجبهه بذلك هم اليهود الذين هم أول جنس عنصرى فى التاريخ وقد بدأت الصيحة العنصرية فى العالم بأسره على لسان سارة عندما قالت « أبعد هذه المرأة الجارية ـ هاجر وابنها ـ » ونتيجة لذلك أبعد إبراهيم هاجر وابنه اسماعيل منها إلى صحراء الحجاز واستأثر اسرائيل بكرامة الاعتراف والرعاية وظلت شنشنة الدم على لسان عدد كبير من المفكرين اليهود بما فيهم دزرائيلى وغيره .

وربط هتلر ما بين الشيوعية واليهودية العالمية أمر لايخلو من الصحة بمنطق الوقائع نفسها فقد كانت الأغلبية العظمى من زعماء الشيوعيين من ماركس فنازلا من اليهود وبمنطق القسمات المشتركة ما بين السياسة اليهودية والسياسة الشيوعية كما أبرزتها ممارسات اليهود والشيوعيين على مدار التاريخ فهما يتسمان بالقسوة والجبروت والذاتية قدر ما يبعدان عن العدالة أو النزاهه أو الموضوعية وينميان الحقد ويتسمان بالتحلل الخلقى والانتهازية .

وبالمثل فإن التركيز على مبدأ « القيادة » والزعيم وإن كان يتجاوب تماما مع العقلية الألمانية ، وأنه عمليا المبدأ الذى لا مناص عنه لإدارة الأمور بحزم وسرعة ، فإن المغالاة فيه إلى درجة تقديس الزعيم كانت نوعا من الردة بالإنسانية إلى العهود الوثنية التى كان فيها القيصر أو الفرعون نوعا من الآله المعصوم المعبود . . وأدى هذا إلى تفشى الأخطاء وتضخمها دون أن تكون هناك وسيلة أو محاوله لكشفها أو علاجها .

وفى المجال السياسى أنكر النازى معاهدة فرساى التى أمليت على ألمانيا واستلهمت الانتقام والثأر أكثر مما استلهمت العدالة والحكمة وجحد التعويضات جملة وتفصيلا وكان فى هذين محقا ورزق من الشجاعة ماجعله يحققهما — الأمر الذى لم يستطعه غيره — وسار على سنن الرأسماليين والعسكريين الذين لم يجدوا وسيله لحياة الشعب الألمانى الكثير العدد فى رقعته المحدوده إلا التوسع وبالذات التوسع شرقا ، ولم يكن فى هذا شىء جديد ، فهو التصور البروسى — الرأسمالى التقليدى ولعله كان من الصعب وسط السياسة الأوربية الخارجية التى قامت على الغزو والقرصنه أن نطالب هتلر بالتفكير فى حلول أخرى كتنظيم النسل أو الهجره أو زيادة فنيه العمل — وهتلر بعد أفضل من غيره عندما رفض التركيز على المستعمرات الخارجية وعنى بالتوسع شرقا .

من هذا يتضح أن معظم الأفكار التى اصطنعها هتلر لم يكن تخلو من صحة ووجاهه تبرر الأخذ بها ولم تكن كما صورها أعداؤه جنونا مطبقا . إن الجنون المطبق كان فى أسلوب الحكم . فأى حكم ديكتاتورى لابد وأن يتسم بالشطط والسرف والتعصب الذى يجنى على الفكره أو يحملها ما ليس فيها حتى يصل بها إلى الجنون . . وما تتميز به ديكتاتورية هتلر عن بقية الديكتاتوريات هى المزيد من الدقة والضبط والالتزام والتفانى . وهى كلها صفات يتميز بها الشعب الألمانى .

وعندما وضع برنامج الحزب أول مره سنة ٢٠ تضمنت نقاطه بعض النقاط ذات الطبيعة الاشتراكية وكانت تلك النقاط ثمرة تلاقى الفكر الاشتراكى للذين أسسوا الحزب قبل ظهور هتلر مع تجربة هتلر المرة فى المجتمع الرأسمالى ، ولمسه المباشر لسوءات الاقتصاد الطليق وما يؤدى إليه من بطالة وفاقه وأزمه الخ . . وخدع الجناح الاشتراكى فى الحزب بذلك بدون أن يتنبه إلى أن هتلر كان يرى فى هذه النقاط مجرد شعارات وليست مبادىء . . وأنها لما كانت أصلا إنطباعاً شخصيا ، فقد أخذت تبهت وتشحب مع انفراد هتلر بزعامة الحزب، وابتعاده فى الوقت نفسه عن واقع المعاناه والبطاله المؤلم ولذلك فعندما تمسك بها الجناح الاشتراكى تمسكا نظريا تصدى لهم وانسحب أوتوسراسر زعيم هذا الجناح ونشر الانسحاب تحت عنوان « الاشتراكيون ينسحبون من النازى » كخدع ذلك الرأسماليين الذين أغدقوا المساعدات على الحزب دون أن يتنبهوا إلى أن هتلر وإن تنكر للاتجاه الاشتراكى فليس لديه أقل استعداد للتنكر لمبادئه الخاصة وعندما ولى الحكم اتضح أنه ليس الألعوبه فى يدهم كما تصوروا وأن عليهم أن يرضوا بما يقدمه لهم دون أن يفكروا فى الاقتصاد الرأسمالى الطليق . . وإن كان من المؤكد أن النظام النازى ، لعدد كبير من العوامل ، كان يملى يد أصحاب الأعمال على العمال وفى التحليل الأخير فقد لا تختلف النازية الاختلاف المظنون عما هو واقع بالفعل فى الدول الاشتراكيه .

* * *

والحقيقة أن هتلر تأثر تأثرا عميقا بمختلف الأفكار الماركسية والشيوعية والاشتراكية التى كانت تموج بها فينا وميونخ وقتئذ ، ولا ريب أنه قرأ الكثير من الكتابات الحزبية وأنه فكر طويلا فى الأساليب والوسائل الشيوعية ويمكن القول دون مبالغه أن الشيوعية كانت المدرسة السياسية

لهتلر وأن لينين كان استاذه الأول ، وصحيح أن موسوليني يبدو أكثر قربا ومباشره ولكن موسوليني بدوره تعلم فى مدرسة الشيوعية وكانت التى أبرزته من عالم الخمول والنكر ، ودفعته إلى الإمام هى الشيوعية الدولية البارزه انجيليكا بالابانوف وليس عجيبا أن يتتلمذ هتلر على يدى الشيوعيين ثم يتنكر لهم فإن هذا هو ألف باء التكتيك الشيوعى الذى بدأه ماركس عندما تتلمذ على يدى هيجيل واستعار أسلوبه . . ولكن ليقلب فكرته الرئيسيه . .

ولمس بعض الكتاب تأثر النازى بالأساليب الشيوعية فكتب السير جيوفرى نوكس « إن مظاهر وأساليب النازيه نقلت نقلا ذليـــلا من البلشفيك[1] » وأنه سمع الكثير فى الدوائر الداخلية يتحدثون عن الجستابو باعتباره « الشيكا » وأن الجناح اليسارى فى النازى لم يكن يختلف عن الحزب الشيوعى إلا فى اختلافات واهيه وأن التنقل بينهما كان ملحوظا كما جذب انتباهه ما جذب انتباه الكثيرين من الاتفاق فى الارتفاع والانخفاض فى عدد الأصوات التى ينالها الحزبان معا . . وتجاوب ذلك مع درجة الأرتفاع أوالانخفاض التى تسجلها أسعار البورصه فكان الحزبان يتأثران بصفه عكسية بدرجة الأزدهار ، فبقدر ما يسود الأزدهار بقدر ما يهبط عدد الأصوات التى ينالها الحزبان . وقد أعاد أحد المؤرخين تسليم الشيوعيين ازاء هتلر إلى أن عددا كبيرا من أكثر العناصر عدوانيه فى الشيوعيين قد انضم إلى فرق العاصفه ورحب بهم روهم بفكرة أنه من الأسهل ضبطهم داخل الصفوف عن ضبطهم خارجها وأنهم لا يستطيعون الأضرار بالفرق وأن بعضا من أفضل رجاله من الشيوعيين السابقين وقال روهم « دعهم يطلقون عليهم « بفتيك Beefsteakes » — أى أحمر من الداخل بنى من الخارج ، كما أطلق عليهم

(1) The Next and Last Peace p. 37

فى برلين ـ فإنى أفضلهم ثوريين redicals » .

ويمكن القول أنه حتى لو لم يتأثر هتلر بالتكتيك الشيوعى وهو فرض جدلى لأنه لا يمكن أن يفوت مثل هذا التكتيك ذكاء هتلر وحاسته المرهفه فإنه كان ولابد سيسلك السبيل نفسه الذى سلكه الحزب الشيوعى — لأن الفكرتين معا شموليتان ولابد أن تكون الوسائل واحده أو متقاربة وإن اختلفت المصادر . . .

وقد يتقارب الوصفان جدا . . وموصوفاهما متباعدان . . .

وكل ما يمكن أن يقال أن هتلر كان يستلهم حاسته أكثر مما كان يستلهم ثقافته وإن لينين كان يستلهم ثقافته أكثر مما كان يستلهم حاسته ومن هنا فإن الوسائل التى ابتدعها لينين كانت فى بعض الحالات مغلفة بطبقة من التهذيب أو التظاهر تجردت منها الوسائل التى وضعها هتلر فعندما جوبه لينين بمشكلة الإدارة والحسم ابتدع فكرة المركزية الديمقراطية ومع أنها كما ذكرنا فى بعض كتاباتنا تسعة أعشار مركزية وعشر ديمقراطية فإنها على كل حال لم تتجرد تماما من قدر من التشاور لم يكن القائد المثقف الذى درس التاريخ الاجتماعى والسياسى وألم فى أكثر من مثل تاريخى بجريرة الانفراد بالرأى ليمكن أن يتجاهله . ومثل هذا القدر أو الألمام لم يكن متوفرا لهتلر الذى كان يستلهم حواسه وليس ثقافته ولم يكن يعنيه فى شىء تجربة التاريخ ومن هنا كان المبدأ الذى يتلاءم مع هتلر هو مبدأ القيادة وماتفترضه من تسليم وطاعة عمياء ولم يكن فى ذلك شىء جديد أو ما يمكن أن يعد إضافة أو إبداع أو تقدم وبالمثل فمع أن الشيوعيين كانوا سابقين فى عمليات الاعتقال ، فإنهم اقتصروا على استغلال المعتقلين فى العمل الجبرى بينما سمح النازيون لأنفسهم باستخدام وسائل تعذيب سادية لغلبة العاطفة عليهم .

* * *

وفى صراع هتلر نحو السلطة دخل فى عدد من المناورات وخاض العديد من المؤامرات مع معظم قيادات حزبه ، أو مع الذين كانوا فى السلطة من هندنبرج إلى برونيج وشليشر وبابن وهو جنبرج، كما كان عليه أن يحدد موقفه من رجال الصناعة والعسكريين وفرقة الخوذه الفولاذيه وأن يكبح جماح فرق الحزب . . ومع أن كل هؤلاء كانوا فى فترة ما أقوى منه واعتقد كل فريق منهم أنه أذكى وأنه سيربح الصفقة ، إلا أن هتلر أثبت أنه أذكى منهم جميعا فى النهاية . . وكفلت له حاسته المرهفه الانتصار عليهم .

الفصل الحادي والعشرون
خمس دقائق قبل الثانية عشر

أخيرا حقق هتلر حلم حياته . . وأصبح ، وهو الشاويش النمساوى الذى لم يكتسب الجنسية الألمانية إلا عندما منحته إياها ولاية برونزويك ليرشح نفسه للرآسة سنة ٣٢ مستشار الريخ .

ولكن هتلر كان يعلم أن انتصاره ذاك ليس خالصا لوجهه ، وأن شركاءه فى الوزارة يتربصون به ، وأنهم يتصورون أنه سيقوم عنهم « بالعمل القذر » الذى يفقده الشعبية ويضعه أمام المواقف المستعصية والمعقدة . . ومن هنا فإن عليه أن يعمل فورا وبكل قوة .

فبعد احتفالات النصر التى سار فيها ٢٥ ألفا من شباب فرق العاصفة مابين فندق « كيزرهوف » المقابل لدار المستشارية والذى كان يقيم فيه هتلر ، ودار الرآسة حيث الماريشال العجوز . . بدأ العمل .

كان هتلر يختلف عن بقية زعماء الأحزاب فى أنه لا يعتمد على الطرق البرلمانية وحدها كقادة الحزب الاشتراكى الديمقراطى ، ولا يضطر إلى الوسائل التآمرية كفون بابن . . لأن له جيشا خاصاً كان يستطيع به أن يكتسح الشوارع وكان أعداء هتلر متفرقين يعادون بعضهم بعضا . فالشيوعيون ، والحزب الاشتراكى والنقابات هم فى الوقت نفسه أعداء العسكريين والملاك والوطنيين ، فإذا ضرب هتلر الأولين ، فلن يتحرك الآخرون بأمل أن يخلصهم منهم ، فإذا فعل جاء الدور

عليه ، بينما كان هو يفكر بنفس الطريقة تقريبا ، أن يتركوه يقضى على الشيوعيين والاشتراكيين والنقابات لينداروا عليهم بعد ذلك .

كانت عملية سباق وخداع ينتصر فيها الأسرع عملا والأكثر دهاء .

وكان ينتظر أن تتحرك القوى التى سيوجه إليها هتلر ضربته الأولى وكانت هذه القوى هى الحزب الشيوعى ، والحزب الاشتراكى الديمقراطى والنقابات .

ولم يكن خافيا أبدا أن هتلر يعتزم أن يوجه ضربته الأولى للشيوعيين الذين اعتبرهم وباء يهوديا تفشى بين الألمان ويجب استئصالهم بلا رحمة . وقد كانوا هم الهدف الأول لهجمات فرق العاصفة ، وفى يوم ٢٤ يناير ، أى قبل أسبوع من تشكيل الوزارة حاصرت قوات العاصفة الأحياء الشيوعية ومركز رآسة الحزب « دار كارل ليبكنشت » دون أن يستطيع الشيوعيون شيئا .

ولكن الشيوعيين كانوا ، حتى هذه اللحظة ، أسرى الفكرة المنحوسة عن أن دورهم فى الحكم إنما سيكون بعد النازى ، ومن هنا فبقدر ما يتحقق هذا بسرعة بقدر مايحين دورهم التاريخى بسرعة ، وفى ٢٣ فبراير سنة ٣٢ اتصل ماكس براور Mox Brauer وهو أحد أقطاب الحزب الاشتراكى الديمقراطى وعمدة التونا بأرنست تورجلر زعيم الهيئة البرلمانية الشيوعية وأشار إلى أنها « خمسة دقائق قبل الثانية عشر » وأنه قد آن الأوان للشيوعيين أن يكفوا عن حرب الاشتراكيين الديمقراطيين ويكونوا معهم جبهة متحدة أو متحالفة فقال تورجلر إن هذا لايخطر ببالنا فيجب أن يلى النازى الحكم ، وعندئذ فخلال أربعة أسابيع ستتحد الطبقة العاملة بأسرها تحت لواء الحزب الشيوعى وظن براور أن تورجلر يعانى من بعض آثار التوتر ، ولكنه بعد عدة أيام قابل السفير السوفيتى شينشوك Chinchook فى هامبورج فسأله السؤال نفسه ليتلقى الرد نفسه ، ولم يكن هناك شىء يزعزع إيمان الشيوعيين بتلك

الفكرة التى قامت على فهمهم لمبدأ « الحتمية التاريخية » والتى تماثل صورة مشبوهة للقضاء والقدر ، وفاتهم أنه حتى لو كان المبدأ نفسه صحيحا فلايجوز الاعتماد عليه وترك الأسباب ، وأن حسابات الحتمية التاريخية المزعومة قد لاتكون بالصورة التى تصوروها ، فقدتكون أبعد مدى ، كما يمكن أن تتدخل عناصر عارضة لاتؤخر هذه الحتمية فحسب ، ولكن تميعها أيضا ، وأن الحمقى وحدهم هم الذين يبيعون حاضرا مؤكدا لحساب مستقبل مظنون .

وليس أدل على تأصل تلك الفكرة فى أذهان الشيوعيين من أنهم لم يتخلوا عنها حتى بعد أن شردهم الارهاب ، وظهرت أولى خصائص النازيه المميزة لها فنشرت مجلة Rundchau الناطقة بلسانهم فى براج فى العدد ٢٣٥ الصادر فى ٧ يوليو سنة ١٩٣٣ « إن الابعاد التام للفاشست الاشتراكيين[1] من جهاز الدولة والكبت الوحشى له ولصحافته ، لايغير من حقيقة أنهم يمثلون الآن ، كما مثلوا من قبل ، القلعة الكبرى لديكتاتورية رأس المال » وحتى نوفمبر سنة ١٩٣٣ تحدثت المجلة عن الانتخابات التى أسفرت عن أغلبية ٩٢٫٢٪ نازية فقالت « إن الانتخابات التى أسفرت تمثل انتصارا كبيرا لحزب تالمان . أن الجيش الجرار للملايين الشجعان المعارضين للفاشيه يؤكد صحة ماأيدته اللجنة المركزية للحزب الشيوعى فى أكتوبر من أن دفعة ثورية جديدة قد بدأت فى ألمانيا » .

وقد يفسر « الانتصار الكبير » فقرة جاءت فى صحيفة أخرى علقت على انتخابات السار تحت مانشت كبير هو « هزيمة هتلر فى السار » وأوضح المقال أن هتلر يعد — من الزاوية الجدليه — مهزوما لأنه لم يحصل على نسبة ٩٨٪ التى ادعى أنه سيحصل عليها ولم ينل سوى ٩٠٪ وأمام هذا السخف الجدلى

---

(١) أى الاشتراكيين الديمقراطيين .

لايجدى أى كلام ولاينفع إلا منطق العمل . وكان منطق العمل أن محررى هذه المجلة ، رغم بجاحتهم القطرية أسرعوا فلاذوا بالفرار إلى فرنسا .

وكان قرار هكرت Heckert sresolution سنة ١٩٣٣ م يدعى أن هتلر لم يهزم الطبقة العاملة ، وإنما قامت هذه « بانسحاب استراتيجى » وأن انتصار هتلر شيء حسن لأنه «شفى» الجماهير من تأثير الاشتراكيين، وبذلك استحث خطا المانيا نحو الثورة البرويتارية .

وأهم من هذه الاجتهادات الفردية ، الفتوى التى قضت بها اللجنة المركزية للكومنترن عندما اجتمعت فى ديسمبر سنة ١٩٣٣ إذ جاء فيها تحت عنوان « افتراضات ديسمبر » .

« ليس العدو فى الدول الفاشية هو الفاشية، ولكن الديمقراطية الاشتراكية إن الأزمة الثورية وتذمر جماهير غفيرة لسيطرة رأس المال يزداد ونتيجة لذلك اضطرت الرأسمالية لأن تلوذ بالديكتاتورية والإرهاب والشوفونزم المطلقة، وقد رأى الرأسماليون فى الفاشية التى نمت فى رحم الديمقراطية البورجوازية وسيلة لإنقاذ رأسماليتهم من الانهيار . ولاتزال الديمقراطية الاشتراكية تواصل أداء دور المؤيد الأكبر للبورجوازية حتى فى الدول الخاضعة للديكتاتورية الغشيمة وذلك بمقاومتها الوحدة الثورية مابين البلوريتاريا والاتحاد السوفييتى »

ولم يزعزع الفشل الظاهر والقاطع لهذه التحليلات والسياسات من ثقة الشيوعيين فى مبادئهم . لأن موسكو على حد تعبير كريفيتسكى أحكمت وضع المبررات النظرية والإيضاحات لفشل محاولاتها فى بولنـدا ، والمجر والمانيا وأستونيا وبلغاريا ، وهى تملأ مجلدات دون أن يتطرق إليها احتمال خطأ قيادتها ،فقد أبقت على خرافة عصمة قيادة الكومنترن باصرار كنسى»

وبصرف النظر عن المبررات النظرية التى وضعها الحزب الشيوعى والاتحاد

السوفيتى لسلوك هذا المسلك المشبوه الخطر ، فلا يملك الإنسان إلا أن يسأل نفسه أليس هناك دوافع « نفعية » وذاتية كانت أكثر تأثيرا من المبررات النظرية التى ادعاها الحزب الشيوعى والاتحاد السوفيتى . وبمعنى آخر أليس من المحتمل أن تكون غيرة الحزب الشيوعى من الحزب الاشتراكى الديمقراطى ، كائنا ما تلبسته هذه الغيرة من صور مذهبية هى السبب فى معاداة الحزب الشيوعى للحزب الاشتراكى الديمقراطى ، خاصة وأن هذا الموقف هو الموقف التقليدى الذى وقفه قبل أن يظهر هتلر وقبل أن يتخذ دعوى « الحتمية التاريخية » سببا لمعاداة الحزب الاشتراكى .. ؟ أليس معقولا أن مجرد وجود حزب اشتراكى يرفع لواء الاشتراكية ويعد التسلسل المنتظم والمباشر من ماركس وانجلز إلى كاوتسكى ويضم العمال باسم الاشتراكية كان يكفى لكى يضرم نار العداوة فى الحزب الشيوعى ؟ وبالمثل فمن الواضح أن الاتحاد السوفيتى والكومنترن يهمه بالدرجة الأولى المصلحة السياسية للاتحاد السوفيتى ، وأن يكون الحزب الألمانى خاضعا له ومنصاعا لأوامره .. ولم يكن هذا أو ذاك ليتوفران فى الحزب الاشتراكى الديمقراطى وفى سياسته .. ولأن من الواضح أن سياسة النازى كانت تتفق مع مصلحة الاتحاد السوفيتى من ناحية أن النازى كان سيبدأ بنقض معاهدة فرساى وجحد الديون ، وبذلك سيشتبك فى عداوة مع الغرب ، الأمر الذى يتفق مع سياسة الاتحاد السوفيتى ، ومن ناحية أخرى فبقدر ما كان يمكن أن يسعد الاتحاد السوفيتى ، والكومنترن أن يكون الحزب الشيوعى الألمانى قويا بقدر ما قد يريدا أن لا يكون من القوة بحيث يستغنى عنهما أو يتمرد عليهما ، وقد رأى عدد كبير من الشيوعيين السابقين أن الكرملين كان يريد بالفعل أن يعانى الحزب الشيوعى الهزيمة ، وأنه حاول هذا عمدا بأمل مواصلة وتكييف سياسة رابالو مع هتلر . كما أن من الثابت أن الهلع تملك الاتحاد السوفيتى عندما بدأت مفاوضات ستريسمان مع بريان والتقارب الألمانى الفرنسى .. ومن

الواضح أن الحزب الاشتراكى الديمقراطى كان يؤيد هـذه السياسة ، بل واشترك فيها ، بينما كان « الوطنيون » الألمان يحاربون هذا الاتجاه .

مثل هذه الدوافع التى تمتزج فيها المصلحة بالمبدأ ، والذاتية بالموضوعية لابد وأنها كانت وراء سياسة الحزب الشيوعى ، ولابد أنها كانت من القوة بحيث تجعل المجلة المسائيـة للحزب الشيوعى Welt am Abend تدعو جوبلز واتوستراسر للكتابة فيها، بينما تتصور الجماهير المخدوعة « إن الاتحادالسوفيتى لن يتركنا ، إن المانيا ليست إيطاليا أو بلغاريا »

. . .

فإذا كان النحس النظرى أو المصلحة الذاتية قد ساقت الشيوعيين على علم إلى هذا المسلك الذى لم يكن أصدقاء النازى وأعدى أعداء الحزب الاشتراكى ليقف موقفا أكثر تشددا منه ، فما هو عذر الحزب الاشتراكى الديمقراطى نفسه الذى لم يكن لديه أى مبرر نظرى أو نفسى لمسالمة النازى .

الأمر الذى لاريب فيه أن الحزب لم يستطع أن يدخل معركة بعد سنوات السلام والدعه والعمل البرلمانى . فحاول أن يرجئها وارد أن يترك النازى ماتركوه ، وأمل بطريقة ماأن ينجح فى ذلك ، وفى آخر اجتماع فى الهواء الطلق سمح للحزب استشهد أوتو فيلز بالحكمة المريحة « الحكام الأشداء لا يستمرون طـويلا » .

ولكن النازى لم يكن ليترك الاشتراكيين الديمقراطيين حتى لو تركه الاشتراكيون الديمقراطيون ، وآمن بذلك عـددمن القيادات الصغرى التى كانت لاتزال تحتفظ بقدر من الكفاحية ،وروت تونى ساندر ، عضو الحزب، وعضو الرشستاج والتى كان بها الأمر بوجه خاص . لأنها فضلاعن هذه الصفات كلها كانت يهودية — أنها قابلت أوتو فيلز واستحثته على العمل وأن

الطبقة العاملة تنتظر أوامره وأن الحزب حتى لو دخل المعركة وهزم — فإن هذا أفضل من الاستسلام المهين فقال فيلز « إننا سنكافح، ويحتمل قبل ٥ مارس ».

والحقيقة أن الحزب فى الشهور القليلة التى سبقت تسلم هتلر للحكم توصل إلى ضرورة اعادة النظر فى موقفه وروى مؤلف « الحزب الاشتراكى الديمقراطى » أنه عقد سلسلة من الاجتماعات الاستثنائية بمعدل ثلاثة اجتماعات كل أسبوع واتخذ عددا من القرارات منها استحثاث الفروع للعمل على حماية الجمهورية والنظام الديمقراطى والاتصال باتحاد النقابات لتوحيد صفوفه وتنظيم حملة صحفية ضد الحزب النازى وفضح سياسته وأساليبه .

ويستطرد مؤلف « الحزب الاشتراكى الديمقراطى » وبتاريخ ٢٩ـ٣٠/١/١٩٣٣ عقد الحزب الاشتراكى اجتماعا موسعا برئاسة أوتوفيلز (رئيس الحزب) اشتركت فيه القيادة والكتلة البرلمانية (نواب الحزب) ولجان الشؤون السياسية والاقتصادية والاجتماعية وأعضاء مكتب الجبهة الحديدية فى الحزب . وذلك لدراسة موضوع استعداد الحزب للانتخابات البرلمانية القادمة التى ستقام فى شهر مارس ١٩٣٣ ، وموضوع موقف الحزب فى حالة فوز الحزب النازى بالأغلبية المطلقة (أكثر من مجموع نصف الأعضاء) .

وبعد مناقشات طويله استغرقت أكثر من ١٥ ساعة متواصله وافق المجتمعون على اقتراح أوتوفيلز الذى ينص على مايلى : (فى حالة فوز الحزب النازى بأغلبية عادية فى الانتخابات البرلمانية وتمكن الحزب الاشتراكى فى نفس الوقت من زيادة عدد مقاعده فى البرلمان بنسبة ١٥٪ على الأقل عندئذ سيعلن الحزب والمنظمات التابعة له بالتعاون مع نقابات العمال الاضراب العام فى البلاد وإجبار رئيس الجمهورية على عدم اختيار أدولف هتلر لمنصب المستشار ، وتقرر أن يعلن هذا الاضراب تحت شعار الجبهة الحديدية لاعضاء

هذا الاضراب الصفة الشعبية ، ومن ثم المبادرة إلى تغيير القواعد العامة وإعادة النظام الديمقراطى إلى وضعه الطبيعى) وبالفعل تم ابلاغ هذا القرار السرى إلى منظمات وفروع الحزب فى كافة أنحاء ألمانيا لكى تتخذ الإستعدادات لتنفيذ أوامر قيادة الحزب بهذا الخصوص .

وقبل الإنتهاء من هذا الإجتماع وصل إلى قيادة الحزب خبر مفاده أن المارشال هندنبورج رئيس الجمهورية ينوى غداً (١٩٣٣/١/٣١) تعيين هتلر بمنصب المستشار بسبب الضغط الهائل الذى مارسته القوى اليمينية وبعض الشخصيات السياسية المستقلة ورجال الجيش عليه ورغبته أى رغبة هندنبورج باشراك الحزب النازى فى الحكم لكى تتمكن الحكومة من معالجة الوضع الإقتصادى وضمان الإستقرار والأمن الداخلى .

وبالفعل استلم هتلر بتاريخ ١٩٣٣/١/٣١ مهام المستشار ، وعلق أوتوفيلز على هـــذا الخبر بقوله ان هذا يدلل بوضوح على مدى صحة القرار الذى إتخذناه وضرورة تنفيذه) وبعد إنتهاء المؤتمر رسميا عهد اوتوفيلز إلى هانس فوجل H. Vogel عضو قيادة الحزب مهمة القيام بجولة على المنظمات الحزبية والنقابات العمالية فى كافة أنحاء ألمانيا وبحث موضوع الإضراب إمعها بالتفصيل ومن ثم نقل آراء ومقترحات هذه المنظمات والنقابات بأسرع وقت ممكن إلى القيادة لدراستها قبل حلول موعد الإنتخابات . وبعد عودة فوجل من جولته قدم تقريراً مفصلا إلى قيادة الحزب تضمن أن كل شىء على مايرام وأن المنظمات الحزبية والنقابات العمالية على إستعداد لتنفيذ قرار قيادة الحزب .

ووصف فوجل هذا الإستعداد بالقول : (كل ما نحتاجه هو الضغط على الزر الرئيسى لتنفيذ الإضراب العام) ، ولكن فيلز كان متحفظا تجاه هذا الوصف لأن حزب النازى بدأ هو الآخر ضمن إطار الدعاية الإنتخابية إتخاذ

الاستعدادات اللازمة لمواجهة الطوارئ، وبالذات فى حالة خسارته فى الانتخابات وفوز الحزب الإشتراكى الديمقراطى وقد أخذت هذه الإستعدادات الطابع العسكرى وتوزيع السلاح على أعضاء الحزب وغير ذلك » .

النقطة الهامة التى كان على الحزب الإشتراكى الديمقراطى أن يزنها تماما قبل التفكير فى أى عمل هو، موقف النقابات ومدى تجاوبها الصادق واستعدادها لدخول معركة . .

وكانت النقابات — وإن لم تتبين وقتئذ ذلك — فى وضع الحزب نفسه تقريباً ، بمعنى أن إستقلالها وكيانها ، والحقوق العمالية التى تحميها والمكاسب التى حازتها . . كلها كانت فى مهب الريح ، وعرضه للضياع إذا سمح النازى بالإنطلاق والحكم بما يريد ومن هنا ، فقد كان هناك مصلحة مباشرة للنقابات ، وعندما كانت تضع يدها فى يد الحزب فإن ذلك لم يكن إنقاذا لشعارات سياسية . . ولكن دفاعا عن حقوق ومصالح عمالية ومادية بل وعن صميم كيانها نفسه .

ولكن النقابات الألمانية لم تكن تخضع لقيادة واحدة ، أو حتى موحدة ، لقد كانت هناك النقابات الإشتراكية الحرة التى ناصرت الحزب الإشتراكى الديمقراطى من البداية ، وكان هذا القسم هو وحده الذى كان يمكن أن يفكر فى الإضراب . . أما القسم الثانى فهو النقابات الكاثوليكية التى كانت تكتسب أهميتها الخاصة من أن معظم أعضائها هم من عمال المناطق الثلاث الغنية بالفحم والحديد ، ألا وهى السار ، والرور ، وسيليزيا العليا . وكان التوجيه السياسى لهذه النقابات فى يد حزب الوسط الكاثوليكى الذى رأى — حينا ما — أن الحزب النازى عدو لدود للشيوعية ، وبالتالى يمكن أن يكون حليفا للكنيسة . ومن هنا فلم يكن ينتظر أن تدخل هذه النقابات فى معركة ضارية مع النازى . .

وبقدر ما أوهنت هذه التجزئة قوة ووحدة الحركة النقابية ، فقد كانت هناك عوامل أخرى مثبطة عن العمل ، فلم تكن الحالة الإقتصادية سنة ٣٢ و ٣٣ كما كانت عليه سنة ٢٠ عندما قامت النقابات بإضرابها العام الناجح ضد مؤآمرة كاب، فقد كانت زيادة عدد العاطلين تضعف من فعالية أى إضراب ، بل وتهدد بتحوله إلى حرب أهلية ..

وفى الوقت نفسه فإن هتلر وحركته كان لها تأثيرها الخاص على العمال لا كعمال — ولكن كألمان ومواطنين . وكان هذا الأثر يجعلهم ، وإن لم ينحازون صراحة إلى النازى — فإن مقاومتهم له لن تكون على أفضلها .

باختصار ، وجدت النقابات — حتى لو أرادته — أن القيام بالإضراب عمل صعب وأن نتيجته مشكوك فيها .. وأن الكاسب الوحيد فى هذه المعركة ، إن لم يكن النازى فهو الحزب الشيوعى .

لقد أضاعت النقابات فرصا عديدة . كانت تمكنها من العمل ، ولكنها لم تعمل .. وعندما أرادت العمل .. لم تكن هناك فرصة .. وأصبح عليها أن تدفع الثمن .

الفصل الثاني والعشرون

النهـــاية

في ٢٧ فبراير سنة ١٩٣٣ اندلعت فجأة ألسنة اللهيب في مبنى الرشستاج حتى كادت أن تأتي عليه .

وكل مؤرخ يلم بوقائع التاريخ يعلم أن حرائق المنشآت القومية الكبرى كانت من الذرائع السياسية المشهورة للقيام بإجراءات معينة أو اتخاذ مواقف كان يعسر اتخاذها بغير الوهج المشتعل ، ولو سجلت كل وقائع التاريخ لكان من المحتمل للمؤرخ أن يجد قبل حريق روما سنة ٥٠ قبل الميلاد . وبعد حريق القاهرة سنة ١٩٥٢ بعد الميلاد من الحرائق المأثورة ما اتخذ سببا لتحقيق مآرب خاصة ..

وفي معظم هذه الحرائق عسر الوصول إلى الدليل اليقيني الذي يثبت الجرم على الفاعل ، ويكشف عن السبب الحقيقي وراء العلة الظاهرة ولكن المؤرخين عرضوا الأقوال الذائعة والشائعات المنتشرة التي وإن أعوزها دليل الوقائع المحكمة أو الثبوت المؤكد ، فإنه لا ينقصها دليل الوجاهة ، ويصدق هذا على حريق روما قبل الميلاد ، كما يصدق على حريق القاهرة لعقود خلت ، وهو أيضاً ما يصدق على حريق الريشستاج ، ففي هذه الحالات كلها ، وسواء كان الحريق قد تم - من البداية حتى النهاية - عمداً وقصداً ، وبتدبير محكم ولغايات مبينة ، أو أنه حدث عرضا ثم أحسن استغلاله .. فإن

النتيجة واحدة ، استغلال الحريق لغرض سياسى غطى على الحادث نفسه وأنسى أسبابه .

وبالنسبة لحريق مبنى الرشستاج. فمن المعروف أن النازى كان فى ٢٤ فبراير قد أجرى تفتيشاً لمقر الحزب الشيوعى « دار ليبكنشت » ، وأعلن جورنج العثور على أوراق تكشف عن مؤامرة لنسف وإحراق المبانى الرسمية ، وأن ذلك سيكون إعلانا بالثورة التى سيقوم بها الحزب ، ولكن جورنج لم يقدم هذه الأوراق .

ولم يقبض البوليس فى مكان الجريمة إلا على شخص واحد هو مارينوس فإن درلوب وهو عامل بناء فى الرابعة والعشرين من عمره ، معتوه ، وعاطل ، هولندى الجنسية ، وقيل إنه ينتمى إلى الحزب الشيوعى الهولندى ، وإنه قد ضبطت معه كتيبات شيوعية ، ولكن رواية أخرى تنفى هذا على أساس أنه قبض عليه عندالباب لم يكن يرتدى سوى «البنطلون» ويبدو أنه عندما استخدم أسمااله فى الحريق . وادعى جورنج أمام مجلس الوزراء أن النائب الشيوعى تورجلر كان قد تحدث مع فان درلوب لمدة ساعات بمبنى الرشستاج قبل ذلك وأعلن أن لديه أدلة لا تقبل النقض ، وفى صباح اليوم التالى ذهب تورجلر بنفسه إلى البوليس وأعلن أنه لا يعرف فإن درلوب ولم يقابله أبدا وأن اتهامه أو اتهام الحزب الشيوعى لا نصيب له من الصحة ، فقبض عليه فوراً ، كما قبض أيضاً على شيوعى بارز هو جورجى ديمتريوف ، وهو بلغارى الجنسية ، وبلغاريين آخرين أيضاً أقل شأناً هما بوبوف وثانوف .

وكان ديمتريوف من أخطر عملاء الشيوعية الدولية ، وله سجل حافل فى العمل السرى فقد كان هو الذى دبر سنة ١٩٢٥ نسف كاتدرائية صوفيا فى اليوم الذى كان مقرراً أن يشهد القداس فيها كل زعماء الحكومة . وقد نسفت

السكاتدرائية نسفاً مروعا أدى إلى مقتـــل ١٥٠ شخصاً ، لم يكن بينهم الأشخاص المطلوبون ، وكان ديمتريوف يعمل فى ألمانيا بصفته ممثل « الكومنترن » وكان قد تلقى الأوامر من موسكو بالعودة إليها . ومع أن القبض عليه قد حال دون تحقيق هذه الرغبة فى وقتها ، فقد حققها بعد ذلك على ما سنرى ، وأصبح فيما بعد سكرتيراً للدولية الحمراء الرهيبة (الكومنترن) ومن الأبطال العالميين للشيوعية ..

ودافع ديمتريوف عن نفسه دفاعا مجيدا يتسم بالجرؤة ، وهدوء الأعصاب ، وأحرج جورنج الذى لم يجد للرد على أسئلته إلا الشتائم وفى النهاية برأته المحكمة ، كما برأت جميع المتهمين ، باستثناء فان درلوب الذى وجد متلبسا بالجريمة ، فقد حكم عليه بالموت .. وأعدم ..

ومع أن من حق ديمتريوف أن نعترف له بالصلابة والشجاعة فى المحاكمة ، فيجب أيضاً أن نضع فى حسباننا ليكون تقدير هذه الشجاعة دقيقاً الوقائع التالية :

الأولى : أن بعض الروايات تؤكد أن ديمتريوف كان من أول المحاكمة عالما بوجود اتفاق سرى بين الجستابو وبين الاتحاد السوفيتى يقضى بأن ينقل ديمتريوف سالما إلى الاتحاد السوفيتى كائنا ما كانت المحاكمة ، الأمر الذى حدث بالفعل — سواء صحت هذه الرواية أو لم تصح — إذ أركب ديمتريوف طائرة نقلته إلى الاتحاد السوفيتى[1] .

---

(١) أورد هذه الرواية مؤرخان للكومنترن هما روث فيشر ، وفرانز بوركناو فى كتابين صدر الأول سنة ٤٨ والثانى سنة ٥٣ ، وأورد هذه الآراء ارتركوستلر فى كتابه الكتابة غير المرئية The Inrisibee Writiny by Artner Kostler وهو الجزء الثانى من ترجمته الذاتية ص ٧٠٣ .

الثانية : أن الدور الذى قام به كنكرتير عام للكومنترن فى النزاع ما بين ستالين وتيتو يوضح — على حد تعبير الكاتب ارثركوسلر — « أن الشيوعى يميل لأن يتصرف كأسد تجاه أعدائه .. وكفأر تجاه رؤسائه فى التنظيم الحزبى » .

الثالثة : إن من الخطأ أن نعتقد أن ديمتريوف كان يتصدى للنازى — كما عرف بعد — نازى الجستابو والتعذيب والحكم المطلق .. الخ .. إن هذا النازى لم يكن وقتئذ قد وجد ، بل إن ديمتريوف لم يحاكم أصلا أمام محكمة نازية ، لقد حوكم أمام محكمة من محاكم جمهورية فيمار . ومن هنا سمحت له بحريات الدفاع التقليدية ، وضماناته أيضاً ، وأصدرت حكمها بمقتضى قانون العدالة الديمقراطية . ولو حوكم أمام محكمة نازية لاختلف الأمر سواء فى موقفه ، أو فى موقف المحكمة ، ولم يكن لتفيده وقتئذ شجاعته ، إذا سمح له بإظهارها ، وفى الواقع فإن هذا هو ماحدث بالفعل فيما بعد . إذ أدخل النازى طريقة تشبه محاكم الشعب ، يكون أغلبية القضاة فيها غير فنيين حتى لا تقف فى سبيلهم الاعتبارات الفقهية أو الفنية أو الدفوع أو الاستشكالات ، وأخذت تصدر الأحكام على الشيوعيين والاشتراكيين .

وذكر دوجلاس ريد الذى تابع هذه القصة من اندلاع النيران حتى صدور الحكم أن الحارس الليلى للرشستاج « البرت ونديت » شهد أنه رأى أحد النواب يخرج من الرشستاج والحريق مشتعل ويجرى دون قبعة أو ياقة كأنما هو هارب . واتضح أنه الدكتور البرشت أحد نواب النازى . وعند استجواب المحكمة له ادعى أنه كان قد نسى أوراقا هامة ، فلما رأى الحريق اقتحم طريقه لأخذها ثم عاد مسرعا ، ولم تعلق المحكمة على هذا الزعم .

التكييف يصل ما بين قاعة الاجتماعات ، وقصر جورنج (رئيس المجلس) وأن هناك احتمالا قويا لاستخدام هذا النفق فى إدخال المواد المتفجرة التى أدت إلى اشتعال الحريق ، خاصة وقد ثبت أن النفق استخدم قبل الحريق بفترة قصيرة عدة مرات .

ورأت المحكمة أن فان درلوب قد يكون هو المتسبب فى الحريق الصغير الذى شب بمطعم الرشستاج ، أما الحريق الضخم بقاعة الاجتماعات فلا بد أنه من عمل أيدى عديدة وكميات ضخمة من المواد الملتهبة وضعت تحت مقاعد القاعة وربط ما بينها ، بخيوط من السيلولويد وأوقد فيها النار . .

فإذا كانت العدالة قد عجزت عن أن تهتدى إلى الفاعل متلبسا بحكم الأدلة المادية ، فإن حكم المنطق ، وخاصة الرد على التساؤل التقليدى فى كل جريمة « من المستفيد؟ » يوضح أن المستفيد الأول هو النازى ، وأن هذا الحريق كان بمثابة « نجدة من السماء » كما ذكر هتلر نفسه لستيفون دلمر محرر الديلى تايمس ، لأنه كان التعلة المباشرة التى مكنت النازى من القضاء على الشيوعيين والإشتراكيين وإشاعة حكم الارهاب وإجراء الإنتخابات بوسائل تحقق له الفوز ، وتبعد عنه منافسة الأعداء الألداء ..

وأسرع هتلر إلى الماريشال الشيخ الذى روعه الأمر ، فاستصدر منه مرسوما «لحماية الشعب الألمانى » كان يسمح باعتقال الأفراد ، ومصادرة الصحف وإيقاف الحريات ..

وواصل جورنج إجراءاته التى كان قد بدأها فى اليوم التالى لتعيينه وزير داخلية بروسيا ، فطهر الجهاز المدنى وإدارة البوليس بحيث فصل كل الذين شك فى ولائهم للنازى ، وكون فرق مساعدة Auxilary للبوليس من فرق

العاصفة وأصدر أوامره للبوليس باطلاق النار دون نظر إلى العواقب ، أو كما صورها بعض الكتاب « باطلاق النار ثم التحقيق بعد ذلك » وأعتقل النواب الشيوعيين وعددا من نواب الحزب الإشتراكى ، ولكنه لم يحل الحزب الشيوعى « فمن الأفضـــل تركه ليفتت الأصوات العمالية فى الإنتخابات » وبسطت فرق العاصفة جوا من الارهاب وأعلن جورنج فى أحد الإجتماعات أنه لن يقف فى طريقه أى حائل قانونى أو يتعلق بالعدالة ، وأنه لن يتردد فى تسخير أجهزة الدولة وبوليسها وفرق العاصفة فى صراع حتى الموت ..

ومن ناحية أخرى كان هتلر يكتسح المدن والأقاليم الألمانية بخطاباته الملتهبة ، وكان جوبلز يكثف ويركز كل وسائل الدعاية والتأثير وكان وزير الداخلية « فريك » يحرك كل أجهزة الدولة .. حتى يأخذ النازى أغلبية ساحقة فى الانتخابات التى أجريت فى ٥ مارس .

ليس من العجيب أن ينال النازى أكثر من ١٧ مليون صوت بزيادة خمسه ملايين ونصف مليون صوت من مجموع الأصوات التى بلغت ٣٩ مليونا . ولكن العجيب أنه فى هذا الجو الأرهابى والدعائى الذى يثبط العزائم ، ويخدر الحواس . ررغم كل وسائل القسر والضغط التى اتخذت ضد الحزب الشيوعى والحزب الاشتراكى الديمقراطى . فإن هذين الحزبين لم يخسرا الا عدداً محدوداً من المقاعد ، فالحزب الشيوعى ، وإن كان قد خسر مليونا من الأصوات ، فإنه نال خمسة ملايين وأصبح من حقه أن يمثل بواحد وثمانين نائبا ، كما نال الحزب الاشتراكى الديمقراطى ، أكثر من سبعة ملايين صوت ، وأصبح له مائة وعشرين نائبا (بخسارة مقعد واحد عن الانتخابات السابقة) .

هذه هى فضيلة فايمار التى يجب أن نذكرها لها عندما يلوثها الآخرون بالوحل ، إن أربعة عشر عاما من الديمقراطية والحرية الكلاسيكية والتمسك

بالشرعية والقانون قد غرست فى نفوس الألمان المستسلمين الإرادة والقوة بحيث تصدوا للطغيان النازى وإرهاب فرق العاصفة . . وكان لابد أن تخضع ألمانيا سنوات طوال ، وليس شهورا ، لأرهاب نظام شمولى محكم ، قبل أن يذوب ما غرسته الجمهورية من مثل . . ويتبدد ما أرسته من أسس ... وتصبح الحكومة هى السلطة العليا الحاكمة والمهيمنة على كل شىء ...

ولم تكن الأصوات التى نالها النازى تعطيه الأغلبية المطلوبة فى الرشستاج ، وإن كان إتفاقه مع الوطنيين فى الرشستاج يمكنه من الحصول عليها ولكن هتلر لم يكن بالذى يضع نفسه موضع برونتج ، وبابن.. كان يريد أن يستريح من التحالف الحزبى ومن باب أولى وأن يعمل حراً ، وحيدا بسلطات مطلقة . . وأراد أن يظفر من المجلس نفسه بقانون يخوله ذلك حتى لايعد مغتصباً وليحقق الديكتاتورية . . بوسيلة ديمقراطية ، محتذياً فى ذلك حذو الأسلوب الذى وضعه وعمقه الشيوعيون ، ومن هنا رسم خطة ليحصل من المجلس على قانون التمكين Enabling Bill ليطلق يده لمدة أربع سنوات . .

وقبض النازى على النواب الشيوعيين ، وزج بهم إلى السجون بحجة الاشتراك فى حريق الريشستاج ، واستراح بذلك من معارضتهم المحتملة ، ولكن بقى هناك احتمال معارضة الاشتراكيين الديمقراطيين والوسط الكاثوليكى . ومن هنا فقد وضع النازى ترتيبات انعقاد الرشستاج الذى تقرر أن يعقد يوم ٢٣ / ٣ / ٣٣ فى أوبرا كرول بعناية .

وقبل الاجتماع بيوم عقد نواب الحزب الاشتراكى الديمقراطى اجتماعاً اتفقوا فيه على معارضة القانون المطلوب ومهاجمة النازى ، وكان يجب أن يلقى كلمة الحزب « برايتشايد » رئيس الهيئة البرلمانية للحزب ، ولكنه كان مريضاً ، فأصر اوتو فيلز رئيس الحزب على القيام بهذه المهمة الخطرة ، وعندما

انعقد الاجتماع قام أوتو فيلز فهاجم هتلر ورماه بأنه يريد تجميد البرلمان كخطوة أولى نحو فرض الأرهاب، وحيا الذين رفضوا الاستسلام وتعرضوا للإرهاب والانتقام

ويجب أن نذكر أن هذا الخطاب ألقى فى بهرة الانتصار النازى ووسط مظاهر إرهاب لاحد لها وجماعات مدججة بالسلاح ، حتى لـكأن مكان الاجتماع قلعة تشن حربا ، وليس برلمانا يعقد اجتماعا ، وأن الحزب الاشتراكى الديمقراطى كان الحزب الوحيد المعارض ، لأن نواب الحزب الشيوعى كانوا فى السجون . وهو إنذار لـكل من يجرؤ على المعارضه ، إذا وضعنا هذا كله فى حسباننا ، أدركنا أن الشجاعة لم تعوز الحزب الاشتراكى الديمقراطى حتى فى أيامه الأخيرة ، وأن ما كان ينقصه فى الحقيقة هو « وضوح الرؤية » التى تمكنه من تحديد الموقف ، وأنه ما أن تتوفر له حتى يجد الشجاعة التى تمكنه من الوقوف موقفا سليما ، ومن هنا فإن موقفه فى ٢٣ مارس سنة ٣٣ كان أعظم دلالة من موقفه يوم ٤ أغسطس سنة ١٤ .

ومع أن السياسة التى اصطنعها هتلر كانت تقضى عليه بأن يظهر بمظهر المتسامح والذى يحاول التوفيق ويعرض التعاون ، إلا أن خطاب فيلز أثاره ، فلم يكد يترك المنبر حتى اعتلاه هتلر وصب جام غضبه على الاشتراكيين ، وعندما أتم كلمته نهض « كاس » ممثل الـكاثوليك وأعلن موافقة حزبه ، وبذلك أكتسب القانون الأغلبية المطلوبة ، وأصبح من الممكن لهتلر أن يحكم — بتفويض من الرشستاج — حكما مطلقا لمدة أربع سنوات . .

ومن الناحية الرسمية يمكن أن يعد إصدار هذا القانون نهاية لجمهورية فايمار إلى حد كبير لولا وجود بعض النظم والاجهزة المتبقية من النظام الجمهورى التى ما عتم النازى أن أخذ يعمل للقضاء عليها ، وكان فى المقدمة ، بالطبع الحزب الاشتراكى الديمقراطى . . والنقابات ..

وكان الحزب الاشتراكى الديمقراطى قد أحس بما يراديه . وبتاريخ ٢٦/٤/١٩٣٣ ، عقد الحزب الاشتراكى الديمقراطى مؤتمرا استثنائيا سريا دعا إليه قادة المنظمات والفروع الحزبية ..

وتذكر بعض المراجع :

« ومن خلال المناقشات التى دارت فى المؤتمر لاحظ فيلز أن هناك اراء جديدة أخذت تسود جو المؤتمر تنادى بضرورة ايجاد حل وسط مع النازيين لكى تخف الحملة المعادية ضد الحزب ، وبالتالى التمكن من المحافظة على كيان الحزب ومنظماته القديمة ، وهذا معناه التنازل عن بعض الأهداف والمبادىء الاشتراكية .. »

وعلق فيلز على هذا الرأى بقوله « من الواضح لدينا أن حزبنا الاشتراكى هو عبارة عن فكر وكيان ، وعلى ما يظهر إن بعض الرفاق يريدون إنقاذ كيان الحزب على حساب أفكاره وعقيدته ولكننى أقول لهؤلاء إنه إذا ماتت أو اندثرت أفكار الحزب أندثر معها كيانه التنظيمى أيضا ..

وأضاف فيلز قائلا إن الذين يعتقدون من رفاقنا وأنصارنا أن الفرق ما بين الحزب النازى والحزب الاشتراكى الديمقراطى ليس كبيراً فهم على خطأ تام . إن الفرق بين الحزبين هو كبعد السماء عن الأرض ..

أما بالنسبة للذين يعتقدون أنه كان بالإمكان ايقاف زحف النازية عن طريق العمل والنشاط الحزبى فقط فهم على خطأ أيضا ، إن الذى جاء بحزب النازى إلى الحكم فى ألمانيا هو الأزمة الاقتصادية الدوليه ، بالإضافة إلى عدم اتفاق الأحزاب الاشتراكية والديمقراطية فيما بينها ..

ثم توجه بحديثه إلى ممثلى النقابات العمالية وقال إن هـــذا ينطبق على منظماتكم أيضاً (إذا مات الفكر مات معه التنظيم) .

وكلام فيلز صحيح فى جوهره ، ولكنه لا يبرىء الحزب الاشتراكى الديمقراطى الذى ما أن انتهت مرحلته الكفاحية مع سقوط القوانين المضادة للاشتراكية وأيام بسمارك، حتى أصبح همه الأول تغذية الكيان على حساب الفكر، وحقيقة أن الأزمة العالمية هى التى جاءت بالنازى إلى الحكم تعنى ضمناً أن النازى كان أحسن استفادة منها وفهماً لها من الحزب الاشتراكى الذى كان يجب عليه بسرعة أن يكيف سياساته ومواقفه طبقاً للتطورات . فبالنسبة للازمة والبطالة .. الخ .. كان يمكن أن يتبنى قضية « الأشغال العامة » كأضعف الإيمان وأن ينهج السياسة التى تدافع عن الإنسان .. وليس عن العملة .. ومع ان هتلر كان ديماجوجيا إلا ان مسلكه الاقتصادى كان اكثر قربا إلى الأمانى الجماهيرية والشعبية منها إلى مسالك الاقتصاديين الاكاديميين الذين يدخلون الميدان بعدد من المفاهيم التقليدية المقررة سلفا . وكان اوتو فيلز بالذات ـ إذا صحت رواية ويتنسكى التى ذكرناها فى مكان سابق ـ هو الذى عارض مشروعات الاشغال العامة الخ .. لامتصاص البطالة .

وكان موقف النقابات اسوأ من موقف الحزب الاشتراكى فقد تملكها الذعر ، كما لو لم تكن تملك سلاحا ، او لم تخض معارك . وفى غيبة المبدا القوى والعقيدة الملهمة التى تدفع إلى العمل والنضال، سادت رغبة الابقاء على الحياة . وسلك اتحاد النقابات مسلكا يحاول ان يثبت به بعده عن العمل السياسى وعكوفه على العمل المهنى ، فرفض قبيل مارس ان يؤيد انتخاب الاشتراكيين الديمقراطيين وترك لكل عضو انتخاب من يراه .. وفى ١٣ إبريل اعلن هانز اهرنتيت Hans Ehrenteit فى المؤتمر الإقليمى للنقابات فى هامبورج « إننا على استعداد ، ومقدرة لتحقيق آمال ورغبات البلوريتاريا فى النطاق الاقتصادى ـ الاجتماعى بالاتفاق مع الحكام الراهنين ، ونحن لا يخالجنا

أقل شك أن أحداث مارس تمثل ثورة ذات عمق ، ونطاق كبير ، ثورة ستكتسح النظام الاقتصاد الرأسمالي الليبرالي وتضع نهاية للديمقراطية البرلمانية التي كانت في السنوات القليلة الماضية مضللة وقد اقامت النقابات جسورا مابينها وبين الدولة وحكامها. وعلينا الآن أن نعلن عن مسلكنا تجاه الدولة والشعب، ولهذا المسلك أساسه ، وأفضل الطرق فيما نرى هي أن نقيم جسورا اللذين يريدون — بدافع من الجهالة — أن يحطموا النقابات اليوم أكثر مما كانوا يريدون بالأمس . ونأمل أن يكون لدينا المقدرة للمساعدة في ذلك . ويجب أن تواصل النقابات مهمتها الاجتماعية والاقتصادية . وهذه المهمة نفسها هي ما تقوم به الحكومة الحاضرة للريخ ، ومن هنا فإن التعاون ما بين النقابات والحكومة ممكن » .

وفي ٢٠ مارس سنة ١٩٣٣ نشرت الصحيفة الرسمية للاتحاد بيانا جاء فيه :

« إن كل ما يهم سكرتارية الاتحاد العام للنقابات هو تنفيذ مطالب العمال وتحقيق مبدأ العدالة الاجتماعية لهم ، وليس من يتسلم مسئولية في البلاد[١] » .

وعلق المتحدث الرسمي باسم الحزب الاشتراكي الديمقراطي بأن هذا البيان لا يمثل رأى النقابات والعمال في ألمانيا ، وإنما رأى السكرتاريه فقط ، ولكن هذا لم يمنع السكرتارية من إرسال أحد أقطابها « لايبارت » في اليوم التالي (٢٠ / ٣ / ١٩٣٣) إلى هتلر لتسليمه نسخة من البيان[٢] ..

ونشرت الصحيفة نفسها مقالا بقلم والترباهل Pahl جاء فيه :

« إن من المؤكد أننا لا نتنكر لجماهيرنا عندما نعترف أن انتصار الوطنية الاشتراكية وإن كسب في كفاح ضد حزب ألفنا أن نراه تجسيدا

(٢،١) ص ١٢٠ كتاب الحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني « المشهداني »

للاشتراكية (أى الحزب الاشتراكى الديمقراطى) فإنه يعد إنتصاراً لنا أيضاً لأن الرسالة الاشتراكية وضعت لكل الشعب » .

وبالطبع فإن هـذا الموقف لم يكن فعلا موقف النقابات الألمانية كلها . ولا ريب أن عددا كبيرا من القيادات النقابية — على الأقل اليهود منهم — ثاروا عليه وراوا أنه لا يمثل وجهة نظرهم . . ولكن هذا لا يمنع أنه يمثل وجهة نظر الأغلبية التى أعتقدت أن ليس أمامها من خيار آخر . .

ووصف ويتنسكى نفسية القيادة النقابية هذه الأيام الفاصلة .

«وواصلنا عملنا الروتينى فى الادجيب فى انتظار الضربة القادمة . ولم تتعرض النقابات فى مستهل عهد الريخ الثالث لاضطهاد خاص ، وكان الهجوم الذى وجه إلى أعضائها وموظفيها راجعا أساسا إلى علاقاتهم بنشاط الحزب الاشتراكى الديمقراطى وأصبح توتر الأعصاب الناشىء عن القلق والتوقعات الغامضة من الأمور التى لا تطاق ، وذهبت إلى ليبارت وسألته عن رأيه فيما ينبغى أن تفعله الحركة العمالية المنظمة فأجاب « ليتنى أعرف لعلك تعرف الجواب» .

وقلت مقترحا ربما إضراب عام ..

ولكنه كان يفكر فى إمكانيه القيام باضراب محلى فى حالة هجوم مباشر على النقابات المحلية ، وأثار هذه المسألة فى أحـد اجتماعات اللجنة ، فوافق الكل بوجه عام على أنه يجب أن تكون النقابات مستعدة لمواجهة التحدى ، ولكن كيف ومتى ، وأين .. كان نفس الشعور يساور جميع رؤساء النقابات « لقد فاتنا الوقت » وفى إبريل أحتلت القمصان السمراء مقار نقابات عدة ، لم يبد أن مثل هذه الخطوة تبرر القيام باضراب عام . وربما يكون إضرابا محليا ، ولكن من الذى يأمر به ويتولى قيادته .

لقد كان يوم مايو ، وهو يوم العمل التقليدى فى اوروبا يقترب حين تلقت

اللجنة خطابا من وزارة الداخلية الجديدة : لقد قررت الحكومة ان تجعل من اول مايو يوم وحدة الشعب الألماني . وسوف يرأس الفوهرر نفسه الاحتفالات التي تقام بهذه المناسبة . وسوف تتاح للعمال فرصة اظهار وطنيتهم وولائهم للنظام الجديد . ودعى اتحادنا للإشتراك في العرض مع جميع الرجال والنساء الألمان الآخرين ، وسيسير اعضاء النقابات الحرة في طوابير مستقلة تحت اعلامها ، ولا شك ان اشتراكهم في العرض القومي سوف يكون شاهدا على التنسيق بينها و بين النظام الجديد .

قرأ ليبارت الخطاب في اجتماع اللجنة . وقد كان رجلا مسنا محطما ، ولهذا ارتعش صوته حين قال « هذا موقفنا ليس أمامنا خيار » .

وجلس الجميع في صمت ، والتفت ليبارت نحوى وقال هل أمامنا سبيل للاختيار ؟ لقد نصحتنا منذ عامين ياويتنسكى فماذا تقول الآن ؟

وأجبت « إن اختيارك هو أن تسلم نقاباتك إلى النازى أو تدعهم يأتون ويستولون عليها . وليس بين الأمرين فارق كبير الآن .. ولكن سيأتى اليوم الذى يكون فيه الفارق كبيرا » .

وألح ليبارت « بماذا تشير » .

— بعدم التسليم .

وطلب ليبارت رأى رؤساء النقابات ، فكانت إجابتهم الجماعية « ليس أمامنا خيار »

وختم ليبارت الاجتماع قائلا « سأرد على الوزارة بأن الاتحاد سوف يشترك في العرض » .

وفى أول مايو سارت النقابات كما لو كانت الأسرى الذين يسيرون وراء

عربة الفاتح ، ولم يكد ينتهى اليوم حتى داهم جورنج النقابات فى ٢ مايو واحتل جنود العاصفة مقارها واعتقلوا قادتها وزعماءها ، وفى ١٣ مايو صدرت الأوامر بمصادرة كل أموال ومقتنيات النقابات .

وتهاوت النقابات الألمانيه الحرة .. وطويت صفحتها .

* * *

لم يكن الاشتراكيون والشيوعيون هم الذين يقلقون هتلر بالدرجة الأولى، إذ كان هتلر يضيق بحلفائه الداخليين أكثر مما كان يضيق بأعدائه الخارجيين وكان عليه قبل أن يصبح صاحب الكلمة الوحيدة المسموعة أن يتخلص من حلفائه فى الوزارة .. ومن بعض العناصر الثائرة فى الحزب .

وقد قام هتلر بهذه المهمة ، فى المدة مابين مارس سنة ٣٣ ويونيو سنة ٣٤ وانتهت بتلك المذبحة التى أشرف بنفسه على تنفيذها فى ٣٠ يونيو ، ووضعت خاتمة لكل صورة من صور المنافسة أو المشاركة ، فضلا عن المعارضة .

ففى الفترة مابين ٥ مارس و ١٦ مارس عنى هتلر باخضاع كل الولايات لحكم مركزى قوى ، وهدم هدما تلك الحقوق التى توارثتها الولايات الألمانيه من القرون الوسطى . فكانت بروسيا فى قبضة جورنج ، وأرسل إلى بافاريا ، التى دارت فيها بعض الأحاديث عن الانشقاق وإعادة الأسرة المالكة ، الجنرال فون إب فحكمها بيد من حديد، وأرسل إلى كل الولايات محافظين لهم سلطات كاملة .. وأخذت هذه الاجراءات شكلها الرسمى فى ٣٠ يناير سنة ٣٤ عندما صدر قانون ألغى برلمانات ووزارات الولايات ، وجعلها محافظات تتبع إدارياً وزارة الداخلية ، وبصرف النظر عن الغرض الذاتى للمعين ، أو النية وراء هذا الإجراء ، فيمكن أن يعد من أعظم الانجازات التى لم تظفر بعناية المؤرخين ، والتى حقق هتلر بها ماعجز عنه حتى بسمارك — رجل الدم والحديد ، وكان فى

هذا أيضا ـ على مافى ذلك من مفارقه ـ محققاً لأحد الأهداف التى وضعها فى بيانه « اتحاد سبرتاكوس » .

وأخذت الأحزاب المشتركة مع هتلر فى الحكم ، وبوجه خاص هوجنبرج وبابن بتطور الأحداث وأدركت خطأها، ولكن بعد أن فات الأوان، ووجدت نفسها فى موقف الحزب الاشتراكى الديمقراطى نفسه فاستسلمت وفضلت أن تحل نفسها بيدها .

ومابين يونيو ويوليو حُل الحزب الديمقراطى ، وحزب الشعب ، وحزب الوسط الكاثولكى ، ودفع هوجنبرج الفخور لأن يحل حزبه « الحزب الوطنى » أما سيلدت رئيس الخوذة الفولاذية فقد انضم بفرقته إلى فرق العاصفة ، وفى ١٤ يوليو أصدرت الحكومة أمرا رسميا أعلنت أن « النازى هو الحزب السياسى الوحيد فى المانيا » .

وبذلك طويت صفحة الأحزاب كما طويت بالمثل صفحة الولايات وكما طويت من قبل صفحة النقابات .

وفى دوائر النازى نفسه كان نوع من التحفز والتقطب يحدث مابين القوى المحافظة ومابين العناصر التى احتفظت بطابع اشتراكى .. مابين الصفة السياسية المدنية للحزب والصفة العسكرية التى تضخمت بتضخم فرق العاصفة ، وماكانت تقوم به من دور كبير فى حراسة الحزب وإرهاب خصومه ، وكان على رأس فرق العاصفة أرنست روهم ، الرئيس العسكرى المباشر « للشاويش » هتلر فى الجيش ثم زميله فى الحزب .. والرجل الذى بنا الفرق وأشرف على تدريبها وكان يمكن لروهم أن يقنع بأن يكون جمع رأس جيش شعبي يبلغ تعداده ما بين ٢ و ٣ مليون وأن يقف إلى جانب الزعيم . ولكن مشاعر روهم كانت غير ذلك سواء لأنه عاشر هتلر معاشرة رئيس لمرؤس .. أو زميل لزميل، أو لأنه

كان يؤمن بأفكار اشتراكية أبعد مما كان هتلر على استعداد لأن يمضى إليها . . أو لأنه كان يضيق بتشهير بعض قيادات الحزب بانحرافه الجنسى . . أو لغيرته من هؤلاء الأقران الذين كان بعضهم مثل جورنج ، يتقلدون بحكم صفاتهم السياسية والمدنية مناصب المسئولية فى الدولة .. فى المحصلة الأخيرة ظهر أن روهم يداعب فكرة « الثورة الثانية » وأنه يختلف مع هتلر فهتلر اعتبر وصوله إلى الحكم تكليلا للثورة .. ولم يعد يريد إلا العمل .. والتنفيذ ، وهذا بالطبع لأن فكره كان يدور حول نفسه ، ولكن روهم الذى كان فكره لايدور حول الزعيم ولكن حول مبادىء موضوعية أو نظريات معينة ، أو حول نفسه هو ، رأى أن ما وصل إليه هتلر لا يمثل إلا المرحلة الأولى من الثورة ، وأنه لابد من مرحلة ثانية ، أو حتى ثورة ثانية .. وتفكير روهم فى ذلك أمر ثابت تاريخيا ، ولا يمكن الطعن فيه وقد تحدث معه فى هذا ، وبادله روهم الحديث « لوديك » عضو الحزب القديم ، وحاول أن يجمع ما بين روهم وجريجور ستراسر . وفى يونيو سنة ٣٣ دار حديث طويل بينهما عن تطهير الحزب ، واطلع روهم محدثه (لوديك) على إحدى صحف الحزب الشهرية التى نشرت مقالا بعنوان « فرق العاصفة والثورة الألمانية » جاء فيه « لقد اكتسب انتصار واحد على طريق الثورة الألمانية . ولن تسمح فرق العاصفة ولا فرق الهجوم التى تتحمل المسئولية الكبرى فى دفع الثورة الألمانية — بأن تنام الثورة أو أن تخدع فى منتصف الطريق ، فإذا كان الغلاة يعتقدون أن الثورة الوطنية قد بقيت أكثر من اللازم ، فقد آن الأوان لأن تنتهى الثورة الوطنية ، وأن تصبح ثورة وطنيه اشتراكية . إننا سنواصل كفاحنا بهم أو بدونهم ، وعند الضروره ، ضدهم .. إننا الحماة الذين لم يتطرق إليهم الفساد للثورة الألمانية » كما كان روهم قد ألقى خطابا فى إبريل ١٩٣٤ قال فيه « إن الثورة الألمانية ليست وطنية ، ولكنها وطنية اشتراكية ، مع تركيز خاص

على كلمة اشتراكية . ويوجد رجال فى مناصب مسئولة ليس لديهم أقل فكرة عن روح هذه الثورة، وستتخلص منهم بلا رحمة إذا جرؤا على وضع أفكارهم الرجعية موضع التنفيذ » .

ومن المحتمل أن يعود هذا التطور الأخير فى أفكار روهم إلى تطور وضعه، منذ أن كان « كابتن » فى الجيش الرسمى إلى قائد لفيالق العاصفة ، وأن هذا التطور وضعه وفرقه موضع المنافسة للجيش الرسمى الذى كان يمثل التقاليد البروسية الوطنية والذى أخذ يضيق بفرق العاصفة ، ولما لم يكن روهم ليستطيع أن ينافس الجيش فى اصطناع الوطنية ، فإنه ، تدريجيا وشيئا فشيئا اصطنع الاشتراكية وأصبح يؤمن بسياسة التحالف مع روسيا ضد الرأسمالية والغرب وهذا — فى غيبة احتمال أى إيمان نظرى أو مبدئى بأصول الاشتراكية — هو المبرر الوحيد لاتجاه روهم ، هذا الاتجاه الجديد الذى جعله « كابتن اشتراكى » قدر ما كان شليشر « جنرال اشتراكى » .

ومن المحتمل ان روهم فى تحوله من اليمين إلى اليسار كان متأثراً ، ولو حتى دون ان يشعر، بواقعة معينة هى ان فرق الهجوم فى الفترة الأخيرة امتصت عدداً كبيرا من الشيوعيين الذين عمدوا منذ أو حتى قبل أن حل حزبهم سنة ١٩٣٣ إلى التسلل إليها . وكان روهم عالما بهذا التسلل ، وكان يفخر به كدلالة على تسليم الشيوعيين بانتصاره كما سبق وذكرنا فى الوقت الذى كان للشيوعيين مآرب اخرى . وفى هذه اللعبة الخطرة كثيرا ما يصبح الصائد هو الصيد ، وليس من العجيب ان يجد روهم نفسه ، وقد حرم مما يعتقد انه حقه من مناصب السلطة ومراكز النفوذ ، وهو ينحاز شيئاً فشيئاً إلى افكار اعدائه السابقين، ومن المسلم به على كل حال ان انضمام الشيوعيين إلى فرق العاصفة استمر حتى بعد تصفية روهم ، وكان سبباً فى تصفية الفرق نفسها فى خريف ١٩٤١ على

ماروى مؤلف قطار برلين الأخير عندما اكد له البعض له ان ٤٠٪ من اعضاء الفرق كانوا من الشيوعيين السابقين ، وان بعض هؤلاء وصلوا إلى اعلى المناصب فى الفرق . ومع ان هوارد .ك. سميث مؤلف قطار برلين الأخير استبعد صحة هذا الرقم ، فإنه ذكر ان فرق منطقتين كاملتين قد حلا عندما اكتشف ان الأغلبية الساحقة من عضويتهما شيوعية .

كما ان من الثابت ان دوائر الجيش كانت قد ابدت تخوفها صراحة من فرق العاصفة ، وان موضوع انضمام هذه الفرق إلى الجيش بكامل عددها ، ورتبها عرض على الجيش ورفضه فون بلومبرج وفون فريتش الأمر الذى اثار روهم . وان هتلر آثر ان يرضخ للجيش خاصة وانه وجد فى التنظيم الجديد الذى نظمه هملر وحمل اسم S.S. (Schutz Staffein) حرسا خاصا ، اى يؤمن به شخصيا كقائد وزعيم ويتفانى فى طاعته ، ولا يعلق بذهنه شىء من الذكريات القديمة ، او يكون له من « الدالة » مايقضى ان يشركه فى الأمر .

وعالج هتلر هذه المشكلة بحذر مستلهما حواسه المرهفة ، كان أشبه بالحيوان الذى يتشمم آثار الفريسة .. واتجاه الريح .. ومواقع الاقدام . . فأولا كانت فرق العاصفة ثمينة ولازمة له ليكتسح الشوارع ويستطيع الضغط بها على القوى المعارضة بما فى ذلك الجيش ورجال الصناعة والاشتراكيين ، وكان روهم بالذات محل ثقته . وعندما تمردت بعض وحدات هذه الفرق سنة ٣٠ فى برلين ، واضطر هتلر للاستنجاد بالبوليس كان الحل هو أنه طلب إلى روهم ، الذى كان يعمل وقتئذ فى خدمة جيش بوليفيا ، العودة وضبط الفرق ، وفى الوقت نفسه فإنه لم يكن مستعدا لسماع أى شىء عن الثورة الثانية ، وحاول هتلر اجتذاب روهم فعينه وزيرا فى حكومة الريخ فى ديسمبر سنة ١٩٣٣ ، وفى الذكرى الأولى لانتصاره (٣٠ يناير ١٩٣٤) أرسل إليه خطابا خاصاً رقيقا يشكره على خدماته

« التى لا تنسى » وقيادته لفرق العاصفة وختم خطابه بأنه يشكر القدر إذ جعل من بين أصدقائه وزملائه فى السلاح . . أفرادا مثله . ولكن لم يكن لهذا الخطاب من أثر . وفى ٤ يونيو أمضى هتلر مع روهم خمس ساعات قال عنها فيما بعد لقد توسلت إليه لآخر مرة أن يقلع عن هذا الجنون ، وأن يستخدم سلطاته لإيقاف هذا التطور الذى لن يسفر إلا عن كارثة ، ولكن هتلر ، فيما يبدو لم يقنعه ، ولم يرهبه . . ولهذا فعندما بدأت الأجازات ، وسافر روهم فى ٧ يونيو أعلن لفرق العاصفة « أنهم سيتلقون فى الساعة ، وبالصورة اللازمة الرد المناسب . . »

وفى ١٧ يونيو ألقى فون بابن ، الذى نحى جانبا طوال هذه الفترة خطاباً فى جامعة ماربورج كشف فيه عن المخاوف التى تعتمل فى رؤوس الكثيرين والذى كان يمكن أن يعد موجها ضد روهم وأفكاره عن الثورة الثانية ، كما يمكن أن يكون موجها ضد جوبلز ، لسان حال العهد والحاكم بأمره فى مجال الاعلام .

فى هذا الخطاب قال بابن إن صحافة حرة يجب أن توجد لتبلغ الحكومة علنا وبرجولة عن المواقع التى يعشش فيها الفساد وترتكب فيها الأخطاء وحيث يشغل الرجال المناصب التى لا يصلحون لها ، وحيث ترتكب الجرائم باسم الثورة الألمانية .

واشار إلى « الثورة الثانية » فقال :

« أن أى واحد يسمح لنفسه بأن تعبث به مثل هذه الأفكار يجب ان ألا ينسى أن للموجة الثانية قد تستتبع موجة ثالثة ، وأن من يهدد باستخدام الجيلوتين . . قد يكون هو أول ضحاياها . . .

فضلا عن أنه من غير المعروف إلى اين تنتهى هذه للموجة الثانية فهناك

أحاديث كثيره عن « التشريك Sociaeilization ، فهل قمنا بالثورة ضد الماركسية . . لكى . . لكى نطبق برنامجا ماركسيا . . وهل سيكون الشعب الألمانى أفضل نتيجة لها ، إن الحركة يجب أن تنتهى ، بعد فترة ماليظهر البناء الإجتماعى الصلد . . ولن يكون هناك بناء خلال الاضطرابات المتلاحقة » .

بالاضافة إلى هذا التوتر الداخلى الذى كان يهدد وحدة الحزب فقد كان هناك عامل آخر كان يقض مضجع هتلر . ذلك هو مستقبل المانيا بعد وفاة المارشال الشيخ الذى كان قد بلغ من العمر عتيا وأصبح على أبواب القبر ، واحتمال التمزق الذى تتعرض له البلاد ، بوجه خاص لأن الجيش لم يكن يخفى امتعاضه من وجود فرق العاصفة وفرق الهجوم ، وبوجه خاص عندما يكون على رأس الفرق الأولى شخص يعلن اتجاهات اشتراكية ويضمر اراء عن جيش شعبي من فرق العاصفة ، وفى مثل هذا المأزق لم يكن هتلر ليستطيع الاعتماد تماما على إحدى هاتين القوتين : الجيش بسبب فرق العاصفة، وفرق العاصفة بسبب اتجاهات روهم ، ولو ثارت عليه إحدى هاتين لما استطاع أن يستنجد بالثانية ضدها ، إلا على شروطها ، وبأن يصبح هو نفسه أسيرها ، وهذه الهواجس التى لم يتعرض لها معظم المؤرخين ، كانت فى نظرنا ، السبب الأول لتلك المذبحة التى قام بها هتلر فى ٣٠ يونيو سنة ٣٤ ، ووضعت حدا لكل القلاقل الماثلة والمحتملة وضمن بها هتلر ولاء الجيش . .

وعندما انتهى هتلر من تفكيره الطويل بدأ العمل فورا فسافر بالطائرة من بون إلى ميونيخ فى مساء ٢٩ يونيو ، وفى صباح ٣٠ يونيو انطلق هتلر بحرسه من الفرق الخاصة فى عربات مدرعة ومصطحباً جوبلز إلى الفندق الذى كان يأوى إليه روم فى ويز Weisse وانتزع من سريره وألقى القبض توا على كل زعماء وفرق العاصفة من بيوتهم ونقلوا إلى ميونيخ حيث كان هيس فى انتظارهم وأودعوا سجن ستادلهم حيث ضربوا بالرصاص ووضع أمام روهم مسدس

لينتحر ؛ ولكنه رفض وقال إنه يؤثر أن يقتله هتلر واعوانه . . الأمر الذى حدث بالفعل واستمرت عملية الاعتقالات والاغتيالات يومين متتابعين لم يقتصر القتل والاعتقال فيهما على روهم وصحبه ، ولكن على كل الذين اشتبه فى ولائهم فقتل فون شليشر وزوجته ، وقتل ستراسر وقتل فون كاهر حاكم بافاريا أيام مؤامرة هتلر سنة ٢٣ وقتل اثنان من مكتب فون بابن هما فون بوز وادجار يو بخ ونجا بابن نفسه باعجوبه — وقتل دكتور كاوزنر Klausener العضو البارز فى الحزب الكاثوليكى .

وكان من بين القتلى سكرتير روهم الخاص الشاب كونت سبرتى Count Spreti وهو شاب اشقروسيم اطلق عليه الصحفيون الأجانب Count Pretty وكان شريكه فى انحرافه الجنسى ؛ كما كان من القتلى رئيس برسلو وقائد فرق العاصفة فيها هينز الذى اشترك فى عدد من الاغتيالات السياسية فى اعقاب ثورة نوفمبر وقد قتل فى سريره ، وإلى جانبه شريكه فى انحرافه الجنسى الذى دفع بحياته ثمن هذا الانحراف .. كما كان هناك ابرياء لا ذنب لهم الاتشابه الاسم .

وهكذا انقض هتلر فى هذه الليلة « كفهد اسود فى ليلة مظلمة » على اعدائه وأخذهم بغتة . . . وقدر عدد الذين قتلوا فى مذبحة هاتين الليلتين بما بين ٣٠٠ و ١١٧٦ ، والعدد الأخير أقرب إلى الصحة لدى بعض المؤرخين . .

وفى ١٣ يوليو وجد هتلر أن عليه أن يقدم تفسيرا للشعب الألمانى ممثلا فى مندوبيه الذين اجتمعوا فى دار أوبرا كرول .. وفى هذا الإجتماع ادعى هتلر أنه علم أن روهم تآمر على الحكومة واراد السيطرة على الجيش ووضع خطة للقيام بانقلاب فى عصر يوم ٣٠ يونية والقبض على هتلر . .

ولاشك أن روهم كان لديه نوايا من هذا النوع ، ولكن يكاد يكون من المؤكد أيضاً أنه لم يكن قد حول هذه النوايا إلى عمل محدد ، فقد كان زعماء

فرق العاصفة بعيداً عن برلين ، وعن مراكز قياداتهم ، وعندما قبض عليهم كانوا يغطون فى نوم عميق .. . وكان « أرنست » الذى أدعى هتلر أنه سيقود المؤآمرة ، فى طريقه لقضاء شهر العسل وقد قتل شهيدا لهتلر ، وليس ثائراً عليه أو خائنا له ..

ولكن قد يوضح سر الحركة تلك الكلمات التى جاءت فى خطاب هتلر وهو بصدد الحديث عن تآمر روهم مع شليشر لكى يجعله هذا الأخير وزيرا للحربية بدلا من الجنرال فون بلومبرج ..

« لقد كان مستحيلا على أن اوافق على تغيير وزير الحربية أو احلال روهم. وان تعيين الرئيس فون هندنبرج ... أن الجيش ...

سياسية للريخ بأسره ينبع من ايمانى العميق ، وكلمتى المعلنة . كما أن هذا العمل بالنسبة لوزير الحربية لم يكن ليعد عملا من أعمال الرجوله . فأنا ، ونحن جميعا سعداء بأن نرى فيه رجلا شريفا من الرأس إلى القدم ، وأى عمل من هذا النوع يعد خيانه للفيلد مارشال هندنبرج ، ولوزير الحربية ، وللجيش ايضا . ففى الدوله يجب أن لا يوجد سوى هيئة واحده تحمل السلاح . تلك هى الجيش » .

ورد الجنرال فون بلومبرج قائد الجيش هذه التحيه بأحسن منها ، ففى الأمر العسكرى الموجه للجيش امتدح « الشجاعة النموذجيه التى قضى بها هتلر على الخونه والمتآمرين » وأكد ولاء واخلاص الجيش .

بهذا العمل أكتسب هتلر صداقة الجيش ، وأمن نهائيا من أى إنقلاب يمكن أن يحدث فى الجيش أو فى الحزب نفسه .

* * *

بعد سنة و نصف من الحكم الهتلرى كادت جمهورية فايمار أن تصبح أثرا من

الماضى البعيد والشيء الوحيد الذى كان يحفظ لها وجودا رسميا وهنا نا هو الرئيس « هندنبرج » ..

وكان واضحا أن المارشال العجوز يسير نحو قبره ، وان الأيام الباقية له معدودة .

ولكن هتلر لم يكن ليسمح لهذا الرمز من رموز فايمار أن يمضى دون أن يفيد منه فى تدعيم مركزه .

إذ رأى ببداهته الحاضره ما يمكن أن يفيده من الماريشال العجوز ، وعقب انتخابات مارس أسَرّ لاحد أصفيائه « لوديك » اننى أريد هندنبرج ، أريد هذا الثور العجوز الضئيل العقل إنه يمثل شهره خرافيه يجب استثمارها ، إن هنا صورة رمزية يجب أن لا تفوتنى . الفلد مارشال العجوز .. والامباشى الشاب من الخنادق يضمان أنفسهما تحت الصليب المعقوف فى بلاط فردريك الثانى . . إننى سأقوم بتنفيذ هذا الدور فى بوتسدام .. »

وفى ٢١ مارس أقيم فى بوتسدام حفل مهيب حضره المارشال العجوز الذى كان قد جاوز الثمانين ، ومضت ستة عقود ونيف من السنين منذ أن زار هذا المكان لأول مره وهو ملازم سنة ١٨٦٦ . وحضر الحفل كل القواد والضباط والجنود الذين اصطفوا والماريشال يستعرضهم وإلى جانبه هتلر ، وكان منهم اثنان من ابناء القيصر فى لباس جندى عادى كالذى يلبسه كل افراد « الفرقة الفولاذيه .. » وتحدث هندنبرج عن الحكومة الجديدة ، وأمله فيها ، والمهام الثقيلة امامها ورد هتلر بكلمة أشار فيها إلى ١٩١٨ وشكر الماريشال لأنه بفضله تحقق هذا الزواج ما بين المجد القديم .. والفتوة الجديدة ، وشد هتلر على يد هندنبرج بينما تقدم هذا ليضع اكليلا من الزهور على قبر فردريك ..

وفى مساء أول أغسطس فاضت روح هندنبرج .. وانقطع بذلك الخيط

الدقيق الذى كان يربط فايمار بالحاضر ، وعقد احتفال بجنازته بعث مرة أخرى « روح بوتسدام » وتصور دوجلاس ريد أن جيش ١٩١٤ قد قام من قبره فقد اقتعدت الخوذات الفولاذية رؤوسا لم يعد فيها شعرة واحدة وحضر كل الحرس القديم ليؤدى التحية الأخيرة ، وأمام التابوت وقف فى الصف الأول جورنج فى بدلة جنرال ، واوسكار هندنبرج والماريشال ما كنزن وفون بلومبرج ..
ثم جاء هتلر ، والعيون كلها عليه ليرثى الماريشال . ويبدو أنه أخذ خطابا غير خطاب النعى ، فبعد قراءة عدة جمل انطلق يرتجل ، ولكن لما كانت المناسبة تختلف عن تلك المناسبات التى تسمح له بالارتجال فإنه لم يطل .. وبعد عدة عبارات ختم مرثاته « إن المارشال الآن يذهب إلى « فالاهالا »[1]

وجنى هتلر ثمرة ضربة يونيو ، إذ لم يكد المارشال يموت حتى اعلن جوبلز أن منصب رئيس الريخ ومنصب مستشار الريخ أصبحا منصبا واحدا وأن سلطاتهما معا يتمثلان فى « الفوهرر » ، ومستشار الريخ أودولف هتلر . واستبعدت كلمة « الرئيس » التى استحدثتها الجمهورية وارتبطت فى الأذهان بها ، واصطنعت كلمة « الفوهور » التى يجتمع لها الجدة والاصالة من ناحية والتمشى مع فكرة هتلر عن الزعامة والقيادة كمحور للنظام الجديد ، واقسم الجيش كله جنودا وضباطا يمين « الطاعة بلاحدود » للفوهرر ادولف هتلر وفى ١٩ أغسطس استفتى الشعب الألمانى على هذا الوضع الجديد وأيدته الأغلبية الساحقة التى لم تسبق : ٣٨ مليون صوتا من جملة ٤٥ مليونا .

وبموت المارشال انمحى ، رسميا وعمليا ، آخر أثر من آثار الجمهورية ثم جاء هذا الاستفتاء فوضع النهاية التامة لها . . . وأسدل عليها الستار . . .

---

(١) هى الدار الآخرة فى الأساطير الجرمانية .

الفصل الثالث والعشرون

الفصل بعد الأخير

كيف حدث هذا .. ؟ كيف لم يقدر لهذه التجربة الفذة أن تستمر لأكثر من أربعة عشر عاما .. ثم يأتى هتلر فيمسك بيد هندنبرج كأن لم توجد ما بين ألمانيا النازية ، وألمانيا « الوهمية » تلك الإشراقة المرحة بآدابها وحرياتها ، وفنونها ومباذلها ، والآمال الطموحة التى تعلقت بها .. والدماء الغزيرة التى سفكت فى سبيلها .

كانت جمهورية فايمار مقضى عليها من يومها الأول .. كانت شقية من بطن أمها ، فقد ولدت من الهزيمة ، وألصق بها الشعب كل ما جرته الهزيمة من بأساء . ومهانة حتى وإن كانت هى فى حقيقة الحال ضحية الهزيمة نفسها .. ولم تكن فى نظر الشعب الألمانى بداية عهد جديد . ولكن نهاية عهد مجيد .. عهد رفع رأس ألمانيا فى كبرياء ، فجاءت الهزيمة فمرغتها بالتراب ..

لم يغفر الناس لفايمار الظرف التعس الذى ولدت فيه وكرهوها لأنها كانت تذكيرا دائما لهم بالهزيمة . وغلب هذا الشعور عامة الشعب الذين يصعب عليهم التقصى والتمحيص ، ويأخذون الأمور على علاتها وظواهرها .. وقد يصور ذلك ما رواه سير جيوفرى نوكس عن سائق سيارته فى برلين سنة ١٩٢٤ . وكان أحد الاشتراكيين الديمقراطيين النشطين الذين يتحدثون عما يلاقيه الناس من صعاب .. أو عن دور الاشتراكية لإنقاذهم ولكنه

كان يشير إلى جمهورية فايمار «هذه الجمهورية الخنزيرة diese Saurepublik »
وكان يطلق عليها هذا اللقب بهدوء وكشيء طبيعى ، بينما كان يتصلب
وهو يُحيي العلم الإمبراطورى القديم الذى كان وقتئذ شعار الحزب
الوطنى والجونكر .

وروى الكاتب المشهور والترلا كير فى مقال بمجلة انكوانتر كيف
أن أحد الشبان الذين كانوا يسبحون فى نهر الاودر تسلق إلى قاربهم فى
أحد أمسيات الأحد عام ١٩٣٢ ، وكيف أنه أخذ يمسح مؤخرته بعلم فايمار
« الأسود ، والأحمر ، والذهبي » وكيف أن هــذا العمل أثار عاصفة
من الضحك ..

وكانت الأسس التى قامت عليها الجمهورية نفسها تقف ضدها .. وتعمل
لحربهــا ..

كان نظام الأحزاب الذى سلمت به كأمر مقرر يؤدى إلى الفرقة ويمنح
الاتجاهات المعارضة لها سلاحا لا يقل عن السلاح الذى فى يد أنصارها ، ولم
يكن من شأنه أن يحقق الوحدة والتركيز اللازمين لبناء عهد جديد . وحتى
فى أول وزارة ، وبأكبر أغلبية اكتسبها الحزب الاشتراكى الديمقراطى ،
فقد كان عليه أن يضع يده فى يد حلفاء مشاكسين ، فثبطوا سيره وعرقلوا
خطوه ثم لم يلبثوا أن انتزعوا القياد . وأصبحت سياستهم هى نقض بناء
الجمهورية حجراً حجراً حتى جاء هتلر فأتى عليها من القواعد .

وجاءت الجمهورية بالحرية وأشاعتها كما لم يشعها عهد ألمانى آخر . . سبقها
أو لحقها . ولـكن الشعب الألمانى لم يكن مهيئا لها ولم يقدر هذه الهدية الثمينة
لأن وشائج الماضى الطبقية كانت قوية ، وكانت أكثر تجاوبا مع نفسية
الناس .. وكانت هــذه الوشائج تجمل الالتزام المتبادل ما بين طبقات

الشعب ، وليس الحرية الفردية ، هى أساس العلاقات الاجتماعية وروى و. وتنيسكى واقعة لا ريب أنها تصور مشاعر الشعب الألمانى فى المقاطعات والقرى وإن لم تكن مشاعره فى برلين أو فى بعض المناطق الصناعية . .

قال ويتنسكى « .. خلال أجازتنا الصيفية عام ١٩٢٣ ذهبنا إلى مدينة صغيرة تجثم فى تلال تورا نجيا . وكانت المحطة مزينة بالأعلام الإمبراطورية، والمدينة تتلألأ بالأنوار ، وأقامت الجماهير المبتهجة الاستعراضات فى الشوارع تتقدمها الفرق الموسيقية وأقمنا فى حجرة بأحد البيوت المعدة للسياح وسألنا ربة البيت المتقدمة فى السن عن هذه المظاهرات فقالت أوه . . إننا فى غاية السعادة لقد استرجع أمراؤنا المحبوبون قصرهم .

كانت هذه المدينة مقر أحد الدوقيات الصغيرة . وكان الكثيرون من أهلها وثيقى الصلة بالبلاط إن يكونوا من موظفى قصر الدوق أو الموردين له — فعلى الأقل أقارب أو جيران أو معارف موردى القصر أو موظفيه . وبعد الثورة هرب الدوق إلى خارج بلاده ،وصادرت الحكومة ضيعته وحولت جزءاً من القصر إلى مدرسة وفتحت أبواب حديقته الفخمة للجمهور . ولجأ محامو الدوق إلى المحكمة وكسبوا القضية فى النهاية . لم يكن الناس متأكدين من أن الدوق سيعود ولكن كان يكفيهم أن يعرفوا ان حديقته سوف تغلق من جديد . وأن المدرسة ستطرد من القصر . ومن هنا كانوا يحتفلون بانتصار الدوق » .

واعتقد أن ويتنسكى لم يكن دقيقا فى تصويره هذا . أو أنه سمح لمشاعره الخاصة بتأويل الموقف ، ولكن حتى مع هذا التأويل المغرض . فلا ريب فى

أن المثل يقـدم نموذجاً فذاً لترابط اجتماعى يتمناه أى نظام ، وعندما تقابل مشاعر الولاء من القاعدة مشاعر الالتزام من القيادة . فلا ريب أن هذا النسيج المترابط سدى ولحمه يفضل الآحاد « الفرط » التى تقوم عليها الفكرة الديمقراطية التى يكون الفرد فيها هو النواة .. والمصلحة الذاتية هى الهدف . . والحرية هى الأسلوب . إذ يغلب أن ينحدر هذا المجتمع إلى الفوضى .. وعندئذ ينطبق على المجتمع ما قاله الشاعر القديم . .

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهـــم

ولا سراة ، إذا جهالهم ســـادوا . .

والحقيقة أن فكرة « الالتزام الطبقى » لم تكن متأصلة فى نفوس الريفيين لأنهم سذج أو لأنهم كانوا « موردين أو موظفين فى بلاط الدوق » ولكنها كانت جزءاً من العقلية الألمانية تجدها لدى أساتذة الجامعة ، وطلبتها والمهنيين والكتاب ، كما تجدها فى جبار الفكر الألمانى « سبنجلر » فهؤلاء جميعاً كانوا ينظرون فى زراية إلى مبدأ مانشستر .. وفكرة الربح والفرد .. ويضعون فى مواجهتها الجماعة ، والالتزام ، وكان الشىء الوحيد الذى أعجب سبنجلر فى حزب « بيبل » هو التفانى فى سبيل العقيدة . ولكنه رأى أن ذلك يمثل النزعة البروسية « وأن هذه الاشتراكية ليست ماركسية ، فالماركسية مادية ، وهى بهذا المعنى تتناقض مع كل مشاعر التفانى والتضحية » .

كما يمكن الإشارة إلى أن المرأة الألمانية ـ كما ذكرنا فى فصل سابق ـ لم ترحب كثيراً بالحرية التى أعطتها لها فايمار ، وآثرت عليها الأمومة والبيت ، ومرة أخرى ، فلا يمكن القول إن إيثار المرأة ـ كفرد ـ للحرية أفضل من التزامها ـ كأنثى ـ بالأمومة والعكس أقرب . وعندما آثرت المرأة الألمانية التزام هتلر على حرية فايمار كانت أكثر اتساقا مع طبيعتها ، ومع مصلحة المجتمع .

وعملياً كان المستفيد الوحيد من حرية فايمار هم أصحاب الأعمال والعسكريون والملاك . ففى ظل هذه الحرية ، وحمايتها بدأوا معركتهم ضد فايمار . . وضد الحرية نفسها ، واستطاعوا فى النهاية أن يجندلوها ويسقطوها صريعة . . وكان جديراً بالحزب الاشتراكى الديمقراطى أن يعلم هذا الدرس لأنه أول فصل فى كتاب الاشتراكية .

ولم يكن العمال — شأنهم فى هذا شأن الريفيين وأساتذة الجامعات والنساء — من الذين يرحبون بالحرية . لأنهم يعلمون أنهم فى المباراة التى تحكمها الحرية يغلبون . وتدور عليهم الدائرة .. وليسوا هم بدعاة الحرية .. ولكنهم دعاة العدالة . .

ومن بين كل فئات الشعب الألمانى ، كانت الفئة الوحيدة التى يمكن أن تناصر الجمهورية هى العمال ولكن العناصر الأكثر وعياً وحماسة من العمال انحازت إلى الشيوعيين ووقعت أسيرة للنظرية الماركسية اللامعة واحبولة التكتيك الشيوعى وأصبحت لاتقل عداوة للجمهورية عن الجونكر والنازيين

وهذا ما يجرنا إلى الحديث عن مسئولية الشيوعيين عن تدمير فايمار ، وقد أشرنا إلى ذلك فى أكثر من موضع وما يمكن أن نضيفه هنا هو أنه حتى هذه القارعة التى أودت بالحزب الشيوعى كما أودت بجمهورية فايمار لم تكن كافية لتعيد الشيوعيين إلى صوابهم وتجعلهم يحسون بخطأ سياستهم ، وظلوا حتى الأربعينات وما بعدها متمسكين بشنشنة معاداة الديمقراطيين وشهدها الكومنفورم كما شهدها الكومنترن من قبله وربما كان تروتسكى — هذا البسمارك الشيوعى الذى بنى الاتحاد السوفيتى بالدم والحديد — هو الذى رأى فى منفاه البعيد مالم يره فى أوج السلطة .. لأن نور السلطة المبهر يعمى عيون القادة فلا يرون شيئاً سواها . .وهكذا انتقد تروتسكى بقسوة مسلك الحزب الشيوعى الألمانى والسياسة الستالينية « أن تذهبوا إلى الشوارع بشعار « ليسقط بروننج وبرون

إنما سيؤدى إلى إحلال حكومة هتلر وهوجنبرج » ولكن هذا النداء لم يصدر من زعيم البلوريتاريا القوى .. ولكن من طريد البروليتاريا . المبعد إلى ركن قصى فى العالم ..

وعندما وقف الحلفاء موقفهم المتصلب من جمهورية فايمار وأصروا على توقيع معاهدة « فرساى » وعلى أن تتحمل الجمهورية الناشئة أوزار القيصر والعسكريين وتدفع ثمن أخطائهم فإنهم أوصدوا باب المستقبل فى وجهها . وقضوا على أى أمل لهـا وجعلوها تقف عزلاء وحيدة أمام أعدائها .. وأعدائهم .. وحتى عندما عرض جرونر عرضه الجرىء على الحلفاء .. أن يقوم الجيش الألمانى باكتساح الشيوعية فى الاتحاد السوفيتى لحساب الحلفاء . فإن المصلحة العاجلة غلبت المصلحة الآجلة .. وكان على الحلفاء وحكوماتهم أن يدفعوا « فوائد » ربوية فاحشة لهذا القرار طوال فترة مابين الحربين فى صورة قلاقل داخلية مزقت السلام القومى والدولى ثم لا يصلون إلى بيت الداء . وعلى النقيض فقد أدى رفضهم ذاك لأن يضعوا أيديهم فى أيدى الشيوعيين وأن يعززوا بسلاحهم وعتادهم حليفاً سيصبح فى المستقبل القريب شوكة فى جنبهم ..

إذا وضعنا هذه الملابسات كلها نصب أعيننا لرأينا أن النقص الرئيسى كان بالدرجة الأولى فى النظام والأوضاع والظروف التى أحاطت بالجمهورية الناشئة أكثر مما كان عجزاً أو تقصيراً من قيادات الجمهورية ، وأن الجمهورية كانت فى جميع الحالات مقضى عليها وزائلة لأنها من الناحية الزمنية سبقت وقتها ومن الناحية البيئية كانت غريبة على ألمانيا ، وكانت مُثلها مستوردة ومستلهمة من مُثل خارجية أكثر مما كانت تقوم على أسس قومية . وهذا لاينفى على كل حال مسئولية القيادات ، ولكنه فى جحيم الفشل يضعها فى ضحضاح من النار

ويجعلها المسئولة بالدرجة الثانية ، وليس بالدرجة الأولى ، وينفى عنها صفة الصغار والعقم والعجز بالدرجة التي يطلقها عليها بعض المؤرخين والكتاب ..

فقد كان معظم قادة الجمهورية من الرجال الأمناء الذين يسيطر عليهم الضمير . وقد عملوا أكثر من العهد الذى سبقهم والذى لحقهم ، والذى كان يعدهم به الشيوعيون ، لأن يتمتع الشعب الألمانى بعيشة رغده وحياة حرة وأن يأمن على حاضره ومستقبله . وعندما تطلبت منهم الظروف الخيـــار مابين التضحية بالجمـــاهير .. أو بالنظام الذى هم على رأسه فضلوا الثانى .. وآثروا الجماهير .. وفى الوقت الذى كان لينين يدعو الجماهير للخروج إلى الشوارع والانخراط فى المظاهرات، وكان ستالين يحكم بالموت على ملايين الروس جوعا فى سبيل تحقيق المزارع الجماعية أو إحكام قبضة الدولة ، كان إيبرت يدعو الناس إلى إخلاء الشوارع «حرصا على وصول الأقوات إلى الجماهير الجائعة» وكان سيفرنج وبرون يسلمان حكومة بروسيا وهى القلعة الأخيرة للاشتراكيين الديمقراطيين حتى لا يتسببا فى معركة تسيل فيها دماء العمال أنهاراً . وقد آثرت جمهورية فيمار أن تكون كالمسيح فيما ترويه الأناجيل فتحمل صليبها .. وتسير بقدميها إلى مصرعها .. وأن تضحى بنفسها بدلا من أن تضحى بالآخرين وكائنة ما كانت نسبة العجز إلى الإيثار فى اتخاذها لهذا القرار ، فإنه من الناحية الموضوعية المجردة خطأ ، فلا تقوم النظم على العواطف سواء كانت إيثاراً أو عداوناً أو رحمة .. وإنما تقوم على العدل ، فالعدل وحده وليس الحرية التى أرادتها الجمهورية ، أو الحب الذى نشرته المسيحية أو القوة التى طمع فيها هتلر أو الثروة التى استهدفتها الرأسمالية .. أو غير ذلك يمكن أن تقوم عليه دعائم نظام دائم وثابت .

* * *

فإذا ذكرنا مسئولية قادة الجمهورية عن اندثار فايمار ، فعلينا أن نذكر أيضا مسئولية هتلر فى انتصار النازى .

وقد اعتبر هتلر وحشا وعدوا للبشرية ومسئولا عن قتل وتشريد للملايين من الناس وهدم وتدمير الألوف من المدن، ولو أنه انتصر لاختلفت النظرة .. ولربما اعتبر مجدد العالم ، وفى كل الحالات ، فإنه فى حربه تلك، لم يأت بجديد . إن تاريخ أوربا هو تاريخ الحروب ، ولم يثن أعداء هتلر عن استخدام السلاح الذى عمل له ـ بمجرد أن وصلوا إليه قبله ـ القنبلة الذرية .. فلنصمت أوروبا عن التنديد بالحرب .. لأنها واقعة فيها من رأسها إلى القدم .

والذى لاريب فيه أن هتلر لم يكن شخصا عاديا،وأنه أوتى مالم يؤت غيره، وأن عملية مقاومته أو التصدى له لم تكن سهلة ، أو حتى ممكنة ، للحزب الاشتراكى الديمقراطى أو للشيوعيين أو لرجال الصناعة والجيش الذين ساندوه فى بداية أمره لاستخدامه فى مآربهم ، فاستخدمهم هو فى مآربه ولم يستطيعوا أمامه شيئا ، وكانت القوة الحقيقية التى تميز بها على نظرائه هى جماهيريته ،وأن له قاعدة شعبية تؤمن به شخصيا ، وترى فيه ـ بلحمه وشحمه ـ رمز المانيا الناهضة التى تحطم أغلالها وترفع رأسها .. وتتحدى العالم . وبدون هذا لانفهم كيف يمكن أن تكون « هايل هتلر » تحية يتبادلها الملايين . وكان هتلر يعرف ذلك، ويعلم أن هذه الجماهير هى قوته الحقيقية التى ستجعله ينتصر على غيره من السياسيين وزعماء الأحزاب . ورجال الصناعة والجيش . وفى إحدى خطبه الانتخابية قال « إننى ابن الشعب .. وسأظل كذلك » وكان لديه من الفطنة والذكاء مايجعله يرفض اغراء منصب يقل من منصب المستشار ، ونأى بنفسه أن يكون مثل « عيصو » الذى باع حق « البكورية » بطبق من العدس وفى الوقت الذى كان معظم قيادات النازى تتقبل « نصف الرغيف »، أعلن هو

(1) Der Fahrer vol 2, p. 388

« لقد قررت قرارا لارجعة فيه أن لا أبيع حتى ميلاد الحركة بطبق الشوربة الذى يعرضونه — الاشتراك فى الحكم » .

وإنما استطاع هتلر أن يتملك هذه القاعدة الجماهيرية الضخمة لأنه كان بفضل إيمانه بألمانيا ، وثقته نفسه يصيب صميم الوجدان الألمانى ، بينما كان الشيوعيون يصولون ويجولون فى مناقشات « عقلانية » مجردة . .

واثبت هتلر أنه يستطيع أن يعمل بحسم وعزم، وأن يضرب بقوة وقسوه . . وأنه يهتدى — عندما يتطلب الأمر اختيارا خطيرا — إلى الحل الأفضل . وظلت حاسته تقوده من نصر إلى نصر ، ومن توفيق إلى توفيق حتى ميونيخ التى رسمت قمة ما وصل إليه ، وكان لابد أن ينزل منها ، وكانت اللحظة الحاسمة التى وضعت نهايته هى التى تخلى فيها عن حذره وخالف القاعدة التى وضعها هو نفسه : أن لا يحارب فى جبهتين فقرر أن يغزو الاتحاد السوفيتى ، وبذلك وضع نفسه تحت رحمة أقسى أعدائه .

ومع أن بداية ونهاية هتلر ليست فى جوهرها إلا المأساة المعادة لكل ديكتاتور تقريبا : النجاح المبدئى ، ثم المقامرة والكسب دورا بعد دور حتى يأتى الدور الأخير الذى يخسر فيه كل ما كسبه ، إلا أنها اتسمت بالعديد من التفاصيل المبتكرة والمبدعة التى تضافر عليها ذكاء هتلر ومهارة الشعب الألمانى وصبره وطاعته وحققت انجازات رائعة وتقدما لم يسبق فى مجالات العلوم والفنون ،وعندما قامت الحرب ابرزت تضحيات وبطولات من الجنود والضباط والمدنيين . .

ولم يخل الأمر مع هذا من السفاهات التى لابد وأن تأت بها الديكتاتورية ، واتسم الكثير منها بطابع القسوة والدناءة والضعه ، فقد زج بكل المخالفين إلى السجون والمعتقلات ، وكان من هؤلاء أحد ابناء « ايبرت » وحاولوا

أن يجعلوه يهين ذكرى أبيه ، فرفض وتعرض لتعذيب شديد ، بينما أرغم مسجونون آخرون على أن يقلدوا القطط أو الكلاب أو يسيروا على أربع .. الخ وكانت هذه كلها نذالات لم يكن لظهورها من مبرر سوى أنها الجانب المظلم للحكم المطلق ، وعندما بدأ هتلر غزوه لروسيا كان يمكن أن يعمل لاكتساب بعض القوميات التى بطش بها ستالين — وكان هناك احتمال — رغم ضآلته — لنجاحه فى ذلك لو حاول . ولكن هيهات . . إنه لم يكن « عمرا » ولم يكن بين قادته « أبو عبيدة » ولم تكن نسمة واحـــدة من نسمات سماحة الفتح الإسلامى ليمكن أن تتخلل التعصب النازى المصمت والطبيعة القاسية له . وهكذا جعل كل المناطق التى فتحها اعداءً له ، وكان لا بد أن ينهزم . .

ومع هذا كله فلم يكن هتلر بالوحش الذى يروق لليهود أن يصوروه . وقد تعرض لعذاب نفسى خلال سنوات الحرب الأخيرة لم يتعرض له ألمانى آخر لأنه لم يكن بالجندى المحترف الذى يعلم أن عليه أن ينسحب أو يسلم سيفه عندما تفرض الظروف ذلك ، لقد كان مستعدا لأن يضحى بنفسه . . وطالب الألمان بأن يحذو حذوه . وهذا الشعور المسرف بالبطولة هو الذى رفعه من الحضيض إلى القمة ، كما أنه أيضاً هو الذى أنزله من القمة إلى الحضيض ولم يفهم ، إلا عندما أصبح الروس على بعد مئات الامتار من مقره ، أن الأمر ليس انخذال عدد من « الجنرالات » ، ولكن أن تصوره الخاص للبطولة لا يمكن أن يطبق على ستين مليونا ، ولعله فى ساعاته الأخيرة قد لقن درسا أشد مرارة من كل الدروس التى سبقته ، فعندما انتهى هتلر إلى قرار الانتحار . . وعلم بقية الذين فى مخبأ المستشاريه بذلك ، وبقرب زوال الرجل الذى تمسك بالحرب حتى النهاية اشتدت فرحتهم وتعالت ضجتهم حتى أرسل إليهم بعض معاونى هتلر أن يخافتوا من صخبهم ليستطيع هتلر الانتحار فى هدوء . .

* * *

وفى الأيام الأولى للهتلرية ، تصور المجتمع الأوروبى أن حكم النازى لن يطول ، وأن الشيوعيين والاشتراكيين الديمقراطيين لن يلبثوا أن ينظموا حركة مقاومة تودى به ، وكان عجز هؤلاء عن ذلك أمرا لم تتفهمه وقتئذ الدوائر الأوروبية أو تتمكن من إساغته وعندما أعلنت ألمانيا أن أغلبية المسجونين فى معسكر داشاو الرهيب الذى كان يضم المعارضين السياسيين قد أعطوا أصواتهم لهتلر فى انتخابات مارس سنة ١٩٣٣ راوا فى ذلك مفارقة غير مفهومة ، ولو أن هذه الدوائر قرأت رواية « ديربارم » لستندال لوجدت فيها ما يساعدها على الفهم . ففى هـــذه الرواية يحدث ستندال عن مسجونى القلعة فى الولاية الذين كانوا يعيشون مكبلين بالاغلال لا يستطيعون الجلوس ولا يتمكنون من الوقوف لأن زنزاناتهم لا ترتفع عن ثلاثة أقدام وعرضها ثلاثة وطولها ثمانية أقدام ومع ذلك فأنهم أقاموا صلاة شكر لشفاء سجانهم القاسى فابيوكونتى ونظم أثنان أو ثلاثة منهم مقطوعات شعرية تمجد السجان الذى كانوا جميعا يمقتونه مقتا شديدا .

وفى الوقت نفسه فيجب أن لا ننسى أن هتلر قد أخذ كثيرا من الأوراق الرابحة من يد الاشتراكية والشيوعية ، ولم يكن عليه من حرج فى هذا لأن هذه الأوراق بدورها لم تـكن حـكر الاشتراكية أو الشيوعية وحدها ، ولـكنها كانت إرث الحضارة الإنسانية كلها ، والفكر البشرى بأسره ، بحيث أشبه النظام النازى تحت حـكم هتلر ، فى التحليل الأخير ، النظام الاشتراكى تحت حكم ستالين .. ففى كل من ألمانيا والاتحاد السوفيتى وجد نظام شمولى محكم يتخلل كل ناحية من نواحى الحياة ويتسلح بالقوة الباطشة والأرهاب المنظم ، وفى كل من الدولتين وضع مشروع لأربع أو خمس سنوات يجسد النشاط الاقتصادى والإنتاجى للدولة . وفى كل من الدولتين تولى حزب رائد التوجيه الايديلوجى وفى كل من الدولتين حرم الاضراب والأغلاق

وخضع العمال لتوجيه الحزب مع فارق شكلى . فالاتحاد السوفيتى أبقى على النقابات بعد أن أفرغها — تماما من أى مضمون نقابى بالمفهوم التقليدى وادمج وزارة العمل فى الاتحاد العام للعمال ليغرقه فى المسئوليات الإدارية ويفقده طبيعته الشعبية والجماهيرية . وفى ألمانيا النازيه حلت النقابات وانتظم العمال فى جبهة العمل ، وفى كلتا البلدين أصبحت التنظيمات العمالية اجتماعية وفنية أكثر مما هى اقتصادية ، هيئات إنتاج ومساهمة أكثر مما هى هيئات ضغط ومطالبة واشبهت الطوائف القديمة فى عنايتها بالأعياد والمواسم وأفراح المجتمع واتراحه وتوجيه اهتمامها نحو العناية بالمجالات الاجتماعية والثقافية وفنية الصناعة والحرص على أمانة « وأدبيات » الاداء ..

وهذه القسمات فى النظام النازى جعلته أكثر من انقلاب ديكتاتورى ، بل إنها جعلته — إلى حد ما — طبعة من الاشتراكية تتلاءم مع نفسية الشعب الألمانى وظروفه وقتئذ . ولم يكن ثمة مبرر يدفع الاشتراكيين للثورة اللهم إلا الاشتراكيين الذين لا يطلبون مضمون الاشتراكية ، ولكن الصنف المعين من الاشتراكية الذى آمنوا به ومرنوا عليه وأفنوا ماضيهم كله فيه . وهؤلاء بالطبع قلة . وقد خفيت هذه الحقائق على الدوائر الخارجية كما لم تتبد فى ألمانيا نفسها فى الأيام الأولى للهتلرية وإن لم تدق على فطنة هيئة واحدة حملت أسم بداية جديدة Neu - Beginnen يعود تكوينها إلى سنة ١٩٣١ عندما استشعرت مجموعة من الاشتراكيين الديمقراطيين وبعض الشيوعيين الخطر الماثل واحست بضرورة توحيد جبهة العمال من شيوعيين واشتراكيين وانتقدت تصرفات حزبيهم ، ولكنها كانت أضعف من أن تؤثر على سياسة أى من الحزبين ، وبقدر ما كان الخطر يتزايد بقدر ما كانت تتماسك وترى ضرورة تكوين تنظيم سرى يمكن الاعتصام به عند هبوب العاصفة وفى العدد الأول من نشرتها التى إصدرتها فى سنة ١٩٣٣ أرست الجماعة المبادىء الآتية :

١ — إن الحكومة الهتلرية ليست إحدى الحكومات الرجعية التى يمكن أن تختفى بالسرعة التى جاءت بها — ولكن الفاشية تعنى تحولا جذريا فى المجتمع الرأسمالى ستجعل لفترة طويلة فرص الاشتراكية ضئيلة للغاية .

٢ — إن من أكبر الفروق بين الفاشية والنظم الرجعية الأخرى أن الأولى إنما جاءت بها إلى الحكم حركة جماهيرية عريضة جذبت أعضاءها من مختلف قطاعات المجتمع .

٣ — أنه ما ظل بقاء النظام الفاشى مكفولا بتأييد شعبي حقيقى فإن الدعاية الجماعية ضد الفاشية (كما تقوم بها بعض المجموعات) لا تعنى إلا تضحيات لامبرر لها دون تحقيق أية نتائج ملموسة .

٤ — إن المهمة الحيوية هى بناء تنظيم قوى من افراد مختارين بدقة يتوفر فى كل منهم المقدرة على الحكم السياسى المستقل والتمكن من تحمل المسئولية ويجب ان يمرن الأعضاء تماما نظريا وعمليا على الاتصال بمناطق نفوذ فى أكبر عدد ممكن من المراكز الصناعية الهامة وكذلك فى الأقسام الأخرى المجتمع .

٥ — إن مهمة هذا التنظيم هى أساسا الأعداد الايجابى لاوقات الازمات العامة عندما تتيقظ المقاومة التلقائية للجماهير ويمكن تنسيقها وتوجيهها .

٦ — أنه لهذا الانتصار المرتقب — فإن اعادة توحيد الاحزاب العمالية المتنازعة إنما هو مطلب هام . ومع أن « الوحدة » قد اصبحت الشعار الأول فى معظم التنظيمات السرية ، فإن « البداية الجديدة » ترى أنه من الحيوى أن تتخذ الخطوات الأولى العاجلة لتنسيق كل القوى المكافحة داخل اطار اشتراكية ديمقراطية تبعث من جديد .

وترى البداية الجديدة أن الاشتراكية الديمقراطية رغم كل قصورها فى الماضى فإن ملايين من العمال الألمان يواصلون أو يجب أن يواصلوا الاحتفاظ بإخلاصهم لهذا الحزب الذى ساعدوا فى بنائه والذى يمثل فى عيونهم التجسيد لعرف الطبقة العاملة وبجانب هذا فإن البناء الديمقراطى للحزب الاشتراكى الديمقراطى (الذى يختلف فى هذا عن الحزب الشيوعى) يمكن أن يثبت امكانية النمو الحر للأفكار الجديدة والتقدمية ...

٧ — إن استمرار المعارضة المنظمة للنظام النازى هى على أعظم جانب من الأهمية للمحافظة على تقاليد وخبرات الطبقة العاملة التى إذا تركت لشأنها فإنها يمكن أن تذوى ، ومن هنا فلابد من أن ينمى بوعى تكتيك سرى لمجابهة الاجراءات المنهجية والدقيقة للجستابو ..

وكانت هذه الاسس تختلف عن تصورات تجمعات المقاومة التى ظهرت بعد الصدمة الأولى وحاولت أن تثبت وجودها بمنطق العمل المباشر من دعاية أو تخريب،ولكن العوامل التى أشرنا إليها والتى مكنت النازى من قمع كل صور المقاومة أولا بأول واشاعة جو من الارهاب الوبيل ، أوضحت سلامة مبادىء حركة « بداية جديدة » وأصبح من المسلم به أن غرض أى حركة للمقاومة يجب أن يتركز حول الحفاظ فى نفوس الاعضاء على التقاليد الثورية والمبادىء الشعبية التى أصبحت فى خطر الزوال بتأثير الدعاية المنهجية المنظمة والمتوالية للنازى وتكوين نواة من الأفراد المؤمنين يمكن أن يتحركوا عندما يئون الأوان حتى لاتتكرر المأساه مرة أخرى . أى أن تأتى نهاية الهتلرية دون أن يكون هناك قيادة ثورية رشيدة مستعدة للعمل ولتقلد زمام الأمور والحيلولة دون التخبط ، وكانت هذه السياسة سليمة فى ظل الظروف الاستثنائية ونقطة الضعف فيها أن من العسير الحفاظ على النفسية الثورية فى بيئة سلمية ، وكلما طال

الامد .. كلما استكانت النفس ووهنت قوى وقابلية المقاومة الأمر الذى حدث بالفعل وجعل مصير كل حركات المقاومة محكوما عليه وإنما الاختلاف هو فى المدى، فتجمعات العمل المباشرة تكتشف وتقمع وتجمعات التكوين والتنظيم فى انتظار الخلاص تطول، ولكنها قلما تدرك ساعة الخلاص ..

* * *

وعندما أعلنت الحرب تصور المراقبون أن ساعة ثورة الشعب الألمانى قد حانت ولكنهم أخطأوا فما أن أعلنت الحرب حتى شدد الجستابو قبضته على البلاد بحيث زادت صعوبة القيام بأى عمل وفى الوقت نفسه، فلم تكن الاحتمالات التى تتمخض عن المقاومة بأفضل من احتمالات الاستسلام، فلو هزمت المانيا فسيحاسبها المنتصرون حسابا عسيرا، وسيدفع شعبها ثمن هزيمة هتلر، وليس فى هذا ما يشجع على الثورة . ومع قسوة الحرب، فإن احتمالات سلام الهزيمة كانت اقسى .. ومن هنا ذاعت فى السنة الأخيرة للحرب تلك القالة « تمتع بالحرب فإن السلام قريب . . . »

لم يكن هناك من سبيل إلا الاستسلام، فقد كانت المانيا محكومة بملابساتها التاريخية كما كانت محصورة فى موقعها الجغرافى، وكان لابد لهذه الرواية التى بدأت بالاندفاع الوهمى، وما اعقبه من هزيمة، وتعثر فايمار وظهور هتلر، والاندفاع الهتلرى والهزيمة الثانية . أن تتم فصولا ... ولكن ثمة فصل بعد لما يتحقق تماما ـ الفصل بعد الأخير . فمع أن الحزب الاشتراكى الديمقراطى بمتقضى برنامج جودسبيرج (١٩٥٩) أقلع أخيرا عن الشعارات التى ظل يتمسك بها فى الظاهر .. ويخالفها فى الواقع بفضل شجاعة « شوماخر » مجدد الحزب، وبفضل العوامل المواتيه الأخرى عندما كشف الاتحاد السوفيتى النقاب عن مطامعه .. ومع أن التطورات الإجتماعية والحضارية للفترة المعاصرة أبعدت الشعب الألمانى عن تلك الجذور العسكرية البروسية التى تحكمت فيه

من ظهور بروسيا حتى ظهور هتلر .. مع كل هذا .. فإن تقسيم المانيا إلى شرقية وغربيه يفسح المجال أمام فصل جديد .. وما يمكن أن يأتى به .. . وهناك ثلاثة احتمالات .. فإما أن تكون المانيا هى الصعيد الأول الذى يثبت التطور فيه إمكان التلاقى مابين الماركسيه .. والديمقراطية بعد أن تفقد كل واحد منها شنشنتها الفاصلة .. واما أن ينتصر النظام الديمقراطى ويثبت أفضليته .. واما أن يحدث العكس والاحتمال الأول أفضلها . . وعندما يتحقق فستعود المانيا الموحدة لتقوم بدورها فى المجتمع الدولى .. بقيم جديدة تبرأ من البروسية والماركسية على سواء .

والحقيقة أن السنوات التى أعقبت الحرب كانت بعيدة الاثر فى كشف الشيوعية وتعرية الاتحاد السوفيتى فبعد أن كان حكمه الشمولى الغاشم مقصورا على شعبه ، فإنه امتد فى اعقاب انتصاره إلى شعوب أوربا الشرقيه ، وذاقت هذه الشعوب طعمه المر ، كما رأت بعينيها مطامعه واستعماره الجديد واصطدامه مع المجر وبولندا وتشيكوسلوفاكيا فكان ذلك بداية اليقظة وتبدد أوهامها عن النعيم الشيوعى ، ثم جاء المؤتمر العشرون للحزب الشيوعى الروسى وكشفه مخازى ستالين فكان سببا فى أن يعيد الكثير من الشيوعين الألمان حساباتهم وافكارهم .

ومن الدعوات التى تمثل هذا الاتجاه دعوة ولفجانج هاريش العضو المنشق على الحزب الشيوعى بألمانيا الشرقية وكان ولفجانج هاريش يقوم بتدريس العلوم الإجتماعية فى جامعة برلين الشرقية وتجمعه أواصر الفكر المشترك بعدد من المثقفين والأدباء مثل الكاتب المسرحى برتولد برخت . وفى سنة ١٩٥٧ حكم على هاريش بالسجن عشر سنوات بتهمة الخيانة وقبيل القبض عليه استطاع أن يصور فكرته فى وثيقة حملت اسم « وصية ثائر حزبى » هربت إلى الاشتراكية الديمقراطية فى المانيا الغربية وطبعت هناك .. .

والخط الرئيسى فى هذه الوصية « هو التخلص نهائيا من كل الآثار الستالينية والتبعية للاتحاد السوفيتى والعودة إلى منابع الفكر الماركسى التى أغلقها ستالين روزا لوكسمبرج بخارين ، تروتسكى ، كاوتسكى ، وكذلك المحدثين منهم مثل فرتز ستيربرج والإفادة من التجارب الصينية واليوجوسلافية .

وترى الوثيقة أن الحزب الشيوعى الألمانى عندما يتخلص من الرواسب والقيــود الستالينية فإنه يمكن أن يكون جناحا يساريا لحزب الاشتراكى الديمقراطى ويمكن لهذا أن يكون بداية توحيد المانيا .

ولا تؤمن الوصية بالرأسمالية ولكنها لا ترى أن انتصار الاشتراكية يتطلب ثورة . إنها ستسود بطريقة سلمية بل حتى دون دفع الحزب الشيوعى لأن ظهورها أمر موضوعى .

والناظر فى هذه الوثيقة يرى أنها تشبه شبها كبيرا « بداية جديدة » التى ظهرت مع ظهور هتلر ، كما تشبه الأفكار الاشتراكية التى سادت فى مستهل القرن حتى وان لم تذكر اسم برنشتين .

والنقص الوحيد هو أنها لما تتوصل بعد إلى التخلص من الوهم اللينينى ، وإن تخلصت من الوهم الستالينى . الأمر الذى نعتقد أنه سيكون نهاية المطاف . وأن اقتلاع ستالين سيؤدى حتما إلى التخلص من لينين لأن ما يمكن أن يؤخذ على ستالين إنما هو فجاجة الأسلوب وليس خطأ الغاية ، ولو كان لينين محله لاستهدف الغاية نفسها حتى وإن كان الأسلوب مهذبا أو مغلفا بغلاف من الظاهر . وعندما يحدث هذا فسيكون المجال منفسحا أمام تجديد الفكر الاشتراكى ، وإعادة الديمقراطية إليه ، كما سينفتح المجال للوحدة الألمانية .

فهرس

رقم الإيداع بدار الكتب ٢٧٩٩ لسنة ١٩٧٧

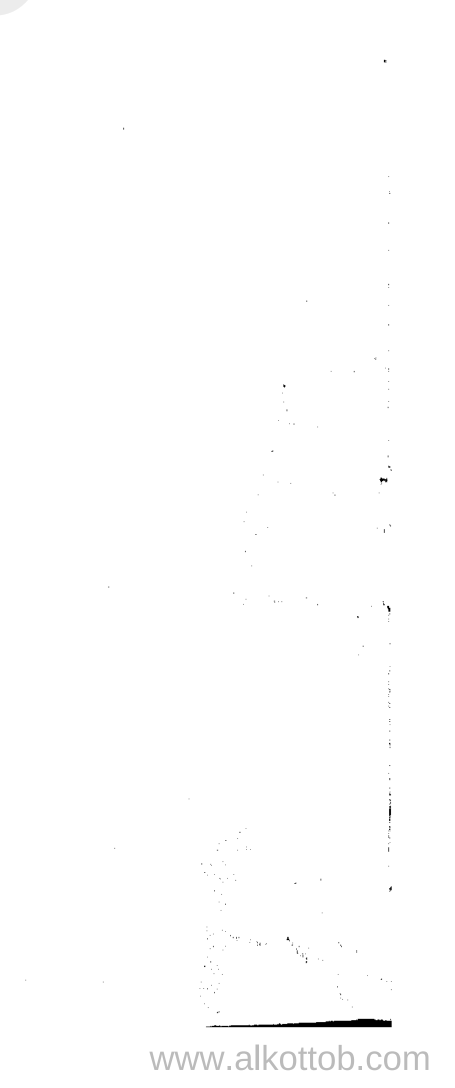
بقلم المؤلف

مؤلفات

ثلاث عقبات فى الطريق الى المجد (١٩٤٥)
ديمقراطية جديدة (١٩٤٦)
مسئولية الانحلال بين الشعوب والقادة (١٩٥٢)
ترشيد النهضة [صودر قبل التوزيع] (١٩٥٣)
الأزمة والبطالة فى الرأسمالية (١٩٥٧)
موقف المفكر العربى تجاه المذاهب السياسية المعاصرة (١٩٥٢)
قصة فرسان العمل (١٩٦٢)
القانون والقضاء فى المجتمع الاشتراكى (١٩٦٣)
التنظيم والبنيان النقابى (١٩٦٦)
نشأة الحركة النقابية وتطورها (١٩٦٧)
فى التاريخ النقابى المقارن (١٩٦٧)
دور النقابات فى المجتمع الاشتراكى (١٩٦٧)
الثقافة العمالية بين حاضرها ومستقبلها (١٩٦٩)
منظمة العمل الدولية — ملحق مجلة العمل العدد ٦٤ سنة ١٩٦٩
الحركة العمالية الدولية — ملحق مجلة العمل العدد ٧٢ سنة ١٩٧٠
العمل فى الإسلام — ملحق مجلة العمل العدد ٨٥ سنة ١٩٧١
محاضرات فى الإدارة النقابية (١٩٧٢)
روح الإسلام (١٩٧٢)
الحرية النقابية — ملحق مجلة العمل عدد مارس سنة ١٩٧٣
قضية الإنتاج (١٩٧٣)
العمال والدولة المصرية — ملحق مجلة العمل عدد مايو سنة ١٩٧٥

مترجمات ومراجعات

النقابات فى الولايات المتحدة (١٩٦٢)
« « المملكة المتحدة (١٩٦٢)
« « الاتحاد السوفيتى (١٩٦٢)
« « السويد (١٩٦٣)
« « بورما (١٩٦٣)
« « الملايو (١٩٦٣)
الأزمة المقبلة (١٩٦٣)
العمالة والتنمية الاقتصادية (١٩٦٦)
مدخل لتنمية الأجور (١٩٦٦)
الادارة العمالية فى يوجوسلافيا (١٩٦٧)
العمل يجابه عصراً جديداً (١٩٦٨)
الديمقراطية النقابية (١٩٦٩)
دستور منظمة العمل الدولية (١٩٧٠)
اتفاقيات العمل الدولية « مجلدين » (١٩٧١)
توصيات العمل الدولية (١٩٧١)
البرنامج العالمى للعمالة (١٩٧١)
« تقرير المدير العام لمنظمة العمل الدولية »



الكتـــاب والكـاتب

عندما حاقت الهزيمة بألمانيا فى الحرب العالمية الأولى ثار العمال والجنود وأسسوا سنة ١٩١٨ جمهورية أرادوا لها أن تـكون اشتراكية ، ولـكن الجمهورية الناشئة تمزقت ما بين سرف الشيوعيين وتشدد الرأسماليين .

وقد قدم المؤلف كتابه هذا تحت شعار « تعلموا السياسة » وأهداه لقيادات الهيئات الجماهيرية لايمانه بأهمية الثقافة السياسية لهم وجريرة الجهل بها عليهم .

وقد كان يستطيع أن يقول ما هو أعظم : ان مأساة فايمار هى مأساة المجتمع العربى الذى يدفع غاليا ثمن التخبط فى تحديد الموقف .

وقد عرض المؤلف بأسلوب رفيع ، ومقدرة على التحليل والمقـارنة . وتمكن من المـادة مسيرة فايمار من ظهورها سـنة ١٩١٨ حتى سقوطها سنة ١٩٣٣ والمأزق الذى وضعتها الأقدار فيه والدروس المستفادة من تجربتها الديمقراطية البرلمانية . كما عرض للنازية - وما أسهمت به فى مجـال فن السياسة والدور البارز للفكر الماركسى فى ظهور وسقوط جمهورية فايمار .

والكتاب دراسة سياسية أصيلة حافلة بالافكار الملهمة التى عنى المؤلف بابرازها ليفيد منها كل مفكر ، وكاتب ، وعامل فى المجال العام .

وليست الكتابة السياسية جديدة على المؤلف ، فمنذ ثلاثين عاما أصدر كتابه « ديمقراطية جديدة » (١٩٤٦) وفى سنة ١٩٥٣ وأدت الرقابة العسكرية كتابه « ترشيد النهضة » الذى تنبأ فيه بالمخاطر التى تتعرض لهـا حركة ٢٣ يوليو ، وكيف يمكن مواجهتها . وفى سنة ١٩٥٧ أصدر كتابه « موقف المفكر العربى تجاه المذاهب السياسية المعـاصرة » وان كان من المعروف عن المؤلف أنه بحكم التخصص كاتب عمـالى ونقابى استكمل للمكتبة العربيـة نقصها فى هذا المجال عندما أصـدر « نشأة الحركة النقـابية وتطورهـا » و « التنظيم والبنيان النقابى » و « فى التاريخ النقابى المقارن » و « محاضرات فى الادارة النقابية » الخ .. انظر قائمة المؤلفات والمترجمات بالداخل .

ومما يذكر للاستاذ جمال البنا أنه كان أول من أدخل الخدمة الاجتماعية فى ميدان انسانى جديد عندما أسس سنة ١٩٥٣ الجمعية المصرية لرعـاية المسجونين ، وخـلال عامين حققت الجمعية ثورة اصلاحية فى نظم السجون

ولاكثر من عشر سنوات ، والأستاذ جمال البنا يحاضر بمعهد الدراسات النقابية ، ومعهد التربية العمالية بالدقى ، كمـا تستعين به منظمة العمـل العربية كخبير استشارى ..

